عبد الجبار عدوان

حافة النــور

رواية ثلاثية



حافة النور

عبد الجبار عدوان

حافة النور

رواية ثلاثية

دار الفارابي

الكتاب: حافة النور
المؤلف: عبد الجبار عدوان
صورة الغلاف: من معرض الحقبة الجليدية، شتوتغارت ٢٠٠٩

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ٣١٨١/ ١١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: أيلول ٢٠١٥
ISBN: 978-614-432-404-2

الإهداء

إلى القدس المَجنيّ عليها بالتزوير والخذلان
وكل الذين دخلوا القلب
من بشر ومدن ووطن.

ملقا ـ الأندلس

صيف ٢٠١٥

صناعة الآلهة

الرواية الأولى

١

وصل لاهثاً إلى قمة الجبل، اطمأنت نفسه عندما أبصر بيت أوروك الحكيم وسط فسحة لا تغطيها الأشجار وتطل عليها الشمس. أعاد فخذ الوعل المجفف إلى كتفه وانطلق إلى البيت المصنوع من جذوع الشجر. على الفور تحقق من قدرات أوروك الصامد في هذا المكان المحاط بمختلف الحيوانات المفترسة، فلو لم يكن الرجل قديراً لأكلته الذئاب، مثل تلك التي لاحقته طوال يومين لخطف حياته، والتهام هديته التي حملها إلى أوروك.

ظل عدة أيام يمهد لهذه الزيارة ويشيع بين جماعته رغبته في معرفة ما سيحمله المستقبل، ووجد الأعذار حتى لا يصطحب أي رفيق في الرحلة الخطرة من كهف الجماعة حتى قمة الجبل الذي يقطنه الرجل الحكيم، أوروك، عبر وديان رطبة مبللة بمياه الثلج الذي لا يكف عن الذوبان في أماكن بعيدة، وغابات كثيفة ذات أشجار بلوط وسنديان عالية، يتسلقها مداد البندق. النجاح الأهم بالنسبة إليه تمثل في إقناع زوجته بهدف الرحلة المُعلن، بعد أن شتت شكوكها. شخصيتها قوية، كلمتها مسموعة من الجميع في الكهف إناثاً وذكوراً. اقتصرت حريته المتاحة على البرية، أثناء الصيد والجمع مع بقية الرجال خارج الكهف. كانت تشعر بكل بنت تنضج أنوثتها، وتسبق شهوات الرجال بتزويجها أحد شبان الجماعة على الفور، ولكنها

بالطبع لم تنجح في إعاقة تخيلاتهم المتوارثة، أو الحد من حب الرجال لمضاجعة حديثات الأنوثة. هي متيقنة تماماً أن إيمارهوس لا تفارق مخيلة زوجها جيبل، حتى بعد أن تزوجها هاني، وهو شاب قريب من سنها.

تحدث أوروك إلى ذئبه المربوط أمام البيت، فكف عن العواء، واختفت أنيابه وتمدد على الأرض، بينما سيده يتناول الفخذ عن كتف الزائر ويدعوه للجلوس بالقرب من مدخل البيت الشجري. تبسم أوروك وهو يراقب ملامح الاستغراب والتعجب على وجه الضيف، فقد شاهد هذه التعابير على كل زواره الذين يشاهدون بيته وذئابه المطيعة التي كانت أمثالها تهاجمهم في الطريق إلى هنا. تلك التعابير كانت تتحول بسرعة إلى نظرات إعجاب وثقة بأوروك واقتناع بقدراته وتفاؤل بأنه سيحقق لهم مطالبهم.

«لم تتغير كثيراً منذ شاهدتك وأنا صبي حين زرتك مع والدي».

«أتذكرك تماماً وأعرف أن والدك قد توفي منذ زمن، وأنك تعاني الآن بعض المشاكل في الكهف». لم ينظر أوروك إلى ضيفه فهو يعرف تأثير كلامه، وأنهى ربط فخذ الوعل المجفف إلى ساق شجرة معلق فوق جذعين آخرين أقوى ومتباعدين بطول قامة رجل. «ماذا تصيدون الآن غير الوعول؟» سأل أوروك جيبل وهو يعدل من رباط رأسه الذي غرز فيه بعض الريش الأسود.

«الوعول والغزلان الحمراء والخيول البرية والخنازير. كل شيء متوافر للطعام، ويمكن للأطفال والنساء صيد حيوانات صغيرة، ولهذا لم نرتحل منذ وصلنا. لكن الرنة نقصت أعدادها وكادت تنقرض».

«قطعان الرنة رحلت شمالاً منذ زمن بحثاً عن الثلوج، وقد تبعتها القبائل التي تحب لحومها. ما كنت تشاهده في طفولتك كان بقاياها، حيوانات هرمة أو ضعيفة لم تتمكن آنذاك من الرحيل مع الجموع الناشطة.

لكن لحم الوعل الصغير الطري لذيذ هو الآخر، سواء مقدد أو مشوي، أو مطبوخ». نظر أوروك إلى الضيف وهو ينهي كلامه، فظن جيبل أن الحكيم قد فطن لغرض هذه الزيارة.

«أود مساعدتك لتحل مشكلتي». قال جيبل وحدق إلى عيني أوروك ليرى إذا كان عليه أن يشرح كل تفاصيل مشكلته أم أن الرجل استوعبها من دون حاجة إلى توضيح. هز أوروك رأسه ففهم الضيف أن المضيف يريد التفاصيل. «كنت متزوجاً وأباً عندما ولدتها إحدى نساء الجماعة. كلما تجدد القمر كانت تزداد جمالاً. منشرحة على الدوام، وخجولة لكنها ودودة ومدلعة. أحببتها كطفلة وأحبتني كذكر، واحتفظنا بسرنا هذا طويلاً، لكن زوجتي شكت في الأمر، فعملت على تزويجها وطبعت يدها ويده على صخرة الكهف، ولم تتح لنا فرصة قبل ذلك، ومنذ أن نضجت، للاختلاء معاً».

«وأنت لا تريد، أو لا تستطيع إغضاب زوجتك، ولا تريد قلب النظام في جماعاتكم، ولكنها لا تفارق ذهنك وخصوصاً في الليل قبل النوم وعندما تصحو. أليس كذلك؟»

«نعم صدقت، إنها لا تفارق أفكاري، وعندما أشاهدها أتصنع عدم الاهتمام، وهي تقلدني في ذلك أمام الآخرين».

«وماذا تريد مني؟» سأل أوروك زائره وأضاف: «أتريد إخراجها من رأسك، أم ضمها في فراشك، أم اقتناص الفرص للاختلاء بها بين الحين والآخر؟»

لم يجد الرجل إجابة، فقد كان في الواقع يريد أي واحد من الخيارات التي طرحها الحكيم. لو خرجت من رأسه فلن تكون مشكلة بعد الآن، ولو ضمها في فراشه لكان ذلك أفضل الحلول، ولكن هذا يعني التخلص من

زوجته ومن زوجها أيضاً، وإذا أتيحت له فرص الاختلاء بها فهذا يحقق السعادة ويُهدئ الانفعالات، ولكن الخطر يبقى قائماً، وسينتشر الخبر من جماعته إلى الجماعات الأخرى التي تنتمي إلى القبيلة. نظر إلى أوروك فوجد أنه قد وضع إناءً فخارياً به ماء جنب النار، وراح يضع بعض الأعشاب في كوبين من الفخار.

«سأعد شراباً ساخناً من الأعشاب يهدأ به خاطرك، ثم نتناول بعض الطعام ريثما نبحث عن حلول لمشكلتك». قال أوروك لجيبل وأضاف مستنتجاً: «أنتم أصولكم من حيث تشرق الشمس، وحديثو العهد هنا، وجلبتم معكم قوانين التزاوج. القبائل، حيث ذهبت الرنة، على مسيرة أقل من قمر من هنا لتتزاوج مثلكم». استغرب جيبل وفتح فاه تلقائياً. «حتى أنتم كنتم قبل أجيال مثلهم، تعيشون في جماعات صغيرة تتقاسم كل شيء، النساء والطعام وتربية الأطفال». كان جيبل يعرف مما تناقله الكبار عن بعضهم، أن أصولهم بالفعل من بلاد بعيده، وقد تنقلت الأجيال تباعاً حتى وصلوا إلى هنا وانقسموا جماعات صغيرة متناثرة في كهوف المنطقة الغنية بالصيد والمكسرات، ويجتمعون دورياً في موسم الحر. «بلادكم الآن تعيش من خير الأرض أكثر من الصيد، إنهم يزرعون ويحصدون الغلال، فيأكلون ويطعمون حيواناتهم لتسمن قبل أكلها، ويعيشون جماعات كبيرة في بيوت متقاربة مبنية من الطين. وهم مثلكم هنا، يتزاوجون».

حضر جيبل إلى أوروك سعياً إلى حل مشكلة حبه لإيمارهوس، فإذا به يقع في دوامة من المعلومات التي يلقيها عليه هذا العجوز. استمع لرؤية مُضيفه حول طرق الزراعة وفوائدها ومضارها في بلادهم الأولى. أحب كل شيء عن الفوائد ولم يصدق ما سمعه عن المضار، ولكنه تمنى لو أن ذلك التطور بقي طي المجهول، فحينها لن يكونوا قد طبقوا التزاوج ولبقي النكاح

حراً، ولما حُرم من إيمارهوس. أسمع أفكاره للحكيم، فضحك وقال: «لو كان النكاح مباحاً لديكم لما امتنعت عنك، وبالتالي لما كنت وقعت في حبها. الممنوع هو المرغوب فيه يا جيبل. أنت تتمنى الرنه لأنها لم تعد متاحة هنا، وتتشوق إلى فتاتك لأنها ممنوعة عنك». ختم أوروك حديثه مبتسماً وطلب من جيبل ذكر اسمها وأوصافها ليرى ما يمكنه عمله.

«نظيفة دوماً، أسنانها تحتفظ باللون الأبيض، أقصر من بقية النساء وأنحف، تحافظ على جسدها مغطى، وجهها يجمع بين الطفولة والأنوثة، شعرها أسود مجعد، لونها كالقمر المكتمل، صوتها أشبه بشجر البلوط مع نسمات الهواء. تعد أطيب الطعام ولا توسخ يديها، جلودها الملبوسة ملونة، تحادثني بعينيها»... توقف جيبل بإشارة من أوروك الذي سأله عن اسمها.

«إيمارهوس... أليس جميلاً هو الآخر؟»

«جميل، ولكنه اسم ربة الإخصاب».

«ظننت أن له معنى محدداً، فهو اسم يتكرر بين الإناث لدينا، واعتقدت أنه يتعلق بالجمال أو الرسم أو الحب، فهي لا توحي بقدرات إنجاب واعدة».

«الحب والإخصاب لا يفترقان. لماذا ذكرت الرسم؟»

«لأنها ترسم على الجدران». قال جيبل، وأضاف حين رأى أن أوروك منصت ومهتم: «إنها تشغل نفسها بالرسم على جدران الكهف. ترسم ببقايا النار ما تسمعه من الرجال عن الصيد، وما تشاهده من حيوانات، وتقلد رسومات أقدم وجدناها في الكهف».

«خطوط الفحم والحجارة ستزول بسرعة، سأعطيك مواد تُصنع منها ألوان جميلة ثابتة، وهذه ستكون مبرراً للقاء والحديث بينكما. لكن هل رسومها جيدة بالفعل، ويفهم منها ما تريد قوله ورسمه؟ هل تعرف إذا كان

الوعل الذي ترسمه وعلاً، وإذا كان صغيراً أو هرماً؟» ضحك أوروك وهو يسمع تأكيد جيبل لقدرات إيمارهوس، فالرجل مولع بها ولم يكن ليعطي عنها إجابة سلبية البتة.

«إنها ترسم حيوانات صغيرة، وغزلاناً متداخلة الأشكال، وسمكاً أيضاً». صمت جيبل ولمعت في ذهنة فكرة أن إيمارهوس ترسم بشكل جيد الأشياء التي تراها بعينيها، بينما الحيوانات الضخمة التي تراها على جدران الكهف لا تثير اهتمامها كثيراً. أبلغ أوروك بذلك، وشرح له أنهم في مواسم الحر ينتقلون إلى الشاطئ لصيد السمك والاستحمام، وأن جماعات أخرى من قبيلتهم تفعل الشيء نفسه، ولدى القبيلة قوارب عديدة على الشاطئ صنعوها عبر تجويفهم جُذوع الأشجار الضخمة، كما أنهم يحملون معهم قوارب صنعت من الأفرع والجلد، وفي مقدمة كل قارب ينتصب رأس الحيوان الذي سلخوا جلده.

احتسيا شراب الأعشاب، وسأل جيبل عن مفعوله، فسمع من الحكيم أنه مُهدئ للأعصاب، ومنشط للجنس، فأخبر أوروك أنه بحاجة إلى مهدئ للجنس ومنشط للرأس ليجد حلاً ومخرجاً لمعاناته. «أمارس عملي هذا منذ زمن طويل، وأنت أول مصاب يحمل إليّ هذه الحال». قال أوروك وقد ظهرت عليه علامات التأمل والتفكير، وأخذ يسأل جيبل لماذا لا يضاجع إناثاً من خارج كهفه وقبيلته، فهن كثيرات يسرحن للجمع في النهارات الصافية، ومواقع جماعاتهن ليست ببعيدة عن تجمعات قبيلة جيبل، ورجالهن يتبادلون الإناث والطعام والحماية، وأطفالهم ملك للجميع. «وأنت وسيم وقوي، وستقبل عليك الإناث فور مشاهدتهن إياك، ولكن عليك الحذر حتى لا يراك رجالهن، فقد تصيبهم الغيرة كونك من خارج قبيلتهم»...

«نعم طاقتي فائقة، ولكن لا أعاني كبتاً جنسياً. ثم هناك فرق بين

إيمارهوس النظيفة الرقيقة التي أتشوق إليها، وبين أنصاف المتوحشات اللواتي ترشدني إليهن، حتى مضاجعة غزالة حمراء صغيرة أسهل عليّ منهن». بذلك قاطع جيبل أوروك وأوصل إليه الفكرة بجلاء.

«لماذا إذن لا تواصل الحب بدون جنس، ولن يلومك أحد حينها، ولا تعرض نفسك للحرج أمام زوجتك وبقية القبيلة؟ وطالما أنك تحب النظافة والوسامة والرسوم، فلماذا لا ترحل بجماعتك عائدين من حيث جاء أجدادك، فالناس هناك أكثر ملاءمة لتطلعاتك». لم يتحقق جيبل، وهو يستمع إلى هذه التساؤلات والأفكار، إذا كان قد أغضب أوروك، فصمت تاركاً للرجل مواصلة الحديث بعد أن مر بخاطره أنه بالفعل يفضل مضاجعة إيمارهوس على مواصلة حبها بدون جنس. «في التجمعات الزراعية الكبيرة حيث منطقة أجدادك تكون الحياة أسهل، كل شيء متوافر، ولست ملزماً بالصيد، يمكنك أن تتعلم بناء البيوت أو قص الغابات، أو فنون الزراعة طبعاً وصناعة الخمور، أو صناعة القوارب، وهناك من يستأنس الحيوانات ويربيها، مثل قطعان الماعز والخنازير. يعني تتخصص في مهنة وتتبادل احتياجاتك مع الآخرين».

«وكيف سيؤثر هذا كله في علاقتي بإيمارهوس؟ بالتأكيد الجنس هناك ليس حراً كما هو عند بقية القبائل هنا».

«هذا صحيح تماماً». قال أوروك بعد أن نهض لقطع بعض قطع اللحم. «الجنس هنا سواء عندكم أو عند غيركم أسهل مما هو في التجمعات الزراعية بكثير. آخر ما وصلني من معلومات ممن مروا بتلك المناطق أن الأنثى بعد زواجها تصبح ملكية خاصة لزوجها. تجلس في البيت لتنجب له أطفالاً، يكون متيقناً أنهم من صلبه لأنهم سيرثون أملاكه بعد مماته». لاحظ أوروك أن جيبل قد سقط فكه السفلي مجدداً، فعاد يوضح ما يقول:

«الرجال هناك، كما قلت لك، يمكن أن يعملوا في مجالات غير الصيد. ثمرة عملهم تتراكم حسب نشاطهم وحاجة الآخرين إلى تلك الثمرة، وحينها يصبح الرجل غنياً ولا توزع ثروته أثناء حياته أو بعد مماته على بقية الجماعة. يدفنون معه بعض مقتنياته ليستعين بها في الحياة الأخرى، ثم تبقى بقية ثروته لابنه البكر».. قاطع جيبل أوروك وسأله عم إذا أنجب الرجل بنتاً. «..إذا لم تنجب الزوجة ولداً فهو يعيدها إلى أهلها ويتزوج أخرى، لأنه إذا تقبل البنت فإنها في النهاية سوف ترثه وتتزوج، وسيأخذ زوجها ما ورثته من والدها فتذهب حصيلة حياته إلى من هم نتاج صلب غيره».

«كل ذلك حدث بعد رحيل أجدادي من هناك، ولم يجلبوا معهم آنذاك سوى مزية التزوج وبعض الأصنام للعبادة». صمت جيبل وفكر في جدوى الرحيل عكس التيار. القبائل جاءت من هناك، وقبائل من هنا تهاجر وراء قطعان الرنة والثلج، وأوروك يقترح عليه العودة إلى مسقط رأس الأجداد حيث تغيرت الحياة بشكل جذري عما هي هنا. وماذا يمكنه أن يفعل هناك؟ خطر بباله مزايا قبيلته، مثل مهارتهم في الصيد، وإمكانية أن يتعلموا استئناس وتربية بعض أنواع الحيوانات، وذلك إلى جانب الصيد ومبادلتها بأشياء أخرى مع التجمع البشري. لكن هل يوافقه رجال الجماعة وبقية القبيلة على هذه المغامرة؟ وماذا عن زوجته، وإيمارهوس وزوجها. «كم من الوقت ستستغرق مثل هذه الرحلة من هنا إلى هناك؟»

«من ستة إلى عشرة أقمار إذا سرتم ببطء، ونصف هذا الزمن إذا سرتم كل يوم طوال النهار. اتجهوا دوماً إلى شروق الشمس حتى تنتصف في السماء، ثم دعوها في ظهوركم بقية النهار». صمت الاثنان لحظات قبل عودة أوروك للحديث: «هذا التغيير الجذري في حياتك قد يؤدي إلى حل مشكلتك، فلا أحد يعرف ما قد يحدث في الطريق، أو بعد الوصول إلى بلاد أجدادكم».

«القرار ليس لي وحدي، فلا بد من استشارة الآخرين، أو أقله معرفة من تعجبه الفكرة ويريد الانضمام ومن سيرفضها... لكن لا تنس عمل شيء يناسب مشكلتي الخاصة، فربما رفض الجميع الرحيل، وحينها أحتاج إلى دواء منك». قال جبيل وهو ينظر إلى السماء وأيقن أنه لن يعود اليوم إلى الكهف فقد اقترب المساء، ومن الأفضل أن ينطلق عائداً مع الفجر.

«لو لم تكن تحبك لصنعت لك شراباً تسقيها فتحبك، مثل هذا الشراب يمكن أن تعطيه إلى زوجها لو كان في ذلك نفع لك. ولدي شراب للكراهية، تشربه فتكرهها، أو تسقيها فتكرهك. المنشطات الجنسية لا تفيدك كما قلت أنت، ولو أعطيتك منوماً جنسياً تسقيه لزوجها فهذا أيضاً لا يفيدك لأن مشكلتك مع زوجتك ورؤية جماعتك للأمر. لو كان عندي منوم تعطيه لكل جماعتك فتختلي بالحبيبة وهم نيام، لكان ذلك الأنسب، ولكني لا أملك مثل هذا الدواء، وأقرب شيء إليه هو أعشاب إذا أحرقتها في الكهف تخدر كل من فيه ولكنها لا تنيمهم. مشكلتك يا جبيل أصعب مما تتصور، فأنت الأساس فيها. كان بوسعك العثور على الكثير من الطرائق للاختلاء بها وعمل ما تريد طالما أنها تحبك وتريدك هي الأخرى، لكنك تبحث عن ظروف مثالية وتصنع الأعذار أمامك حتى لا تقدم على تحقيق رغباتك الدفينة». تجمعت الذئاب حول أوروك فقد حان موعد إطعامها مع اقتراب الظلام. «هذه أيضاً ذئابي وهي الجيل الثالث، أجدادها كانت إلى جانب أنثى مقتولة فأخذتها وروضتها على الطاعة من خلال إطعامها، فصارت تراقب حول البيت في النهار وتحضر هنا إلى بيتها في الظلام». كان الرجل يتحدث ويلقي لها بقطع اللحم المقطع مسبقاً. «سأهبط الليلة إلى كهفي للتأمل في حل ودواء، ولكن قبل أن أعطيك أي شيء في الصباح ليعالج الحب في رأسك، عليك أن تصطاد لي غداً طعاماً لهذه الذئاب قبل أن تغادر».

«لكن المنطقة ملأى بالصيد، فلماذا لا تتصيد ذئابك وتأكل وحدها؟»

«لو فعلت ذلك لما احتاجت إلي، ولما حامت حول البيت نهاراً وحرسته ليلاً». وافق جيبل على رأي الحكيم بهز رأسه وعنقه. لن يكون صعباً عليه صيد حيوان كبير في الصباح الباكر، فهذه قصة إضافية سيرويها لمجموعته عندما يعود إليهم، كيف اصطاد الطعام للذئاب، وكيف نام في وسطها.

جلسا قرب النار وتجمعت الذئاب حولهما، تلامسهما حيناً وتبتعد عن خط الدخان حيناً أخر، وخطر لجيبل أن يسأل أوروك عن الحياة وحده. «تقصد وحدي، أو من دون أنثى؟» ضحك جيبل وأشار إليه بأن السؤال يقصد الأمرين. «الأنثى قد تريحك في أشياء وتتعبك في أشياء أخرى. أما عن الوحدة فلست وحيداً، كثيراً ما يمر بي محتاجون مثلك، يأتون من كل الاتجاهات، فأسمع منهم وأفرح أنني وحدي لا أعاني مثلهم. عملي يحتاج إلى الهدوء والتأمل والتعبد، وأي شيء غير الذئاب سيكون مصدر إزعاج. لذلك لا أسمح للزوار بالمبيت أكثر من ليلة واحدة، هذه تكفيني للاختلاط مع البشر». خطر لجيبل سؤاله عن قضاء حاجاته الجنسية، ولكنه غير السؤال إلى أنواع المشاكل التي يحملها البشر إليه. «الأغلبية إناث صغيرات السن يحضرهن رجال من جماعتهن لمساعدتهن على الإنجاب. أعالجهن ببعض الأعشاب، وأنصحهن بالراحة والمزيد من الأكل حتى يتشكل عندهن دهون ويشتد جسمهن. الأنثى النحيلة الصغيرة يرفض جسمها الحمل، وإن حملت بعضهن فالأغلب أن تذهب حياتهن سدى. بالتأكيد تعداد الذكور في قبيلتكم أكثر من الإناث، لأنكم تأكلون أكثر منهن». تعجب جيبل من معلومات أوروك، وأحصى بسرعة سكان الكهف فوجد الذكور بالفعل أكثر قليلاً، وقال إن الرجال يُقتلون أثناء الصيد ومع ذلك أعدادهم أكثر. «لا تحرقوا كل الدهون أثناء الشي وأطعموه للإناث، وأعطوهن نصيباً مما تصيدون».

«نصيد ونحمل للكهف ويأكلن معنا، ربما أقل، ولكن مما هو متوافر. وعموماً لا ينقصنا طعام، ولهذا نحن في هذه المنطقة منذ زمن أباً عن جد، وعندما نمل اللحوم نذهب لاصطياد السمك وندخنه على النار أو نجففه في الشمس لنتناوله بعد العودة إلى الكهف. إناثنا يأكلن مثلنا، ولكن بعضهن بالفعل يمتن أثناء الولادة».

«طالما إناثكم أصغر من ذكوركم حجماً، ولا يحملن خلال فترة قمر من الجماع، فهذا يعني أنهن لا يأكلن مثلكم. قد تكون معاملتكم للإناث مختلفة عن غيركم لكونكم تتزاوجون، ولكن إذا قلّ النسل وماتت الزوجات أثناء الولادة فمشاكلكم تتشابه مع غيركم من القبائل التي لا تتزاوج وإنما تتناوب على الإناث». أعاد أوروك تكرار رؤيته هذه بهدوء وانطلق يتحدث عن المشاكل الأخرى للزوار، والعادات المختلفة للقبائل وأنواع العبادات التي تتفق على فكرة الصنم والصور، ولكنها ذات أشكال وأسماء مختلفة.

رجع جبيل في الصباح من الصيد حاملاً على رقبته خنزيراً برياً ذا قرون ملتوية. كانت الذئاب تنتظر أوروك الذي لم يصعد من الكهف بعد، فألقى الصياد حمله وتحرك نحو جدول الماء وباشر غسل جلده من آثار دم الخنزير المطعون. انتهز فرصة التعري فغسل جلده وبلل شعر رأسه ووجهه. «تعال لأحلق شعرك». التفت جبيل إلى مصدر الصوت ثم انقلب على ظهره من المفاجأة حين رأى الحكيم يضع قناع طير على وجهه، وجناحين على ذراعيه. أفاق من الصدمة ولبس جلده وتحرك باتجاه الحكيم الذي تخلص من قناعه وريشه ببطء شديد، وتأكد جبيل أن الحكيم مُغيب.

«هل أنت بخير، تبدو لي مترنحاً بعض الشيء». سأل جبيل وهو يساعد الحكيم على الجلوس قرب النار. «لقد أفقت باكراً وأحضرت لك الصيد». التفت أوروك حيث يشير جبيل بيده ووافق بحركة من رأسه.

«شكلك لن يعجب المعشوقة، دعني أخفف من شعرك». حرك أوروك النار ورمى فيها أغصاناً جافة فاشتعلت. «أمسك بشعر ذقنك». قالها الحكيم وأمسك بالشعر حيث تلامس يده فكه وبقية الشعر أسفلها، وطلب من جيبل تقليد ذلك. بحركه سريعة كان شعر جيبل قد اشتعل بينما الحكيم يحثه على مواصلة القبض على الشعر. تكرر الأمر مع بقية شعر الوجه حتى تغير شكل جيبل تماماً. ثم حرقوا شعر الرأس بالطول نفسه، وأعطى الحكيم جيبل صدفة مزدوجة وشرح له كيف يتحسس الشعر على وجنتيه وينتفه بالصدفة حتى تتضح ملامح وجهه. «عندما تنتهي من هذا ستقبل عليك كل الإناث، وهذه الخطوة الأولى في حلّ معضلتك».

«في العادة نقص الشعر بالسكين الحجري، ولكن هذه الطريقة أسرع». كانت رائحة الشواء تحيط برأس جيبل وهو يجامل الحكيم أثناء نتفه شعر خديه. «إنها طريقة مناسبة لشعر الإناث... من حسن حظهن أن مناطق الشعر لديهن قليلة، ليس مثلنا، أينما نظرت فالشعر يغطي الجسم».

«بوسعي أن أريحك من كل الشعر إذا وقفت عارياً إلى جانب الجدول». كان صوت الحكيم لا يدل على تعافيه تماماً مما كان يفعل ليلاً في الكهف. شكره جيبل على حسن نياته وأخبره أنه بحاجة إلى بقية شعره. «لا تخف، أقله يمكنني تنظيف حول وداخل أذنيك بالنار. عيدان صغيرة ولن تشعر بالحرارة، فتزداد وسامة». كان الحكيم يعرف كلمة السر وقبل سماع الموافقة اشتعلت الأذن اليسرى لجيبل، فرمى الصدفة من يديه وأخذ يضرب أذنه لإطفاء النار. «أترى، إنها سهلة ولا تحرق». جاء الصوت من خلف جيبل بينما اشتعلت أذنه اليمنى. «انتهينا الآن بوسعك العودة إلى الصدفة».

«ألا توجد طريقة أسهل من النار والنتف لحل مشكلتي؟ لقد أخبرتك أنها تحبني كما أنا، وشكلي لم يشكل أي عائق أمامي». تأمل جيبل وهنة بينما

الحكيم ينظر إلى وجهه. «وسامتي الآن ستلفت انتباه زوجتى، وسوف تزيد من حرصها عليّ. هل هذا هو الحل الذي توصلت إليه في غيبوبتك الليلية؟»

«أنت الآن أجمل وأعقل مما كنت عليه بالأمس، ولا تنس إثباتك للشجاعة أمام النار. وها قد تعلمت أشياء جديدة». قال الحكيم ممازحاً. «لقد تأملت وتعبدت وسألت إله الحب عما يمكن أن أفعله لك، ولم يوح إليّ بأي جواب واضـح. لقد أخبرتك أن وضعك فريد، وما زلت عند نصيحتي لك بالأمس أن تأخذ الأصحاء من جماعتك وتعود بهم إلى مشرق الشمس. اخرجوا من الكهف إلى النور، تعلموا أشياء غير الصيد، اختلطوا بأقوام أخرى. افتح ذهنك الآن لأشرح لك الطريق وما ستجده فيها وكيف تصل إلى المستوطنات البشرية المتتاليه والمنتشرة على طول شاطئ البحر».

٢

شعر بنشوة فائقة وهو يمسك بيدها ليريها، مجدداً، كيف يُخلط الدهن مع الدم لإنتاج لون أحمر زاهٍ يمكث على الجدران. أراد أن يخلط بيده ولكنها حثته على استعمال غصن متوسط الغلاظة ومدقوق الطرف، وكانت قد صنعت الكثير منها بحجوم مختلفة منذ عودته من الرحلة حاملاً أفكار اللون والهجرة. «الخلط باليد سيغير لونها». قالت بصوت عذب منخفض وقد شدت على يده وتركتها خوفاً من عيون أي رقيب. نظر إلى يديه فإذا بهما غليظتان ناشفتان متشققتان وأصابعه يصعب ثني مفاصلها بينما أظفاره عادت للظهور بعد أن قصها بسكينه الصغير الحاد أثناء رحلة العودة من جبل الحكيم. هذه هي الأيدي التي تخاف حبيبته الصغيرة عليها أن تتلون. عاد يخلط اللون وحده وهي إلى جانبه يسمع أنفاسها وكلماتها وكأنها همس إغراء لمشاعره، كان عليها أن تواصل الحديث وتتحرك حوله قليلاً ليبدو وكأنهما يشتغلان. نظر إلى يديها النظيفتين الطريتين الرقيقتين، وتعجب كيف تقص أظفارها بهذا الشكل الدائري الجميل ومن دون أن تنغرس الأظفار تحت الجلد. لا بد أنها تقضي وقتاً طويلاً للحفاظ على هذا المظهر الجميل. تذكر في هذه اللحظة بالذات أن زوجته كانت تشبهها في معظم التفاصيل، مع فرق أنها كانت عملية وهي في عز جمالها، أما الآن فقد تجعد الوجه قليلاً، وأصاب الجسد بعض الترهل بعد إنجاب أربعة بطون، مات منهم اثنان

وبقيت بنت وولد تزوجا خارج المجموعة. تذكرهما جيبل وتمنى أن ينضما إلى الفريق العائد إلى أرض الأجداد.

«لقد قال الحكيم إن النحيفات مثلك لن يحملن بسهولة، ولا بد أن تنشطي في الأكل». همس لها وقد انتقل لخلط الدهن مع مسحوق حجري أصفر اللون. أجابته بأنها لا تريد أن تحمل واعتلت وجنتها حمرة أخف من اللون المخلوط. «لو خلطنا اللونين معاً سترين لون وجنتك الآن». تبسمت وتراجع جسمها قليلاً وكأنها تردع نفسها عن ضمه. نظر حوله وهمس لها: «كم أتمنى أن تحملي طفلي يا أجمل الإناث». لم يتبادلا النظرات لوهلة بعد هذا التصريح إذ تسارعت دقات قلبه وأنفاسه وشعر بأنه قد يفقد السيطرة فغير الحديث ورفع صوته قليلاً: «الآن أصبح عندك ثلاثة ألوان، أحمر بالدم وأصفر بالحجر وأسود بالفحم». كانت قد أعدّت الأسود حسب شروحاته السابقة ثم طلبت مساعدته الآن لإنجاز بقية الألوان. «اخلطي هذه بعضها مع بعض بكميات مختلفة فتحصلي على طيف متكامل. ويمكنك أيضاً سحق هذا الحجر الجيري الأبيض فتحصلي على لون جديد». قالت عيناه لها كم أود البقاء إلى جانبك ولكن لا بد من التماسك، وأخبرها: «غداً ننطلق في الجولة على بقية الجماعات لنرى من سيرافقنا في العودة. سيذهب زوجك هاني وآخرون معي، وسنرى ماذا رسمت عندما نعود».

بذل جيبل منذ عودته جهداً في إقناع غالبية الجماعة بالرحيل، وزادت غبطته عندما نجح في كسب هاني إلى جانبه، واتفق معه أن يشاركه في الجولة على بقية جماعات القبيلة لكسب بعض الراغبين من شبابها في الانضمام إليهم. أشوم وشيماس، ابنا أخي جيبل، قررا الانضمام إلى عمهما وهاني في الجولة على القبيلة، فقد كانا عازبين وتمنيا العثور على زوجتين تشاركانهما في رحلة العودة. كانت المفاجأة في المساء أن زوجته أمورا قد عزمت على مرافقتهم،

وطلبت من جيبل أن يبدأ الجولة حيث تعيش ابنتهما، وأن يخبر كل القبيلة بالاجتماع على الشاطئ مع اكتمال القمر التالي حيث سينطلق من هناك كل الذين سيقتنعون ويتفقون على العودة إلى أرض الأجداد.

«ستواجه عقبات في إقناع القوم لأن آفاق المغامرة مجهولة، والمعلومات معتمدة على العجوز أوروك فقط، والمنطقة هنا غنية وسهلة وآمنة. ركز على الشباب فقط، وأخبرهم بأفضلية بقاء الكبار والصغار حتى لا تتأثر الجماعات. سيعارضك كبار السن حتى لا تأخذ أولادهم الشباب، وحينها اطرح عليهم أن من يعرف طريق الذهاب سيعرف طريق الإياب، وسيكون بوسع من يريد منهم أن يعود هنا، أن يفعل ذلك حاملاً معه المفيد من تجارب الآخرين التي سيراها، لتطبق هنا. أي حافظ على خط عودة، وركز على حرية الاختيار وعلى فرصتهم للتفكير حتى يحين موعد اللقاء».

كانت أمورا، في وسط الأربعة في طريقهم إلى أقرب جماعة من الأقارب، تشرح لزوجها والمرافقين الثلاثة كيف عليهم أن يتصرفوا. لقد حملوا أسلحتهم والقليل جداً من المكسرات وانطلقوا مع الفجر حتى لا يتوقفوا إلا للضرورة. هكذا بوسعهم الوصول إلى كل مجموعة قبل حلول الليل والبقاء هناك حتى ينجزوا مهمتهم ثم ينطلقون فجراً ويصلون قبل انقضاء النهار إلى المجموعة التالية.

صار جيبل يتعمد البقاء خلف زوجته أثناء المسير، يراقب جسدها ويتذكر أيام الشباب كيف شاركته في الصيد، بينما بقية الإناث ينتظرن في الكهف، ويفكر إذا كانت ستتحمل الآن أعباء المغامرة القادمة. في الطريق المستوية كانت تواكب مسيرهم دون عناء، وعند الهبوط أو الصعود تعتمد على عصا أعدتها لهذا الغرض، بينما الشبان من حولها يخففون من سرعتهم ويتظاهرون بالحذر والحراسة. «إذا لم يكن هناك أبطأ منها سننجز الرحلة في

وقت أقصر مما توقع الحكيم». فكر جيبل ثم سألها: «كيف سنردع العجائز عن الاشتراك في مسيرتنا؟»

«أخبرهن بالحقيقة». أجابت من دون أن تلتفت إليه، ووضعت العصا على كتفها. «قل إنهن سيُعقن المسير ويُفشلن المهمة، وإن الأبناء سيكون بوسعهم العودة محملين بطرائق الحياة الزراعية السهلة بشكل أسرع لو مكثن ينتظرن. وتعهد للجميع أننا سنرسل لهم كل شيء حتى لو جئنا في زيارة لهم». تذكرت أمورا أن والدة أشوم وشيماس تعارض الرحيل إذا كان بدونها، وأنها تأمل أن يعثرا الآن على زوجتين ويبقيا إلى جانبها. «هل ستحملان والدتكما إذا أصرّت على الرحيل؟» نظر الشابان كل إلى الآخر ثم ابتسما.

«إذا روضنا وعلاً أو حصاناً برياً ليحملها فهذا ممكن. ما عدا ذلك فعلى الوالد أن يبقيها إلى جانبه». قال أشوم لزوجة عمه، وتمنى لو كان بوسع والده مرافقتهم، ولكن مفاصله متصلبة تؤلمه، وقد اتفق مع أبنائه على رحيل العزاب مع عمهم وبقاء ولديه المتزوجين إلى جانبه. «إذا كان الحكيم روض الذئاب يا عمي، فعلينا أن نروض الخيول ونركبها. تصوروا السرعة التي سنصل بها إلى هدفنا حينذاك؟» عم الصمت بينهم وشرد ذهن كل منهم يتصور هذا الحدث الهائل.

«علينا أولاً صيدها حية، ذكوراً وإناثاً، ثم إطعامها وهي مربوطة لأقمر كثيرة حتى تتزاوج وتنجب صغارها فنطعمها باليد ونحميها من الوحوش والصيادين ثم نحمل عليها صغارنا، وعندما تكبر وتقوى نركبها». قال جيبل بصوت منخفض وكأنه متخوف من الاستهجان، ولكن رفاقه الأربعة سمعوه بوضوح، وسأله هاني عن كيفية الصمود على ظهر الحصان. جميعهم شاهد هدوء الحصان من بعيد، وكيف يثور ويقفز في الهواء ويرفس بقائمتيه الخلفيتين أو يقف عليهما قبل أن ينطلق محدثاً ضجيجاً في الأرض من عزم

حوافره، وهادراً بصهيله المخيف. «لقد روض الحكيم الذئب وهو مفترس للحيوانات والبشر، فلماذا لا يمكن ترويض حصان يرعى العشب؟» ثم توجه جيبل بالحديث إلى هاني: «ربما يمكن الصمود عليه بالنوم على ظهره وضم رقبته بالأيدي وضم خاصرته بالسيقان». صمت وهلة: «كل شيء يتوقف على تقبله للتعايش معنا، إذا وفرنا له الغذاء والراحة لن يرفضنا. ربما الأفضل في البداية أن نروضه ونربيه لأكل لحمه والاستغناء عن أعباء صيده كل مرة».

«إذا صدق الحكيم في كل ما أخبر به عمي عن مستوطنات المزارعين، فقد نجدهم قد روضوا الخيل والوعل والغنم، وحينها نتعلم منهم ونعود إلى هنا راكبين».

«لقد شاهد عمك بعينيه الذئاب المروضة واصطاد لها الطعام ونام بينها آمناً». رد هاني على أشوم وواصل: «لا يوجد إثبات وحقيقة أكثر من ذلك، أشرس الحيوانات القاتلة تروضت. لا أتمنى أن يكون المزارعون قد روضوا الخيل والذئاب، حتى إذا نجحنا في ذلك يكون لنا الفخر والفائدة والتميز». انشرحت أسارير جيبل لما يسمعه من الشبان من أمان وأفكار واستنتاجات كهذه وشعر بأن كل رغباته ستتحقق.

عندما وصلوا إلى مساكن الجماعة الأخيرة من القبيلة أصبح تعداد الرجال عشرة، فقد رأى نامور، زوج ابنة جيبل، أثناء وجودهم في المحطة الأولى، أهمية لانضمام الذين يحسمون أمرهم، والتنقل بين الجماعات مع جيبل، ثم الانتقال إلى الشاطئ للاستعداد وانتظار وصول بقية المشاركين، وهكذا انضم ستة آخرون إلى المجموعة. وكانت مفاجأة الجميع في المحطة الأخيرة امتلاك الجماعة مهرة أمسكوا بها بعد قتل أمها، وواظبوا على إطعامها وهي مربوطة من الرقبة. لقد أخذ حديث الاستئناس للحيوانات وفكرة استغلال الخيل، الجزء الأطول من الوقت بين الزوار ورجال

الجماعة، وكان قورق شديد الانتباه لكيفية الترويض وحمل أشياء تدريجاً على ظهر الحيوان وكيف يتعود الطاعة عبر الطعام. قورق أكثر شبان هذه الجماعة اهتماماً بهذه المهرة والمسؤول عن إطعامها وحمايتها، وتحمل تهكم الآخرين حول موعد التهامها.

بعد قمر من التنقل والاستضافة والنقاشات وصل جيبل برفقة نامور وهاني وأشوم إلى الكهف ووجدوا أمورا قد عادت واصطحبت معها ابنتها وحفيدتها الرضيعة للانطلاق من هنا في رحلة العودة، أما شيماس فقد رافق الرجال الخمسة إلى الشاطئ لانتظار كل من يقرر الانضمام، والإعداد لاستقبال القبيلة لوداع العائدين إلى أرض الأجداد. في الليالي الأولى للجولة بين جماعات القبيلة كان جيبل يجول بأفكاره ليلاً بين إيمارهوس وكيفية ترويض الحيوانات. في كل ليلة كانت الأفكار تزدحم أكثر وتتشعب حسب ما يسمعه ويراه من المضيفين. الأغلبية تتخوف من الفراق وتتشوق إلى التغيير والعودة للترحال. قصص كبار السن المتوارثة شغلت خياله، وأشعلت مخاوفه، حتى ندر تفكيره الليلي في مفاتن حبيبته الصغيرة. متوارثات عن حمم تخرج من فوهات الجبال، واهتزاز للأرض، والأفظع هو قصص الفيضانات التي تفاجئ سكان الوديان في غير مواعيدها فتقضي على معظمهم ولا ينجو سوى من يحسن الركض إلى أعالي الجبال. بعض الرجال كانوا يفسرون ذلك بتجمع مياه ذوبان الثلوج واحتجازها طبيعياً ثم انفلاتها من القيد مرة واحدة، فتأخذ ما في طريقها حتى يوقفها حاجز آخر أو تتسرب إلى البحر. أصبح خيال جيبل يرى جماعته العائدة وقد هاجمتها المياه في أحد الوديان. لم يعرب لأحد عن مخاوفه الليلية، وكان في النهار يستعيد الثقة حين يرى قوة وهمة الشباب الذين سيرافقونه مع عائلاتهم، ويتذكر حكمة زوجته برفض إشراك العجائز في هذه المغامرة.

عندما شاهد إيمارهوس قادمة لتحيته عادت إليه ذكريات الحب، وفجأة انفجر بالضحك هو وبقية المجموعة، فقد شاهد أن كل ظفر في يديها قد غطاه لون مختلف، وأخذت الصغيرات يمددن أياديهن له ليرى ألوان أظفارهن. «اشتغلت في التجميل إذاً بدل الرسم على الجدران؟» سألها وقد اتسعت ابتسامته في نهاية موجة الضحك.

«لقد صبغت ورسمت على الجدران وصنعت أواني من الطين وحرقتها بالتدريج، وهي تلون بعضها الآن أيضاً» أجابت أمورا بينما إيمارهوس خفضت رأسها من الخجل واحمر وجهها. «إنه عمل رائع يا جيبل، قريباً يصبح لدينا أوانٍ للأكل والشرب والطبخ على النار، تماماً مثل أواني الحكيم التي حدثت إيمارهوس عنها».

«وهل تتحمل الأواني بالفعل قوة النار إلى جانبها وسخونة الماء فيها؟»

«الليلة سنطبخ اللحم والعشب والماء في الأواني التي جفت وجهزت وسترى وتذوق الطعم الجديد». عاد إليه شعور النشوة القديم وهو يتأمل وجهها وجسدها ويسمع كلماتها التي خرجت عالية هذه المرة ليسمعها الجميع، وتأكد أنها أعدّت هذه الطبخة خصوصاً له، لكن كما قالت لن يتمكن سوى من المشاهدة والتذوق، فتعداد الجماعة كبير وعدد الأواني الجاهزة قليل.

«قطعاً سيكون أفضل ما أكلناه طول القمر الماضي. لحوم أينما حللنا، طيور ووعول وغزلان ولحم خيل، كله مشوي على النار». حوّل نظره عن إيمارهوس وسأل زوجته إذا كانت قد تذوقت طعام الطبخ في الأواني، فأكدت له أنهم يطبخون كل ليلة إلى جانب الشواء منذ أن عادت مع ابنتهما، سمان. وقالت له إن ولده قد رافقهم إلى هنا وعاد إلى عائلته. «هذه الصناعة بداية ممتازة وثورة في حياتنا». قال جيبل مخاطباً إيمارهوس على مسمع

من الجميع وهي تعرض عليه مصنوعاتها. «علمي كبيرات السن الآن كيف يصنعن هذه الأشياء، هكذا يمكنك أخذ بعض هذه الأوانـي».. لم تتركه زوجة أخيه يكمل كلامه معلنة بضحكة بلهاء أن هذه الأواني ستبقى هنا إذا لم تشارك هي مع أولادها في الترحال. «..لهذا قلت أخذ بعضها ويجب أن تتعلمي مع الأخريات فيصبح لديك أي عدد ونوع تريدين. فالطين كثير والنار لا تنطفئ». قال الكلمات الأخيرة ببعض التشدد حتى لا تفتح زوجة أخيه نقاشاً مبكراً ومكرراً حول انضمامها إلى المرتحلين، فالأمر بالنسبه إليه قد حُسم. ستبقى هنا مع زوجها وولديها المتزوجين وسيرحل أشوم وشيماس مع العائدين. كظم غيظه منها وتلبسته فكرة إغاظتها فقال: «لقد عثر شيماس وأشوم على زوجتين وسيجتمعان بهما في اللقاء القادم قبل الرحيل». نظرت إلى ابنها أشوم مستفسرة فلم يعرب عن رأي. كانت تخطط لتزويج ولديها من بنتي أختها الصغرتين حتى تضمن سيطرتها عليهما، وكان زوجها يعارض هذه الفكرة بسبب ما سمعه عن نتائج زواج الأقارب، يعارض ولكنه لا يجادل.

«هل كنت تخاف من النوم في العراء يا أشوم؟» سألت لماظة ابنها، وفهم جيبل أنها تريد إشاعة الرعب بين الإناث قبل الرحيل. أخبرها ولدها أنه لم ينم ليلة بعيداً عن الجماعة، وأن النوم في العراء أجمل من النوم في الكهف. «وهل ستنامون طوال الترحال في العراء؟» تصنعت التعجب والاستنكار ووضعت يدها على فمها. أجابها ولدها بان النوم في الكهوف الخاوية خطر، ولن يكون لديهم الوقت للبحث عن كهوف وتنظيفها للمبيت فيها ليلة أو اثنتين. تبسم جيبل وهو يشاهد ابن أخيه قد استرجل نتيجة لهذه الجولة على تجمعات القبيلة، ولم يعد يسكت أمام تأنيب والدته.

تحركت أمورا باتجاه النار وتبعتها إيمارهوس والصغيرات، وانتقل

الرجال إلى خارج الكهف، وبقيت لماظة وحدها تنادي بصوت مرتفع زوجتي ولديها. «ماذا ستحملين معك؟» سألت أمورا إيمارهوس وهما تقطعان اللحم قطعاً صغيرة وتلقيانها بمساعدة صغيرات في قدر الفخار.

«لا أريد إجهاد نفسي بالاثقال. سأترك كل الأواني هنا». سكتت قليلاً وهي تشد بأسنانها على طرف شفتها السفلى ثم واصلت: «عندما نصل حيث سنمكث، يمكنني صنع الأواني هناك. ولكنني سأحمل ألواني في ضرر جلدية، وسأحمل سكاكيني الحادة، وبالطبع كل ملابسي، القديمة أستعملها أثناء الترحال، والقطعتان الجديدتان ألبسهما بعدما نصل». ابتسمت مع ضحك أمورا وتذكرت أنها ستأخذ معها أيضاً إله الحب، صنمها الصغير الجالس دوماً إلى جانب حاجاتها في الزاوية الخاصة بها وبهاني منذ زواجهما وطبع يديهما على الجدار حيث يناماز.

«هل عرفتم من أي بقعة حضر أجدادنا الأوائل إلى هنا». كان السؤال موجهاً إلى جيبل وهاني المتقاربين في الجلوس حول النار. أجاب جيبل أخاه أن كبار السن الذين التقوهم يجمعون على رواية أن الأجداد حضروا من بلاد بعيدة جداً جداً، وأنهم تركوا فيها أقارب كثراً، وأنها أراضٍ خصبة مليئة بالأنهار والأشجار والحيوانات على أنواعها، وأن أجيالاً كثيرة قد ماتت بكبر السن أثناء الترحال والإقامة والترحال حتى وصل الأحفاد إلى هنا واستقروا. أما الطريق إلى هناك فالكل يجمع أنها بمحاذاة البحر باتجاه الشمس ثم يهبط الشاطئ إلى أسفل ويعود المسير لاحقاً باتجاه الشمس ثم يهبط مجدداً.

«المهم أن لا نفقد رؤية الشاطئ، وأن نحافظ على البحر في مرمى البصر، وحينها سنصل». قال هاني وسط إصغاء الآخرين، بينما جيبل يهز برأسه ويفكر بأنهم بالفعل لا يعرفون بالضبط المصدر، وإن عرفوه فلن يتعرف إليهم أحد هناك بعد كل هذه الأجيال. الهدف الفعلي كما يراه هو،

ويصوغه للآخرين، يتمثل بالشوق إلى الأصول، والهدف الآخر هو الخروج من حياة الكهف هذه والانتقال للحياة الجديدة التي وصفها له الحكيم، وربما عودة بعضهم أو أبنائهم لاحقاً إلى هنا بالمتغيرات المفيدة.

«لن نغيب عنكم أجيالاً كثيرة كما فعل الأجداد. سوف نلقن الصغار عن هذا المكان وعن الطريق إليكم، وسوف نعيد بعض الشبان إليكم بكل ما نتوصل إليه من أخبار ومعارف وسبل حياة جديدة». قال جيبل يهدىء من قلق المتبقين، وأضاف: «إذا وجدنا على مسافة معقولة من هنا حياة أفضل وأسهل فسوف نحملكم إلى هناك». حرك عمه النار وسأله إذا وجدوا القوم يعبدون إلهاً غير آلهتهم فماذا هم فاعلون. عم جيبل هذا لا أمل له بالترحال الآن أو لاحقاً، لأن الدب نهش قدمه قبل أن يتمكن الآخرون من إنقاذه، ولم يعد بوسعه بعد ذلك السير مسافات بعيدة. «نصنع آلهتنا ونحملها معنا، ولن يمنعنا أحد من احترامها، ولن نقاتل الآخرين إذا كانت آلهتهم بأشكال أخرى». قال جيبل لعمه وواصل الحديث شارحاً بأن كل إله له وظيفه محددة، المطر، الحب، الإخصاب، الصيد، وغير ذلك، وأن كل إله يختص بمنطقة وبقوم «فإذا كان إلههم يقوم بالمهمة لهم هناك بشكل أفضل فسوف نستفيد من تلك النعم ونحترم الآلهة ونصنع مثلها إذا كانت حجراً أو رسماً. نريد الحماية من أخطار الحيوان والفيضان والنيران، ونأمل الرزق الوفير. من يقدر على ذلك من غير آلهتنا سوف نحترمه أيضاً». لم يعد بوسع أحد الآن أن يحفر الحواجز في طريق جيبل الجديد، فقد ضمن مشاركة شبان أقوياء لا يعولون كثيراً على الآلهة مثل العُجّيز، ولديهم تطلع إلى التغيير.

تمدد جيبل على جنبه وحمل رأسه بكفه المرتكز على كوعه وهو يتأمل النار ولم يعد يسمع بوضوح ما يقوله الرجال من حوله. صار يحاول أن يفهم لماذا تناقصت فترات تفكيره في إيمارهوس أثناء الرحلة الأخيرة،

ثم عاد مجدداً الآن، ولكن بشكل أقل؟ هل كان دماغه خالياً من الهموم والأفكار في السابق ويمتلئ لذلك بالشوق؟ أم هي المشاغل التي طرأت عليه والمسؤوليات الجديدة أبعدته عن التفكير فيها؟ وهل مثل هذه الأمور ضد الحب، وحملة المسؤوليات لا يعرفون الشوق؟ هو لا يزال يحبها وهي بالتأكيد لم تغير رؤيتها إليه، بل شاهد اليوم في عينيها المزيد من الحب والشوق والإعجاب، ربما لأنها مشغولة في المكان نفسه فلم يتغير حجم حبها، ولكن ماذا بعد الرحيل معاً والمتغيرات اليومية التي سيمرون بها وكل هؤلاء الشباب الأقوياء يحيطون بها، هل سيحافظ على موقعه في قلبها، أم أن الأمر سيتحول إلى عطف واحترام فقط؟ كان قلبه ينقبض لحظة ثم يرتاح أخرى حين ينظر إلى هاني الوسيم القوي الذي لم يغير زواجها به رؤيتها ومشاعرها. مر بخاطره احتمال أن تراجع انشغال ذهنه بها يعود إلى صداقته مع زوجها وأنه لا يريد سرقة فرحة الزوج بزوجته.

«ماذا قال لك الحكيم حول مدة الترحال؟» كرر هاني السؤال وهو يربت ظهر جيبل السارح عنهم تماماً، فتمتم بأن المدة مرتبطة بالسرعة. هذا الحكيم، عاد للتأمل، ماذا فعل تلك الليلة في كهفه؟ ولماذا خرج عليه بفكرة الرحيل هذه؟ هل كان يعرف أن الانشغال بمثل هذه الأمور هو الدواء للشوق وللتفكير الدائم في مضاجعة الإناث الصغيرات. لقد أبلعني الدواء إذاً وكنت أنا المُغيب ذلك اليوم وليس هو. يا له من حكيم عجوز ماهر! الأعمار قصيرة ولكن هذا الحكيم سيبقى بصمته عند الكثيرين حتى بعد غيابه عن الحياة. أفاق من غفوته على قدم أمورا تدق ظهره وتناوله حفيدتهم الوحيدة حتى يرعاها بدل النوم. «عليك تعوُّد ذلك الآن ما دامت نامور وسمان سيرافقاننا في الترحال». قال هاني وسط ضحك الآخرين، بينما جيبل يسأل نفسه: لماذا لم تدفع أمورا البنت إلى والدها الجالس قبالته. الإناث أسرار مثل الآلهة.

كانت الصغيرة تحاول الإفلات إلى النار، بينما جدها يديرها باتجاهه بعد أن اضطر إلى الجلوس، وسأل نامور عن اسم ابنته هذه، فأخبره بأنها عشم.

«ستكبرين يا عشم وتتزوجين وترزقين رجالاً ترسلينهم إلى أجدادك. سأعلمك كل شيء، حتى تعلميهم». كان يخاطبها وقد ألصق رأسه برأسها بينما البعض يبتسم والآخرون ظهرت عليهم ملامح الحزن، لكن جيبل واصل حديثه بصوت مصطنع: «سأخبرك بما سمعت عن الفيضانات التي قضت على أقوام، والتي غطت حتى قمم الجبال، وكيف اخترع الأجداد القوارب للتنقل بها في الأنهار والبرك الجديدة. ستتعلمين كيف تصنعين قارباً ضخماً يتسع لنا جميعاً، ويحمل كل ما نحتاج إليه لأيام وأقمار متوالية». ظن جيبل أن الصغيرة تتبسم له، فضمها إلى صدره وتنبه لصوت زوجته تناديه ونامور والآخرين للطعام. دخل الجمع إلى الكهف بينما ذهب هاني ونامور حيث يقضي الرجال حاجتهم بعيداً عن مجرى المياه وتجمعاتها.

٣

انتصف بهم ضوء القمر عندما أبلغهم الكشافون الثلاثة أنهم يقتربون من جماعات بشرية، فقد عثروا على آثار أمعاء لحيوانات مقتولة من دون بقايا أخرى، لا جلد ولا عظام. قرروا المزيد من الحذر، سير أبطأ، خمسة من الرجال يتبعون الثلاثة عن بعد، وبقية الرجال ومعهم الإناث والأطفال في الخلف ولكن على مسافة أقرب من الخمسة. كانوا عشرين رجلاً وخمس عشرة أنثى وعشرة أطفال، ومهرة قورق التي كانت مفاجأة حفلة الوداع، وغطى إحضار قورق لها على احتفال زواج شيماس ونمس، التي انضم أخوها أيضاً إلى المرتحلين. إبلاغ الكشافة أخرجهم من أجواء تذكر الحفلة والأهل، ونقلهم إلى خليط من الخوف والأمل. هل يعقل أن يوجد بشر على مسيرة نصف قمر منهم ولم يلتقوهم من قبل؟ هذا السؤال شغلهم تلك الليلة بعد نهاية اليوم من دون رؤية أي شخص آخر. ساد الرأي بأنهم قد يكونون صيادين حضروا من مكان أبعد فصادوا وحملوا وعادوا. طلب جيبل من الإناث التأخر في إشعال النار مؤكداً أنه إجراء احتياطي فقط حتى لا يرى أحد دخانهم في بقية النهار، ووزع أربعة شبان حول المجموعة وأخبر قورق أن يخفي المهرة بين صخرتين ويحكم رباطها ويمكث معها حتى لا تصدر صوتاً. قبل نهاية اليوم الثالث من الحذر سمع جيبل صوتاً أنثوياً يناديهم من الخلف، توقف مندهشاً هو والإناث وبقية الرجال في المجموعة الخلفية، إذ شاهدوا أنثى يرافقها ثلاثة رجال أشداء يقتربون

منهم بخطى مطمئنة يحملون أسلحتهم على ظهورهم ولا يشهرونها. سحب جيبل ابنته وحفيدته وأشار إلى رجلين بمرافقته وتقدم من الزوار، وتحادثوا لوهلة ثم انضموا إلى بقية الجماعة وكـان الكشافة الثلاثة ومراقبوهم الخمسة قد عادوا من الأمام بعد أن سمعوا الخبر.

«كانوا يراقبوننا قبل أن نكتشف أثرهم، ويبدو أنهم تأكدوا من حسن نياتنا، ولكن اهتمامهم الحقيقي منصب على مهرة قورق، كيف تطاوعه وتأكل الحبوب والمكسرات من يده». ظهرت ملامح الاطمئنان على الجميع، وأبلغهم جيبل أن سكنى هذه الجماعة على مسيرة نصف نهار من هنا، وأنهم هناك يعلمون بأمرنا. «إذا تحدثتم معهم ببطء وبالإشارة فلن تجدوا صعوبة في التفاهم». قال جيبل ذلك بعد أن تحركت الزائرة نحو بقية الإناث تتأمل ما يلبسن ويحملن معهن، وشدها لباس إيمارهوس الملوث ببقايا العديد من الألوان.

تنبه هاني أن رأس حربة أحدهم ذو لون أدكن ولامع، ولم يكن قد شاهد مثلها. قدمها الرجل لهم مزهواً ليتفرجوا، فدارت على جميع الرجال المندهشين، ثم عادت إلى صاحبها فأخذ يضربها بساق شجرة مرة وبالتربة الطينية مرة أخرى وصارت تحدث آثاراً في الخشب. بعد مناقشات فهموا من الرجل أنه ارتحل إلى رأس بركان على مسافة قمرين من هنا وأحضر بعض القطع وصنع منها رؤوس رماح وسكاكين. قال إنه يكونها بطريقة التعامل نفسها مع الحجارة، ولكنها صلبة تحافظ على دقة شحذها وأبلغهم أن الكثير من الناس يزورون ذلك البركان وينقلون هذه الحجارة إلى مناطق بعيدة. «حرابها قادرة على اختراق جلد أي أسد أو ذئب أو وعل، أو حتى خنزير، وسكينها يسلخ الجلد بسرعة». قال الرجل مزهواً، وأمسك بالرمح وصوّبه إلى المهرة ثم نظر إلى قورق الذي قفز بين الرمح والمهرة فانطلق الجميع بالضحك.

قبل انقضاء نهار اليوم التالي قدر جيبل تعداد هذه الجماعة بخمسة وعشرين، لديهم القليل من الإناث والأطفال حسب ما أبلغته أمورا التي حذرته من نظرات أثنيين إلى شبانهم وخطر اللحاق بهم. قضوا بعض ليلهم يستفسرون عن الطريق وأخطارها، واطمأنوا إلى قلة خطر الإنسان كلما توغلوا إلى الشرق، وكثرة خطر الحيوانات المفترسة خصوصاً بسبب وجود هذا المهر الصغير معهم. خلدوا إلى النوم بتعليمات واضحة من جيبل، على فورق أن يغسل المهرة في كل فرصة حتى يزيل روائحها الدالة عليها بالشم، وعلى الشبان أن لا يغازلوا أي أنثى الليلة أو غداً، وإذا تبعتهم أي واحدة أن يصدوها على الفور. «إذا انتشر خبر أننا نخطف الإناث فلن نجد في الطريق إلا العنف والرفض من الآخرين، ولن تكون إناثنا في مأمن أيضاً. في مكان ما سنجد وفرة في الإناث ونزوج الراغبين منكم. يجب أن لا نقهر قلب أي جماعة بفعل قبيح، وأن نعامل الجميع بحسن أخلاقنا». وكرر جيبل تحذيره وترغيبه للشبان حتى اطمأن لوصول الرسالة إليهم، وبالرغم من ذلك اختلى جيبل في الصباح بزعيم الجماعة، وطلب منه الانتباه للإناث في اليومين التاليين، وادعى أنهم مروا بتجربة مشابهة. أراد بذلك ضمان العاقبة وتجنب سوء الفهم لو لحقت بهم أنثى، ليس بالضرورة للانضمام ولكن ربما لرغبة في نكح الشبان لتحمل من أحدهم.

«هل جبل البركان في طريقنا؟» سأل شيماس عمه أثناء المسير بعد أن ودعوا المضيفين، وواصلوا الترحال. كانت الأمهات لا يحملن سوى الأطفال، بينما الكشافة يحملون أسلحتهم فقط، وتوزعت أشياؤهم على بقية الإناث والذكور حسب قوتهم. قال جيبل لشيماس إنه قلق جراء المفاجأة الأخيرة كيف كانوا مُراقبين أياماً وهم لا يشعرون، وجاءهم الزوار من الخلف.

«البركان ليس في طريقنا». أجاب جيبل وهو يفكر في حلول لاتقاء أخطار الحيوانات. «مسيرنا يأخذنا مع الشاطئ لنصف قمر آخر حتى نصل إلى مكان يسمى مرمر تسكنه جماعةٍ أكبر منا عدداً. لو أردنا البركان فعلينا الانحراف إلى أعلى. هكذا فهمت من صاحب الرمح، كما أنه لا يوجد هناك تجمع بشري ولا زراعة. وطالما وُجد من ينقل هذه الحجارة اللامعة من هناك فسوف نجدها في أماكن أخرى». توقف جيبل عن الحديث وسرح ذهنه في سبل الحماية.

«لثلاثة أيام قادمة سنكون في مناطق صيد أصدقائنا، لذلك علينا التخلي عن الحذر الفائق والإسراع في المسير للخروج من مجالهم». قالت أمورا لزوجها وكانت تنصت لما دار بينه وبين شيماس، كما أن أسباب قلقه في اليومين الماضيين لم تخفَ عليها. «في اليوم الرابع نستريح من عناء السرعة ونرى». صمتت لتشد انتباه زوجها لما تريده من اليوم الرابع، فاستدار إليها وهو يتابع المشي. «..إذا كانت الرياح مثل اليوم، خفيفة وتأتي من خلفنا، فحينها نشعل النار لتفتح لنا الطريق، وإذا سكنت الريح أو انعكست، نكون قد قطعنا شوطاً في منطقة أقل خطراً، إذ هجرتها الحيوانات المفترسة لقلة الصيد وكثرة وجود الصيادين». أعرب لها عن إعجابه بالفكرة، واستغرب أنها أو بعضها لم يخطر على باله. كان عليه أن ينتبه للأمان النسبي من الحيوانات في المناطق التي يصيد فيها البشر، فهي تقل عدداً ويهرب الناجي منها ويلاحقها البشر. أسرعوا في المسير حتى لحقوا بمن أمامهم من الحراسة، فأسرعت حتى لحقوا بالكشافة، وواصلوا يومهم في مسير أقرب إلى الركض والتسابق مما هو إلى المشي.

في المساء شرح لهم جيبل خطة أمورا. كانوا مرهقين من سرعة المسير، لكنهم في سن الشباب ومجموعة من الأصحاء، ولا يعقل لأي واحد منهم

أن يعترض على خطة أمورا وهي الأكبر سناً بين الإناث، والأحق بالسير المريح، وصاحبة هذا الاقتراح كما أكد جيبل أثناء إبلاغهم بالأمر. «لقد ركضت المهرة اليوم خلف قورق بخفة ورشاقة وانشراح، يبدو أنها تحب الركض». انشرحت أسارير قورق لهذا التعليق والنتيجة الإيجابية لجهوده في تطويع المهرة وتدليلها بالطعام الخاص وتغسيلها. «غداً أربط على ظهرها حملاً خفيفاً، وأوثقه بحيث لا يتأرجح لتخوض أولى تجاربها، أركض معها أسرع إذا شاكست، فالحمل يزعجها والركض يرضيها، وسنرى النتيجة». تذكر جيبل أثناء حديثه مع قورق أن خطة الحماية تغيرت، فأبلغ الجميع أن على كل واحد منهم أن يشارك في حمل الحاجات، وأن يحافظوا على تشكيل المسير نفسه.

تعودت المهرة التغيير، كل يوم يزداد عدد ووزن الملابس الجلدية التي توثق على ظهرها. أما الإناث، وخصوصاً أمهات الأطفال فكن الأكثر فرحاً في صباح اليوم الرابع، حيث الاستراحة المنشودة ثم المسير العادي خلف النار. كل شيء تناسب مع خطة أمورا. فالمطر لم يهطل منذ فترة، والأعشاب الجافة على الأرض تفوق الخضراء، والرياح تأتي من خلفهم وزادت سرعتها بعض الشيء، وهكذا لن تعود النار إلى الخلف، وستجد أمامها أحد الأنهر التي تصب من المناطق المرتفعة في البحر، فتحد من طريقها. هذا هو الأمل، ولكن الهدف الأهم هو فعل النار والدخان في طرد الحيوانات المفترسة، فالمنطقة تحوي ذئاباً وأسوداً وثعالب وثعابين وعقارب وثيراناً ذات قرون ضخمة. جلسوا خلف بركة ماء، وأشعل بعضهم النار على الطرف الآخر، بينما اتجه آخرون إلى الشاطئ لصيد السمك، أما الشابات فقد باشرن جمع أوارق ولحاء الأشجار العريضة وعروق المدادات الخضراء لصنع حماية للأقدام من حرارة الرماد.

استراحوا طوال النهار والليل إلى جانب بركة الماء، وارتفع الدخان وتقدم عن النار، وأصبح الطريق نحو المشرق محفوفاً بالرماد والحشرات والحيوانات الصغيرة الميتة، بعضها مشوياً وغيرها نصف شواء. تحركوا باطمئنان وهم يجمعون أنواعاً من اللحوم، وبيض الطيور التي هربت من أعشاشها، والبندق والحبوب البرية المشوية. بين الحين والآخر يسمعون من المقدمة تنبيهاً إلى وجود جذع مشتعل، أو منطقة جمر تحت الرماد فيبتعدون عنها. «أين نستريح الليلة وكيف وسط هذا الرماد والفحم؟» سألت إيمارهوس جيبل وكانت قد اقتربت من دون أن يشعر بها، وهي تنقل قدميها بحذر وتأكل الحبوب. أبطأ السير وأسرعت دقات قلبه ولم يرغب في الالتفات حوله ليرى من يسمعهم أو يراهم.

«لا داعي للقلق، تعرفين أن الشاطئ غير بعيد، ويمكننا اللجوء إليه عندما يتطلب الأمر ذلك، فنزيل السواد ونستريح وتعودين نظيفة جديدة». كان بوده لو يصفها بالحبيبة وهو يحادثها، أو يرقق صوته، ولكنه تمنع. سارت إلى جانبه ورغب أن لا تبتعد بسرعة، فسألها ليبرر بقاءها قربه: «هل رأيت جديداً مثيراً أو مفيداً لدى الجماعة التي مررنا بها؟»

«لديهم أشكال فخار أكثر تعدداً مما عملته أنا». وضعت يدها على صدرها فنظر حيث حطت، ثم انثنى متظاهراً بالجمع محاولاً معرفة من يحيطون بهما. «وواحدة من الإناث لديها سروال غير جلدي، مصنوع من صوف الغنم البري، كما قالت، ولكنها لا تعرف كيف صُنع. أحضره لها الرجل صاحب الرمح». سألها إذا كانت تلك الأنثى زوجة للرجل، كان يعرف أنهم لا يتزوجون ولكنه أراد سماع تعليقها. «لا، الرجال يتناوبون على الإناث كما يشاؤون». ودّ سؤالها إذا كانت الإناث تختار أحياناً من تريد، ولكنه لاحظ حركات خجل منها، فعاد يسأل عن اللباس الصوفي وكيف

يستعمل كسروال. لم تجبه بل استدارت وانحنت لالتقاط شيء، ثم سبقته وانحنت أمامه متظاهرة للحظات بصعوبة في خلع جذور. شاهد مؤخرتها مغطاة بلباس جلدي، فعرف أنها تأكدت من عدم المراقبة المباشرة حين انحنت وهي إلى جانبه، وها هي تجيبه عن السروال. كانت قد ربطت الجلد ولحاء الشجر على قدميها، ثم لفت الجلد المنعم والمقصوص قطعاً عريضة طويلة، لفته على كل من ساقيها تاركة جزءاً في أعلى الساق وتحت السروال من دون غطاء، بينما يغطي اللباس العلوي كل جسدها حتى الركبتين.

«هذا هو السروال إذاً». قال بعد أن عادت بالقرب منه تأكل حبوباً وبندقاً، فضحكت مؤيدة بهزة رأس. «هل حبلت أم لا؟» لم ينتظر إجابة وأضاف: «ولكن كيف ستحبلين وأنت لا تأكلين سوى هذه الحبوب؟». مد يده لها بقطعة مشوية من وسط ثعبان، فقفزت إلى الجانب الآخر متأففة. شعر باقتراب أحدهم من الخلف فسألها عما شاهدته أيضاً عند الجماعة عدا الفخار. قبل أن تجيب، أصبح هاني إلى جانبه متسائلاً عما جعل زوجته تقفز جانباً. «إنها تخاف من الثعبان حياً أو مشوياً. رفضت أن تأكل هذا». أخذ هاني اللحم المشوي وأكل منه معلناً لذة طعمه، فهرولت إيمارهوس إلى الخلف وهما يضحكان. «عليك أن تهتم بإطعامها إذا كنت لا تريد لها أن تنكسر من النحافة».

«أشجعها على ذلك، ولكنها تفضل الحبوب والسمك». كف هاني عن الضحك وسأل جيبل عن احتمال استمرار مسيرة النيران فتصل إلى جماعة مرمر ويعرفون أنهم السبب. أكد جيبل أن هذا الاحتمال ضعيف، فالشاطئ عن يمينهم وهناك نهر عريض وطويل جداً عن يسارهم بمحاذاة الشاطئ كما أخبره رجال الجماعة قبل أن يغادروهم. وكان قد قطع هذا النهر في موضع علوي أثناء رحلته إلى الحكيم، وهو عريض بالفعل، وحسب الجماعة،

فهناك نهران يصبان في البحر ويعترضان الطريق بيننا وبين مرمر. «سيكون علينا الإعداد لتجاوزهما في القريب إذاً؟» قال هاني فأجاب جيبل بأن أمامهم ثلاثة أيام تقريباً قبل الوصول إلى النهر، وطلب من هاني أن يسبق المجموعة بعد يومين مع اثنين آخرين ليتفحص أسهل الطرق للعبور.

«عليك البحث عن منطقة عريضة غير عميقة يمكننا اجتيازها سيراً، أو أخدود عميق وضيق يمكن أن نرمي عليه جذوع أشجار طويلة ونعبر فوقها، وإذا لم تجدوا شيئاً مناسباً سنتجه إلى مصب النهر في البحر فنربط جذوع شجر متناسقة بعضها ببعض ونعبر عليها إلى الجانب الآخر حيث يهدأ التيار مع لقائه البحر». قال جيبل أيضاً لهاني بأن الأفضل والأسرع هو المكان العريض الضحل في مجرى النهر. عاد هاني إلى إيمارهوس وانحرف جيبل حيث شاهد حفيدته، عشم، ترضع من أمها التي بدورها تتقبل قطع اللحم من نامور. كانت السعادة تملأ وجهه، وصار يناغي عشم ويخبرها بحكمة جدتها صاحبة فكرة فتح الطريق وتأمين المسيرة بالنار والدخان.

قطعوا النهر من أوسع منطقة له حيث يصب في البحر عبر أراضٍ رملية. ساروا كتلة متراصة ليدعموا بعضهم بعضاً إذا تطلب الأمر، وحمل أربعة من الأشداء كل ما جمعوه من طعام. بط وإوز سقط مختنقاً من الدخان أو حوصر من النار وهو يرقد على بيضه، وغزلان صغيرة حديثة الولادة لم تتمكن من مجاراة أمهاتها في الهروب، وبعض الثعابين، كلها لحوم شويت مجدداً لتصبر معهم. الخطة التي اتفقوا عليها أثناء المسير في النار مفادها جمع ما يجدونه من الطعام وحمله عبر النهر والسير إلى مرمر بمحاذاة الشاطئ، فالمسافة قريبة والأرض سهلة، ولن يعيقهم جمع الطعام أثناء المسير، وسيكونون بأمان نسبي من الحيوانات بين النهر ومرمر.

مر الوقت عليهم من دون الشعور بطول الأيام بالرغم من مسيرهم

المرهق كل يوم. يسيرون منذ الصباح الباكر حتى تشتد حرارة الشمس فيستريحوا ثم يواصلوا المسير حتى ما بعد الغروب منتهزين ضوء نصف القمر الذي يضيء لهم الشاطئ. أحاديثهم الجماعية العلنية كانت عن المستقبل والأماكن التي تنتظرهم، أما أفكارهم الخاصة فتشرد إلى ما تركوه خلفهم وما سيلاقونه أمامهم. أما قورق فلم يكن يفكر إلا في حاضره، وقد أصبح الآن يسير أمامهم على رمال الشاطئ إلى جانب المهرة يضغط أحياناً بثقله عليها ليعوّدها ما ينتظرها قريباً. فجأة توقفوا على صراخ قورق وهو يشير إلى البحر، فشاهدوا بوضوح ثلاثة قوارب فيها رجال يبدو أنهم يصيدون السمك. كانت الشمس قد غربت خلفهم، ولكنهم تبينوا الرجال في القوارب بوضوح، كما أن الصيادين شاهدوهم أيضاً وصاروا يلوحون لبعضهم، وقرر جبيل التوقف مع الجماعة على أمل التواصل مع رجال القوارب.

أشعلوا النيران بسرعة وواصل أطفال الجماعة التلويح للقوارب، وكان قورق يقود المهرة إلى داخل البحر ويعود من دون أن تغمر المياه الكثير من قوائمها فصار الكثير منهم يتمشى في الماء ويستمتع بحركة الموج الخفيف على السيقان. أبحرت القوارب تجاههم يدفعها الرجال بأعواد خشب طويلة، ثم نزل ثلاثة من الرجال وساروا على أقدامهم في الماء باتجاه الشاطئ. استقبلتهم الجماعة باطمئنان، فهم أكثر منهم عدداً وأفضل تسلحاً، كما أن تقدم ثلاثة منهم فقط لا يوحي بخطر. خرج الجميع إلى الشاطئ والتفوا قرب النار يتأملون بعضهم بعضاً ويتبادلون المعلومات. كانوا يصيدون بالرمح في المياه الضحلة على ضوء القمر، وقد حضروا من مرمر وإليها سيعودون في الصباح. انصب اهتمامهم على المهرة وتعجبهم من بقائها بين البشر وطاعتها لقورق. حمل الثلاثة بعض الشواء الذي قُدم لهم، وعادوا إلى القوارب بعد

أن تواعدوا على اللقاء في مرمر، وأخذوا أشوم معهم إلى القوارب ليعود ببعض السمك الطازج.

عمت الغبطة الجماعة نتيجة هذا اللقاء والتطورات التي تسير لمصلحتهم منذ مغادرتهم الكهف. ارتفعت الأحاديث الجانبية بين أفراد الجماعة كل يعرب عن شوق أو رغبة أو يبدي التعجب من سرعة الاقتراب من المحطة الأولى في مسيرهم، وتوقعات ما ينتظرهم هناك. «هل يتزاوجون في مرمر يا جيبل؟» جلست أمورا إلى جانبه تسأله، بل تحاول تنشيط أفكاره في ذلك الاتجاه، بينما تمسك بقدم عشم لمنعها من الزحف إلى شاطئ البحر.

«لم يسمح الظرف بسؤالهم، لكن حسب ما عرفت من الحكيم فإنهم يتزاوجون في المستوطنات الزراعية. إذا كانت مرمر كبيرة وبها الكثير من الناس الزراع، فعلى الأرجح أنهم يتزاوجون. أعتقد أنهم كذلك، فالثلاثة من القوارب لا يتشابهون في الملامح». صمت جيبل وهلة قصيرة إذ شعر أنه لم يحسن التعبير. «الذين لا يتزاوجون وينكحون أقاربهم المقربين جيلاً بعد آخر يكون خَلَفهم متشابهاً ومعظم أطفالهم يصابون بالعاهات ويموتون مبكراً». كان جيبل يتذكر ما سمعه في صباه عن هذه الظاهرة من شهود عيان. «..والذين رأيناهم لم يكونوا كذلك. غداً أو بعد غد سنرى». مر في ذهنه احتمال خوف أمورا على نفسها وبنتها وبقية الإناث، فأكد لها انعدام احتمالات الخطر البشري لأسباب كثيرة، فالرزق كثير، وسكان الزراعة يحترمون الأعـراف، فهم لا يخطفون الصيد أو إناث الآخرين من مكان إلى آخر، وكل منهم يريد معرفة ابنه ليشاركه في العمل ويرثه بعد الموت. كان يكرر عليها بعض ما سمعه من أورروك عن المزارعين، وأخبرها أنهم ليسوا في حالة حرب أو عداء مع أحد. وعندما لم يرَ في ملامح زوجته أي

اطمئنان نتيجة لحديثه قال: «يحميك عشرون من أشد الرجال، ونحن جماعة لا يستهان بها حتى لو كان سكان مرمر أكثر منا عدداً».

«قد يتراجع عددنا بعد مرمر». لم يفهم ماذا تقصد زوجته فنظر إليها طلباً للمزيد. «لدينا خمسة غير متزوجين، وقد يجد بعضهم زوجه ويبقى معها، وربما أقنعت إحدى زوجاتنا زوجها بالبقاء في مرمر إذا كانت الحياة مريحة وجذابة».

«هذا الخيار غير متوافر، وقد اتفق الرجال عليه منذ اليوم الأول، يوم زواج شيماس ونمس. الاحتمال الوحيد لنقص عددنا هو الموت، أو رغبة أي واحد في العودة إلى الأهل في الكهف». نظر إليها وقد نامت عشم في حضنها وأضاف بصوت منخفض: «إذا وجدنا فوائد كثيرة في مرمر فقد أعيد أشوم محملاً بكل جديد إلى القبيلة ليطمئن الأهل وينشر بينهم ما رآه، ويعرفهم بما يوجد بالقرب منهم، فربما تنشطوا وخرجوا من الظلام واختلطوا مع الآخرين».

«ولماذا أشوم بالذات هو من تفكر في إعادته؟»

«الشاب شارد الذهن دوماً وأظنه مشتاقاً إلى والدته، ثم إنه لا فرق بين إرساله أو غيره، وذلك كله يقرره ما سنراه في مرمر». نام جيبل وهو يفكر في سؤال أمورا عما سيقول إذا سأله سكان مرمر من هو وما اسم سكناه الذي جاء منه، هل ينسب نفسه إلى الكهف حيث تغرب الشمس أم إلى الأصل الذي خرج ليبحث عنه.

٤

«نحن هنا في بداية الطريق للبحث عن أصولنا والعودة إلى بلادنا. لم نخرج للرحيل طمعاً في حياة زراعية، ولذلك لا جدوى من مناقشة أن نتجه إلى أعلى أو إلى أسفل». كان هاني يتحدث مع الآخرين في مساء اليوم الثالث على دخولهم مرمر، حيث كانوا يجولون ويتفحصون نهاراً ثم يعودون للنوم في منطقة قريبة من البيوت. لقد عرفوا بوجود مستوطنة كبيرة على مسيرة قمرين من هنا، وعليهم الصعود مع النهر إلى منابعه ثم متابعة الصعود حتى يشاهدوا بحراً يسيرون على شواطئه حتى تلك المستوطنة، إذا أرادوها. تلك المنطقة ليست هدفهم، كما قال لهم جيبل، وإذا أرادوا متابعة الوصف المتوارث عن أجدادهم، فعليهم المسير إلى الشرق مع بعض الهبوط، وهناك على زمن قمرين أيضاً يصلون إلى هايوك، كما أكد لهم بعض أهل مرمر الذين تحركوا على هذا الطريق، يحملون السمك المدخن إلى المستوطنات المنتشرة حتى هايوك البعيدة عن البحر والسمك. كان حديثهم فقط مجرد تساؤلات، وأجمعوا على هايوك التي أكد لهم الجميع أنها تفوق مرمر في التعداد والبناء والفخامة. لم يفيقوا بعد من صدمة ما شاهدوه إلى الآن، وكل ما يسمعونه عن أماكن أبعد هو أفضل مما مروا به.

عجلات حجرية تدار بالأيدي وتطحن الحبوب، ثم تحول الإناث هذا المطحون إلى عجين يطبخ على النار ويؤكل. مساحات واسعة مزروعة

بالحبوب البرية قبل الشتاء يتم حصدها الآن. الحبوب تجمع في أوانٍ فخارية كبيرة، والعصب يخلط مع الطين والماء ويصنع منه قوالب تجفف في الشمس وتنتصب به البيوت، بعضها أماكن مستديرة يخزنون بها منتجاتهم، وبيوت أخرى مربعة ومغطاة يقطنونها وينامون فيها في أمان من الحيوان، وتكون لهم خصوصية بعضهم عن بعض. مساحات على الشاطئ مخصصة لتجفيف السمك المعلق في الشمس، وأفران تنتج الدخان فيخرج منها السمك النظيف ملوناً بالأصفر ولا يفسد لزمن طويل. هذا المُنتج يحملونه إلى مناطق أبعد ويجلبون منها جلوداً وأصباغاً ومكسرات.

«لماذا يتخذون من الثور إلهاً يقدسونه؟» سأل أشوم عمه وهم يتسامرون مع بقية الجماعة. لقد شاهد أشوم مع الآخرين أصناماً للثور ورسوماً كبيرة داخل بيت العبادة المستدير، عندما أخذهم صيادو السمك لشكر الآلهة على سلامتهم. ذهبوا معهم إلى المعبد وقلدوهم في الفعل والقول وهم لا يفقهون. أشار جبيل إلى ابن أخيه بأنه لا يعرف الجواب، فقد خجل، أو الأحرى، تخوف آنذاك من السؤال والاستنكار لما يفعلون فقرر مثل الآخرين السكوت. مع اتضاح جهل الجميع حول هذه العبادة، ذكر جيسون، أخو نمس زوجة شيماس، أنه شاهد منذ زمن في كهف غير مأهول قريب من منطقتهم رسوماً لحيوان يشبه هذا الرسم الذي رأوه في المعبد. «لا أعتقد أن أحداً شاهد هذا الحيوان بالفعل سوى في الرسوم». لم ينفِ الحضور مقولة أشوم هذه، ولكن جيسون قال إن الرسم في الكهف وفي المعبد يوحي بحيوان قوي جداً، وربما أمكنه قتل الدب أو الأسد بسهولة.

«لكن السهم الذي يطلقونه من أقواسهم قادر على قتل أي حيوان ومن بعيد أيضاً، فلماذا لا يعبدون السهم؟» تساءل هاني الذي اهتم كثيراً في الأيام الماضية بكيفية صنع واستعمال هذه السهام التي تتميز عما يعرفونه

بأن صيادي مرمر يضعون ريشاً مربوطاً في مؤخرة السهم، وقوسهم أكبر وجلدته مبرومة وأشد مما لديهم. هكذا إذا أطلقه متدرب قوي، يمكن للسهم الوصول بدقة إلى مكان أبعد.

«ربما يكون هذا الحيوان لديهم رمزاً أو إلهاً للفحولة والإخصاب». قالت أمورا ما همست به إيمارهوس لها، بعد أن تذكرت أن اسمها مأخوذ عن صنم الأنثى الذي يمثل الخصوبة.

«دعهم يعبدون ما يشاؤون». قال جيبل الذي تدور في رأسه أشياء أخرى. «قريباً ننطلق إلى هايوك، وكل يوم بعد ذلك سيحملنا بعيداً عن الكهف». سكت وأنصتوا له إذا شعروا بأهمية ما سيكمل به حديثه. «من يريد العودة إلى الأهل فهذه فرصته الأخيرة. عليه أن يعلن ذلك الآن لنسعى في توضيح كل شيء له ليخبر به الأهل ويستفيدوا مما عملنا ورأينا حتى الآن». صمت جيبل على أمل أن يتطوع أي واحد من الرجال لهذه المهمة ولكن بدون جدوى. لقد بهرتهم مرمر، وتعلقوا بما سمعوه عن هايوك. «إذا لم يتطوع أي واحد فلا بد من اختيار أحد الشباب غير المتزوجين. ما عرفناه إلى الآن مهم لأهلنا ويمكن أن يخرجهم من الكهف إلى بيوت الطين المسقوفة، وبالزراعة تتوافر لهم الحبوب ومطحونها في الشتاء، وبتجديد القوس والسهم نوفر لهم أماناً أفضل وصيداً أسهل». نظر إلى أشوم وهو يتحدث، ولم يكن أحد غير أمورا يعرف بنياته هذه، لكن الشاب لم يتجاوب، فقد وصل بأفكاره في الأيام المنصرمة إلى ما بعد هايوك.

«هايوك ليست بعيدة بالفعل».. قال هاني وأضاف وسط إنصات الآخرين توقعاً لحل ما: «..وربما نجد في الطريق إليها وفيها منافع أخرى للأهل يعود بها من هناك من يتقرر أن يعود حينذاك». كانت إيمارهوس مبتهجة في الاستماع مع بقية الإناث لهذا الحديث ومشاركة زوجها بفاعلية،

ولم تكن أي أنثى تتمنى أن يقع الاختيار على زوجها للعودة إلى الكهف. التقت عيناها جيبل وهو يستمع لتعليق هاني. «استغرقنا قمراً حتى الآن، وإذا كان علينا المسير قمرين آخرين حتى هايوك، فإن من سيعود منفرداً مسرعاً من هناك بعد موسم الأمطار سيصل في وقت مناسب، وسيكون الأهل قد تشوقوا لأخبارنا».

«الإشكال يا هاني ليس في الزمن والسرعة، ولكن المخاطر التي تواجه الفرد في الترحال أكبر مما تواجهه الجماعة. والأهم من نقل متكامل لكل ما رأينا وسنرى هو إبلاغ الأهل بوجود هذه الأشياء على قرب منهم، وأن ما عليهم الآن سوى التنقل والتعلم والمشاركة».

«من بعد الآن سيكون له الحظ والاحترام والشكر عند كل جماعات قبيلتنا، ذكوراً وإناثاً». قال شيماس وهو ينظر إلى أخيه أشوم وأضاف: «وبعد موسم شتاء أو اثنين سيكون بوسعه تشكيل مجموعة جديدة تتبع أثرنا حتى نلتقي مرة أخرى بعيداً عن هايوك».

«أترون أن المستقبل يعمل لمصلحة إيمارهوس!» قالت أمورا وسط دهشة الجميع، «إنها تحب الحبوب والسمك، وها هو المستقبل يُصنع من زرع الحبوب وصيد السمك، ولن يكون عليها بعد الآن الجمع، بل الطحن والعجن والطبخ». ضحك الجميع وعلقت النساء أن الجمع أسهل من هذه المهام، وخرج الرجال من ضرورة الإلزام باتخاذ قرار متى ومن يرسلون إلى الأهل، وانشلغوا في أحاديث جانبية. «كنت تريد إعادة أشوم لأنه سارح الذهن من حنينه إلى أمه، وها هو يرفض هذه الفرصة». قالت أمورا لزوجها بصوت منخفض وهو يمط شفتيه ويحك ذقنه. «ربما نتعلم بالفعل أشياء أخرى في الطريق، ثم إن طول المدة يسهل الاستيعاب على الشباب فيحسن

التقليد حين يعود. هل تريد أن أقص لك شعرك؟» أرادت إخراج زوجها من التفكير في أهل الكهف.

تبسم وهو يسمع سؤالها عن القص، تذكر أوروك الحكيم، وكيف استمرت رائحة الشواء في وجهه طوال رحلة العوده إثر إحراقه شعر ذقنه وأذنيه. أشار إلى زوجته بالإيجاب في قص شعره، وعادت ملامح الشرود وهو يحلل سبب هذه الرحلة وكيف أقنع هاني بها ثم جولتهم على الآخرين، وها هي الرحلة تأخذ طابعاً آخر عما ظنه، بل إن إيمارهوس صارت أقرب عاطفياً إلى زوجها، ولم يعد لديه الوقت للتفكير فيها وتمنيها كما كان في الماضي، لا يزال يحبها وينشرح لرؤيتها، ولكنه لم يعد يتمنى جسدها، بل إن جموحه الجنسي وخيالاته في تراجع كلما ابتعدوا عن الكهف وتوغلوا في المستقبل. «أزيلي كل ما تستطيعين من شعر الرأس والذقن، حاولي أن يكون الباقي بالطول نفسه». طلبت منه السكوت والثبات حتى لا تجرحه. صارت تمسك كتل الشعر بيد وتقصها بسكين حجري حاد تمسكه باليد الأخرى. لقد أعجبها شكله بشعر قصير، ولكنها لم ترتح للحلاقة بالنار، فصنعت هذا السكين الحاد الذي لا تستعمله سوى لقص الشعر. «هل يوجد الكثير من الشعر الأبيض في رأسي؟» سألها وهو ينظر إلى ما ترميه على الأرض، فطمأنته أن السواد لا يزال يغلب البياض، وأن المشكلة هي نقص الكثافة في أعلى الرأس. «في الصباح سأنظر في إناء الماء لأرى ماذا فعلت». كان يتحسس ذقنه ورأسه وهي تبعد يده وتنذره أنها لن تتحمل النتيجة إذا لم يهدأ.

استقر رأيهم بسهولة على عبور الطريق الجبلي إلى هايوك، إذ قيل لهم إن طريق الشاطئ يأخذهم في طريق شبه دائري إلى هناك، والشاطئ متعرج وله خلجان كثيرة تدخل وتخرج من البحر، كما أنه سيستغرق منهم زمناً أطول. لو كان الطريق الساحلي أقصر وأسهل لفضلوه لما يوفر لهم من

حماية ومصدر طعام آمن، ولكنهم في النهاية جماعة من الصيادين الأشداء لا يصعب عليهم توفير الطعام وتأمين الحماية، فلم يترددوا حين عرفوا بفرق الزمن بين الطريقين، وأن جماعة من أهل مرمر يرغبون في مرافقتهم في الطريق الجبلي لتبادل السمك المدخن بمنتجات جبلية.

تأخرت رحلتهم يوماً آخر إذ مات أحد سكان مرمر أثناء نومه. نقلوه إلى البناء المستدير ووضعوا على وجهه قناعاً فخارياً، وتحدث إلى الميت وإلى رسم الثور رجل حسن الملبس يغطي رأسه بقبعة جلديه. ثم أعادوه إلى بيته، وكان البعض قد حفروا له في الأرضية قبراً مستديراً أنزلوه فيه بوضعية الجالس القرفصاء ثم أهالوا عليه التراب فعادت أرضية البيت كما كانت. لم يستغرب الجماعة مراسم الدفن، فهكذا كانوا يفعلون في أماكن مناسبة في الكهوف، لكن استغرابهم كان من دفن الميت متكوراً، ومن مكان الدفن تحت الأحياء مباشرة، ومما قاله وفعله محترمهم للميت والثور. كان التفسير الذي دار بينهم أن التكوير مرده إلى توفير المساحة للأموات التابعين من أهل البيت، وهم مثل غيرهم يخشون على الجثث من الحيوانات إذا دفنوها في العراء، أما مخاطبة المحترم للميت والرسم فقد عصي على فهمهم، وإن كانوا يعرفون الآن أن للمحترم ولرسم هذا الحيوان دوراً في حياة وممات أهل مرمر.

كانت الطريق في الثلاثة أيام الأولى تصعد تدريجاً وسط غابات كثيفة بالكاد يتخللها ضوء الشمس، وكلما ظهر على الجماعة الخوف والحذر كان تجار السمك الثلاثة يطمئنونهم، بأن أهل مرمر قد قضوا على غالبية الحيوانات المفترسة هنا، ولذلك كثر الصيد. في اليوم الرابع خفت رائحة السمك المدخن الذي يحمله الثلاثة، وكانت الروائح هي مصدر الإزعاج للجماعة، وسبب قلقهم بأن تهتدي حيوانات مفترسة إليهم، تفاجئهم في

هجوم قاتل. كانت الرياح تهب من خلفهم، فتعلل جيبل للتجار في اليوم الثاني من الرحلة بجهل الطريق طالباً منهم السير في المقدمة، هكذا أقله تتجنبهم الرائحة. في بداية اليوم الرابع وصلوا إلى مساحات طينية جرداء وشاهدوا جبلاً هائل الارتفاع تغطيه الثلوج حتى ما تحت وسطه. شعروا بالقشعريرة من مزيج الخوف وتخيلات البرد، ولم يكن التجار قد أخبروهم بما سيشاهدونه. تقدم جيبل منهم وسايرهم بعض الوقت ثم عاد إلى المجموعة. «هذه بداية سلسلة جبال متصلة ومغطاة كلها بالثلج على الدوام في كل المواسم، لن نتسلقها طبعاً، وقالوا إن الطريق سينحرف إلى أسفل ونسير ثلاثة أيام كاملة في ظل هذه الجبال حيث نصل إلى مستوطنة بحجم مرمر». أعلن بعض الشبان رغبتهم في الوصول إلى الثلج ثم التقاء الجماعة، ولكن جيبل طلب منهم التروي، وأخبرهم أن الجبل لا يزال بعيداً حتى وإن بدا لهم غير ذلك. «أتعرفون أن الروايات المتناقلة منذ أجداد الأجداد تقول إن كل المناطق التي نعرفها كانت مغطاة بالثلج مثل هذا الجبل؟»

«لهذا يا عمي نريد الوصول إلى الثلج لنرى كيف عاش الأجداد الأوائل».

«سيكون بوسعك، ومن يريد أيضاً، فعل ذلك عندما نصل إلى المستوطنة. حينها يستريح من يريد ويصعد إلى الثلج من يريد». قال جيبل لأشوم وأوضح للجميع أن الطريق غير آمن بالضرورة، ولا داعي للمغامرات غير المحسوبة. قبل أن يُنهي جيبل حديثه قالت نمس إنها تشاهد عدة نقاط بيضاء تتحرك هابطة في الاتجاه الذي يسيرون إليه. لم يرَ غيرها شيئاً عم تتحدث عنه. كانت تشير إليهم ولكن وصفها ضاع في السهل الممتد بينهم وبين الثلج. أحياناً ينظرون إلى أعلى الجبل فتنعكس شمس ما بعد الظهر في عيونهم، ثم ينظرون إلى أسفل فلا يميزون في رؤيتهم.

«لا أدري ماذا رأت نمس».. قال شيماس لعمه «..ولكنها ذات نظر حاد جداً كما ثبت لي مراراً منذ زواجنا». زم جيبل شفتيه وقد أيقن أنها رائحة السمك قد سبقتهم، وتمنى أن لا تكون المفاجأة مع دببة، وأن لا تأتي ليلاً.

«دعها تواصل الانتباه وتبلغ عن كل ما تراه، وأبلغ الشباب أننا نتوقع دببة أو قطيع ذئـاب». لم يكن الخطر قريباً، ولكن الجميع عرفوا قصد جيبل بأن وجود دببة أو ذئاب على مسيرة نصف يوم لا ينفي وجود خطر مشابه قريب جداً منهم الآن. أبلغ شيماس الآخرين بطلب عمه، فتحلقوا حول الإناث وانتقلت أسلحتهم من ظهورهم إلى أياديهم. وانتقل اثنان من مسلحي القوس إلى الأمام، فهم خط الدفاع الأول والأنجع في هذه الأرض المفتوحة أمامهم، خصوصاً إذا كان المهاجم دباً كبير الحجم بطيء الحركة، تخفف السهام من اندفاعه ويقضي عليه بقية الصيادون عن قرب طعناً بالرماح.

«لماذا تحملون السمك إلى المستوطنات الأخرى؟» سأل جيبل الرجال الثلاثة وقد اقترب منهم ليكون بالقرب من المقدمة. «ألا يوجد سمك في هذه البرك والأنهر التي لا تنتهي؟ وماذا عن الصيد بأنواعه». كانت الجماعة قد رصدت الكثير من الحيوانات أثناء المسير من مرمر إلى الآن، مثل الماعز والخنازير والطيور.

«الأنهر مليئة بالسمك، ولكنه ليس بجودة سمك البحر، والمدخن له طعم مميز». ورائحة مميزة قال جيبل لنفسه بعد تلقي الإجابة، وكانت عيناه تمسحان الأرض أمامهم بشكل دائم، يرى برك الماء، تجمعاً للشجر، جدول ماء، مرتفعاً أرضياً، أي شيء يمكن اللجوء إليه أثناء صد الهجوم المتوقع.

«ألا يكفيهم سمك النهر وكل أنواع الصيد المتاح من حولهم وما يزرعونه في الأرض؟» لم يكن جيبل يساير الثلاثة قتلاً للوقت بهذا السؤال،

ولكنه بالفعل يستغرب سر نقل مأكولات عبر طرق وعرة وخطرة، بينما الطعام متوافر في كل مكان.

«المُزارع لا يصيد، لا وقت لديه. وسكان المستوطنات عموماً يقضون معظم وقتهم في البيوت وبالقرب منها. هؤلاء لا يمكنهم الاكتفاء بالحبوب، وطالما أنهم يقايضون الحبوب ومنتجاتها بلحوم الصيد، فلماذا لا ينوعون في الطعام ويبادلون بالسمك المدخن». قال أحد الثلاثة لجبيل وأضاف آخر: «في الحقيقة إن من يهتم بمنتجنا هم علية القوم، الذين يتذوقون الجودة، ويفضلون التميز».

«وأنتم، ما النفع الذي يعود عليكم من هذه المخاطرة؟»

«المخاطر في كل مكان أيها الصياد. ألم ندفن رجلاً مات في فراشه قبل بداية رحلتنا؟ ألا تخاطر أنت يومياً بحياتك لجلب الصيد إلى جماعتك؟» شعر جبيل بوخز الضمير وهو يسمع الإجابة وظن أن أسئلته فهمت كاتهامات، وكان بالفعل قد اتخذ موقفاً ضد روائح السمك. «أما منافعنا فهي في المبادلة المتتالية. نبادل جزءاً من السمك مع شيء يميز المكان الذي نصل إليه، ربما يكون لديهم نوع من حبوب جيدة للزراعة غير البرية الصغيرة، فنأخذها إلى المستوطنة التالية ونبادلها بشيء مختلف. في طريق العودة نكرر الأمر نفسه ولكن ببضائع أخرى. كل نوع لا نملكه في مرمر، نحتفظ ببعض منه ونعيده معنا». صمت جبيل ولم يعلق على ما سمعه، فقد لمعت في رأسه فكرة بأن يقلد التجار في طريقه الطويل، وأن يحتفظ بشيء من كل خفيف مفيد ومميز حتى يصل وجماعته إلى هدفهم محملين بالإنجازات. رأى أن التجار يصنعون الجميل أينما حلوا وهم يعطون على الدوام وسيجدون نتيجة أفعالهم في دنياهم، ولسوف يستفيد كل البشر بسبب ترحلهم ومخاطرتهم بحياتهم. تنبه للخطر المنتظر، وقرر أن يناقش الجماعة ليلاً في الأمر إذ

عليهم حمل كل ما سيجمعون، وستكون الأيام طويلة أمامه للتعلم من هؤلاء وكيف يبادلون ويعرفون المهم من الأهم.

سمع الجميع تحذير نمس باقتراب الخطر من جانب جبل الثلج. استداروا بسرعة على شكل سهم، وأصبحت الإناث والصغار في الخلف، والرجال في مواجهة الجبل وعلى طرفي الإناث. وصلهم العواء ولم تتأخر الذئاب عن الظهور. طلب جيبل من تجار السمك أن ينزلوا حمولتهم مكانها وينضموا إلى الجماعة. ترددوا في البداية ولكنه صرخ فيهم وأكد أن لا حاجة للخوف فلن تضيع سمكة واحدة. أخذ الجميع، بتعليمات من جيبل، بالتراجع البطيء بعيداً عن الجبل وعن السمك، ثم أوقفهم على مسافة السهام من كومة السمك التي أصبحت بين الذئاب وبينهم.

«إذا حالفنا الحظ سيتقدم القطيع كله من السمك وحينها نمطره مرة واحدة بالسهام عندما يصل أولها إلى السمك. إذا انقسمت إلى فريقين ومكث جزء من القطيع في الخلف فعلينا رمي المتقدمين بالسهام والهجوم حتى نسترد السمك ونخيف بقية القطيع». فهم الجميع التعليمات وطلب جيبل من شيماس وهاني ونامور أن يبقوا مع ثلاثة آخرين مع الإناث ولا يغادروا المكان تحت أي ظرف. كان يعرف ذكاء الذئاب واحتمال أن يلتف أحدها في هجوم من الخلف يشتت الصفوف.

كان الحظ حليفهم إذ هجمت الذئاب قبل المساء، ولكنها لم تتقدم كلها من كومة السمك. قبل أن ينهش زعيم المهاجمين السمك انغرس فيه سهمان، وانهالت سهام أخرى على بقية فريقه فقتل بعضها وانسحب غيرها نازفاً. قبل الانطلاق ركضاً لإرهاب بقية القطيع في الخلف وصلت هناك سهام التجار الثلاثة، صاروا يركضون إلى أسماكهم ويطلقون السهام على القطيع المنتظر في الخلف، واتضح للجميع أنهم من مستعملي الأقواس

بعيدة المدى، فلحقهم بعض الرجال محدثين ضجيجاً وساعدوهم على استرداد حمولتهم. جمعوا الذئاب المقتولة وتركوا فوقها ثلاث سمكات ثم واصلوا مسيرهم مسرعين للابتعاد قدر الإمكان عن ذلك المكان والعثور على موقع مناسب لقضاء الليل فيه.

اعترض طريقهم نهر، فانحدروا معه بحثاً عن مكان مناسب لاجتيازه، ولكنهم شاهدوا بركة ماء تعترض مسار النهر. حطوا رحالهم حيث أصبح ظهرهم وجانبهم مؤمنين بالمياه، ولا يمكن للذئاب الوصول إليهم إلا من الأمام، وكان أشد الفرحين بذلك فورق خوفاً على المهرة التي لم يبتعد عنها لحظة واحدة طوال الوقت. أسرعوا تلقائياً بجمع الحطب، وكان بعضهم قد حمل ما استطاع أثناء انحدارهم مع النهر. كانوا يعرفون أن أمنهم الليلة مرتبط بحجم النيران التي يمكنهم إشعالها والحفاظ عليها. هكذا أشعلوا الحطب في عدة مواقع تسد الطريق عليهم، وأشعلوا ناراً أخرى وسطهم تجمع حولها معظمهم بينما البقية يتحركون قرب الماء حاملين رماحهم لاصطياد العشاء. لم تكف الرياح الخفيفة عن حمل العويل إليهم. سأل البعض إذا كانت الذئاب تبكي قتلاها، وأجاب آخرون كان الأفضل لو لم نبقِ منها على من يبكي.

عرف جيبل أن التجار يكررون هذه الجولة كل موسم صيف، أحياناً يكونون أكثر من ثلاثة، ولكنهم لا يقلّون عن ذلك. «لقد بحثنا في المرة السابقة عمن يساعدنا على حمل البضائع مقابل نصف حصة مما يتبقى لدينا، ولكننا فشلنا في كل المستوطنات، من يتقبل الفكرة يرد حصة كاملة». وسأل جيبل التاجر لماذا لا يكسب شريكاً ومساعداً على الدفاع بحصة كاملة. «لأنه سيتاجر بما يحمل ولن يعود علينا بالنفع، لكننا بالطبع نرحب بكل من يريد أن يسير معنا بين المستوطنات ويحمل ما يريد لنفسه». تمنى جيبل لو تنجح

فكرة استئناس الخيول أو الحمير الوحشية فتحمل عليها البضائع ويسهل الدفاع عنها، ولا تطالب بشراكة.

انخفض العويل حتى انقطع، ولكنهم جميعاً يعرفون أن هذا لا يعني انسحاب الذئاب، وأنها قد تهاجم الليلة أو تلاحقهم غداً، لكن ثقتهم بأنفسهم كانت عالية بعد نتيجة الجولة الأولى والعثور على هذا المكان الملائم للمبيت. تذكر جيبل الحكيم المُخدر، وأنّب نفسه لعدم السؤال آنذاك عن كيفية الاسترخاء. لو عرف تلك المعلومة لوضع المطلوب في بعض السمك المدخن وتركها للذئاب لترتخي حواسها وتنسى طبيعتها، بل يمكن بهذه الطريقة الإمساك بحيوانات متوحشة. سأل التجار إذا كانوا يعرفون حكيماً في الطريق، فأبلغوه برؤيتهم لأحدهم بالقرب من المستوطنة، أي على مسافة يومين من هنا إذا سارت الأمور على ما يرام.

٥

تربعت المستوطنة وسط سهل أمام جبل الثلج وأسفله ونهايته بأكثر من مسيرة يوم، واختير موقعها بين نهرين هما عنصر أمان للبشر، وحياة خصبة للزرع. كانت الأراضي مقسمة، بعضها مزروعة وأخرى متروكة لتستريح من الزراعة، فهم يزرعون الأرض مرتين ويتركونها مرتين قبل العودة إليها. كانت أشبه بمرمر من حيث البيوت المربعة والدائرية، ولكن مخازنها أكبر وأكثر، وبها صناعة فخار لأوانٍ ذات حجوم كبيرة ولأخرى ذات استعمالات خاصة. أكثر ما شد انتباه إناث الجماعة هو وجود ماعز يتحرك في المحيط برعاية إناث من المستوطنة يجمعن الحليب قبل المساء حيث تُحشر الماعز في بيوت طينية ليسهل حلبها وتقضي الليل بأمان من أي حيوانات مفترسة قد تتسلل إلى المستوطنة. عدة عائلات تخصص أفرادها في تربية الماعز وتوليدها، يرعونها نهاراً حيث العشب قرب المكان، ويعودون معها وهي مثقلة بالحليب الذي يتقاسمونه مع صغارها. كانت سمان هي الأكثر اهتماماً ودراسة لتربية الماعز وكيف يتعاملون مع الحليب، وقد تمنت على والدها، جيبل، أن يتروى قبل مغادرة هذا المكان، فربما شاهدت مخاض بعض الماعز منتفخة البطون، وتعلمت المزيد في هذا المجال.

كان جيبل بدوره يرافق التجار كل يوم ويجلس معهم قرب المعبد يتعلم فنون المقايضة وأهمية السلع المعروضة للتبادل مع السمك. يرفض

التجار الملح لأنه كثير عندهم في مرمر، يظهرون التردد في مقايضة بعض سمكهم بجبنة مصنوعة من حليب الماعز. قالوا لصاحبتها إن الإناء ثقيل عليهم لينقلوه معهم، والمستوطنات التالية لديها ماعز، فردت عليهم بأن المستوطنة التالية لديها خنازير، ولا توجد ماعز إلا في هايوك. ثم أغرتهم بأنها ستحتفظ لهم بالجبن حتى يعودوا من رحلتهم فيأخذوا الإناء الفخاري معهم إلى مرمر، وعندما قالت لهم إنها بذلك تخفف عليهم حمل السمك من هنا إلى منطقة أخرى، نظروا بعضهم إلى بعض، وأعجب جيبل بقدرات هذه الأنثى التفاوضية. قايضوا مزارعاً بثلاث سمكات فقط بجلد فهد كان المزارع قد قايض به صياد بقمح مطحون ومخبوز، ولكن لم ترغب الزوجة في اقتناء الجلد في البيت. المقايضات الأكثر دارت حول حبوب القمح والشعير كبيرة الحجم، ضعفي النوع البري تقريباً. الأرض هنا خصبة من طين الجبل وأنهاره الباردة، فأصبحت البذور أكبر، وهذا يُشجع على حملها معهم ومقايضتها مع آخرين في الطريق. نجحوا في استبدال عشر أسماك بخمس قرب مصنوعة من جلد الماعز، ويمكن تخزين السوائل فيها. مُربو الماعز يضعون الحليب في قرب كهذه ويخضونه فترة طويلة حتى تنفصل عن السائل دهون تستعمل في الأكل والطبخ، بينما الحليب المتبقي بعد الخض يُملح ويُشرب ويستمر فترة معقولة من الزمن بفضل الملح. كان التجار يُخبرون كل مهتم بالسمك أنهم يريدون مبادلة كمية صغيرة فقط هنا والبقية مطلوبة سلفاً من هايوك، وفهم جيبل أنهم يتعمدون ترويج هذه الإشاعة حتى يحافظوا على قيمة عالية لأسماكهم.

في اليوم الثالث عاد الشبان من جولة وصلوا فيها إلى بداية الثلج وسط الجبل. كانوا قد غادروا تخوم المستوطنة بعد يوم من وصول الجماعة والتجار إليها، اطمأنوا إلى الوضع ثم انطلقوا إلى الجبل. عادوا ومعهم

ما أوصاهم جيبل بجمعه من الأعشاب المخدرة التي شاهدها عند الحكيم قبل وصولهم إلى هنا، وكان قد أخذ عينة منها مقابل سمكتين مدخنتين أخذهما من التجار. حمل الشبان معهم أيضاً ثلاثة ثعالب رضيعة وجلد أمها، وتولت أمورا فوراً إطعامها الحليب، إذ صارت تبل إصبعها بحليب الماعز وتدخله إلى خطم كل من الثعالب، وأنذرت الشبان إذا أرادوا أخذ الثعالب معهم فلا بد من مقايضة أحد مُربي الماعز للحصول على واحدة مدرة للحليب لتسير معهم. تلقفت سمان الفكرة، وسألت أشوم عما شاهدوه في رحلتهم وما يمكنهم إحضاره بسهولة، فأخبرها برؤيتهم حماراً هرماً بطيء الحركة. لم تستغرق سمان فترة طويلة لإقناع راعية الغنم، التي تكثر الحديث معها، بأن الحمار سيكون مفيداً جداً ويمكن للشباب أن يروضوه طوال فترة بقائهم هنا. لم تخبرها بأنه هرم ولكنها حدثتها عن قدرات الجماعة على ترويض المهرة التي أصبحت مطيعة. هكذا تمت الصفقة وعاد أشوم ونامور وجيسون لاصطياد الحمار، وترويضه، لمقايضته بالعنزة.

كانت الجماعة، كل يوم منذ وصولها إلى المستوطنة، تُبقي خمسة رجال وخمس إناث مع الأطفال في مكان اختاروه للسكن بين البيوت والمزارع، أما البقية فينطلقون لأعمالهم اليومية، بعضهم يصطاد لإطعام الآخرين، وغيرهم يتفرجون ويتعلمون مما يشاهدون عبر مساعدة المزارعين والراعيات والصناع. كانت إيمارهوس مثلاً تقضي وقتها في مشغل الفخار تساعد على إدارة الحجر بيديها وتشاهد كيف تشكل العاملة أواني أثناء الدوران. جرار وصحون وأباريق، وعندما تتعب من لف الحجر كانت تلون بعض الأواني الصغيرة التي جفت وأحرقت. وقد أخبرتها العاملة بأن سكان هايوك يقطعون رأس الميت ويضعونه في رأس فخاري شبيه ويحتفظون به في البيوت مع أصنام الآلهة، ونصحتها أن تتعلم هذا الفن وأن تجرب صنع

أصنام القوم من الطين ثم تنشفها وتحرقها وتصبغها. أما نمس فقد انشدت مجدداً لطواحين الحبوب وصنع الخبز، وكانت تصحب معها أخريات، وفي المساء يلتقي الجميع ويتبادلون الأخبار عما شاهدوا وعملوا، وينامون بأحلام ماذا سيفعلون عندما يستقرون، وكيف يجب عليهم تعليم الصغار كل هذه المستجدات.

«أين وصلت في أفكارك يا جبيل؟» سمعها وأفاق من بداية سهوه، واستغرب لوهلة أنه لم يكن يفكر في إيمارهوس، بل في الأعشاب التي أخذها من الشبان وتحفظ عنها. استدار ناحيتها وهمس لها بأنه يخطط كيف يصنيد بعض الحيوانات بالأعشاب المخدرة. «هل يمكن ذلك؟ لقد أصبحت كسولاً يا جبيل». فتح عينيه وهو يخبرها أنه ليس الكسل ما يحرك أفكاره، ولكن الأعشاب قد تفتح المجال لاصطياد حيوانات وطيور حية بدون قتل، ويستفاد منها بعد الترويض والتعليم. سكتت أمورا متوقعة منه بعض التفصيل.

«لو وجدنا طريقة نوصل فيها الحشائش إلى جوف الحيوان أو الطير وراقبناه لننقض عليه وهو مسترخٍ ونقيده، سنكون قد أنجزنا نصف المهمة. أما النصف الآخر فهو الترويض». بقيت صامتة فواصل إسماعها أفكاره: «الأفضل طبعاً الإمساك بالحيوانات وهي صغيرة حتى يسهل التعامل معها وترويضها عبر إطعامها وتعويدها إيانا. لا يمكن ترويض أسد كبير أو خنزير أو وعل أو ذي قرون. نحتاج إلى ترويض شيء جديد مميز ومفيد، لا ماعز ولا خنازير». أخبرته أنها تعرف ذلك ولكن ماذا وكيف. «لو رصدنا فرساً عشراء وأطعمناها الحشائش، سيمكن أسرها وتقييد حركتها حتى تلد فيتعودنا المهر»..

«الأفضل أن تأسر بقرة عشراء متوحشة، فإذا وضعت ثوراً نعتني به

ونتباهي بين القبائل والمزارعين بذلك لأنهم يقدسون هذا الحيوان، وبالتالي عليهم احترامنا». استغرب تطلعاتها، لم تر ابتسامته، ولكنه تمتم كيف سنوصل الحشائش إلى جوف حيوان يلتهم العشب، ثم أخبرها أن من السهل دس الحشائش في لحم حيوان ميت ليأكله حيوان آخر مفترس، ولكن كيف نغري أكل عشب بأكل عشبتنا بالذات؟ خطر له أن يخبرها بأن المزارعين لا يقدسون الثور وغيره من الحيوانات القوية ولكنهم يعتزون بقدرتهم على صيد هذا الحيوان القوي. لم يخبرها بذلك وكفا عن الهمس وعاد هو يفكر في سبل صيد حيوان مفترس، بينما سرحت هي في فوائد التحكم في الثور.

كان سيرهم في الأيام الأولى سهلاً لولا مشاكسة العنزة التي ترفض تقبل جلد الثعلب على ظهرها. لقد أوصتهم الراعية، صديقة سمان، بهذا الأسلوب الذي كانت تمارسه مع الماعز. إذا ماتت الأم وترفض الصغار الرضاعة من غيرها، فيتم التحايل عليها بوضع جلد أمها على عنزة أخرى. لم يكن الهدف أن ترضع الثعالب من العنزة، ولكن أن تسير خلفها مع الجماعة. في النهاية ربطوا الجلد في ذيل العنزة المشاكسة فنشطت في المسير حتى تتخلص من الثعلب الذي يلاحقها. وكان صغار الجماعة يتنافسون في حمل الثعالب والاقتراب بها من الجلد، وعلمتهم أمورا كيف يطعمونها بغمس الأصابع في الحليب ثم في خطومها، وأصبحت هذه حفلة يومية من العض والصراخ والضحك.

«كلما زادت حمولتنا، وانضم إلينا حيوان، تتباطأ حركتنا ويرتفع مستوى الخطر من الحيوانات المفترسة التي تتنبه إلينا وربما تقتل أحد صغارنا». بدا شيماس قلقاً وهو يخبر عمه بهذه الملاحظة، لكن جيبل طمأنه بإمكانية الاستغناء عن العنزة في أي وقت إذا استدعى الأمر ذلك، وذكره بأن المهرة تعودتهم بسرعة، وقال له إن المهم هو تعلم كيف نتعامل

مع هذه الحيوانات الآن، لأنها دخلت إلى عالم البشر والأفضل تدبر كيف يُستفاد منها. لم يخبره أنه يخطط لاصطياد حيوانات مفترسة وأن أمورا تتمنى ترويض الثور المقدس. لم يكن هناك خطر حقيقي يتربص بالمجموعة، فسيرهم الآن عبر أراضٍ مزروعة أو متروكة، وبين الحين والآخر يشاهدون مزارعين يقطنون بيوتاً طينية في تلك الأراضي توفيراً لوقت الذهاب والإياب إلى المستوطنة كل يوم.

«أفهم قورق بقيادة المهرة والعنزة خلفنا». نظر شيماس إلى عمه فشرح جيبل: «هذا الزرع مهم جداً لأصحابه، ولا يجوز أن نترك الحيوانات ترعى قمحهم وشعيرهم وعدسهم. هذه ليست براري تسرح فيها الحيوانات، وقد يطلق المزارعون السهام على المهرة والعنزة ويدعون الظن بأنها برية». استوعب شيماس رأي عمه وعاد أدراجه حيث يشد قورق العنزة بحبل خلفه وترك المهرة ترعى بحرية هنا وهناك ثم تلحق بهم. شرح له الأمر، وتظاهر قورق بالفهم والانصياع، وأخذ يصفر للمهرة حتى تلحقه.

«أعتقد أنني وجدت لك طريقة تخدير أي حيوان آكل للعشب». اقتربت سمان من والدها والتقط منها فوراً حفيدته عشم، وفهم أنها سمعت حديثه مع أمها في الليل لأنهم ينامون بعضهم جنب بعض. «اخلط لك العشب مع المطحون من القمح وأخبزه». لمعت عيناه وقبل حفيدته. «حينها يمكن الاحتفاظ بالخبز حتى تعثر على الحيوان المطلوب فتضعه في طريقه، وإذا لم يلتهمه أو لم يرهُ، يمكن استرداد الخبز لمحاولة أخرى». نعم إذا كانت أكلة الأعشاب تحب زرع القمح والشعير فإنها بالتأكيد ستأكل منتج القمح. قالت له ابنته إنها تحمل بعض هذا المطحون، فطلب منها الاحتفاظ بشيء منه حتى يحين موعد التجربة، وطلب منها عدم تعميم هذه الفكرة حتى لا يتم تخاطف الخبز المخدر من أعضاء الجماعة.

«حتى الحشيش عجن بعضه وتغير لونه وأصبح أشبه بطينة إيمارهوس التي تصنع منها الفخار. أتخوف أن يفقد فاعليته مع الزمن». أبلغ جيبل ابنته متسائلاً. «إذا احتفظ بالفاعلية فسوف نجمع كمية إضافية بعد الخروج من منطقة الزراعة إلى البرية والأعشاب، وإذا كان قصير العمر فيحسن استخدامه طازجاً ولا مبرر لحمله». أشارت عليه سمان أن يجرب على العنزة، فهي تلتهم كل شيء تقريباً. قطع جيبل لابنته القليل من المعجونة وطلب منها التنفيذ قبل الظلام.

انتشر الخبر أن العنزة تترنح وتكاد تسقط على الأرض. أمر جيبل بالاستعداد للمبيت، وحلب قورق العنزة بعد أن رقدت وهدأت على غير عادتها، وسقى الأطفال الصغار الثعالب من الحليب فنامت قبل أن يحاولوا إطعامها مما يأكلون كما يفعلون كل ليلة. بعض الصغار الذين كانوا يمصون الحليب من أصابعهم وهم يرضعون الثعالب، ضحكوا كثيراً ثم غرقوا في النوم. ارتاح جيبل لهذه النتيجة، وكان يتبادل النظرات والابتسام مع ابنته إلى درجة لفتت انتباه أمورا، ولكنهما لم يطلعاها على التجربة ونتائجها. بقي تكرار التجربة مع الخبز، وكان قد مر بذهن جيبل أيضاً أن يخلط الحشيش في الماء، ولكنه أيقن الآن أن فكرة ابنته هي الأفضل، وأن عليه إيجاد الطرق لإيصال الخبز إلى الحيوان العشبي المطلوب، أما الحيوانات المفترسة فأمرها سهل.

في مستوطنة الخنازير كانت الرائحة في كل أنف، وكل لسان في الجماعة يحث على المسير. أوصل جيبل الرسالة إلى التجار بأن عليهم المقايضة بسرعة أو اللحاق بالجماعة. لم يكن بالفعل يريد فراقهم فهم يعرفون الطريق والمستوطنات حتى هايوك. قال السكان للتجار إن السمك لن يصمد طويلاً في هذا الحر، والأفضل لو قايضوا المدخن بالمدخن، فهم

أيضاً يدخنون لحوم خنازيرهم. تدخل جيبل في المتاجرة فأبلغ رفاق الطريق أن يفضلوا حمولة أخرى لا تعرضهم للهجمات، ولا تكون ثقيلة. كانت لحوم الخنزير هنا أطرى بكثير من الخنازير البرية. في النهاية عُقدت الصفقة على بقية السمك بحمولة رجلين من جلود الخنازير المنظفة من الدهون والشحوم، وانطلق القوم غير نادمين، لكن جيبل احتفظ بخمس سمكات مدخنة ولفها في جلد حتى تحتفظ برائحتها إلى حين الحاجة.

خلال الإقامة القصيرة عرفوا أن قرية الخنازير تعاني هجمات الفهود على مخازن التدخين. وأثناء الابتعاد شاهدوا المزارع تحيط بالمكان وقد تم حصادها فاتضحت الرؤية على مسافة بعيدة في السهول. قبل الدخول إلى الغابة المحيطة صعد جيبل بعيداً عن خط سيرهم ووضع سمكتين محشوتين بمعجون الحشيش على أمل أن تستدرج الرائحة أي حيوان مفترس. واصلت الجماعة مسيرها ومكث أشوم وجيسون مع جيبل في موقع آمن يراقبون منه موضع السمك، وكان ثلاثتهم مزودين بالرماح وبقوس وسكاكين حادة. بعد فترة قصيرة نظر كل إلى الآخر غير مصدقين حظهم. فهد وصغيران اقتربا من السمك بدون أي حذر. التهم الصغيران السمك بينما الأم تراقبهما ثم تمددت بالقرب منهما.

ما العمل الآن؟ سأل جيبل نفسه بينما أشوم وجيسون ينظران إليه. «علينا الاقتراب بحماية الغابة ثم نهجم طاردين الحيوانات باتجاه الأرض الجرداء». قال جيبل لهما وهم يتسللون على الطرف بين الأشجار. لم يكن الوقت مناسباً لسؤال أي منهما عن الرغبة في التقدم لصيد الفهد وصغيرين لا يشكل أي منهما تهديداً للجماعة ولا ينفع لحمهما للأكل. عندما شعرت بهم الأم حاولت تنبيه الصغيرين ولكن بدون جدوى، فقد كانا يترنحان ولا يقويان على السير. وقفت بين صغيريها والرجال الثلاثة كاشفة عن أنياب

مرعبة وصارت تصدر صوتاً يعلو وينخفض مع صرخات مفاجئة. «لا ترموا الصغيرين، ركزوا على الأم فقط». أصدر جيبل تعليماته وشد القوس وهم يتقدمون بسرعة. كان يعرف أن الأم قد تقفز عليهم، وإن فعلت فسوف تحط على واحد منهم. عندما أصبحت في مجال الإصابة أطلق جيبل القوس على الهدف الثابت فأصاب خاصرتها، صرخت وركضت تصدهم ولكن السهم الثاني انغرس في صدرها، وغرز الثلاثة في رقبتها الرماح حتى همدت. اتجه جيبل إلى الصغيرين وقيدهما بإحكام، بينما جيسون وأشوم يسلخان جلد الأم.

لم يُخف جيبل فرحه وهم يسعون ركضاً خلف الجماعة حاملاً جلد الفهد على كتفه بينما جيسون وأشوم يسندان بين كتفيهما جذع شجرة معلقاً به فهدان صغيران لا يزالان هادئين. «سيكون على العنزة أن تدر المزيد من الحليب». قال جيسون فأجابه أشوم من خلفه بأن الصغيرين يأكلان اللحم، وسيكون على الجماعة زيادة الصيد حتى لا تذهب العنزة ضحية. استمع إليهما جيبل وهو يسبقهما ولم يعلق، ولكنه أقر لذاته أن تربية الصغيرين ستكون صعبة وأن معدتهما يجب أن تكون مليئة على الدوام. في الأيام الأولى سأطعمها اللحم المخدر ثم أخفف المُخدر وأزيد لها كمية الطعام، فربما تثق بنا.

«هذا المشروع لن ينجح يا جيبل، لا بد من التخلص منها». كانت أمورا تشير إلى الصغيرين المقيدين. طوال يومين وهي تشكل عبئاً على من يحملها وهي مخدرة، كما أن المهرة صارت تجفل وتصهل كلما ماء الصغيران، والعنزة تشاكس من يجرها بودها الهروب، والثعالب الصغيرة تبرز أنيابها وتغرس مخالبها في من يحملها. لم يتذمر أحد من الجماعة ولكن أمورا

كانت على الأرجح تعبر عن رأي أغلبيتهم، وهي تعرف أن الصعوبات لن تتراجع حين يكف جيبل عن تخدير الصغيرين.

«غـداً ستتغير الحال». قال باقتضاب وبصوت عال. لم يخبرهم كيف ستتغير الحال، ولم يقل لهم إنه سينهي المشكلة، فلم يكن يعرف ماذ ا سيفعل، ولكنه يعتمد على التفكير والاستشارة لتجاوز الصعاب غير المفاجئة، ولديه الاقتناع بأن الحل سيلمع في ذهنه أو سيصل إلى أذنيه. كان يريد إبقاء الحيوانين داخل المجموعة لتعويدهما رؤيتهم، لكن الخوف الطبيعي والنفور بين الإنسان القاتل والحيوان المفترس هو سيد الموقف إلى الآن. راودته فكرة أن يكون الصغيران في الخلف، هذا سيدفع المهرة والعنزة للركض إلى الأمام، ويهدئ من مخاوف الجماعة على الأطفال. وخطر له أن يخفف كثيراً من تخديرها ويجرها بحبل. لكن إن شاكست وجرت للخلف فلن يتمكن من جرها بالقوة، وإذا تنبهت للحبل يمكنها أن تقطعه بأسنانها وتعدو. اقترب منه نامور وذكره بفكرة حمل جلد الأم أمام الصغيرين. عرف جيبل أن ابنته دفعت زوجها ليساعده على الخروج من هذه الورطة، فأخبره بما يفكر فيه.

في الصباح سارت الجماعة يتقدمها التجار الثلاثة، وبقي جيبل ونامور مع الفهدين. ربطوا الحبال الطويلة حول الرقاب ومسح نامور جلد الأم على الصغيرين ثم وضعه على ظهره وجلس أمامها قابضاً على الحبل بينما جيبل يقطع حبال قوائمها. نهضت ونظرها إلى نامور الذي أخذ يتحرك إلى الأمام وجيبل يمسك برمحين بيد وعصا طويلة بيد أخرى ويتحرك خلف الصغيرين مرشداً إياها إلى الطريق بعصاً تصيب جنبيها إذا جنحت عن الطريق أو مؤخرتها إذا تباطأت. وكلما حاول أحد الصغيرين عض الحبل كان جيبل يعالجه بالعصا على رأسه حتى يكف. اقتربوا بسرعة من الجماعة

أمامهم، فاقترح جيبل التوقف لإطعام الصغيرين مما حمله معه لهذه الغاية، ولـم يخلط مع الطعام أي مخدر هذه المرة. تكور نامور تحت الجلد إلى جانبها وهي تأكل وخطر له لو تمكنوا من قص أظفارها فسوف يتراجع خطر ترويضها. استمرا على هذه الحال طوال اليوم، الجماعة تسبقهما ثم يلحقان بها فيتوقفان لإطعام الصغيرين، حتى حلّ المساء فدس لهما جيبل المخدر في الوجبة الأخيرة وأعاد شد قوائمهما الأربع ومكث إلى جانبها بعيداً عن الجماعة حتى الصباح. لقد وعدهم بتغير الحال ويريد الآن تنفيذ الوعد، كما أنه وجد في قلبه حباً للصغيرين بعد أن قتل أمهما وسلخ جلدها ولا تطاوعه نفسه أن يتركها لمصيرها الآن. في اليوم التالي راقب أشوم وجيسون إجراءات التطويع، ثم استلما المهمة وعاد جيبل ونامور إلى الجماعة.

«سنواجه المتاعب بسبب الصغيرين حتى نستقر في مستوطنة خاصة بنا. كلما نقترب الآن من جماعة أخرى سيصيبهم الخوف على حياتهم وحيواناتهم». قال نامور مشفقاً على جيبل وقد لاحظ حبه للصغيرين أكثر مما أظهره عندما أحضر قورق المهرة التي تروضت تماماً في فترة قمر.

«كل حيواناتنا ستزعج الآخرين. المهرة تثير فضولهم، والثعالب تخيف ماشيتهم، والصغيران يخيفان غرائزهم». علق جيبل على نامور ثم نظر إليه وواصل: «لكن أليس الأفضل أن نخيف الآخرين وننتزع الاحترام منهم بهذه الطريقة؟».. بدا جيبل مصمماً. «..كل مشكلة نتعامل معها حين نواجهها. الصغيران الآن ليسا خطراً على أحد، وإذا قتلهما غيرنا فسوف أتفهم ذلك بالطبع». اقترح نامور البقاء بالحيوانات بعيداً عن السكان كلما وصلوا إلى مستوطنة. لكن جيبل لم يوافقه في الرأي وأكد له أن الهدف هو التعرف من الجميع إلى ما يدور في كل مستوطنة، «لكن الأمور تتشابه الآن، والتغيير سيكون عندما نصل إلى هايوك. هناك سنحتاج إلى تخييم بالقرب من المدينة

لأننا سنمكث فيها بعض الوقت حتى نقرر إلى أين وكيف سنتحرك. وحتى نصل إلى هايوك سنكون وحيواناتنا قد تعودنا بعضنا بعضاً، أو افترقنا عنها بشكل أو بآخر».

٦

انشغلت إيمارهوس عن شؤون الجماعة، معظم النهار تعمل مع الفخارين لإنتاج تماثيل ما يعتبره السكان إلهة الخصوبة وإله القوة والإخصاب. الأولى عبارة عن أنثى ممتلئة الردفين، والآخر ثور جامح ذو قرون. هذه التماثيل الخاصة توجد في كل بيت هايوكي، وهناك طبعاً تماثيل للمطر والريح والشمس وغيرها، يقتنيها من يحتاج إليها لطمأنته وتلبية آماله. سكان هايوك أكثر خوفاً من سكان المستوطنات الصغرى، وأكثر حاجة إلى تماثيل تطمئنهم. أما في المساء فكان عمل إيمارهوس منصباً على تسجيل قصة سمعتها من حكيم انتقل من مكان بعيد جداً في الشرق، إلى هايوك. وقد توافق سماعها والمجموعة لهذه القصة مع تطويرها لفكرة راودتها قبل الوصول إلى هايوك. آنذاك وبسبب المسير الدائم اشتاقت إيمارهوس للرسم على الجدران لكل ما يمر بهم من تجارب، فاهتدت إلى فكرة صنع ألواح طينية تحفر عليها الرسم قبل تجفيفها وحرقها، وبالطبع يمكن حمل الجيد معها أثناء المسيرة حتى الوصول إلى أرض الأجداد المنشودة، وباشرت التطبيق والتسجيل منذ الأيام الأولى في هايوك.

تقول القصة التي حملها الحكيم القادم من الشرق بانتصاب جبل هائل الارتفاع هناك، هو أعلى وأضخم جبل شاهده الرجل في تنقلاته. ذلك الجبل، كما تم التناقل منذ القدم، كان في إحدى المراحل يقذف الحمم من

جوفه وينشرها حوله بنظام، وبعد أن هدأ الجبل ازداد طوله وعرضه وارتفاعه وتغطى بالثلج. حول الجبل وجدت أجمل الحقول والكروم والنبات يحمل الأنواع الكثيرة من الطيبات، وحيوانات وطيور جميلة المنظر لذيذة المذاق، وتعود كلها إلى الآلهة العظام. الإله المعروف باسم إل، استولى على هذه الجنان حول الجبل، ولم يعترض على ذلك سوى حورون وهو إله شرير تسبب بالكثير من المشاكل من قبل فتم اتخاذ القرار من الآلهة العظام بطرده من الجبل. لكن قبل أن يخرج حورون قام بتسميم أهم الأشجار، وهي شجرة الحياة، وهنا أرسلت الآلهة العظام أدوم إلى تلك الجنة ليردع حورون، فقام الشرير بتحويل نفسه إلى ثعبان سام ولدغ أدوم، الذي أفقده السم خاصية الخلود، وحتى لا تذهب حياته سدى أرسلت الآلهة إليه أنثى طيبة فتزوجها وأنجب خلفاً وأحفاداً يعيشون مع البشر الآخرين ويروون قصة جدهم الأكبر الإله أدوم.

كان تعليق جبيل حين سمع مع الآخرين هذه القصة أنها تستحق اسم صراع الآلهة، وقالت أمورا بل الأفضل تسميتها بالأم الحنون، فحسب رأيها أن الآلهة في هذه الرواية كثيرة وكلهم ذكور يتقاتلون، بينما الأنثى الطيبة هي التي أنقذت الموقف وحافظت على سلالة أدوم. لم تعرب إيمارهوس عن رأي حول المحتوى ولكنها تخيلت الرسوم التي يجب أن تعبر عن هذه القصة وتحتفظ بها على الألواح.

لقد وجدوا هايوك بين تفرع نهرين، ذات أرض منبسطة تحيط بها وقد أزيلت منها الغابات وتحولت إلى أرض زراعية. شاهدوا تجمع البيوت من مسافة بعيدة، فقرروا إقامة بيوت لهم من الأغصان والخشب بين الغابة والسهل، إذ كانوا يعرفون أن إقامتهم هنا سوف تطول أكثر من أي مكان آخر منذ تركوا كهوفهم. عليهم التعلم، وربما إعادة البعض للأهل في الكهف،

والعمل لكسب عيشهم في هذا المكان الجديد المختلف عما شاهدوه إلى الآن.

كان خبرهم قد سبقهم إلى سكان هايوك، فهم يحملون معهم فهدين وثعالب ولديهم مهرة مطيعة، وهذه التركيبة بين البشر والحيوانات لم تكن مألوفة حتى لسكان هايوك الأكثر تطوراً ودراية بالأمور. في فترة نصف القمر الأخير من المسيرة أصبح جيبل يطلق سراح الفهدين معظم الوقت ويلتقيها قبل المساء ليطعمها. وبعد أن استقروا بين الغابة والزرع المحيط بهايوك استمرت الفهود في الحضور لالتهام عشائها ومن ثم اللعب مع جيبل الذي كان يرتدي جلد أمها لهذه الغاية. هذا الأمر طبعاً انتشر بين كل أهل هايوك ممزوجاً بالذهول والاستغراب، فأطلقوا على جيبل لقب كانان، أي صاحب الفهدين، وفاز بالاحترام الفائق من السكان، بل بعد أيام على وصولهم رُسم على جدار طويل في طرف (المدينة) رجل يسير وخلفه فهدان كبيران.

لقد ظهر لجماعة جيبل، كانان، أن أهل هذا المكان لديهم ملكات عديدة، إحداها الرسم الملون، فأينما توجهوا يشاهدوا الرسوم على الجدران، وحين يتاح لأي منهم دخول أي بيت يفاجأ بالرسوم الداخلية، زهور وفراشات وورود ونحل وحيوانات وطيور. كل شيء كان عجيباً فالناس هنا يملكون الوقت لفعل أشياء لا تتعلق بالطعام. لكن التفرد جاء في بيوت هايوك بأنها من دون أبواب ولا يمكن ولوجها إلا عبر فتحات في السطوح. لا شوارع إلا المحيطة بالمكان ككل، بينما كل البيوت مشتركة في الجدران، والسطوح ذات ارتفاعات متفاوته قليلاً، ويمكن الوصول إليها عبر سلالم خشبية ثم المشي على سطوح البيوت حتى يصل الشخص إلى فتحة سقف بيته، فيرفع الغطاء ويهبط إلى بيته عبر سلم خشبي داخلي. هذا التصميم لم يشاهدوه في المستوطنات الصغيرة والمتوسطة الحجم التي

مروا بها. وحسب ما جمعوا من معلومات فإن المستوطنات الجنوبية، الأكبر من هايوك، لا تشترك معها في أسلوب البناء المتلاصق هذا.

أوبار وسولوك، اثنان من الشبان غير المتزوجين في الجماعة، اشتغلا منذ بداية الإقامة في بناء بيت ملاصق لبقية البيوت، وكانا يتحدثان كل ليلة مع جماعتهم عما يفعلانه مع البنائين. هناك أناس يمزجون الطين ويصبونه في قوالب خشبية، ترفع الأخشاب ويبقى القالب إلى جانب غيره حتى يجف. في هذه الأثناء تحفر أسس في الأرض وترص فيها ثلاثة صفوف من الطوب، ثم توضع أخرى فوقها بشكل مخالف وبينهما طين طري يلصقها بعضها ببعض. بعد ذلك يرتفع البناء بقالبين لكل صف وتتداخل الزوايا، ولاحقاً يغطى السقف بأعمدة من خشب وفوقها أفرع أصغر ثم يصب عليها الطين الطري. في الداخل تقام الأسرة بالطريقة نفسها ملاصقة للجدرن، ويمكن الجلوس على هذه المصاطب نهاراً واستعمالها للنوم، وهم يملأونها بالحجارة حتى يسهل فتحها وتفريغ محتواها لاحقاً لأنهم يستعملونها لدفن الموتى من أهل البيت، ويعودون لاستعمالها للجلوس والنوم لاحقاً. أما الأرضيات فتصنع من الطين ثم تُغطى هي والجدران بمادة الجبس البيضاء لحماية الطين من الشمس والمطر. بعد ذلك يأتي عمل الرسام حسب طلب أصحاب البيت. معظم البيوت فيها غرفتان أو ثلاث ذات أبواب صغيرة منخفضة، تتسع لسكنى أربعة أو ستة أفراد، وفي الغرفة الوسطى موقد نار يخرج دخانه عبر الجدار إلى أعلى. أما الجبس فيصنع من طين أسود يحرق في نار شديدة فترة طويلة فيتحول إلى الأبيض ثم يطحن ناعماً ويخلط بالماء فيكون لزجاً قابلاً للالتصاق بالجدران والأرضيات.

جدران البيوت من الداخل مزينة برسومات لرأس الثور في الزوايا مثلاً، أو برأس النسر الكاسر أو أزهار ورسومات من الطبيعة كدوائر متساوية، أو

نجوم ثمانية، أو طبعات أيدي أصحاب البيت، وهناك رسومات لصيد غزلان وخنازير. وبالطبع انضمت الآن الفهود إلى هذه الرسومات التجميلية. الجدران نفسها تطلى بأحد الألوان قبل الرسم عليها، مثل الأبيض أو الأحمر أو الأزرق أو البني.

السكان متحابون يلتقون معاً على السطوح، أو في الحقول والمعامل المنتشرة بين أماكن السكن وبين المزارع. بيوتهم فيها تشابه التصميم الخارجي والبناء الداخلي فكلهم متساوون. لكن إناث جماعة كانان، كما صار اسمهم في هايوك، لاحظن بسرعة سيطرة الإناث هنا على البيوت وأنهن يحظين باحترام بالغ. ولأمورا رأي في ذلك مفاده أن تراجع الصيد عند الرجال والاعتماد على الزراعة والحرف عزز دور الإناث لأنهن يقمن بالزراعة وببعض الحرف، وبالتالي لهن كلمة نابعة من العمل وتجميع الخبرات وتوفير الطعام على مدى الفصول، إذ يتم تخزين المنتجات الزراعية في بيوت ضخمة مقسمة من الداخل حسب أنواع المواد، ويضعون مع خزينهم رسوماً وتماثيل للأنثى الضخمة إلهة حراسة الحبوب. وعرفت أمورا أيضاً أن الإناث والذكور يُدفنون وفق درجة التكريم نفسها إن لم يكن الاحترام والتمييز لمصلحة الأنثى.

يتم الدفن في الغرف وتحت المصطبة، وليس في غرفة الخزين أو الساحة، ولكن الدفن هو المرحلة الأخيرة. فبعد الموت ينقل الجثمان إلى ساحة خاصة قرب النهر وبعيداً عن المساكن، هناك يوجد برجان من الطين والخشب وفي أعلاهما دائرة كحوض له أطراف ويمكن الوصول إلى القمة عبر درج خشبي. لقد صعق من شاهد ومن سمع لاحقاً من الجماعة بعملية الدفن لرجل توفي بعد قمر من وصولهم إلى هايوك. حملوا الجثة إلى قمة البرج وربطوها من رجليها ويديها إلى الأعلى وقطعوا هناك الرأس وهبط

ثلاثة بالرأس وبقي رابعهم يخاطب النسور الجارحة التي أخذت تتجمع في السماء، وكأنها على موعد مع الميت، وتهبط رويداً رويداً في تحليق دائري. وما إن اقتربت من قمة البرج حتى هرول الرابع إلى أسفل وباشرت النسور نهش الجثة. القصد من ذلك كله، كما استوعبت جماعة كانان، هو الاحتفاظ بالرأس سليماً لحفظ المعالم، وبينما النسور تلتهم اللحم ولا تبقي سوى على العظام يكون مختصون قد كسوا الرأس بالطين والجبس وغرسوا عينين من الصدف ورسموا للميت شعراً، ثم يحتفظون بالرأس داخل البيت. ولاحقاً عندما تنتهي النسور من المهمة يقوم الأهل بجمع العظام والاحتفاظ بها حتى يحين موسم تجديد البيوت من الداخل، وحينها توضع العظام تحت المصطبة ويتجدد البيت. لكن إذا صودف موت أحدهم في موسم التجديد فيتم دفنه في المصطبة مباشرة بعد خلع رأسه والاحتفاظ به. الرجال في هايوك يدفنون بدون مرفقات، أما الإناث فيأخذن معهن أدوات التجميل والعطور والحلي ومرايا من زجاج البركان ومعالق صغيرة وصحوناً وأصدافاً بها أصباغ حمراء للشفاه.

«حان موعد الرحيل». خطر لجيبل أن يذكر أشوم على مسمع الجماعة قبيل النوم. كل يوم يعودون من أعمالهم مرهقين، فيأكلون ويغط معظمهم في نوم عميق. في مثل هذه الأوقات، وبعد أن يعود جيبل من اللعب مع الفهدين، كان يُعطي التعليمات لتسيير شؤون الجماعة والحفاظ على الهدف الذي خرجوا من أجله، فلا يلاقي أي تمنّع يذكر منهم.

«حاضر يا عمي، كما تأمر، وحسب اتفاقنا»...

«لكن قبل الانطلاق في طريق العودة دعنا نجد زوجتين، لي ولأشوم». تدخل سلمان في الحديث وكان قد اقتنع بفكرة العودة مع أشوم. «إذا كنا أربعة عائدين فهذا أفضل، كما أن زوجاتنا سيقمن بالمهمة نفسها مع الإناث

فتسهل، مهمتنا بين الرجال. لقد راودت هذه الفكرة أمورا وجيبل، ولكنه تخوف من تعثر المهمة بسبب الإناث. فأين سيجد من تعود كل هذه المسافة تاركة بيت أهلها والأمن في مجتمعها، لتصارع الحيوانات في طريق تؤدي إلى حياة الكهف؟ ومن هو الأب الذي سيقدم ابنته لهذه المهمة الانتحارية؟ كانت أمورا تهدئ من مخاوفه، وتذكره بموقعه الذي أكسبته إياه الفهود في هذا المجتمع، وتكرر أن الإناث هنا أكثر من الذكور وما علينا سوى العثور على أب لعدة بنات، فنطلب الأصغر والأقوى ويمكننا أن نؤكد له أن العائدين إلى الكهف سيرجعون إلى هايوك ويتبعوننا لاحقاً على الطريق نفسه.

«سأعمم الخبر في الصباح على كل جماعتنا ليبحثوا عن عروسين لكما». أخبرهما جيبل وهو يتثاءب. كان أول من سمع بالخبر خارج الجماعة، التجار الثلاثة، وكانت رحلة عودتهم قد تأخرت نتيجة لكسر ساق أحدهم عندما سقط من سطح إلى آخر أثناء تفاوضه ومقايضته. لقد تعافى المكسور وحان وقت رحيلهم، ورغبوا في مرافقة الشابين. في المساء اقترحوا على أشوم وسلمان الانطلاق الفوري، واستعدا لهما بمشاركة في التجارة، وتعهدا تزويجهما من مرمر، فيكون السفر أسرع وتكون الزوجات من منطقة أقرب. اقتنع الجميع بالفكرة، وظن سلمان وأشوم أن في الأمر مؤامرة من جيبل والتجار لتعجيل الرحيل، ولكن الإيجابيات غلبت على الظنون.

كان لإناث الجماعة دور أساسي في إقناع الشابين بالزواج من مرمر، فالإناث هناك أقرب في كل شيء للأهل، بينما إناث هايوك مدللات، متسلطات، متجملات، رقيقات البنية، يلبسن الجلد اللين والكتان المنسوج المجلوب على قوافل الحمير من الجنوب. وهن كثيرات المرض، حسب

أيمارهوس. في الواقع كانت إناث هايوك أقصر طولاً من ذكورها، وكلاهما أقصر من جماعة كانان، جيبل. وعندما لاحظ البعض ذلك، قال أحد التجار إن أجداده تاجروا مع هايوك ولاحظوا أن تغير الطعام قد أثر في قوامهم، فهم لا يأكلون المكسرات وأنواع الأعشاب واللحوم والأسماك كما ساد في الماضي، ولكنهم يكثرون الآن من الحبوب ومنتجاتها، ومن أنواع لحوم أقل. وأكثر ما يصيبهم بالأمراض هو هذا الازدحام وقلة الهواء والروائح الكريهة التي يحملها النسيم أحياناً من كومة القمامة الرئيسة حيث يرمون برازهم وبقايا النار والطعام. «حتى أعمارهم أقصر من أعمارنا» قال التاجر مكسور الرجل وأضاف: «في كل زيارة لهم أفتقد رجالاً لم يهرموا بعد، ويخبرونني أنهم ماتوا من دون سبب».

استمر تنظيم عمل الجماعة بعد سفر الرجال الخمسة محملين بالبضائع، وأرسلت معظم الإناث هدايا لأهلهن، مرايا زجاجية صغيرة، قطع قماش كتان، سكاكين من حجر صوان أحمر قاسٍ جداً، ولو كان هناك مجال أفضل للحمولة لكان للحلي والعقود والأساور ثقل إضافي. منذ أن حطوا هنا كان البعض يحرسون الموقع بالتناوب بمن فيه من بشر وحيوانات، وغيرهم يصطادون لإطعام البقية ولمقايضة اللحوم بمنتجات أخرى، وفئة ثالثة نشطت في العمل مع سكان هايوك ليتقنوا صناعاتهم وزراعتهم. لاحظت أمورا أن اعتكار مزاج زوجها قد طال بعد وداعه للخمسة ومرافقته لهم يوماً كاملاً قبل أن يعود. أراد أن يوصيهم بما يجب عمله عند الأهل، ويطالبهم باللحاق بالجماعة مع شبان آخرين، وأنه سيترك لهم الأخبار طوال الطريق ليهتدوا إليهم.

«لا أخشى عليهم من الطريق ذهاباً أو إياباً، ولكن أتخوف أن يبقوا هناك في محاولة للنهوض بالأهل، وهذا لن ينجح». قال جيبل لزوجته عند

محاولتها إخراجه من مزاجه. «عليهم دفع الجميع للخروج من الكهف والاقتراب من الآخرين. هذا هو الطريق الأفضل والأسرع للتغيير». أخبرته أن الأمر خرج من يده الآن، والطريق مُشرع للأهل ولأشوم وسلمان للحاق بهم أو غير ذلك، ثم نظرت إلى زوجها مستطلعة إذا كان هناك أشياء أخرى تعكر مزاجه. «في الحقيقة لم يعجبني ما قلتن تلك الليلة عن إناث هايوك، فهن لسن بذلك السوء». صمت ثم أخبرها بضرورة تزويج عزاب الجماعة من هنا قبل الرحيل إلى الجنوب. «لدينا ثلاثة الآن بحاجة إلى زوجات، والأفضل أن نأخذهن من مكان واحد، فكفي والأخريات عن الغيرة والنميمة واعثرن للشباب على زوجات».

نسي جيبل نفسه ولم يعرف كم مر عليه من الوقت واقفاً يتفرج، وكان البعض من السكان يقفون قليلاً ثم يتركونه ويمضون لشأنهم. لم تلفحه حرارة الشمس إذ أصبح يلبس قبعة جلدية تغطي رأسه وتظلل كتفيه مثل علية القوم هنا، وارتدى قميصه من نسيج الكتان ذلك اليوم، وغطى نصفه السفلي حتى الركبتين بتنورة جلدية مثلثة الشكل، ضيقة عند خصره ومتسعة قبل ركبه، وأزال شعر ذقنه وخفف من شعر رأسه بسكين الزجاج. كان في طريقه للحديث مع رجال قافلة حمير وصلت من الجنوب ليستطلع الأخبار، ولكنه شاهد إيمارهوس مع أنثى وشاب هايوكيين يرسمون لوحة جدارية أعلى منهم ارتفاعاً وبعرض البيت الذي يشكل الحد الخارجي للمدينة. لم تتنبه له بالرغم أنها لمحته وهي منهمكة في عملها. بين الفينة والأخرى يرتد أحدهم من مكانه للخلف، يشاهد المساكن أمامه وقمة جبلين على مدى البصر، وهما البركانان القديمان ومصدر الزجاج الذي صار التعامل معه مهنة لبعض الناس هنا، وتحمله القوافل مصنعاً أو خاماً إلى مناطق بعيدة. كان الثلاثة يرسمون بالألوان على الجدار ما يشاهدون أمامهم، وكانت اللوحة في

مراحلها الأخيرة، فلم يخف على جيبل ماذا ينسخون، وقد أعجبه الرسم أكثر من الطبيعة. أفاق من تخيلاته، لقد نضجت إيمارهوس بسرعة فائقة خلال هذه الرحلة، فقدت ملامح الطفولة واكتست بالأنوثة العملية. كلما تأمل يديها يلاحظ خشونتهما، وفقدت من عمل الفخار طلاء أظفارها، ولم تعد تتميز في سراويلها. تقدم إلى ثلاثتهم وأبدى الإعجاب بما يفعلون، أراد أن تراه إيمارهوس بهذه الأناقة التي تعيد الشباب إلى ملامحه. تبسمت وسألته عن سر الأناقة فأخبرها بعزمه على زيارة القافلة. خطر له أن يسألها مرافقته ولكن رأى أفضلية السير وحيداً ثم إن عليها إنجاز هذا العمل الذي يسر الناظرين.

صارت مشاعره تختلط كلما راقبها أثناء الفترة الماضية، قل حديثها، قست ملامح وجهها قليلاً، تنام مبكراً، يبدو عليها الأرق والإرهاق. لم تكن هي الوحيدة التي تمر بهذه المتغيرات، ولكنها الوحيدة التي يراقبها، وأحياناً يؤنبه ضميره على جرها في هذه المغامرة، وربما لم يكن الضمير هو ما يزعجه، ولكن فقدانه للحب الطفولي وأمل الشهوة الذي كان يتمناه فيها، فنضجها يعني شيخوخته واقتصار أمرهما على ذكريات هيام عذري. بالرغم من كل التطورات فلا تزال لديه رغبة عارمة أن تحمل طفلاً منه، وقد هم مراراً بسؤالها إذا كانت قد حملت للآن من هاني. كانت تراوده فكرة أن تحمل منه في القريب حتى لا تتولد أي شكوك لو حملت بعد أن طال تأخرها. كلما تجددت هذه الفكرة في ذهنه يعزم على مفاتحتها في الأمر، ثم يتراجع رغم أنهما الآن يتقابلان كثيراً بدون رقابة من أحد.

مكث جيبل عند رجال القافلة حتى المساء، وعاد محملاً بالأخبار وأهمها أنهم كلما اتجهوا جنوباً سيواجهون رفاهية ومنجزات أكثر مما عايشوه في هايوك. لقد عزم جيبل أن يزور التجار كل يوم ليعرف كل

ما يعرفونه وشاهدوه وتلقوه من الأقدمين عبر الآخرين. وبدل أن يخبر جماعته ببعض التفاصيل المتعلقة بمسيرتهم القادمة، رأى جيبل أن يحدثهم بالقصة التي سمعها من عجوز يرافق التجار ويجمع القصص وينشرها.

كان في قديم الزمان... رجل محبوب من جماعته، تزوج وأنجب ابنة اسمها فرغة ولم ينجب ولداً. كان يعطي مما معه لمن لا يملكون من اليتامي ويصلح بين المتنازعين. كان دانئل يتشوق إلى ولد، فذهب إلى المعبد وقرر الاعتكاف والدعوات من أجل نيل مبتغاه. بعد أسبوع ظهر له الإله بعل إذ أشفق على حاله، ووعده بأن يتوسط للإله إيل، الثور العظيم، ليرزقه طفلاً. وبالفعل توجه بعل إلى إيل وشرح قضية دانئل وذكر صفاته وحب الناس له وكيف يملك إخوته وأبناء عمومته الأولاد بينما دانئل لم يرزق سوى البنت فرغة.

يا أبتي، قال بعل لإيل، لقد قدم دانئل الذبائح لإطعام الآلهة والماء لتشرب، باركه يا أبي، أيها الثور العظيم يا خالق المخلوقات، حتى يصبح له ابن وذرية يملأون قصره. استجاب إيل لبعل وقال: عندما يقبل دانئل زوجته سوف تحبل وعندما يعانقها ستلد ويرزق الذرية. هكذا استعاد دانئل الأمل عندما أبلغه بعل بهذا الوعد فذهب إلى البيت ودخل غرفته وأخذ يقبل زوجته على السرير وهي تحمحم من القبل والضم... هكذا حبلت وأقام دانئل نصباً للآلهة ومصلى كونها ردت عنه الإهانات التي كان يشعر بها لأنه أنجب بنتاً فقط... وأثناء انتظاره للميلاد أولم دانئل لإلهات الحمل والولادة بنات الهلال صنو السنونوات في عذوبة الصوت أثناء الغناء. أكرمهن ستة أيام وهن يرتلن لتقوية الزوجة الحامل، وفي اليوم السابع صرفهن مكرمات ومكث يعد الأشهر بانتظار الأخ لفرغة....

صارت الابنة تطيب خاطر أبيها وتساعده في عمله في الحقل وفي

الحكم بين الناس لأن ذهنه انشغل بالمولود القادم وصار يقضي الكثير من وقته إلى جانب الزوجة، حتى ولدت الابن وأطلق عليه اسم أقهات، فاعتنى به أفضل عناية، ثم علمه الصيد وفنونه، ولم يعلمه الزراعة أو أي حرفة، ووفر له كل ما يريد. عاد دانئل إلى أعماله بمساعدة فرغة حتى جاء اليوم الذي زار فيه إله الحِرف بلدتهم حاملاً قوساً ونبالاً على أفضل ما تكون الصنعة. نادى دانئل ابنته وزوجته لإعداد الطعام لإكرام الإله كار. أكل الزائر وشرب وقدم القوس وجعبة النبال إلى المُضيف هدية إلى بكره أقهات.

انطلق كار عائداً من حيث أتى، طلب دانئل بكره وقدم له الهدية طالباً منه أن تكون بواكير صيده قرباناً إلى إله المعبد... كلما مر إله بدانئل كان يدعوه إلى وليمة في بيته شكراً. في ذات يوم مرت عناة إلهة الصيد وأولم لها دانئل فقطعت اللحم وأكلت وشربت الخمر... وسكرت وعندما شاهدت القوس أصابها الغضب وطالبت أقهات أن يعطيها إياه.

اسمع يا أقهات، أيها الفتى البطل: قالت له وهي غاضبة. أطلب مني أعطيك، أطلب مني ما تريد أهبه لك، ولكن أعط قوسك لعناة، أعطها جعابك ونبالك. فرد عليها أقهات بأن تطلب من كار صنع قوس ونبال مماثلة، فعادت ترغّبه ليعطيها قوسه: أطلب الحياة يا أقهات، أطلب أيها البطل؛ أطلب الحياة أعطيكها، والخلود أهبه لك، فتستوي مع بعل بسنوات الحياة، وتستوي بالشهور مع أبناء إيل.

لا تكذبي علي أيتها البتول، رد عليها أقهات رافضاً طلبها: أليس من العيب أن تكذبي علي أنا البطل؟ ما هي آخرة الإنسان، وما الذي يأخذه من دنياه؟ يُصب الكلس على رأسه والجص على جمجمته. سأموت مثل كل إنسان فان، كبقية الموتى سأموت. واعلمي أن القوس والنبل يعدان للرجال وليس للإناث. اغتاظت عناة منه وأطلقت ضحكة مدوية رداً على اتهامها

بالكذب وقلة الحيلة في الصيد، فتوعدته وطلبت منه أن ينظر إليها ويحسن السمع.

إذا لقيتك في دروب الشر، إذا وجدتك في دروب الحرب، سأصرعك تحت قدمي أيها الجميل الشديد المتهور. ثم خبطت رجلها في الأرض وغادرت لزيارة إيل عند منبع النهرين، وهناك سجدت له وانحنت أمامه وباشرت النميمة على أقهات: لقد طردني من بيت أبيه، إنه لا يحترم الآلهة الكبار، لقد منحته أنت القوة والجمال وهو لا يحترم إلا إله أشيب لديهم، لقد أهينت ابنة بيتك، ولم يعد لديها ما يُفرح، ولا تبتهج لشموخ معبدك.

هكذا أوقعت بين الثور وأقهات، فتوعد الإله الأشيب الذي قيل له إن أقهات يحتمي به، وقال إنه سيجعل الدم يجري في شعره الأبيض، وشيب اللحية يتخضب بالدم. فادعُ أقهات لينجيك مني، واطلب من ابن دانئل لينقذك من قبضة البتول. ثم خاطبها وقال: أعرف أنك دمثة يا ابنتي، وأنه ليس في الإلهات دناءة... اذهبي واكبتي غضب قلبك واحفظي الخزي الذى أصابك في صدرك، فإنك ستدوسين دوساً الذي هددك. وهكذا اعتبرت عناة هذه الكلمات مباركة من إيل للانتقام. أقنعت خادمها، يطفان، بعقاب أقهات، حولته إلى نسر وطار مع سرب نسور وأغار، حسب التعليمات، على رأس أقهات، ولكنه أصابه بقوة فقتله، ثم خطف القوس وطار به، إلا أنه سقط منه في البحر. بكت عناة عندما وصلها الخبر إذ قتلت أقهات وفقدت القوس، فعزمت أن تعيده إلى الحياة.

في هذه الأثناء كان دانئل يجلس قرب باب البلدة مع ابنته التي لاحظت ذبول الخضرة في الحقول ورأت سرباً من النسور يحوم فوق بيت أبيها، وأخبرته أن الشر يحوم عليهم. أسرجت الحمار لأبيها وسارت معه إلى الحقول ولكن الجفاف كان قد حلّ ولم يعد بوسعها إعادة الخضرة والندى،

ولم تفلح الصلاة في إنزال المطر. عندما وصل خبر موت ابنه بكى دانئل وهدد بقتل من قتل ابنه. قال: سأقضي على من قضى على ذريتي. بعد أن دفن عظام ابنه على أثر أكل النسور لحمه، أقام عليه مناحة. ذهبت الندابات وتقدمت فرغة من أبيها تطلب بركته. لقد لبست زي القتال وتقلدت خنجراً ولبست فوق ذلك ثوب الإناث، لأنها تريد الانتقام ممن قتل أخاها، فأذن لها أبوها بالانتقام. ذهبت تبحث عن يطفان خادم عناة الذي قتل أقهار. وجدته عند خيام الرعيان، فدعاها للجلوس معه. أغرته ليشرب فدارت الخمرة برأسه وصار يتباهى بقتل أقهات، فصعد الدم إلى رأسها وهاجت كالأسد وغضبت كالأفعى، وغرزت الخنجر في صدر يطفان. قبل أن يلفظ آخر أنفاسه انتزعت منه مكان سيدته. سارت إليها فوجدتها تبكي ما فعلته بأقهات. عرفتها عناة على الفور وعرفت أنها تريد الانتقام، ولكنها طلبت منها أن تحضر عظام أخيها حتى تعيد إليه الحياة. بالفعل أحضرت فرغة العظام وصارت عناة تعيد الحياة للعظام بعدما وعدت الآلهة بخدمتها بقية عمرها إن أنقذوا لها أقهات من الموت. وعندما نهض أقهات قطعت فرغة رأس عناة، وقال لها أخوها: أنت أعظم محارب، أمهر صياد....

«يجب أ لّا تكون الأنثى محاربة وصياداً لتثبت جدارتها، فنحن على الدوام أقوى من الذكور»... قاطعت الثرثرة من المستمعات تعليق أمورا على نهاية هذه الخرافة، بعضهن قال: وأذكى من الرجال، وأخرى: وأجمل منهم، وثالثة: هذه خرافات أهل الكهف، كيف تكون الأنثى إلهاً لأشياء كثيرة ثم يفضل البعض الرجال عنهن؟ «المحير أيضاً أن هذه الآلهة تقاتل بعضها بعضاً، وتنطلي عليها الأكاذيب، ولا أدري لماذا يختلق سكان المستوطنات الكبيرة هذه الأساطير». لم يجب أحدهم أمورا عن هذا التساؤل.

٧

«يبدو أن كلمة أهل الكهف أصبحت شتيمة بينكم، أغرتكم العمارة والفنون والصناعات، فلم تفكروا إلا في التمييز الحالي بين الأحسن والأسوأ». ظهر كانان جاداً وهو يخاطب جماعته في مساء اليوم الثالث على مسيرتهم من هايوك، فقد كثرت تعليقاتهم، وأزعجه أن القوم لا يفكرون. صمتوا احتراماً، فقال: «كل الذي رأيتموه وسمعناه مرتبط تماماً بحياتنا في الكهف، الجديد هو كثرة الناس المتجاورين، وفن تنظيم حياتهم». حافظوا على الصمت وجلس الفهدان عن جانبي كانان. «ألم تلاحظوا أن بيوت هايوك ملتصقة بعضها ببعض، والأسطح مشتركة، وداخل كل بيت بعض الغرف لا يمكن دخولها إلا زحفاً لأن أبوابها صغيرة، وفي كل بيت تماثيل ورسوم على الجدران؟»؟ صمت بانتظار إجابات وهو يمسح بيديه على ظهري الفهدين. استوعب بعضهم الصورة والمقارنة، ولوهلة عمت النقاشات الجانبية والمواءمات بينهم، وقال نامور إن في الكهف الذي سكنه مناطق طينية حفروا فيها غرفاً ذات أبواب ضيقة ومنخفضة لردع أي حيوان بسهولة. «لقد صنع سكان هايوك كهفهم في الموقع المرغوب فيه». أضاف كانان موضحاً.

لم تستوعب زوجتا سولوك وأوبار المقارنات، فقد ولدتا وآباؤهن وأجدادهن في هايوك ولا تعرفان حياة الكهوف التي يتحدثون عنها

ويشبهون بيوت أهلهما بها. انتظر الجميع بعضاً من الوقت حتى شرحت سمان للعضوين الجديدتين ما هو المقصود، فعاد كانان يروي لهم. «والد أحد التجار الذين التقيتهم في هايوك ارتحل عبر النهر صعوداً، ذلك النهر الأهم والبعيد في الشرق. وقبل التقاء النهر عند المنبع مع النهر الآخر الذي يوازيه، توجد بيوت دائرية ضخمة وجميلة، ولكن أصلها أيضاً هو الكهف». وأصل كانان ما سمعه من التاجر الذي نقل عن أبيه أن تلك المنطقة كان بها تلال متقاربة ومرتفعة بقامة ثلاثة رجال، وعندما شاهدها جماعات تسكن الكهوف قرروا تحويل كل تل منها إلى كهف حسب ما يناسبهم من تخطيط، واشتركوا في تنفيذ هذه المهمة. جمعوا الحجارة الثقيلة من المنطقة ورصوها حول التل الدائري. ثم حفروا حفراً وأوقفوا فيها حجارة طويلة ووحدوا ارتفاعها، وكرروا ذلك في دائرة وسطية، وما كان عليهم سوى تسحيل الحجارة الأطول في الحفر وردم قاعدتها. بعد ذلك غطوا بالأخشاب ما بين الحجارة المنتصبة وباشروا إخراج الطين والحجارة من وسط التل ورصفوا الحجارة على الأرضية وأكملوا تغطية السطح فأصبح لديهم كهف حديث ذو سطح مثل نصف القمر وله باب واحد وحجرة واسعة. هذا الأسلوب تكرر في التلال القريبة غير منتظمة المسافات فيما بينها، أو المتشابهة في ارتفاعاتها وقطرها. «وعندما سكنوها صاروا ينحتون في الحجر أشكالاً ورسوماً، وكان هذا منذ أزمان بعيدة ولم تعد هذه البيوت مأهولة الآن». اختتم كانان بتقديم الإثبات على تشابه الكهوف بالبيوت، وقالت إيمارهوس إن الكهوف طبيعية ثابتة والبيوت كهوف نصنعها في المكان الأنسب لنا.

«بوسعي إخباركم أن هايوك هدمت وبنيت عدة مرات حتى الآن في الموقع نفسه». نظروا إلى ريما، زوجة سولوك، فانتظرت حتى تكرر عليها سؤال كيف ولماذا، فأضافت منتشية بانضمامها إلى أهل العلم: «عندما تمر

علينا فترات يموت فيها الكثير من الأطفال، وترتفع أكوام القمامة، وينتشر الذباب، كان الناس يغادرون بيوتهم ويهدمونها ثم تسوى الأرض وتقام أبنية جديدة على أنقاض القديمة». نظروا إليها مستغربين ذلك التصرف، فأكدت أن والدها نقل عن والده معايشة آخر مرة تم فيها مثل ذلك التجديد.

«إذا بنينا فلن نهدم!» نظرت أمورا إلى وجوه الجماعة ورأت رؤوسهم تهتز مؤيدة، ثم استقر نظرها على كانان زوجها، لكن هاني تفضل قبله بالحديث: «إذا بنينا فيستحسن التوفيق بين هايوك وبين كهف التلال. نبني بيوتاً مستقلة بعضها عن بعض ولكنها متقاربة تفصل بينها طرقات تؤدي إلى أبواب وساحة مفتوحة وغرف حولها». اهتموا بالفكرة، وقال نامور إن القمامة يجب أن تُبعد في مكان بعيد عن المساكن وعن مجرى الهواء والماء. وقال جيسون، من الأفضل أن تكون الجدران من الحجارة وملتصقة بطين، وليس من قوالب طينية تذوب في الماء. «وأين سيكون ذلك؟» سألت أمورا زوجها بشكل مباشر.

«قالوا لي، لو رحلتم من هايوك باتجاه الشرق سوف تلتقون نهراً بعده نهر آخر وفي أعلاهما منبع النهرين. ولو ركبتم النهر الأول إلى مصبه، فستمرون بتجمعات كثيرة أكبر من هايوك، وبأراضٍ خصبة تعمها الأعشاب البرية والحيوانات كما بها مناطق زراعية»... فهموا أن كانان يشير إلى قول تجار قافلة الحمير التي حطت في هايوك وأكثر كانان من لقائهم قبل الرحيل. «... فقلت لهم تلك ليست وجهتنا وهذا الوصف غير ما توارثناه من الأجداد عن الأجداد، حيث نحن ذاهبون. أعطيتهم الأوصاف التي نعرفها، فاتفقوا أن وجهتنا يجب أن تكون من الجنوب إلى الشرق، وأننا سنمر بمستوطنات حتى نصل إلى البحر فنهبط مع شواطئه حيث سنجد مبتغانا». صمتوا، هل يمكن أن تكون الأمور بتلك السهولة وهؤلاء التجار بهذه الدراية! استشعر

كانان استغرابهم وتشككهم. «...ذلك هو الموجز، ولكنهم تحدثوا كثيراً أن أصولنا، حسب الوصف، وقالوا إنه أبعد من ذلك. وقالوا إن السكان حيث توجد أصولنا كثيرو الحركة والترحال وإن الكثيرين من تلك الجماعات قد وصلوا إلى شرق البحر الذي نتجه إليه الآن. قالوا لي، إذا أردتم العودة إلى الأرض التي تطرد أهلها فواصلوا الترحال جنوباً، وإذا أردتم التواصل مع ناسها فستعثرون على الكثير منهم شرقي البحر.. الطريق هو الطريق، ولكن أين سنتوقف فهذا ما نقرره بعد الوصول إلى البحر».

«عندما نستقر ونبني»... رفع هاني صوته ليلغي كل تساؤل علني محتمل الآن عما أفاد به كانان. «...وبدل أن نتعبد في البيت مثل أهل هايوك، نبني بيتاً للتعبد والالتقاء». نظرت إليه زوجته، إيمارهوس، مستغربة الفكرة وسألته هل نتعبّد للنسر أم للثور مثلهم أم لهذه الفهود، أم لبعض الآلهة المتقاتلة التي سمعنا عنها من أساطير الغير؟ ضحك بعضهم وقال أحدهم، ربما للحمير فهي أنفع الحيوانات التي رأيناها حتى الآن. «بصراحة نحن بحاجة إلى بضعة حمير، وعلينا الجد في اصطيادها لنحمل عليها ونستريح، فمهرة قورق لا تحمل الآن مثل نصف حمار». همهم معظمهم بالموافقة على مقترح هاني، وهدأت الجلسة وانسحب معظمهم للنوم، فكل يوم جديد سيحملهم إلى مسافات إضافية.

بعد مسيرة قصيرة في صباح اليوم الرابع، شاهدوا جبلاً هائل الارتفاع والعرض على مسافة يوم أو أكثر، وكلما ارتفعت الشمس عن عيونهم إلى أعلى كان المنظر يتضح. جبل أسود الرأس يتوسط مجموعة جبال متقاربة انتصبت وسط سهول شاسعة خضراء قليلة الشجر وفيرة العشب. عليهم الآن اختيار خط سير من أعلى أو أسفل هذه الكتلة مترامية الأطراف. اختار كانان الطريق السفلي حتى لا يبتعدوا عن البحر، فهو لا يعرف إلى أين قد ينتهي

بهم الطريق العلوي. وبالرغم من الالتفاف إلا أن الطريق كان يصعد تدريجاً. لم يكونوا بحاجة إلى كشافة أمامهم فالأرض مفتوحة، والجبل أجرد. عندما أصبحت الشمس خلفهم قالت نمس لشيماس إن مجموعة خيول برية ترعى في بطن الجبل. عمّم شيماس الخبر من دون أن يتأكد أو يشاهد الخيول، فتقمصت روح الصيد كل الجماعة ومكثوا في أماكنهم بانتظار المخطط.

«كل الذكور يعطون حمولتهم للإناث ويتجهون بالأسلحة والحبال إلى الأسفل». قال كانان بعد برهة من الصمت والتفكير: «خذوا نمس معكم لتضعكم في خط أسفل الخيول. قورق يتقدم مع المهرة وبقية الجماعة في خط مستقيم وببطء. أنا والفهدان سنصعد الجبل في نصف دائرة، ومن هناك سنتجه إلى الخيول فتهرب إليكم». نظر كانان إلى الرجال وهم يلقون حمولتهم حسب طلبه، فأخبرهم أن لا يقتلوا الخيول لأنها لن تفيدهم ميتة. «الهدف هو إلقاء القبض على فرس صغير يناسب مهرتنا، لا تشتتوا جهودكم على أكثر من هدف واحد». أجابوه بالإيحاء وانطلقوا بالرماح والأقواس ومعهم نمس.

صار كانان يتحرك بسرعة وحذر، وضع جلد الفهد على ظهره وتبعه الفهدان كما كانا يفعلان أثناء الإقامة على أكناف هايوك. جهز نفسه لطريق صاعد طويل يجب أن يسير فيه أسرع من الرجال الذين انطلقوا إلى أسفل. لحسن حظهم لمحت نمس الخيول تهبط في شبه واد، فواصلت إرشاد الرجال ليتمركزوا في بطن الوادي وكان كانان قد تابع تحركهم من حين إلى آخر حتى أعطوه الإشارة بالهبوط إليهم. هرول وسبقه الفهدان وقد شعرت بتجمع الخيول. توقف كانان يلتقط أنفاسه، ثم سار في إثر الفهدين عبر بطن الوادي، فوجدهما يلتهمان لحم حصان تمكنا منه. فكر أن يقطع فخذ الضحية ليحملها إلى الجماعة، ولكنه شعر بالإنهاك فجلس يراقب صغيريه.

وقبل المساء التقى الجميع وقد أضيف للجماعة فرس صغير يرفض العلف والشراب. كان الحديث طوال الليلة كيف أوقعوا بهذا الحيوان الجامح، وكان كانان يفكر في الترويض عبر جرعات منظمة من المخدر، ولكن في البداية لا بد من الانتظار حتى يجوع ليأكل أو يعطش ليشرب، وفي الحالتين ينتظره المخدر.

«هل تفهم الخيول حديث بعضها بعضاً؟» نظرت إيمارهوس إلى قورق مستهجنة سؤاله، فرأت في عينية قلقاً وخوفاً. «هذا الفرس يحادث مهرتي منذ الأمس، وأخشى أن يكون حرضها على الهروب». ضحكت إيمارهوس وأخبرته أن المهرة هي التي ستقنع الفرس بالبقاء، فأنت تحسن إليها وتطعمها وتنظفها، والأفضل أن يرى كل هذا فيرغب في البقاء معنا. ارتاحت أسارير قورق واطمأن خاطره. لقد قررت الجماعة البقاء في المنطقة يوماً آخر ريثما يهدأ الفرس، فانتهزت إيمارهوس الاستراحة لإعداد ألواح طينية جديدة لرسومها.

«الرسومات ستزول بسهولة بمرور الزمن». قال هاني لزوجته بعد أن جلس إلى جانبها يشحذ رأس رمحه.

«ستصمد الرسوم بضعة أجيال ويتناقلها الصغار عن الكبار، فيعرفون قصتنا وما مررنا به وما سمعناه من الآخرين». قالت إيمارهوس وقد مر في ذهنها أنهم يتتبعون الآن خط سير وصل إليهم عبر تناقل الحديث من جيل إلى آخر.

«هذا جيد بالطبع، ولكن ألا يوجد أسلوب لنرسم ما نحكي، فيكون التناقل أسهل وأدق؟» لم يعرف كيف وردت إليه هذه الفكرة ومتى.

«هذه فكرة رائعة يا هاني». جاء صوت كانان من خلفهم، فقد سمع حديثهما، وسمع آخرون ما قاله كانان فانضموا إلى هاني وزوجته وكانان.

«مطلوب رسومات تعبر عن الكلمات وترسمها». صمت كانان والآخرون يفكرون في الحل.

«يعني عندما نقول نسر، نرسم نسراً، وعندما نقول نسر طائر نفرد جناحيه في الرسم». تبسم البعض وبقيت ملامح آخرين كما هي على أثر توضيح جيسون، ثم انفجروا ضحكاً حين سأل قورق كيف نقول بالرسم إن الفرس لا يريد أن يسير؟ «نرسمه مقلوباً». أجابه جيسون وسط استمرار الضحك.

«لقد رسمتك باللون الأحمر على جدار في هايوك وأنت تركض، على خاصرتك رسمت جلد الفهد، وخلفك فهدان يركضان». قالت إيمارهوس لكانان وهي تنظر أمامها بدون تركيز، «فماذا سيعني ذلك للمشاهد الذي لا يعرف قصتك؟» لم يكن كانان يعرف بذلك، أعجبته الفكرة، وأنها خصته برسم يبقى في هايوك يذكر القوم به. ارتفع الضحك من حوله بعد كل تفسير للرسم: عمي هارب من الفهود، قال شيماس، الفهود تركض خلف أمها للرضاعة، قالت ريما، الإنسان الفهد، قالت أمورا عن زوجها الذي كان سارحاً بأفكاره في أيام الكهف وهيامه بهذه الصبية التي تحولت من الخجل إلى العمل الخلاق. لا تزال تحبه كذكر، قال لنفسه، وإلا لماذا رسمته منفرداً وباللون الأحمر؟

«سيكون لنا شأن أعلى من مروّضي فهود، أو مربّي خيول، إذا نجحنا في العثور على أسلوب لتوضيح كلامنا وحفظه. كل من تخطر له فكرة يخبرني بها، أو يطرحها على إيمارهوس حتى تتمكن من إنجاز هذه المهمة». أراد أن يعطيها أهمية أكبر في الجماعة، وأن يدفع الآخرين للجدية في التفكير والبحث.

«الفرس مقيد منذ الأمس، ويرفض العلف، ماذا أفعل به الآن؟» نهض

كانان كإجابة عن سؤال قورق، وتبعه آخرون ليروا ويساعدوا في التعامل مع الفرس. «جمعت له أنواعاً من المكسرات والحبوب المقشرة، لكنه رفضها هذا الصباح». خاطب قورق كانان وبقية الرجال الذين حملوا الحبال. اقترح هاني ربط القائمتين الخلفيتين معاً بحبل فينهض الفرس ولكنه يعجز عن الركض والهروب. «وآنذاك قد يأكل أو يشرب وهو منتصب». أيد قورق كلام هاني، ووافق كانان على الفكرة، وحثهم على تقوية الحبال.

نهض الفرس بينما الجماعة بكل ذكورها ومعظم إناثها يحيطون به في دائرة مغلقة، ركض إلى الأمام فتعثر وسقط. نهض مجدداً ووقف على قائمتيه الخلفيتين المربوطتين معاً وصهل، خاف القوم وانفرطت الدائرة، حاول الفرس العدو فوقع مجدداً، وعاد القوم لإغلاق الدائرة بعد أن اطمأنوا إلى سلامتهم. ربطوا حبل قائمتيه بحبل آخر مشدود إلى شجرة وافترقوا عنه ما عدا كانان وقورق. «اخلط هذا العشب بالمكسرات واتركها أمامه وراقبه». وضع قورق العلف على رقعة جلد أمام الفرس واحتفظ في يده ببعض الخليط. بعد برهة تنبه القوم إلى ضحك الصغار وأصوات غريبة تصدر عن قورق. نظروا حيث الشجرة فإذا بقورق يعانق الفرس ويترنح. ركض نامور باتجاه الاثنين وأسند قورق وأبعده عن الفرس. «يبدو أن رأسه قد ارتطم بالشجرة». قال نامور مطمئناً إلى الجماعة، لكنه عرف فوراً ما حدث، فقد شارك قورق الفرس في علفه.

توكلت أمورا بالمهرة أثناء المسير حتى يتفرغ قورق بمساعدة جيسن لترويض الفرس. صارت تتكئ على ظهر المهرة حيناً وعلى رقبتها حيناً آخر ضامة بيدها شعر الرقبة. أما الفرس فقد سارت خلف الجماعة وقد تم ربط قوائمها الأمامية والخلفية معاً أيضاً بما يسمح للسير العادي، فإذا عدا أو هاج يتعثر ويساعده قورق وجيسن على الوقوف مجدداً. كان سيرهم سلساً

سريعاً لثلاثة أيام، في أرض انبسطت أمامهم مجدداً وتسهل الرؤية فيها، ولا ينقصها عشب أو حبوب أو صيد حتى وصلوا إلى منبع نهر. ترك كانان ونامور الجماعة وتحركا مع النهر، لاحظا تعرجه واتساع شواطئه في البداية ثم غوره قليلاً، لكن الأفق أمامهما لم يُظهر جبالاً فتيقنا أن النهر لن يهبط وتنعدم شواطئه. سلبية السير مع النهر هي تعرجه وبالتالي طول المسافة، ولكن إيجابيته هي توافرالمياه والفيء في محيط بدا صخرياً.

في اليوم التالي ساروا على الشاطئ حتى الظهر ثم استراح بعضهم وصنع الآخرون طوافة لم تتسع لأكثر من عشرة أفراد بالإضافة إلى معظم حمولات الجماعة. حين تكون الرؤية جلية في مياه هادئة، تركب الإناث الطوافة، وقبل أن تنعدم الرؤية مع اقتراب منعطف، كانوا ينزلون الإناث ويركب الطوافة ثلاثة من الشبان حتى تعود الرؤية والأمان فيتبدل ركاب الطوافة، وعند المساء يربطونها ويقضون ليلتهم على الشاطئ يجمعون الطعام ويصطادون السمك ويدخنون بعضاً منه. أخذهم النهر إلى الجنوب الشرقي وكلما تفرع كانوا يختارون الاتجاه إلى الشرق، ويبتعدون عن التفرعات الشمالية حتى اضمحلت المياه وتسربت أمامهم في أفرع كثيرة تتوقف كلها في محيط صخري متمدد في كل الاتجاهات. حملوا الاحتياط من المياه بقدر ما استطاعوا، وربطوا بعض القرب على جانبي الفرس، وواصلوا المسير. خمنوا أنهم على مسطح مرتفع مستوٍ ممتد أبعد مما يرون بالعين المجردة، وكلما ساروا شرقاً يتكرر الحال مع فروقات بسيطة مثل اجتيازهم وادياً أجرد أو بين نتوءات صخرية تختلف حجومها ولكنها غير حادة. في اليوم الثالث بعد الظهر لمعت في الجنوب بركة ماء ضخمة فاتجهوا إليها. كانت حفرة مستديرة لرأس بركان خامد امتلأت بطين وماء تجمع فيها بعد سنوات من الأمطار والثلج الذائب، ونمت في أطرافها

المرتفعة الأعشاب. عندما أصبحت الشمس تشع من خلفهم أخبرتهم نمس أنها تشاهد البحر، وأنه يعترض طريقهم. دققوا النظر فرأى بعضهم ما رأته نمس بالفعل، وقدر كانان أن البحر على مسيرة سبعة أيام تقريباً وأخبر الجماعة أن عليهم المسير إلى أعلى حتى يصلوا إلى الرأس ومن هناك تبدأ رحلة الهبوط مع الشاطئ باتجاه الجنوب. قضوا ليلتهم قرب فوهة البركان وانطلقوا فرحين نشطين صوب أبعد وأعلى نقطة في الطريق إلى البحر، عليهم الآن الهبوط حتى يلتقوا الشاطئ، وربما قبل ذلك، وقريباً، جماعات أو مستوطنات تكونت في هذه المساحات الخضراء بين الجبال الجرداء وبين شاطئ البحر. لم يكن الشك يساور كانان أنهم يسيرون في الاتجاه الصحيح، ولكنه كان أكثر الجماعة فرحاً برؤية البحر والمساحات الخضراء أسفل هذا المرتفع المسطح الأجرد، إذ بدأت الحيوانات تضطرب من شحة الغذاء قبيل وصولها إلى فوهة البركان التي وجدت فيها حاجتها من الغذاء والشراب.

«الرسم وحده لا يعبر عن المعنى، نحن بحاجة إلى تجزئة كل كلمة إلى مقاطع». نظر كانان إلى إيمارهوس متسائلاً مستوضحاً ما قالته. «الكلمات كثيرة جداً ولا يمكن رسمها متتابعة لتقول ما نريد. لكن معظم الكلمات بها مقاطع متشابهة، إيمارهوس وريما بينهما تشابه، وجيسون وجيبل يتشابهان في البداية ويختلفان في النهاية». لم يستوعب كانان بعد ما يدور في ذهنها، وكان يتمنى لو أسمعته بعض كلمات الحب مثل الأيام السابقة، وخصوصاً أنهما يسيران خلف الجماعة ولا يهتم بهما أحد، فالجميع يهرولون باتجاه البحر. «يعني لو قسمنا كل كلمة إلى أجزاء، وأعطينا كل جزء رسماً خاصاً به، فحينها يمكن إعادة تشكيل كل كلمة حسب الأجزاء التي تتركب منها». تظاهر كانان ببداية الفهم وقال إن الأجـزاء التي تتحدث عنها ستكون كثيرة جداً وكيف نركبها كلما تحدثنا. «هذا الحل ليس للحديث به ولكن

للتسجيل، ومن يسجل بالنحت أو الرسم أو الطبع لديه الوقت لاختيار الأجزاء وتركيب الكلمات، ومن يحفظ ألفاظ هذه الأجزاء سيتمكن من معرفة ما هو مكتوب». انتابه شعور بالارتياح أنها فاتحته بأفكارها قبل الآخرين، وأخذ يستخرج منها المعلومات حتى يكون على علم بما ستخبر به الجماعة. شرحت له أن ألواح الطين قبل أن تجف نهائياً يسهل طبع الإشارات عليها، وأن كل إشارة تعبر عن جزء من تفاصيل الكلمة، وحتى لا تكثر أشكال الإشارات فقد توصلت إلى خمسة أشكال متقاربة إذا طُبعت في اللوح بعضها إلى جانب بعض فستعني كلمة محددة. أخذت حجراً صغيراً من الأرض وطبعته في الرمل: «هذا جزء يمكن أن يكون بداية اسمك واسم جيسون، وإذا وضعنا طبعة أخرى ملاصقة أسفله يكون هذا لفظاً آخر، وإذا وضعنا الطبعة نائمة تكون شيئاً ثالثاً، وهكذا حتى نحصل على ألفاظ لكل الأجـزاء». صمتت وصمت وسرح كل منهما في النتائج المحتملة والفوائد لهذا الاختراع الذي أنجزته إيمارهوس عبر التعمق خلال الأيام الماضية.

٨

«أريحا أصغر من هايوك، ولكنها القرية الوحيدة التي لها سور يحيط بها وبرج مراقبة عالٍ فوق السور يصعدون إلى قمته عبر درج داخلي. وأريحا هي الأقدم وربما تكون أول تجمع كبير للبشر يعملون بشكل منظم ولهم قيادة تدير شؤونهم اليومية. شاهدنا الكثير من القرى في طريق الذهاب والإياب، ولكل واحدة مزايا عن البقية»...

«لكن أوغاريت هي الأجمل». ضحك الحاضرون على تعليق قورق مقاطعاً وصف جيسون لمشاهداتهم في الرحلة التي أخذتهما، مع الفتيين نبوك ومردوك، من مطلع الربيع الماضي حتى نهاية هذا الربيع، نزلوا مع الشاطئ ومروا بالعديد من القرى والتجمعات حتى وصلوا إلى أريحا على الضفة العليا للبحر المالح وعادوا من طريق آخر إلى أوغاريت. لقد انتهت جماعة كانان إلى هذه البقعة الجميلة منذ ثلاثة أعوام، وفي العام الثاني بعد وصولهم، قرروا إرسال هذه البعثة لتهبط مع الشاطئ ثم تنحرف حتى أريحا وتعود صعوداً في الطريق مع النهر وبمحاذاة البحر باحثة عن قرى وتجمعات أخرى، بغية التعرف إلى المحيط الذي قررت الجماعة أن تستقر فيه. لقد تعرفت جماعة كانان إلى سكان مستوطنات عديدة صغيرة منتشرة حولهم. قرروا بناء قريتهم هنا وكان أملهم أن يلتحق بهم أشوم وسلمان وبقية الأهل من الشمال، وأن ينضم إليهم بالتدريج سكان المستوطنات القريبة منهم،

ومنذ عودة بعثة جيسون وهم يجتمعون كل ليلة يستمعون من الأربعة عن مشاهداتهم، ويُسمعونهم بين الحين والآخر ماذا أنجزوا هنا أثناء العام الماضي.

«أريحا لا تليق بنا، فمناخها حار ورطب يدفع للنوم، ويجاورها بحر لا سمك فيه ولا حياة وطعم مياهه زعاف لا يصلح للزراعة، ويهدد القرية دوماً بالفيضان ولهذا أقاموا السور حولها خوفاً من الماء». قدم كانان حبة تين مجفف إلى جيسون وسأله عن سر بقاء الناس هناك وعدم بناء قرية جديدة في مكان أنسب. «لقد هُجرت القرية في الماضي فترات طويلة جداً بسبب تقلبات الجو، ولكن سكاناً آخرين حضروا ليجربوا حظهم فيها، وجددوا السور وأقاموا بيوتاً جديدة من الطين فوق القديمة. المنطقة المحيطة جبلية صخرية جرداء، والمكان الصالح للزراعة هو على ضفتي النهر قبل أن يصب في البحر المالح، وهناك ينابيع تنساب من الجبال إلى البحر، وغيرها ينساب في النهر، ويستفاد من بعضها في الري، وبالفعل موقع القرية هو الأنسب لمن يقرر البقاء هناك». وأضاف نبوك إلى شروحات جيسن أن السكان في أريحا يتاجرون أيضاً، وأنه شاهد هناك تجاراً من هايوك يحملون منتجات زجاج البركان ويبادلونه بصدف يجلبه آخرون إلى سكان أريحا من بحر غير المالح وغير بحرنا هذا.

مرت جماعة كانان، في طريقها من هايوك إلى هنا، بالعديد من المستوطنات الزراعية الصغيرة والمتوسطة، وكلها تستغل الحمير في تنقلاتها، وسكانها مسالمون طيبون رحبوا بالجماعة أينما حلت. بعضهم يعيش في بيوت حجرية وآخرون في بيوت طينية، وقد أُعجبت الجماعة بهذه البقعة على تلة عريضة مسطحة ومطلة على البحر، بل لديهم خليج طبيعي خاص بهم ينظرون إليه من قريتهم طوال الوقت ويستعملونه للصيد والمتعة، وصنعوا بعض القوارب والطوافات وربطوها إلى الشجر أو إلى الصخر

قرب شاطئ الخليج ليستعملها من يحتاج إليها منهم. أقاموا بناءهم الأول والأكبر ليتسع لهم جميعاً في الفترة الأولى، ثم باشروا بناء البيوت لكل عائلة، حتى فرغ البيت الأكبر من السكان فخصصوه للأعمال العامة لهم، مثل طحن الحبوب، وكمجمع لألواح الطين التي تنسخ عليها إيمارهوس القصص والروايات والمشاهدات، ويساعدها إناث أخريات يشرفن أيضاً على صغار وأطفال الجماعة أثناء انشغال الأهل في البناء والزراعة أو الصيد. كل ما تعلموه أثناء الرحلة من الكهف إلى هنا باشروا تطبيقه كل حسب تخصصه ويدعم من الآخرين إذا تطلب الأمر. صناعة الطوب لتقسيم البيوت من الداخل، جمع الحجارة من المحيط لبناء الجدران الخارجية، صناع فخار لتوفير الأواني المطلوبة، صناع أسلحة للصيد، منتجو الجبس، الزراع وأدوات الحصاد، تدخين اللحوم والأسماك.

«بعد قمرين من هبوطنا ومرورنا بالعديد من الناس، شاهدنا جماعة كبيرة تسكن بالقرب من البحر، ولكن سكنهم الأساس هو كهف كبير مرتفع في وسط جبل وبقية السكان يقيمون بالقرب منه». كان جيسن يؤيد وهو يتبسم ما يقوله نبوك عن تلك الجماعة. «لا يزرعون مثل الآخرين، ولكنهم يربون الغزلان والماعز، ويعيشون من لبنها ولحومها والمقايضة بها مع الآخرين. عندما سألهم جيسون إذا كانوا يقطنون هنا منذ زمن، ضحكوا وأخذونا إلى الكهف الذي امتلأ بالرسومات القديمة على السقف والجدران، يبدو أنهم هناك منذ الأزل». أفاد جيسن المستمعين بأن أعضاء تلك الجماعة لا يقطعون رؤوس موتاهم ويجبصونها، مثل أهل هايوك وسكان أريحا، لكن سكان قرية كبيرة على مسافة أربعة أيام من أريحا شرقاً لديهم تقاليد مشابهة في التعامل مع رأس الميت، ولكنهم لا يعرضون جسده لنهش النسور والطيور الجارحة.

«غير بعيد من ذاك الكهف توجد قرية جميلة، بيوتها مستطيلة وبعضها بيضوية قديمة، وأرضيات البيوت من الجبس الأبيض. المهم أنهم مختصون في زرع العدس، ولديهم مخازن كبيرة له بعد تجفيفه». قال مردوك للمستمعين وذكرهم بجلب كمية من حبوب العدس التي سيتم زرعها قبل موسم الشتاء القادم.

«هذا التين المجفف شيء ممتاز ويبدو أنه يساعد الجسم». قال كانان، وعرف جيسن أن كبيرهم يرغب في تفاصيل، فأخبر الجماعة أن هذا التين ينبت عند قرية قبل أريحا، وأهلها مختصون في هذه الزراعة، إذ يقطعون الفرع الصغير الطري من الشجرة ويغرسونه في الأرض المناسبة ويرعونه بالماء ويحمونه من الماعز فيكبر ويتحول إلى شجرة منتجة. كل عام يكررون هذا العمل ويأكلون التين طازجاً ويجففون في الشمس بقية الإنتاج لاستهلاكه طوال العام.

«لقد جلب قورق ثلاث شجيرات صغيرة وضع كلاً منها في إناء فخاري». سكت جيسن فاعترف قورق أن واحدة ماتت وأخرى سقطت عن الحمار وتكسرت مع فخاريتها، والثالثة في حالة ميؤوس منها ولكنه يعتني بها كما قالوا له، فلعل وعسى. «سمعنا شيئاً مفيداً جداً هناك، فحتى يكون محصولك جيداً، يجب أن تختار البذرة الفضلى لتزرعها، سواء كانت شجرة أو عدساً أو قمحاً أو شعيراً، ضع أفضل وأكبر ما عندك في الأرض لتأخذ منها الأحسن ويتميز إنتاجك عن البري وعن غيره. ولا تستعمل البذور القديمة».

«أخبروا إيمارهوس بالتفصيل، وبنظام، بسير رحلتكم، ومشاهداتكم وبالمسافات بين القرى، حتى تسجلها، ونحفظها مُرشداً، لمن سيتنقلون للتجارة والعلم في المستقبل». تحدث كانان ببطء لفت انتباه الحاضرين، وتململ الفهدان اللذان لا يفارقانه، وأصدر أحدهما صوتاً وكأنه ينذر بشر

قادم. نظروا حولهم ونهض كانان مع بعضهم، ولكنه ترنح وسقط مغشياً عليه قبل أن يتلقفه أي منهم. طلبت أمورا من المذعورين الملتفين حوله أن يتركوه على الأرض ويعدلوه على جنبه. وضعت إيمارهوس ابنها على الأرض وركضت لتجلب ماء، وراحت ترش على وجهه، وصارت أمورا تمسح الماء على كل الوجه والرقبة. بعد صمت قصير أصدر كانان أصواتاً بين الشخير والتنفس والكلام، فاطمأنوا أنه حي، وجلسوا بهدوء بالقرب منه بينما التصق الفهدان به.

«لقد شاهدت كل شيء».. طلبت منه أمورا الهدوء وأيدها الآخرون. «..استمعوا جيداً فقد أموت الآن مرة أخرى». تعجبوا من حديثه وصمتوا. «شاهدت حياتي كلها، ورحلتنا من الكهف حتى اليوم بكل التفاصيل». دمعت عيناه وبكت إيمارهوس بصمت. تقدمت حفيدته عشم وزجت بنفسها بينه وبين الفهد. «ثم سطع علي نور أبيض ورأيتكم تنظرون إليّ، ثم انضممت إليكم وصرت أنظر إلى نفسي ممدداً على جنبي». ضم عشم، ونظر إلى إيمارهوس، فناولته ابنها ووضعه في حضنه. سكت برهة فتقدم منه بعض الصغار الذين لا يخافون الفهدين. سأل كانان الجمع كم غاب عن الوعي، فأخبروه أنها برهة قصيرة جداً. تعجب كيف شاهد كل حياته بالتفصيل في برهة لم تتعدَ جلب الماء ورشه على وجهه كما قالوا له. «أعتقد أنني مت وذهبت وعدت إليكم».. حافظوا على صمتهم حتى بعد أن كف عن الكلام، فعاد يقول: «..ربما هناك حياة بعد الموت تبدأ بالعكس، أي يصغر فيها الإنسان حتى يعود إلى بطن أمه. أو ربما يتذكر الميت حياته ثم يواصل حياة جديدة بدون جسد». مسح على رأس بعل، ابن إيمارهوس، الجالس تحت يده، وقبلت عشم جدها.

«لا تخيفنا هكذا. كيف يعود الموتى؟ وماذا يفعل الموتى الذين

يفصلون رؤوسهم عن أجسادهم. نم الآن وفي الصباح تكون الأمور قد عادت إلى طبيعتها».

«ومن يضمن لي أن أصحو من النوم؟» أجاب كانان زوجته وهو يشعر برهبة. «لم يعجبني قط قطع الرؤوس أو نهش النسور للجسد. إذا مت فادفنوني كاملاً تحت التراب، وضعوا معي ما قد يفيد في الحياة الأخرى. ولكن انتظروا يوماً قبل الدفن، فربما أعود من الموت مرة أخرى». كان جاداً في حديثه، وخطرت إيمارهوس على باله فنظر إليها وشاهد دموعها تهطل بصمت. شد بعل إلى خاصرته ودمعت عيناه، وطلب منهم أن يحملوه إلى بيته لينام بانتظار الصباح.

«الآلهة فقط هي التي تموت وتعود إلى الحياة لتنجز هدفاً ثم تمضي». في سنوات الاستقرار الثلاث في أوغاريت نالت إيمارهوس المزيد من التقدير والاحترام بعد أن أصبحت أماً لبعل وأنجزت العديد من الألواح الفخارية المكتوبة بخط جديد طورته وعلمته لبعض الإناث والشبان الذين يساعدونها في كتابة تفاصيل الرحلة وما شاهدوه عند الآخرين والأساطير التي سمعوها. الألواح ومن يكتب عليها وما يكتب فيها أصبحت محل تقدير من الجماعة والتجمعات الأخرى القريبة. «من منكم مر بتجربة مثل التي حدثنا عنها كانان؟» لم يأتها جواب، فعادت إيمارهوس تسأل المجتمعين حول النار أمام البيت الكبير: «من منكم سمع عن شيء كهذا الإلهام الذي مر به كانان؟» لم يصلها جواب ولكنهم سمعوا عواء ذئاب وخرجت الفهود من بيت كانان المطل على البيت الكبير، وخرج هو في إثرها إذ شعر بخوفها فخاف مثلها.

«احترسوا من»... نظروا كلهم إليه وقبل أن يكمل كانان حديثه تحركت الأرض تحتهم، تبعثرت النار بينهم، قفزوا في كل الاتجاهات بذهول

ورعب. «أخرجوا الصغار من البيوت وتجمعوا هنا في العراء». صرخ كانان بهم وهو لا يعلم سبباً لهذا الأمر. هدأت الأرض فتجمعوا، يتساءلون عما حدث، فقالت لهم إيمارهوس بصوت منخفض، إن الأرض حزينة على ما جرى لكانان. كانت حريصة ألا يسمع ما قالته، ولم يتحدث أي منهم في الأمر عندما وصل كانان وجلس معهم. «أطلب من الآلهة ألا يصيبنا مكروه الليلة». خاطبت إيمارهوس كانان بصوت واضح. تعجب من طلبها، لكن تحرك الأرض تحت الأقدام يمكن أن يصيب أي إنسان بالخوف وبالدوار وقد يطلب حماية القوى التي تتحكم في هذه الأحداث. هكذا فكر كانان وقال لها وللمستمعين، إن أي خطر لن يصيبهم الليلة.

كانت دورة القمر في نهايتها، والظلام دامس طوال الليل، وعندما أفاقوا في الصباح وجدوا تلتهم قد أصبحت شبه جزيرة إذ وصلت مياه البحر إلى ثلاث من جهاتها الأربع. «أرأيتم؟ لقد قال كانان لن يصيبنا خطر الليلة، وها هي زراعتنا في الخلف لم تصلها المياه المالحة التي لم ترتفع إلى بيوتنا أيضاً». خاطبت إيمارهوس من تجمع منهم مذعوراً من وصول البحر إليهم وهم نيام، وأكدت لهم أن البحر سيتراجع ويعود إلى مكانه الأول. وصلهم كانان وسمع تأكيد إيمارهوس أن البحر سيعود، فأكد لهم ذلك ليطمئنهم، واستغرب أنهم ينظرون إليه بإجلال، فظن أن هذا نتيجة لما أصابه بالأمس ولعطفهم عليه.

قبل أن تغيب الشمس كانت وفود من ثلاث جماعات تقطن على مقربة من أوغاريت قد وصلت للاستفسار عما حدث والاستماع لما يمكن عمله. شاهدوا الزرع سليماً والمياه قريبة، فقيل لهم إن الماء قد صعد إلى حافة البيوت ولكن كانان أوقفه، وقصوا عليهم ما حدث لقائدهم بالأمس من موت وعودة ورؤيته للآلهة والحياة الأخرى. وسمع الجيران أن ما حدث

عبارة عن بهجة الأرض والبحر بعودة كانان، ولا خطر الآن لأن كانان أكد لهم عودة الأمور إلى سابق عهدها. علم كانان بحضور وفود من الجماعات القريبة، ولكنه كان يشعر بالإرهاق، ومكث معظم الوقت في بيته، ولم يسمع أو يعرف بأي من هذه التطورات.

قصص وأساطير

الرواية الثانية

١

«بعدين قصوا شعره وربطوه على الطاحونة، صح؟»

«هذا منتصف القصة، وأنت طلبتِ أن أروي لك من البداية، إذاً عليك الاستماع». قالت خيه لدبورا، بلهجة تحذير ولكن بصوت منخفض، إن المقاطعات ستعني التوقف عن السرد. كانت تعرف أن سيدتها لا تحبذ استماع ابنتها دبورا لأساطير اليهود. «كانت جميلة جداً وشعرها أسود مجعداً طويلاً مثل شعرك هذا الذي يغلبني كل ليلة وأنا أمشطه لك». أمسكت دبورا بيد خيه لتخفف الضغط عن رأسها وطلبت منها أن تغمس المشط في الزيت. «حاضر، كما تريدين... وكانت عيناها زرقاوين مثل عينيك».. قاطعتها دبورا مجدداً إذا كانت متأكدة من لون عيني دليلة. «..حكيت لك زرقاء، ولذلك وقع شمشون في حبها، وجاب البهدلة والسباب لأهله ولكل اليهود».

«يعني أنت زعلانة يا خيه أن شمشون حب دليلة؟ طيب هاتي قصة أخرى».

«لا فرحانة ولا زعلانة ولكن شعرك أتعب يدي والأحسن أن نقصه». نظرت دبورا إلى خادمتها ففهمت هذه أن عليها الانصياع والاستطراد بدون مزاح. «حكيت لك بالأمس كيف قتل شمشون الأسد وثلاثين شخصاً من عسقلان وأخذ ملابسهم وأعطاها للثلاثين في غزة وكيف كسر باب المدينة، وأحرق الزرع بالثعالب ودفع اليهود ثمن الخسارة وغضبوا عليه. بعد ذلك

بسنوات زار غزة وشاهد دليلة فوقع في حبها من أول نظرة. كان شعره طويلاً وجسمه جميلاً»..

«لا أتوقع أنه كان جميلاً، فشعره الطويل تعشش فيه الحشرات ولم يكن يغسله بالطبع كل يوم، قبل أربعمئة عام، أكيد ريحته كانت فايعة، لا أدري كيف أحبته دليلة الغزية؟» قالت الطفلة وقد تناولت بشكيراً قطنياً مغزولاً عليه رسومات ورد ومسحت شعرها.

«ولكنه كان قاضياً ورجلاً مهماً هو الآخر». ردت عليها ولم تترك فرصة لعودة المجادلة وأكملت: «عموماً أحَبوا بعضهم، أو فلنقل إن الغزّيين، أقرباءك، أقنعوا ابنتهم بأن لا تصده ريثما يتدبرون الأمر ويمسكون به للانتقام من إرهابه لهم وتخريبه محاصيلهم وتكسير أبواب المدينة. صارت دليلة تلاغيه وتداعبه حتى عرفت أن سر قوته هو طول شعره، لأن الملاك أخبر والدته أن لا تقرب الموسى من شعره».

«أنت لا تفهمين، أخبرتك في السابق نحن لسنا غزّيين، نعيش في غزة منذ زمن بين الفلسطينيين، ولكننا كنعانيون». قالت ابنة السبع سنين بهدوء وكأنها تحشو الكلام في رأس خيه، ثم عادت إلى شمشون ودليلة: «لكن أمه كانت عاقراً فكيف حبلت به ومن هو أبوه؟» قبل أن تحصل على إجابة كان باب غرفتها قد فُتح، فقفزت على صدر والدها الذي ضمها ونظر إلى الخادمة بتأنيب إذ عرف على الفور أنها كانت تروي على الطفلة خرافة شمشون ودليلة.

«طبعاً قصت خيه عليك خرافة ديفيد وغوليث، الطفل الذي قتل العملاق بالمقلاع؟» سأل ميتني ابنته بصوت حيادي وهو ينظر إلى عينيها فأكدت له ذلك ولم تهتم بإشارات خيه خلفهما لتنكر. «وماذا أخبرتك أيضاً؟»

«قصة عصا موسى التي تنقلب أفعى وتشق البحر، وقصة أبرام الذي

أراد ذبح ابنه بطلب من يهوه. هل يمكن أن تذبحني إذا طلب داجون منك ذلك؟» تمالك ميتني أعصابه وجلس إلى جانب ابنته يكمل تمشيط شعرها وطلب من الخادمة أن تذهب إلى سيدتها وتخبرها أنها قصت على البنت أساطير التوراة. لقد انتشرت هذه القصص مثل النار في الهشيم منذ احتلال كورش الفارسي بابل وتحريره العبيد اليهود هناك والطلب منهم الاستفادة من تراث الحضارات وكتابة قوانين لهم يلتزمون بها.

«الإله داجون لا يطلب من أحد ذبح أي شيء. وقلت لك إن إلهنا هو بعل وليس داجون، ولكننا نحترم آلهة الآخرين الذين يرحبون ببقية الأديان. اليهود لهم إله خاص بهم وله زوجة، وهم في معظم الأحيان لا يحترمون آلهتهم إلا إذا وقعوا في مأزق. وأنا لا أعتقد أن أي إله يمكن أن يطلب من أب أن يذبح ابنه، أو ابنته، خصوصاً إذا كانت جميلة مثلك، ولو فعل ذلك بعل وطلب ذلك مني فسوف أكسر رأسه». ضمت دبورا أباها ودخلت عليهما الأم، ثالثة، وهما يتعانقان. «قصص التوراة يا حبيبتي مخصصة لليهود فقط، هم لا يريدون انضمام غيرهم إلى دينهم حتى لا يعم خير يهوه وزوجته عشارا، إلا عليهم وحدهم، ولذلك يبالغون في القصص والمعجزات. إذا كانت القصة حول هزيمة، مثل شمشون، فهو القوي الجبار الذي لا يُقهر طالما أنه لم يُخالف رغبة يهوه الذي أرسل الملاك إلى أمه وطلب منها أن لا تقص شعره، وحين يُخالف يهوه فمصيره الموت، بعد العذاب والذل على أيدي الفلسطينيين. وحين يكون لدى الأعداء عملاق، مثل جوليث، فإن صبياً يهودياً يقتله بمقلاع ويهزم الفلسطينيين»..

«لماذا يتقاتل اليهود والفلسطينيون على الدوام يا أبي؟»

«أترين يا ثالثة، هذه نتيجة أساطير التوراة من خيه، ألم تمنعيها من سرد هذه الخرافات؟» تذكر وجود ابنته فخفف من حدة نبرته، وعاد للابتسام

وقال: إن الفلسطينيين واليهود يعيشون كجيران منذ مئات السنين، وبين الحين والآخر يختلفون كما يختلف الجيران، وسبب الخلاف دوماً هو آلهة الطرفين. «ما رأيك لو غيرنا خيه بخادمة أخرى؟» لم يرحب وجه دبورا بهذا الاقتراح، فتراجع: «إذا أردت أن نحتفظ بها فعليك منعها من سرد قصص التوراة. أمك أو أنا، إذا كنت في البيت نقص عليك قصة النوم. لكن يمكن أن نجد خادمة أحسن منها، فكري في الأمر قبل أن تغمضي عينيك الليلة».

«الأمر يثيرك هذه الأيام لأن شغلك الشاغل مع أرمون البابلي والتوراة، من كتبها، أين أصلها، هل يعقل هذا وذاك فيها؟ لو كنت مثل بقية الناس لما أغضبك سماع ابنتك لأساطير اليهود». كظم غيظه وتصنع الهدوء وهو يستمع لزوجته بعد أن غادرا غرفة ابنتهما الوحيدة. «أنت نفسك تقول لي إن التوراة خليط من كل الحضارات والأديان السابقة، كنعانية وسومرية وبابلية وفرعونية، وإنه لا فرق من ناحية المبدأ بين يهوه وزوجته أو بعل وزوجته أو فرعون وزوجته أو داجون وزوجته، فلماذا الإنكار لدين اليهود الذين جمعوا من كل الأديان؟» سكتت وحاولت التعرف إلى سبب هذا الموقف المشاكس فلم تجد إلا رغبة زوجها في طرد الخادمة. أما هو فقد تبخر غيظه ولم يرَ جدوى من الشرح والإجابة عن تساؤلاتها. لو قال لها أي تفسير الآن فسوف تستطرد في منطقها، فسكت ومط شفتيه وهز رأسه كمن يؤيد ورفع حاجبيه كمن يستغرب. «إذا أردت طردها فعليك قبل ذلك العثور على غيرها. طبعاً لن تستبدل يهودية بأخرى».

«ابحثي عن واحدة غزية من أقربائك أو معارفهم».

«أو ابحث أنت عن واحدة كنعانية من أصولك. تعيشون بيننا منذ دمار أوغاريت قبل ثمانمئة عام، وتعتبر نفسك كنعانياً ولا تزور معبد داجون مع أهلي»..

«يبدو أنك لم تجهزي طعام العشاء الليلة وتبحثين عن شر يجنبك اللوم». كان صوتهما منخفضاً ونبراتهما شبه طبيعية حتى لا يتردد صدى حديثهما في البيت لتسمعه الطفلة أو الخادمة. فكر للحظة أن لا يخلع ملابسه ويخرج لتناول السردين المشوي في أحد محال الشاطئ، ولكنها أخبرته أن السمك مقلي وينتظره مع السلطة الحارة منذ ساعات. شكرها وعزم على تجنب الشر والانغماس الليلة في مراجعة ملاحظاته التي يسجلها في العادة بُعيد النقاش مع أرمون وجماعته، وأن يستعد للمواضيع التي ستناقش في الغد.

تعرّف ميتني إلى أرمون قبل عام حين لجأ الأخير مع اثنين من أورشليم إلى غزة بعد أن تلقوا تهديداً بالقتل إذا استمروا في المشاغبات. عاد أرمون مع اليهود من بابل، حيث ولد وتربى كيهودي في فترة النفي. عاد اليهود قبل خمس سنوات بعفو من الملك الفارسي كورش، ذي القرنين، الذي احتل بابل وألغى أوامر ملكها السابق، نبوخذنصّر، بالاحتفاظ باليهود منفيين في بابل بعد أن هدم معبدهم في أورشليم وحطم المدينة وساقهم سبايا إلى بابل، كما يقولون. لم يقتلهم نبوخذنصر آنذاك ولكنه أراد لهم أن يتعلموا ويتغيروا ويحترموا العهود والمواثيق لأن حكامهم نقضوا عهودهم معه مراراً. وعندما احتل كورش، ملك الفرس، بابل لاحقاً تعرف إلى قضية اليهود فاشترط عليهم إذا أرادوا العودة من بابل إلى أورشليم أن ينهوا خلافاتهم وأن يصوغوا قوانين وأحكاماً لكل اليهود، وحينها يسمح لهم بالعودة وبناء معبد على نفقة خزانة الإمبراطورية الفارسية. كان أرمون من ضمن اليهود الذين تلقوا هذا الأمر من كورش، ونشطوا لتنفيذه، فجمعوا المزيد من القصص والأساطير والأحكام والقوانين التي عثروا عليها في مكتبات بابل ليصوغوا ما طُلب منهم ويفرضوه على بقية اليهود ليلتزموا به. أراد أرمون وقلة معه أن تكون

الحصيلة قانوناً لليهود، ولكن الأغلبية حولت الأمر إلى صياغة جديدة لدين اليهود، وعظم النقاش بينهم بعد أن عادوا إلى أورشليم وتم تحجيم جماعة أرمون فخضع بعضهم لرأي الأغلبية، وهرب آخرون، جاء ثلاثة منهم إلى غزة يجمعون حولهم بعض سكانها من اليهود، وتعرف إليهم ميتني الكنعاني بحكم الجوار، فانخرط معهم في الجدالات، وصار يسجل ما يسمعه عن تطور تلك الأحداث في بابل طوال ستة عقود من النفي وبعد العودة.

لم يتأثر حب واحترام ميتني لزوجته، ولكنه أهمل عمله، وتراجع كثيراً الوقت الذي كان يمضيه مع ثالثة في البيت، ولم يتوجه معها إلى بيت أهلها طوال العام الماضي إلا في الأعياد التي لم تكن تعني له الكثير واعتبرها فرصة للاسترخاء. أصبح يوم الراحة لديه السبت لأن أصحابه اليهود يستريحون ذلك اليوم كعادة اكتسبوها في بابل. فقد قسم البابليون، منذ زمن بعيد، السنة إلى اثني عشر شهراً حسب علومهم الفلكية، ثم حددوا الأشهر بثلاثين يوماً، واليوم إلى أربع وعشرين ساعة والساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية وبالتالي أصبح الأسبوع ستة أيام عمل والسابع راحة. وأطلقوا على نظامهم هذا التقويم السداسي.

في البداية انجذبت ثالثة للمناقشات مع زوجها كل ليلة فيما يسمعه من يهود بابل، ولكن مع التأثيرات الجانبية لانشغال زوجها أخذ خلقها يضيق، وأعلنت مراراً أمام إخوته أن ميتني يشغل نفسه بأمر اليهود ويهمل مصالح العائلة، ولأنهم لم يؤيدوها تسربت إليها الظنون أن إخوته يستفيدون من تجارة العائلة ولا يعطونه نصيبه كاملاً، ولكنهم في الحقيقة كانوا عكس ذلك ولم يتذمر أحدهم بأن أخاهم يأخذ نصيبه من دون أن يمارس المهنة مثلهم كما كان يفعل في السابق. إنهم سبعة إخوة متزوجون ويشتركون في أعمال تجارية في غزة ويسيرون قوافل بضائع بين المدن وعبر الحدود، واتجهوا

حديثاً للتجارة عبر البحر بعد توسيع الفرس ميناء غزة. ولهم ثلاث أخوات متزوجات من كنعانيين في غزة. أما زوجته ثالثة فلها ثلاثة أخوة، أحدهم يملك مراكب لصيد السمك، والثاني لديه معمل لصناعة الفخار، والثالث ينتج أنواعاً جيدة من النبيذ.

بعد المشادة الأخيرة مع زوجته لمعت في رأس ميتني فكرة أن هذا لمصلحته، فبدل أن يخبرها بما يفكر فيه ويُعلمها بما يسمعه، فإن عليه الآن أن يسجل ذلك كما يراه، فيتم حفظه إلى الأبد بدل أن يُنسى أي شيء يناقشه مع ثالثة. لم يندم أنه تزوجها، فقد أحبها ولا يزال يحبها، وأنجبت له أجمل بنات كنعان وغزة، والتقصير في النهاية منه هو، والتغيير حدث تدريجاً طوال العام الماضي بسبب اهتمامه بما يسجله اليهود الآن من تاريخ جديد لهم يناسب رغبتهم وطموحهم فيصاغ وكأنه أمر إلهي قديم ووعود قدمت إليهم من الآلهة. هذا النوع من التفكير والأداء اليهودي شده لما يجري، وهو يشكر بعل على تقبل يهود بابل له وحديثهم الصريح أمامه عما جرى وعما يخطط إخوتهم الآخرون.

أكل بعضاً من السمك وشكرها على حسن إعداده، وهو يعرف أن الخادمة، خيه، هي التي طبخت، وصنع لنفسه كأساً من الماء الساخن وعسل النحل وقدم لزوجته كأساً من دون أن يسألها إذا كانت ترغب في شراب. خلط بعض النبيذ مع كأسه وجلس إلى طاولة مكتبه بعد أن أشعل أربع شمعات وبدأ يخط بالآرامية، اللغة الرسمية للإمبراطورية الفارسية التي أصبحت الأكبر في التاريخ، وتضم سوريا وفنيقيا وغزة وبقية مدن الفلسطينيين وأورشليم ويهودا وبلاد كنعان القديمة، أوغاريت، بل تمددت إلى بلاد الإغريق.

كورش: ملك ابن ملك وجدّه ملك. حرك شعبه فثاروا على حكم

إمبراطوَرية ميديان لبلادهم، وسيطروا على كل الإمبراطورية، ثم فتحوا إمبراطورية ليديان وبعد ذلك فتح كورش بابل وما كانت تسيطر عليه من ممالك ومدن ومنها سوريا وفنيقيا وأورشليم ويهودا ومدن الفلسطينيين على ساحل البّحر حتى بداية صحراء مصر، وبالطبع مملكة بترا العربية. هكذا أصبح لقبه ملك بابل، ملك سومر، ملك أكاد، ملك الجهات الأربع. هذا التمدد الجغرافي بقيادة كورش تم خلال ثلاثين عاماً فقط من حكمه، وقد توفي قبل خمس سنوات وجلس ابنه كمبوجي على كرسي حكم هذه الإمبراطورية. عرف كورش أن ديمومة الإمبراطورية مرهونة برضاء سكانها، فمنح كل فئة حقوق حكم ذاتي واسع الصلاحيات، وتقرب إلى كل الآلهة والديانات المتعددة للشعوب المحتلة. وعد أهل بابل بالرخاء ووعد المنفيين اليهود بالعودة وبناء معبد لهم واستعادة الغنائم التي حملها نبوخذنصر من أورشليم إلى بابل، وذلك إذا تمكنوا من ضبط شأنهم بقوانين ملزمة، وطلب منهم الاستفادة مما هو بين أيديهم من قوانين وآداب وعلوم الأولين المحفوظة في المخطوطات الكنعانية والسومرية والآشورية والأكادية والبابلية. لهذا عظّم اليهود كورش وكتبوا عنه في التوراة، وهو الوحيد من غير اليهود الذي صيغ له في التوراة بأنه المسيح (سأرفع كورش إلى الأعلى، سأجعل كل طرقه صحيحة، لأنه سيبني مدينتي ويحرر منفيي، ولكن هذا ليس كثمن أو مكافأة، قال يهوه المعظم) هذا النص المضاف إلى التوراة الآن، مع الكثير غيره، هو أحد أسباب خلاف أرمون مع الآخرين، فكيف يوضع نص توراتي يفترض أنه من القدم لحادث جرى أمام أعيننا؟ جواب خصوم أرمون أن يهوه قال ذلك منذ القدم لأنه كان يعرف ماذا سيحدث، وهو الذي حرك كورش ليفعل ما فعل. حتى هذا اليوم وبعد خمس سنوات على موت الإمبراطور كورش لم يتفق اليهود على بناء المعبد، لأن العائدين

من بابل أرادوا السيطرة وهولوا في قرار كورش وكأنه تفويض إليهم، بينما يهود يهودا لم يصدقوا كل ما سمعوا، ويرفضون إعطاء إخوتهم أولوية حق البناء وما يتبعه من هيمنة، وإن كانوا تقبلوا النص التوراتي الجديد حول كورش لأنه بالفعل حرر اليهود العبيد فعاد بعضهم وبقي أغلبهم في بابل المزدهرة الآن في ظل حكم فارسي، والتي وصلها آباؤهم سبايا قبل ستة عقود.

توقف عن الكتابة وبحث عما سجله عن نبوخذنصر، لكنه تنبه إلى زوجته أنها تقف خلفه تراقب ما يكتب. نظر إليها فأخبرته أنها تريد زيارة أهلها. «آسف لانشغالي عنك، ولكن هناك أشياء أريد تسجيلها قبل أن أنسى. خذي الخادمة معك لتؤنسك في الطريق».

«دعها تنام فلديها غداً يوم عمل كامل. بيت أهلي ليس بعيداً والأمن مستتب، وسأطلب من أحد إخوتي أن يرافقني في طريق العودة». وافقها الرأي بإيماءة ولكنه لم يكن مقتنعاً أن الأمن مستتب. لم يخبر زوجته بالمخاوف، فانطلقت وعاد إلى ريشته ولفائف البردي، وقرر أن يطلب من إخوته تأمين المزيد من مواد الكتابة تحسباً لانقطاعها إثر أي طارئ.

نبوخذنصر: ابن الملك البابلي نبوبولاسر، الذي أنهى الاحتلال الآشوري لبابل وأسقط عاصمتهم نينوى. قاد حملات عسكرية في حياة أبيه إذ قاتل تحالفاً آشورياً مصرياً بقيادة الفرعون نخاو وهزمهم في معركة كركميش قبل ثمانين عاماً بالضبط، وفرض الهيمنة على بلاد سوريا وفنيقيا ومدن يهودا وفلسطين. كل هؤلاء أصبحوا يدفعون الجزية لبابل وتراجعوا في النهاية عن التبعية لمصر. مات الملك نبوبولاسر بعد تلك المعركة، فعاد الابن من سوريا إلى بابل لتولي الحكم. قبل معركة كركميش بخمس سنوات كان خوف مصر وآشوريا قد تعاظم بسبب نهوض بابل، فتوجه فرعون مصر

بقواته إلى البلاد والمناطق الخاضعة له على الساحل، أحياناً يشتبك مع قوات بابلية ومعظم الوقت يهدد حلفاءه ويطلب منهم الطاعة والاستعداد لمعارك ضد بابل. هكذا تصادم الفرعون مع قوات يهودا في تلة مجيدو وجرح حاكم أورشليم، جوشوا، الذي خسر المعركة وعاد إلى أورشليم حيث توفي.

بعد أربع سنوات على معركة مجيدو وقعت معركة كركميش بين قوات بابل بقيادة نبوخذنصر وبين فرعون مصر نخاو الذي هُزم شر هزيمة وهربت القوات المصرية إلى الجنوب، ولكن نبوخذنصر لحق بهم وتجاوزهم وأوقفهم قرب حماة، وهناك أباد من أمسك به، وفر الفرعون مع من بقي من جيشه. في ذلك العام عاد نبوخذنصر إلى بابل وتم تتويجه بدل والده، ومكث يستريح في بلاده. استعدت المدن والممالك التي كانت تحت هيمنة مصر أن تدفع الجزية لبابل بعد فرار الفرعون، ولكن بعض هذه المدن عادت وامتنعت عن دفع الجزية المقررة، وأصبح الفرعون نخاو يحرض حكام تلك المناطق ضد بابل. في العام التالي قرر نبوخذنصر التحرك لردع المتمردين، لكن حملته العسكرية تعثرت، فانتفضت البلدان الخاضعة وعادت لتأييد مصر، ومنها حكام المدن الفلسطينية، عسقلان، عقرون، غزة، أشدود، أفك، جت، أيضاً حاكم أورشليم يوهواكيم، توقف عن دفع الجزية هو الآخر. في العام التالي، أي بعد عامين على تتويجه ملكاً لبابل هبط نبوخذنصر بحملة عسكرية مرت على صور الكنعانية وعلى فنيقيا ومدن سوريا حيث حاصر وحطم من تصدى له، ووصل إلى أفك، فكتب عدون حاكم عقرون، إلى الفرعون رسالة يستنجد به، ويخبره أن نبوخذنصر على مقربة من مدن الفلسطة. لم يصل المدد من مصر، بل وصل نبوخذنصر إلى عقرون فدمرها وكذلك فعل بعسقلان، وأسر الحكام وعائلاتهم وأرسلهم إلى بابل. حكام

أشدود وغزة وجت استدركوا الخطر وأرسلوا الجزية المقررة إلى نبوخذنصر قبل أن تصلهم قواته، واستعدوا بالولاء. هكذا صعد ملك بابل إلى أورشليم فاستسلم حاكمها ودفع الجزية هو الآخر.

دُفعت الجزية لعامين، لكن الفرعون نخاو عاد يحرض ويهدد حلفاء الأمس ليدفعوا له بدل بابل، فقاد نبوخذنصر حملة جديدة، لردع الفرعون نخاو، أوصلته إلى رفحا بين غزة والصحراء المصرية، حيث التقاه جيش نخاو، قتل الكثير من جند الطرفين ولكن أياً منهما لم يدخل بلاد الآخر، نخاو لم يعد بإمكانه الوصول إلى غزة وبقية المناطق شمالاً، ونبوخذنصر فشل في اجتياح مصر. استمر الفلسطة في دفع الجزية لبابل، ولكن يهودا قررت عدم الدفع لأي طرف. استمر التمرد اليهودي أربع سنوات، ثم هبط إليهم ملك بابل بقواته، احتل أورشليم وأرسل حاكمها وعائلته وأنصاره من الكهنة، أرسلهم إلى بابل ونصب عم الحاكم بديلاً عنه وهو حزقيا وأخذ منه يمين الولاء. استمر حزقيا في إدارة أورشليم ويهودا سبع سنوات، ثم تمرد بتأييد وتحريض من الكهنة في المعبد وبدعم من فرعون مصر، وامتنع حزقيا عن الدفع. كالعادة، حضر نبوخذنصر بقوات مناسبة، فحاصرها، لكن الفرعون هبرا استجاب لطلب استغاثة مبكر من حزقيا وأرسل قواته إلى المنطقة وهذا ما تسبب بإنهاء الحصار ومطاردة نبوخذنصر للقوات المصرية وإعادتها إلى مصر، ثم عاد إلى أورشليم واجتاحها ودمر كل شيء بما فيه المعبد وصادر كل محتوياته، إذ عرف دور الكهنة في التحريض على الثورة والتآمر مع فرعون مصر الجديد. وأضيف نص توراتي يقول إنه لم يبق في البلاد سوى الفقراء والمعدمين، وإن متاع المعبد حمل إلى بابل، وكتب في التاناخ: وحل في المدينة كل شيء سيىء وشربت حتى الثمالة كأس غضب الإله، كما قال يهوه. اقتحمت المدينة وهرب حزقيا وجماعته، لكن قوات

الملك أسرتهم قرب أريحا وأعدموا ابن حزقيا أمامه ثم سملوا عينيه وقيدوه أسيراً مع الآخرين إلى بابل. ولأن كهنة المعبد هم الذين حرضوا حزقيا على الثورة وأفتوا له بعدم شرعية قسم الولاء الذي قدمه لنبوخذنصر، أمر هذا بتدمير نهائي للمعبد وتخريب للمدينة. سمع يهود مواب وعمون وأدوم ما حدث لإخوتهم فتوجهوا إلى أورشليم ليجدوها خراباً، قتلوا الحاكم اليهودي، جدلايا المعين من نبوخذنصر قبل شهرين، وفروا مع من بقي من اليهود إلى مصر ليأمنوا شر الانتقام.

قبل أن يهاجم نبوخذنصر أورشليم كان قد هاجم صور مرة أخرى، فتصدت له خلف أسوارها طوال ثلاث عشرة سنة لاحقة واستسلمت أمام قوات بابل لطول الحصار. تكونت صور من جزءين، الأول على الشاطئ والجزء الآخر هو جزيرة محصنة داخل البحر، وهي التي صمدت كل ذلك الزمن، بانتظار نجدة لم تصل من فرعون مصر الجديد، وكان الفراعنة في الماضي يستخدمون الفنيقيين وأسطولهم في معاركهم. حكم نبوخذنصر أربعين عاماً، وهُجرت أورشليم حوالى نصف قرن حتى سقوط بابل بدون قتال لقوات كورش الفارسي ملك الجهات الأربع، فتشجع الناس على تعمير المدينة. قبل ثماني سنوات من تدمير أورشليم كان الفرعون نخاو قد مات، وحكم من بعده ابنه ست سنوات وحل مكانه الفرعون هُبرا هيبه قبل عامين من تدمير أورشليم، وهو الفرعون الذي حرض صور على العصيان ولم يتمكن من نجدتها. هذا الفرعون وقع ضحية انقلاب عسكري قاده أحمس الذي أصبح فرعون البلاد ومات قبل ستة أشهر فقط وتولى الحكم بعده ابنه سمتك الثالث.

تنبه ميتني إلى حركة في البيت، فظن أن زوجته ثالثة قد عادت مبكراً من زيارة أهلها، لكن دبورا دخلت غرفة المكتب تفرك عينيها مدعية أنها

لا تستطع النوم، سألته عن أمها فضمها وقبل جبينها وأخبرها أين ذهبت الأم. «ماذا تكتب طوال الليل يا أبي؟» أخبرها أنه يسجل ما يتجمع لديه من معلومات عن التاريخ القديم وما يدور الآن. «وهل كتبت عن كنعان؟» سألته وقد تمددت على فراش المجلس. أعاد ريشته إلى مكانها ورتب الطاولة فقد عرف أن وقت الكتابة انتهى هذه الليلة. «لماذا لا نعيش في كنعان؟»

«لأن غزة جميلة أيضاً وهي على شاطئ البحر مثل أوغاريت، وهي أصلاً مثل كل مدن الساحل أصلها كنعاني. ثم تغيرت مع الزمن وكثُر المهاجرين إليها. صور كنعانية وبلاد فنيقية الآن كلها كنعانية الأصل ويهودا وأورشليم أيضاً، بل قبائل كنعانية هي التي بنت أورشليم أيام زمان وكانت تسمى يبوس». سكت ميتني ظناً منه أن ابنته قد نامت، ولكنها عادت تسأل عن سبب عدم الإقامة في أوغاريت. «لأنها دُمرت يا دبورا، دمرها أقوام همجية هجمت علينا من البحر وغيرهم جاؤوا بمحاذاة الشاطئ من الشمال، لقد هجروا بلادهم وجزرهم وحضروا إلى بلادنا، وبدل أن يتعايشوا عاثوا خراباً وتدميراً في أوغاريت وفي مدن الحثيين أيضاً». جلست البنت وفتحت عينيها فتنبه أنه أزعجها بهذه الرواية. «بنى أجدادنا الأوائل أوغاريت قبل خمسة آلاف وخمسمئة عام، وكانت خالية من الناس، ولكن في المناطق المجاورة وجد آخرون اتحدوا مع أجدادنا وبنوا المدينة وعاشوا بسلام، تحت حماية بطلهم كانان وابنه بعل واسع الاطلاع والمعرفة. مرت السنوات بالمئات والألوف وتوسعت البلاد وقامت إمبراطوريات حولهم وتعمرت الأرض طوال أربعة آلاف وثمانمئة عام تلت. وقبل ستمئة وخمسة وستين عاماً عم الدمار أوغاريت وجيرانها، ولم يعد بالوسع إعادة البناء لأن أجدادنا هربوا بحياتهم وتفرقوا في مدن ساحلية جنوبية ومنهم أصولنا الذين استقر بهم الوضع في غزة. «صمت وشرب الثمالة التي بقيت في كأسه وسأل دبورا

إذا كانت تريد حليباً ساخناً فرفضت، وسألته عن الأقوام الهمجية الذين دمروا أوغاريت. صب في كأسه بعض النبيذ وشعر بأن ابنته لن تنام الليلة إذا أخبرها بالتفاصيل التي تقشعر لها الأبدان عما فعل المهاجمون بعد أن نزلوا من سفنهم. «هل أخبرتك أن كانان وبعل وجماعتهما حضروا من كهوف بلاد الإغريق المليئة بالجزر؟» نفت دبورا ذلك برأسها. «إذاً سأخبرك الآن بتلك القصة التي سجلت على الألواح الطينية».. عادت لترفض ذلك برأسها، ففهم ماذا تريد، فقد اكتسبت العناد من أمها وأخوالها. «الذين هاجمونا حضروا أيضاً من تلك النواحي ولكنهم لم يتطوروا مثلنا طوال آلاف السنوات. وأعتقد أن الظروف أجبرتهم على فعل ما فعلوا. هاجمونا حتى يؤمنوا مستقبلهم، ولكنهم لم يعرفوا كيف فدمروا كل شيء. لقد ثار عندهم بركان وهزت مجموعة زلازل جزرهم وبلادهم الساحلية، وارتفعت المياة وغطست أجزاء كبيرة من الجزر والشواطئ تحت الماء، بينما حمم البركان تترصدهم في الأعلى. ارتعبوا وفروا، بعضهم ركب البحر وغيرهم ركبوا الحمير وانطلقوا إلى ساحلنا»..

«هل هؤلاء الأشرار هم اليهود يا أبي؟»

«لا طبعاً، اليهود كانوا عبيداً في مصر وحضروا إلى هنا من الشرق بينما الآخرون جاؤوا من الغرب. لكن ظنك شبه صحيح لأن الهجومين حدثا في الحقبة الزمنية نفسها ولذلك تعبت منطقة الساحل من هذا الشر المزدوج. واليهود عندما حضروا إلى هنا كان اسمهم خابيرو وكانوا يشتغلون كعمال بالسخرة، يعني عبيداً، عند فراعنة مصر في بناء الأهرام، ولكن الشعب المصري ملهم فمنحهم الفرعون حق الإقامة في الصحراء بيننا وبين مصر ودفعهم إلى هناك ليرتاح منهم، أما هم فاعتبروا ذلك وعداً من الإله بأرض لهم. ولأن الفرعون يعتبرهم رعاياه فبين الحين والآخر يحضر إلى هنا بقواته

سواء لأخذ الجزية أو بحجة حمايتهم». همّ أن يخبرها أن هجوم الغرب حمل أخوالها الفلسطة من جزيرة كريت إلى هنا وأنهم جزء من المشكلة، ولكنه أجل إخبارها بذلك ريثما تكبر وتستوعب.

دخلت ثالثة البيت مسرعة فوجدت زوجها وابنتها يتحادثان بهدوء وانسجام، ولاحظ ميتني عودتها مبكرة بامتعاض شديد وخوف يعلو وجهها. صب لها بعض النبيذ وأجلسها على كرسي مكتبه وجلس إلى جانب دبورا بانتظار أن تخبره بما يزعجها، وقرر أن لا يسألها ما الخطب حتى تغرد طوعاً. «أنت على حق، فالأمن غير مستتب». ضم ابنته ونظر إلى زوجته متمنياً أن لا يكون قد ضايقها أحد في الحارة. «بالشار عاد اليوم من زيارة للعرب النبط ويقول إن القوات الفارسية اقتربت من هنا في طريقها إلى مصر، وبارنابا يؤكد أنه شاهد اليوم سفناً حربيةً متجهة إلى مصر هي الأخرى». صدمه الخبر، بالشار هذا أخوها صانع وتاجر الفخار، وبارنابا أخ آخر لها يعمل في الصيد بالقوارب، وبقي أن يؤكد هذا الخبر أخوها الثالث تيوما صانع النبيذ. «الأهل في البيت يناقشون كيف يحمون أنفسهم وكيف يستعدون»... ترددت في قول كلمة الحرب إذ تنبهت لوجود البنت التي فتحت عينيها وهي تستشعر خوف أمها. «اذهب الآن واجتمع بأخوتك ليكونوا على حذر ويتدبروا أمر تجارتكم». تحركا معاً، هو للخارج بينما أخذت هي دبورا لتعيدها إلى الفراش.

خرج من الباب يتعثر بالعباءة التي وضعها على كتفه، فالجو بارد في الخارج وكانت الأمطار قد هطلت ساعات بالأمس. ما هذه السفن التي تبحر في هذا المناخ؟ هل تكون السفن الفارسية التي اشتروها من اليوناني الدجال، ويبحرون بها الآن للهجوم البحري بينما قواتهم البرية في طريقها إلى الصحراء؟ سيخبر أخوته بما سمع ويمر على بيت نسيبه بالشار ليفهم القصة بالضبط، وما علاقة النبط في الموضوع. كان يسير ويحادث نفسه

عن هذه الفوضى القادمة، وكأن ما يجري في المنطقة لا يكفيها حتى تعاني صراعات الكبار. تذكر أن هذا هو قدر غزة على الدوام، تأتي الغزوات وتذهب وتبقى البلد وأهلها بالقليل أو الكثير من الخسائر، فذلك لا يهم. موقعها هو سبب الرخاء والدمار الذي يحل عليها، فهي نهاية الخط البحري وبدايته، وقربها يسكن العرب النبط ليتاجروا بما يصل إليها وما تصنعه، ينقلونه عبر الصحراء إلى مصر والبتراء وبلاد العرب والهند وإلى بابل وبلاد الشمال، بينما يتنافس الفنيقيون واليونانيون في النقل البحري من غزة وإليها. تذكر أن العرب النبط يكرهون فراعنة مصر لأنهم جلبوا إلى غزة طوائف يونانية صارت تنافسهم في التجارة.

وصل إلى بيت أكبر إخوته وأخبره بما سمع وطلب منه إبلاغ الآخرين ونصحه بالاحتفاظ بكل ما لديهم من مواد غذائية، والحصول على المزيد غداً من مصادر خارج المدينة. «علينا توقع حصار قد يطول».. قال لأخيه ثم عاد يهدئ الأمر فالسفن تشرع إلى مصر وكذلك القوات البرية، ولا خطر مباشراً يتهدد غزة. «..سأذهب لأجمع المعلومات من إخوة ثالثة، ولكن الخبر سينتشر مع الصباح فأبلغ أنت الإخوة الآن حتى يكونوا على بينة». ودع أخاه وعاد أدراجه باتجاه بيت أهل زوجته. كان هواء البحر المشبع بالملوحة يضرب وجهه من الغرب، والغيوم تملأ السماء والظلام حالكاً، فقد أطفئت مصابيح الشوارع. هذه المدينة أقيمت منذ قرون بعيداً عن البحر مسافة ساعة على الأقدام، واختار بناتها تلة متوسطة الارتفاع تشرف على البحر والسهول من حولها. كانت غزة القديمة ملاصقة للشاطئ والميناء، ولكن الفلسطة الهاربين من البركان وارتفاع الماء الذي غمر بيوتهم بفعل الزلازل، قرروا بناء المدينة الجديدة بعيداً عن الشاطئ، وفي مكان مرتفع، ليتجنبوا الفيضان البحري وخطر القراصنة، ولهذا أقاموا سوراً قوياً وعالياً حول المدينة.

قرع ميتني الباب طويلاً، وقبل أن يكل متنه سمع صوت بالشار يجيبه بالانتظار، فُتح الباب، وبدا نسيبه وكأنه يسير نائماً، دخل معه ساحة البيت ووقفا في حماية جذع شجرة جميز. «ما الأمر، أخبرتني ثالثة أن الفرس يسيرون إلى مصر». أطال ميتني في السؤال حتى يعطي بالشار فرصة ليصحو. «من أخبرك بذلك؟ هل شاهدتهم؟» مد يده إلى كتف نسيبه وهزه.

«أنا صاحٍ يا أخي... كنت في اليومين الماضيين بين العرب النبط أعرض عليهم أنواع فخار جديدة على أمل أن يطلبوا كمية ليحملوها معهم في قوافلهم. كانوا مشغولين بأمور غير التجارة. فهمت منهم أن زعيمهم قد اتفق مع الفرس على توريد مياه شرب لقواته التي تعبر الصحراء إلى مصر، وأنهم بالفعل جهزوا المئات من قرب الماء المصنوعة من جلد الجمال وأوصلوها إلى أماكن متفق عليها، وأرسلوا أدلة للفرس ليوصلوهم بأمان عبر الصحراء بالقرب من تجمع القوات المصرية». سكت بالشار بعد هذا الموجز المفيد، ولكن ميتني لم يعلق فأضاف: «عدت إلى البيت فسمعت بارنابا يؤكد أنه بينما كان على مسافة من الشاطئ يصيد السردين، شاهد في البحر سفناً حربية كثيرة المجاديف تبحر من الشمال إلى الجنوب... فما رأيك؟»

«إنها الحرب بين الفرس والمصريين، فاستعد لما يهم مصلحتك».

«سمعت أنك تكثر الجلوس والمشاورات مع اليهود، فهل قالوا شيئاً عن الأمر؟»

«لم أخبرهم بعد، غداً سيعرفون مثل الآخرين، ولكنهم ليسوا منجمين، فما تقوله أنت وأخوك يفيد بتقدم قوات الفرس». أراد ميتني أن يعرب بكلمة أو بأخرى عن امتعاضه لما تنقله زوجته إلى بيت أهلها، ولكنه كف عن ذلك وسأل بالشار: «لماذا قدم النبطيون هذه الخدمة للفرس؟»

«إعفاء تام من دفع الجزية، وتفضيلهم في التجارة البرية عن الإغريق،

ووعد بمزايا إضافية في السكن جنوب غزة حتى العريش، وعبر الصحراء شرقاً كوطن لهم يشمل البتراء... لهذا كانوا فرحين». تثاءب بالشار وهبت رياح هزت أفرع الجميزة فتساقط عليهم من حبها الطري الذي يصبغ لونه على الملابس. استأذن ميتني وشكر نسيبه وتحرك من تحت الجميزة، التي تثمر سبع مرات في العام. خرج من باب بيت نسيبه متوجهاً إلى منزله وقد ازدحمت المعلومات في رأسه. لدينا ميناء كبير وحديث أقيم بدعم الفرس، ولكن سفنهم الحربية لم ترسُ هنا، وهذا يبشر بالخير. لو نزلت قواتهم هنا لتوجب علينا إطعامهم وتحميلهم بمواد تموينية حين ينصرفون. الحرب ستعطل تجارتنا على كل حال، وعلينا تخزين البخور والعطور حتى تعود الأمور إلى حالها. قبل أن تهدأ الأحوال سيصلنا لاجئون جدد من المدنيين الهاربين بحياتهم من تناطح الجند. تذكر ميتني ما جرى بعد دمار مدن الفلسطة الأخرى على يد نبوخذنصر، عسقلان وعقرون وأفك تفرق السكان على القرى المحيطة ووصل الكثير منهم إلى غزة، الأغنياء سكنوا داخل الأسوار ورفعوا أجرة البيوت وأثمانها، والفقراء استقروا في خيام خارج السور وبالقرب من النبط جنوب المدينة. بعضهم عاد أخيراً ليبني هناك من جديد، وربما أثرت الحرب القادمة سلباً أو إيجاباً في خطط إعادة البناء. تذكر ميتني أنه سمع كثيراً عن روعة عسقلان، وكلما يسير في سوق غزة يتذكر ما سمعه من والده بأنه نسخة عن سوق عسقلان، محال لبيع الذهب المصاغ، وأخرى لبيع النبيذ، يجاورها بائعون للفخار الغزي واليوناني، محال جزارة لبيع لحوم الخنازير وأخرى لحوم الماعز والخراف. فجأه تذكر انخفاض سعر لحوم الجمال منذ أيام. سخر من نفسه أنه لم يستنتج شيئاً من انخفاض السعر، ولكنه كيف سيعرف أن النبط سلخوا الجمال لاستعمال جلودها لنقل الماء وأغرقوا السوق باللحوم؟

دخل بيته بهدوء، ووجد الجميع نياماً، شعر أن ذهنه متيقظ فقرر العودة إلى الكتابة تخوفاً من انعدَام الفرص لذلك في الأيام القادمة.

أحمس: كان سبب الانقلاب على الفرعون، هُبرا هيبه، إذلاله للجيش من كثرة الهزائم أمام بابل، ومن كثرة تدخلاته في المناطق الساحلية البحرية من غزة حتى مدينة صور بدون أن يكون لديه مخطط ناجح، وكانت تنقصه القوات البحرية ولهذا اعتمد هُبرا على سفن وبحارة الفنيقيين، كما جلب الكثير من المرتزقة اليونان وسلمهم مقاليد الجيش. في المقابل كان البابلي نبوخذنصر أقرب إلى المناطق الساحلية ويسهل عليه الوصول إليها براً. هكذا قاد أحمس الانقلاب العسكري وقتل هُبرا هيبه، وتنبه على الفور لتجديد هيكلة قوات الجيش. عندما عرف نبوخذنصر بهذا الانقلاب اعتبره فرصة فتوجه إلى مصر، وكان ذلك في عام حكمه السابع والثلاثين، ولكن أحمس لم يخرج للقائه فلم يتم الاحتكاك بين القوتين وشهدت المنطقة فترة سلام حذر بعد ذلك. استغل أحمس الوقت وبنى أسطول سفن نهرياً وبحرياً يمكنه من نقل القوات إلى البحر أو عبر النيل من الجنوب إلى الشمال حيث يصب فرع النيل في البحر، ويقترب أحد الأفرع الأخرى من بداية الصحراء التي تأتي منها الغزوات البرية، وأقام أحمس هناك ميناء وقلعة قوية. هكذا لم تعد مصر بحاجة إلى السفن الفنيقية التي أصبحت أصلاً منذ عقود تحت سيطرة بابل.

بعد ثماني سنوات على توليه الحكم وبعد أن وصله خبر موت نبوخذنصر، استأجر أحمس بحارة إغريقاً وأكاريين وأبحر بسفنه حتى جزيرة (قبرص) قبالة صور، فاحتلها ونهبها وعاد إلى مصر ولكن أداء السفن النهرية لم يكن كما تمناه. بعد عقدين من الزمن على تلك المغامرة التي ترافقت مع سنة موت نبوخذنصر، وبعد أن أصبحت بابل نفسها تحت الحكم الفارسي،

سمع أحمس بمهارة سكان جزيرة ساموس في بناء السفن البحرية الحربية، فأبحر إلى هناك واتفق مع حاكمها أن يبني له مئة سفينة، لكل منها خمسون مجدافاً وعشر راميات رماح كبيرة، وذلك مقابل سبعة أطنان من الفضة كل عام. كان حاكم الجزيرة، بوليكراتس، مشهوراً بالمراوغة والخيانة، فقد قتل أحد أخويه اللذين شاركاه في الاستيلاء على السلطة، ونفى الآخر واستقل بالقيادة. باشر بوليكراتس البناء مقابل هذه الأموال السنوية، وخوفاً من نقمة أحمس. جاء هذا التحرك من فرعون مصر بعد عام من احتلال الملك الفارسي كورش لبابل وبالتالي فرض هيمنته على كل المناطق التي كانت تابعة لبابل والتي تتمدد حتى غزة جنوباً قرب الحدود المصرية.

طوال عقد من الزمن لم يُسلم بوليكراتس السفن، وقد صنع أربعين منها ولكنه لم يكمل العمل نهائياً في أي سفينة، فكانت كلها في الميناء تنتظر إتمام هذا الشيء أو ذاك، حتى مات أحمس قبل ستة شهور فقط، فما كان من بوليكراتس إلا الاتفاق مع الملك الفارسي، كمبوجي، ابن كورش ووريثه، فباعه السفن بسعر رخيص، وطلب من كمبوجي أن يرسل رسائل تهديد للجزيرة حتى لا يوجد من يعارضه في تسليم السفن للفرس بدل أصحابها المصريين الذين دفعوا الثمن كل سنة حسب الاتفاق. برسائل التهديد الفارسية للجزيرة ستذوب أي معارضة أو اتهام لحاكمها. هذه السفن على الأرجح هي التي شاهدها بارنابا بالأمس تبحر بجنودها إلى مصر.

في الصباح الباكر عرف ميتني أن إخوته قد أخفوا كل الفضة والذهب الذي يملكون في مكان آمن، وأنهم انتشروا لتأمين أي بضائع غذائية من الأسواق. ذهبت ثالثة وابنتهما والخادمة إلى بيت أهلها، بينما قرر هو الذهاب إلى أصدقائه اليهود ليبلغهم بالأخبار. وجد أرمون وأريال وأموس جالسين في بيت الأول، كالعادة، وقد انضم إليهم شخص رابع عرفوه إليه

باسم أهارون، وقد بدا عليه أنه من أهل العلم والكتاب مثل أصدقائه الثلاثة. باشره أرمون إذا كان يعرف اسم الآلهة الكنعانية، وأوضح للضيف الجديد أن أصل ميتني كنعاني وأنه مهتم بالتاريخ والقصص والديانات. لم يسأل ميتني عن سبب السؤال فقد كانوا قد باشروا الحديث قبل وصوله، ويبدو أنهم لا يعرفون بأن الحرب على الأبواب، فقرر تأجيل إبلاغهم بذلك.

«الآلهة الكنعانية كثيرة، وقديمة أيضاً. مضى على التكون الكنعاني أكثر من خمسة آلاف وخمسمئة عام، وقد أخذوا بعض الآلهة والطقوس ممن سبقوهم، مثل احترام الثور لما يمثله من قوة، والبقرة لما تمثله من إنجاب، ثم طوروا آلهتهم من أبطالهم. الإله الأكبر لديهم هو آل، وهو رئيس الآلهة وله ابن اسمه بعل، وآل متزوج من عشيرة»..

«أرأيتم؟» قاطع أريال حديث ميتني الذي صمت ليترك لهم مجال استمرار نقاشهم طالما وصلوا إلى الإجابة التي ينتظرون. «آل شاداي، آل ليون، آل وهيم، آل يهوه. هذه الآلهة اليهودية كلها تستمد أسماءها من الديانة الكنعانية. وكما سمعتم فإن آل الكنعاني متزوج من عشيرة، وهكذا تزوج يهوه من إلهة بالاسم نفسه، عشيرة، وهي التي يريد العائدون من بابل شطب اسمها وأي ذكر لها من المخطوط والمروي المتناقل»..

«ولماذا لا يكون ليهوه زوجة واسمها على اسم زوجة آل الأقدم منه؟» سأل ميتني الآخرين في الجلسة. تطوع أرمون بالشرح وإيجاز ما كانوا يتحدثون به قبل دخوله عليهم هذا الصباح، فقال إن القادمين من بابل، وهو يحرص أن لا يسميهم العائدين لأنهم كلهم ولدوا هناك، هؤلاء القادمون تأثروا بالديانة الفارسية، ديانة كورش الذي أطلق سراحهم ويعتبرون أنه كلفهم كتابة التوراة وبناء الهيكل ويعتبرونه المسيا المخلص. وديانة الفرس، زورواسترين، تقوم على إله واحد ونبيهم هو زارا فوسترا، والإله أهورأمازدا

قوي جداً، ولكن له خصم شرير هو أنجرامانيو. الصراع قائم بينهما وعلى البشر الاختيار بين الاثنين بين الخير والشر. ويعتقد الفرس أتباع هذه الديانة أن المخلص سيولد من عذراء، وأنه سيحيي الموتى ويحاسبهم ويحكم عليهم بالثواب أو العقاب. ولذلك فإن الملك كورش لم يجبر أياً من الشعوب المسيطر عليها أن تغير ديانتها فهو يعتقد أن كل الديانات تؤدي إلى الإله الأوحد الأكبر وهو المسؤول عن الحساب. هذه الديانة، التي يرغب اليهود القادمون من بابل في تقليدها وتطعيم اليهودية بها، هذه الديانة تؤمن بوحدانية الإله وتعتبر الدين والهوية شيئاً واحداً ولذلك يمنعون الزواج من الآخرين، وهذا ما يريد يهود بابل الآن صياغته وتطبيقه. أي شطب كل الآلهة اليهودية الأخرى، وإلغاء ذكر زوجة يهوه، وتخصيص هذا الدين والإله لليهود فقط، ومنع التزاوج مع الأمم الأخرى. كيف يريدون شطب عشيرة من الوجود بينما تماثيلها الصغيرة في بيت كل يهودي، كما أن تماثيلها كانت في المعبد قبل هدمه أيام حزقيا؟

«أتعرفون أن الفرس الآن بالقرب منا وعلى أبواب مصر براً وبحراً؟» قال ميتني بعد أن أنهى أرمون شروحاته. صعقهم الخبر، فأطلعهم ميتني على ما لديه من معلومات وتخمينات. ظهر على الأربعة الإحباط إذ توقعوا أن هيبة الفرس سوف تتعاظم إذا انتصروا على المصريين، وأن جماعة أورشليم سيتعزز موقعها وتغير وتبدل وتكتب ما تريد من النصوص في التوراة الجديدة.

غادر الثلاثة البيت مهرولين وبقي ميتني مع أرمون ليهدئ فؤاده من خطر اقتراب الحرب، وحادثه بتوقعاته أن لا تصل المعارك إلى غزة، ثم سأله «ما قصة هذا المخلص ابن العذراء المنتظر، الذي ذكرته قبل خروج الجماعة؟ كيف ستحبل أمه، ومتى، وكيف؟ وما أهمية العذرية في الأمر»..

«رويداً رويـداً».. قاطع أرمون جاره وصديقه، وشعر أن ميتني يريد تحويل أفكاره عن مخاطر الحرب بهذا السيل من الأسئلة. «كيف ستحبل ليس مشكلة لأن الإله سينكحها، من دون إيلاج، وكل الآلهة لها زوجات وتنكح. إله ديانة الفرس الأول وهو ميثرا، ولد هو الآخر من عذراء، قبل ألف وخمسمئة عام من وقتنا الحالي، وفي تاريخهم أنه ولد في كهف يوم خمسة وعشرين من الشهر الأخير، وكان رعاة الأغنام هم أول من آمنوا به وتبعوه، وسار معه في تنقلاته اثنا عشر رفيقاً يتعلمون منه لينشروا رسالته. وهذا الإله ميثرا، هو الذي قنن السبت كيوم للراحة والعبادة، وشرع أكل الرقائق وعليها رسم صليباً، وجعل أهم احتفالين كل عام هما الميلاد والفصح. وهذا ما يطبقه الفرس في دينهم إلى الآن، وقريباً ستجد أن القادمين من بابل سينشرون هذه الأفكار في التوراة». بقي ميتني صامتاً، فرغم توضيح أصل هذه الفكرة إلا أنه لم يستوعب سر أن تكون الأم عذراء، ولكنه قرر الاكتفاء بالإجابة حتى لا يبدو بليدا في فهم الروحانيات.

«هل تريد الانطلاق لإنجاز أي أعمال؟» هم ميتني بالوقوف وهو يسأل أرمون بعد مغادرة الآخرين، فأشار إليه الجار بأن يجلس، وأخبره أن لا مصالح تجارية له في غزة، وأن اللقمة سوف تتوافر في الحرب أو السلام، الرخاء أو القحط. «لقد عرفت الكثير عن اليهود طوال العام الماضي، ولكن الأكثر ما زال يستعصي على فهمي، وخصوصاً الرغبة الجديدة لديكم في التميز».

«منذ أن تأسس اليهود وهم يأخذون من جيرانهم الآخرين، أو مما يسمعون ويطالعون عن الأقدمين. السبب لهذا الاقتباس أن ديننا ما زال جديداً، كلما نطلع على شيء أقوى أو أكثر تأثيراً وفائده نتقمصه بالطبع. سارت حياتنا بقوانين جيراننا نفسها، وكان لدينا الأعياد والعبادات نفسها مع

فروق بسيطة في بعض الأحيان، ولكن بتطابق شامل أحياناً أخرى كما هي الحال مع الديانة الكنعانية حتى الآن. في كل حقبة يتم أخذ طباع من الآخرين فتحفظ في روايات التوراة الشفهية. ثم في الحقبة التالية، وربما من مصدر آخر يتم تسجيل طباع أخرى ونسيان بعض ما سبقها إذا وجد تناقض. وهناك تحوير وتخصيص لأساطير الأصول وهي بالطبع مأخوذة من معتقدات سبقت ولادة اليهود». صمت أرمون قليلاً وهو يفكر إذا كان عليه الحديث عن ولادة اليهود أو عن أساطير الأصول التي تبنوها في رواياتهم الشفهية، ثم ضحك بصوت مرتفع عندما طلب ميتني منه الحديث عن الأصول الأسطورية، وكأنه كان يقرأ ما يدور في ذهنه. «عندما تريد تكوين جماعة بشرية من فئات مختلفة الأصول والطباع واللغات، فأنت بحاجة إلى قانون يُجمعون عليه ويحتكمون إليه، وبحاجة إلى رابط روحي هو الدين، وصنع ماضٍ فيه أبطال وانتصارات وهزائم، وهذا الماضي يجب أن يكون مطابقاً لما هو متداول أو قريباً منه، وبالتالي تأخذ حقائق وتخلطها بمختلقات مناسبة يمكن أخذها من الأساطير فيصبح عندك تاريخ قديم، ودين مختلط من معتقدات سبقت ومخلوط بجديد حسب الحاجة السائدة، وقانون قابل للتغيير والتبديل والتطوير». بقي ميتني مشدوداً لما يسمع وفضل عدم طرح أسئلة قد تؤثر في تسلسل الشرح الذي يريده جاره، فواصل الصمت. «قبل أن نتعرف إلى ديانة الفرس ساد بيننا أسطورة أتراهاسس السومرية، وهي خليط لقصة بداية الخلق والطوفان التي صغناها في التوراة. لقد خلق الإله السومري الناس على الأرض ليخدموا الآلهة وليعبدوا. لكن الناس تكاثروا كثيراً وبسرعة وأصبحوا يخلقون المشاكل ويصنعون الضوضاء فأزعجوا الآلهة الذين طلبوا من أنكي أن يرسل إليهم الطوفان ليتخلص منهم، ولكن أنكي عز عليه إبادة البشر وهو الذي خلق جدهم، فأوعز إلى أتراهاسس

ببناء سفينة لينجو بها وعائلته من الطوفان. هذا هو موجز لبعض من هذه الأسطورة الطويلة. وهناك قائمة سومرية تحتوي أسماء مئة وأربعين من الملوك الذين عاشوا قبل وبعد الطوفان، والملوك من قبل الطوفان عاش كل منهم مئات السنين. منشأ هذه الأسطورة يسبق فكرة تشكل اليهودية أقله بخمسمئة عام، وهي أسطورة مسجلة على الألواح الطينية ومودعة في نينوى، وكما ترى أن أصول قصة الخلق والطوفان في التوراة تشبه كثيراً تلك الأسطورة».. طُرق الباب وسمع صوت دبورا تنادي والدها، فاستأذن وقبل أن ينصرف ناوله أرمون لفائف قال له إن فيها محتويات لأساطير سومرية وبابلية أُخذ عنها للتوراة، وطلب منه الحفاظ عليها وأن يطالعها بعناية إذا أراد.

٢

«لا يوجد أي سبب مباشر للرحيل من غزة، ولا يوجد مكان أكثر أمناً من هنا، غزة الآن، ومنذ زمن، هي الملجأ للآخرين، فأين تريدين الذهاب؟» طوال ثلاثة أيام مضت لم يدخر ميتني جهداً لطمأنة زوجته المرتعبة من احتمالات الحرب وتدمير غزة وتشريد سكانها. دفعته لزيارة مجلس المدينة وحاكمها للتعرف إلى خططهم وسؤالهم عن الاستعدادات، وشغلت إخوتها بجمع المعلومات براً وبحراً، ورغم كل التطمينات إلا أنها شاغلة باله في فكرة الهروب من البلد.

«لكن إذا مروا علينا في طريق العودة من مصر، سواء كانوا منتصرين أو مهزومين، فسوف يحاصروننا ويدمرون كل شيء»..

«يا ثالثة، يا بنت الناس، لن يحاصرنا أحد، نحن والفرس أصدقاء، لقد قدمنا لهم الجزية كل عام، وهم مستعدون لحمايتنا مقابل ذلك. تعرفين أن البابليين هم الذين دمروا مدن الفلسطة ونفوا ملك عقرون، أغا، وأولاده إلى بابل، وحتى أولئك لم يهاجموا غزة لأن مجلس الحكم أسرع في تقديم الجزية وأنقذ الوضع. الفرس لا علاقة لهم بالأمر، بل هم الذين ساعدونا على بناء أفضل ميناء في المنطقة، وجيراننا العرب الأنباط متحالفون مع الفرس في هذه الحرب».. أشارت بيدها فتوقف عن الحديث واستمع إلى ظنونها ماذا سيحدث إذا انتصر المصريون ولاحقوا الفرس إلى هنا وانتقموا

من الأنباط. «ليحفظنا بعل من وساوسك هذه، لقد وصلت معلومات أن العكس صحيح، وأعدك بعمل شيء ما إذا انقلب الوضع». لم يكن يعرف بالضبط إذا كانت مرتعبة إلى هذه الدرجة أم أنها تستغل الفرصة لتعيده إلى عالمها واهتماماتها. في العادة تخاف من الفئران، وإذا تصدت لها قطة في الطريق فإنها تعود إلى البيت، ولكنها لا تخاف الليل أو عفاريت العالم السفلي.

لقد كذب عليها بخبر أن الفرس منتصرون، فحتى الآن الجميع يترقبون النتيجة، ولكن الجيوش لم تواجه بعضها بعضاً. المعلومات التي رشحت إلى غزة عبر العرب الأنباط، أن القوات الفارسية سارت طوال شهرين في خط شبه مستقيم يمر عبر وديان الصحراء حيث يتوافر الماء في هذا الوقت، ومروا بالقرب من البتراء، قيد الإنشاء، ورافقهم بعض نبطها من هناك، فاخترقوا صحراء بئر السبع ثم سيناء، وهنا كانوا بحاجة إلى الماء حتى يصلوا إلى نهاية فرع نهر النيل الشرقي، حيث توجد قلعة وقوات مصرية يتزايد تعدادها تباعاً. ذلك الماء وفره نبط جنوب غزة في قرب الجمال باتفاق مسبق وتنسيق مع إخوتهم عرب البتراء. أما القوات الفارسية البحرية فقد اتجهت إلى مصب النيل في البحر حيث سيبحرون في النهر حتي الانضمام إلى قواتهم البرية ومن ثم مهاجمة التجمعات المصرية من الاتجاهين. المعركة ستكون بين الفرعون سامتك ابن أحمس، وبين الملك الفارسي كمبوجي ابن كورش الشهير بذي القرنين. اجتاز خمسون ألفاً من الفرس الصحارى على الجمال والخيل والأقدام، لم يركبوا عرباتهم لأن عجلاتها ستنغرس في رمال الصحارى، كما أن هذه العربات غير مخصصة للركوب ولكنها معدات قتالية كالسيف والرمح والراميات. وهكذا حملوها، وكل أسلحتهم الأخرى، على ظهور الجمال والبغال.

المعروف عن الجيش الفارسي من أيام كورش أنه قوي ومنظم بشدة. كل عشرة آلاف يشكلون لواء، وهذا ينقسم إلى عشر مجموعات كل منها ألف، وهذه تنقسم إلى عشرة من المئات، والأخيرة إلى عشرة من العشرات. هذا الترتيب يسمى بألوية الخالدين وهناك ألف منهم يشكلون الحرس الملكي هم أفضل الأفضل، وهؤلاء لا ينقصون أبداً، فكلما قتل واحد يحل آخر مكانه على الفور. القوس هو سلاحهم الأساس، وسرعة الحركة هي التطبيق الأول لهم، ولهذا فإن تدريعاتهم خفيفة. نظام التجنيد الفارسي يفرض على كل ذكر أن يتعلم منذ الصغر ركوب الخيل والرمي بالسهام واستعمال الرمح أثناء القتال على ظهور الخيل، ولهذا لا ينقصهم الرجال المدربون كلما احتاج الأمر. في بعض المعارك مع جيرانهم استعمل الفرس الفيلة الهندية الحربية، ولكنهم لم يجلبوها معهم إلى مصر.

في اليوم الخامس على انتشار خبر وصول الفرس براً وبحراً وجد ميتني نفسه قرب العريش. ذهب مع نسيبه بالشار في عربة ذات أربع عجلات يجرها حصانان، لاستطلاع آخر الأخبار من الأنباط أصدقاء بالشار. لم يحملوا معهم أي بضائع للبيع، واستقبلهم التاجر جاشم الذي لم يستغرب زيارتهم، إذ لم يكونوا الوحيدين الذين وصلوا إلى المنطقة يحاولون الاستطلاع. عرف بالشار بنسيبه وشرح أنهم متخوفون مما قد تؤول إليه الأحداث، ولهذا حضروا. كان هذا التعريف ضرورياً لأن المنطقة تعج بالجواسيس المصريين والفرس، ولو حضر ميتني وبالشار قبل أيام، لما أمكنهما الاطلاع على شيء، وربما كانا سيواجهان متاعب جمة، لكن الآن يكاد الأمر أن ينقضي، فقوات الطرفين باشرت القتال بالفعل وإن لم تكن التفاصيل قد وصلت إلى العريش بعد.

«النصر سيكون للفرس بدون شك. إذا كان هذا يطمئنكم ويحقق

مأربكم فاطمئنوا». هكذا نطق جاشم وهو يمشط بأصابعه لحيته السوداء التي لا تعكس سنوات عمره، إذ لا يشوبها أي بياض. «غداً، بمشيئة ذا الشرى، تصلنا تفاصيل».

«عسى أن يؤيدهم بعل، ولكن من العادة أن الذي يدافع عن نفسه وبلاده يكون مستعداً ولديه شعبه من خلفه يدعمه بالرجال والعتاد، وأعتقد أن المصريين كانوا على معرفة بتقدم الفرس». هكذا أعلن ميتني موقفه المؤيد للفرس وأعرب عن مخاوف طبيعية. ولم يخف على جاشم أن ميتني يريد جره للإفصاح عن سبب اقتناعه بنصر الفرس.

«بوسعي الآن أن أخبرك لماذا سينتصر الملك كمبوجي ابن كورش، ولكن في الغد سيكون عندنا خبر الانتصار وسأشرح لك أسبابه وأسراره». قال جاشم وهو يبتسم ويكشف عن بقية أسنان متفرقة في فكيه. «لو رأيت مثلي كيف يسيرون بنظام، وينشدون الأناشيد في تمجيد الإله الأوحد، لرفع المعنويات، ولو عرفت ما تحمله البغال والجمال من أسلحة لما ساورك الشك في نصرهم». صمت ثم سأل ميتني إذا كان قد شاهد قوات مصرية في طريقها للقتال. جاءه الجواب الصامت بنفي من رأس بالشار وميتني، فأكد لهما جاشم أنها الفوضى العارمة نفسها، كما أنهم قد فقدوا فرعونهم أحمس قبل نصف عام، وهو الذي كان قائداً للجيش قبل أن ينقلب على الحكم السابق. «لقد حكم أحمس الثاني أربعة وأربعين عاماً. معظم سنوات حكمه الأولى كانت لمنع الحرب الأهلية في البلاد بين الإغريق والمصريين. لقد جلب الذين سبقوه اليونان وأكثروا من مرتزقتهم وسلموهم ثغور البلاد، وكانوا الحرس الخاص للفرعون، وفشلوا في كل حروبهم ضد بابل والفرس، كما فشل اليونان في حماية فرعونهم ضد أحمس حين انقلب عليهم. الشعب المصري ناقم عليهم وعلى تجارهم. قبل أن يختبر أحمس

نجاح أو فشل سياسته الداخلية التوافقية، مات قبل أشهر وتولى ابنه هذا الذي لا يمتلك خبرة قتالية ولا جيشاً متحداً يأمره ولا يُعرف عنه أنه داهية في الحكم، فكيف سيتصدى لابن كورش وجنده؟» تذكر جاشم أن تجاراً إغريقاً يعملون بحرية في غزة، فأعرب لضيوفه عن تعجبه من سكوت الناس في غزة عنهم.

«نعم وصلوا إلينا عبر الفرعون الذي تتحدث عنه، وعندما انقلب أحمس عليه وعليهم لم يفعل شيئاً يذكر لإبعادهم عن مصر، وبالتالي لم نفكر في غير ذلك في غزة، وجاء البابليون فتركوهم، وعندما سيطر الفرس على كل مناطق الساحل من العريش هنا، وحتى أوغاريت القديمة شمالاً لم يتعرضوا لليونان أيضاً»..

«نحن نتاجر معهم، يجلبون لنا أشياء ويأخذون أشياء إلى بلادهم، وأنتم تشترون منا بعض ما يجلبون». قال بالشار مقاطعاً حديث ميتني السابق.

«تجارة تجارة إذاً، ولكنهم ينافسون إخوتكم الفنيقيين في التجارة البحرية».. توقف جاشم عن إكمال ما عزم قوله بأنهم ينافسون الأنباط في التجارة البرية أيضاً. كانوا يجلسون في خيمة كبيرة مغزولة من شعر الجمال، محكمة الإغلاق من جوانبها الثلاثة ومفتوحة للشرق، ومن خلفها كثبان رملية تحجب رياح البحر ورذاذه. لاحظ ميتني تمثالاً فخارياً بحجم اليد معلقاً في عمود وسط الخيمة، فتوقع أن يكون هذا هو ذو الشرى الذي أقسم به مضيفهم جاشم. كان جميل الصنع لطيف الوجه ذا شعر مجعد وذقن مجدولة وعينين واسعتين، فسأل ميتني إذا كان هذا التمثال صناعة محلية.

«بالفعل صناعة نبطية، ولكن في البتراء وليس من صناعنا هنا». قال جاشم وقد ارتاح لتغيير مجرى الحديث السابق. «تعرف أن إخوتنا يتقدمون بسرعة في بناء المدينة التي تحط فيها الآن كل خطوط التجارة وتعاود

الانطلاق منها، وهم صناع مهرة للكثير من الأشياء كما هم من أفضل التجار».

«إذاً أنتم صناع وحراس قوافل وتجار وتبنون المدن الآن، وقريباً قد يكون لكم جيش مسلح أيضاً». لاحظ ميتني أن ملامح جاشم تغيرت فظن أن الرجل فهم كلامه تهكماً، فأضاف: «هكذا تتكون الأمم، فلا بد من تخصص، ومال وصناعة وتجارة وبالتالي يتبعها الجيش لحماية كل ذلك وكسب المزيد بالقوة من الآخرين».

«هذا صحيح».. أجاب جاشم وقد وقف وقدم التمر والماء لضيفيه ولمن انضم إليهم في المجلس من أقارب وأصدقاء وجيران. «كما قلت أنت، ففي البداية كنا نحمي القوافل، ثم أصبحنا نشارك فيها، ولاحقاً سيرنا قوافلنا الخاصة من مئات الجمال تحمل البخوروالتوابل والعطور من عُمان وعدن واليمن مروراً بمكة وبلاد العرب. وأقمنا محطات حماية واستراحة على هذا الطريق حتى نصل إلى البتراء، ومنها نعيد التوزيع إلى سومر وبابل وصيدا في الشمال، حيث تنقل المواد بحراً، كما نرسل القوافل عبر صحراء سيناء إلى مصر وهي الطريق نفسها التي سلكها الفرس الآن». استغرب بالشار أن جاشم يتحدث وهو الذي يحمل الماء والتمر لضيوفه وللآخرين، فهم أن يقف ليقوم بهذا العمل عن هذا التاجر كبير السن والعزيز في قومه. «لا عليك يا بالشار، فكبيرنا هو الذي يخدم ضيوفه والآخرين».

«وماذا تحملون، أو كنتم تحملون إلى مصر؟» سأل ميتني التاجر بعد أن عاد بالشار للجلوس.

«كنا ولا نزال نحمل إليهم العديد من الأشياء، فنحن لا نعادي أحداً إلى درجة التوقف عن التجارة معه. حملنا لهم القار الذي يستعملونه في التحنيط، والنحاس الذي نستخرجه من مناطقنا، هذا طبعاً إلى جانب الحلي

وأجود أنواع الفخار على الإطلاق». ضحك بالشار وهو يستمع إلى جاشم فأضاف الأخير: «أظن أنه أفضل من فخار غزة».

«لماذا تشترون فخاري إذاً ما دام لديكم أفضل منه؟» وقبل أن يسمع بالشار إجابة عن سؤاله أضاف: «تبيعون فخاري للآخرين على أنه من صنعكم، ثم تخبرني أن فخاركم أفضل». تدخل ميتني بالقول إن فخار البتراء رقيق وجميل بينما فخار غزة سميك ومزخرف وقوي التحمل، وكلا النوعين أفضل من الفخار اليوناني. ضحك الحضور وانكمش بالشار قليلاً.

«المساء يقترب بسرعة، وأشعر أن جسمي محطم من ركوب العربة، اعذرونا الآن ونراكم في الصباح قبل الانطلاق إلى غزة». وقف ميتني مع نهاية كلماته، ووقف معه بالشار والمضيف وبقية الحضور.

«عذركم معكم من الآن حتى ما بعد مغيب الشمس، عشاؤكم ومبيتكم هنا، فلا تتأخروا كثيراً». حاول ميتني التملص من الدعوة، ولكن اتضح له بسرعة أن موقف جاشم غير قابل للنقاش. تركا العربة والحيوانين في مكانهما واتجها نحو الغرب عبر كثبان الرمال حيث أطل عليهما البحر المتمدد في الاتجاهات الثلاثة. ما زالت الشمس بعيدة عن الغوص في الماء، وضوؤها يعطي الشعور بالدفء. صياد وشبكة وطفلان يحاولان الإيقاع ببعض من أسراب السردين التي تنتشر في مواسم البرد قرب السواحل. تخلف بالشار لقضاء حاجته وواصل ميتني التحرك ضد الريح، ثم تمدد على الرمال يراقب الصياد. كان يسير بمحاذاة الشاطئ عند مضرب الموج الخفيف، وكلما شاهد سرباً من السردين يلمع في ضوء الشمس، يرمي بالشبكة فوقه فتغطس جراء أثقال الحديد في أطرافها وتأخذ معها السمك قليل الحظ الذي يوجد تحتها. عندما يشد الصياد الحبال، التي يبقى طرفها في يده، تجد الشبكة قد تكورت على ما فيها، فيجرها بمساعدة الطفلين

إلى الشاطئ ويفرغون حمولتها. قبل أن يصله بالشار شاهد ميتني على مدى البصر أشخاصاً ينصبون شباكاً فوق الكثبان الرملية، فعرف أنهم من صيادي السمان الذين ينتشرون أيضاً على ساحل غزة للايقاع بالسمان المهاجر من بلاد الإغريق الباردة إلى الساحل الشرقي، وعندما تصل أفواجه المرهقة من طول الرحلة ترتطم بالشباك فتعلق بها بانتظار أن يجمعها الصيادون ويبيعوها حية إلى المستهلك. استقر رأيه بسرعة أن يسير مع بالشار إلى الشباك ويشتري قفصاً مليئاً بهذه الطيور لذيذة الطعم، ويحملانه هدية إلى خيمة جاشم الليلة.

وصلا إلى الخيمة بُعيد الغروب، سارا من الشاطئ عبر الرمال شرقاً ثم سلكا طريق العربات والخيل عبر خيام العرب التي نصبت بالقرب من الجانبين بين أشجار النخيل التي شكلت أحياناً جزءاً من بناء الخيمة، أو ظلت محملة بالأحمر من البلح عبر ساحة بيت طيني. حمل ابن أحد الصيادين القفص خلفهما بعد أن اتفق بالشار مع والده على تجهيز العديد من الأقفاص المليئة بإناث السمان ليحملها إلى غزة في الغد، فهذا الطير يبيض يومياً ويرقد على بيضه في الأسر، إذا توافر له القوت والنظافة وبعض المساحة، وقد تشجع بالشار لفكرة اجتاحت ذهنه عندما عرف من الصياد أن البيضة تفقس بعد ستة عشر يوماً، وأن الطير يصبح جاهزاً للذبح خلال شهر من الزمن. وجدا بانتظارهما في خيمة التاجر حوالى عشرين من الرجال الذين دعاهم جاشم للعشاء مع الضيفين. ما كادا يجلسان حتى حُملت بواطٍ فخارية مغطاة بالخبز المهشم المغرق في الشوربة، وتعلوه قطع كبيرة وكثيرة من اللحم. وضعت باطية، أمام الضيفين والتاجر وشخص رابع، أضيف إليها رأس جدي. شعر ميتني وبالشار بالخجل من نفسيهما إذ كانا متأكدين وهما في الطريق إلى الخيمة أن جاشم سيقدم لهما فتات الخبز بلحم الجمال.

ما إن ابتلع الضيفان ثلاثاً أو أربع مرات ما كوراه في اليد اليمني، حتى أخذ الآخرون يقفون تباعاً معلنين الشبع وشكر ذي الشرى على هذه النعمة، وتمنى جاشم على الضيفين أن يواصلا الطعام بهدوء، فالقوم معتادون الأكل السريع.

«يبدو أن ذا الشرى إله خاص بالأنباط». وجه ميتني الحديث إلى مضيفه بعد أن رفعت بواطي الطعام، لكن الإجابة جاءت من شخص آخر توسط الجلسة إلى جانب جاشم والضيفين. قال الرجل وسط إنصات الجميع لحديثه، إن ذا الشرى، هو إله الجبال التي تحيط بالبتراء الحمراء. لكن هذا ليس الإله الوحيد، فلديهم اللات ومناة والعزى وهُبل وكلها خاصة بالعرب الأنباط الذين أخذوا عن الفنيقيين أيضاً إله الخصب عطيس المأخوذ عن عشتار، لكن ذا الشرى هو الأكبر والأهم، ويتم الآن بناء معبد كبير له في البتراء حيث أقيم أيضاً مذبح.

«الأخ شقيل كاهن معبد البتراء، حضر مع الجيش الفارسي ولكنه توجه إلينا ولم يكمل مصاحبتهم إلى مصر». هكذا عرف جاشم الضيفين على المتحدث، وأضاف: «ميتني وبالشار من أصدقائنا في غزة، ونشتري الفخار من بالشار، بينما يبدو ميتني من أهل العلم في مدينتهم التي سيعودان إليها غداً». تمنى ميتني لشقيل وجاشم أن تتحقق الأماني من هذه الحرب، وأن تقل خسائر البشر. كان يجهل خلفية الدين النبطي، وإن اتضح له حتى الآن أنهم وثنيون متعددو الآلهة ويقدمون القرابين.

«عسى أن تكون ارتحت من عناء الرحلة»..

«رحلتي من البتراء إلى هنا ليست مضنية، فالمسافة ضعف رحلتكم من غزة فقط. بالطبع أنتم تسيرون بمحاذاة الشاطئ وعبر منطقة مأهولة بينما طريقي صحراوية، ولكن خفف من وعورتها مصاحبتي في جزء طويل منها

لجيوش الفرس، وملكهم». زالت بعض الرهبة لدى ميتني إذ بدا الراهب أقل تزمتاً مما تظهر ملامحه للوهلة الأولى. سأله ميتني إذا كان قد زار غزة في السابق كونه يعرف الطريق. «كل نبطي بالغ يشارك في القوافل، وبالتالي لديه دراية بالطرقات والمسافات والسير ليلاً. لقد سرت من البتراء إلى اليمن، ومررت بمدن التجارة، إيله وتيماء ويثرب ومكة وغيرها حتى ميناء عدن في أقصى الجنوب. أما باتجاه الشمال الشرقي فقد وصلت مع قوافلنا إلى مدن ما بين النهرين، وفي الشمال الغربي مررت بمدينتكم ووصلنا إلى صيدا». توقف شقيل واستمر الصمت بين الحاضرين احتراماً وانتظاراً منهم إلى أين سيأخذ الراهب الحديث. «في كل مكان حاولت التعرف إلى ديانة القوم، وهي ديانات كثيرة ومتعددة، أحياناً تتشابه وأحياناً أخرى تختلف ظاهرياً، ولكني أعتقد أن المصدر واحد وقديم جداً».

«لماذا يحتاج الناس إلى آلهة؟» طرح بالشار السؤال وظهر على الجميع الاستغراب، ولكن الراهب شقيل تبسم لجرأة بالشار وبساطته، ومنع بإشارة من يده محاولة ميتني توضيح السؤال.

«سؤال صريح وواضح ومحق. الناس لا يحتاجون بالفعل إلى الآلهة، ولكنهم يحتاجون إلى قانون منظم لحياتهم، وحامٍ لها، ولمن يطعمهم ويسقيهم. ولأن الحاكم أو الملك، مهما ارتفع شأنه وطال عمره، لا يمكنه تطبيق القانون بعدالة وتوفير المتطلبات بشكل دائم ومتواصل، نجد الناس يبحثون عن الشيء غير الملموس والخالد الذي لا يموت ليستجيب لرغباتهم ودعواتهم، وهكذا يخلقون القصص والتمنيات، وتتحول هذه إلى أساطير يتم تناقلها بين الأجيال الجديدة كحقائق عاشتها الأجيال الأقدم. هذا المسلسل لن يتوقف، ولكنه بالطبع سيُنقح بمرور الزمن وما سوف يجد من متغيرات»..

«هذا معناه أن الأديان وقصصها مختلقة».

«لك أن تقول ذلك يا بالشار، هذا إذا أردت النتيجة بالإيجاز. لكن القوانين والعادات والمثل والأخلاق، التي تطورها الأديان مع الزمن، تخدم الناس وتسهل حياتهم وتعاملهم فيما بينهم، ولو تركنا البشر للحكام والملوك بدون رادع وقانون ديني لظلموا أكثر مما يفعلون. كلما عظم ظلم الحاكم واشتدت الظروف على الناس من عبيد وعمال وسادة، اتضحت حاجتهم إلى قانون إلهي ينصفهم. أما عندما تسود العدالة والاحترام والمساواة بين أهل البلد الواحد، فتقل حاجتهم إلى الدين وتجدهم أكثر حرية في اختيار ما يريحهم نفسياً، كما هي الحال لدينا في البتراء الآن وكما نأمل أن يستمر ويتطور». شدت الكلمات الأخيرة جميع الحضور وأصبح رأس ميتني يتحرك تلقائياً بالتأييد. «لا يوجد لدينا عبيد، ولدينا قانون وضعه الآباء يعاقب من يتكاسل عن العمل بالغياب أو بقلة الإنتاج أو بسوء الصنعة. كبيرنا وسيدنا يخدم الجميع في البيت والمحافل ويستمع لأي رأي ويعرض الإجراءات على مجلس يدير البلد، ويقدم إلى المجلس معلومات دورية عن الأحوال، والإناث يشاركن الرجال في كل شيء ولا نحرمهن من الميراث، كما أن الولد البكر لا يتمتع بحقوق مميزة عن بقية إخوته. ربما لا تعرفون في غزة أن لقب حاكمنا هو رحم عمو، أي المحب لشعبه. لذلك تجد آلهتنا عديدة وشخصية، للترويح النفسي وليست إلهة تحكم وتقدّس كما هي الحال في مصر وكما كان ولا يزال لدي الجميع، حيث الملك هو الإله».

«هل أفهم من حديثك شيئاً آخر أيضاً؟ هل قصص الأصول مثل آدم والطوفان وأبي الأنبياء، كلها مختلقات جاءت لتماشي حاجة الناس في حينه ولكنها ما زالت عالقة حتى الآن بل تتعمق وتتحول إلى أسس لديانات جديدة؟»

«ربما لم يستوعب بعض الإخوة هنا ما تقصده». حول شقيل نظره عن ميتني وشرح للآخرين أن هذه الأساطير أُخذت من روايات سومرية وبابلية، وقبل ذلك كنعانية، ويتم تطوير بعضها من اليهود الذين اطلعوا عليها لدى جيرانهم وأثناء تنقلاتهم الطوعية أو الإجبارية، ثم عاد الكاهن يوجه حديثه إلى ميتني. «يبدو أنك إنسان عاقل وواعٍ. فهل تصدق أن آدم هو أبو البشر وأنه قد خلق قبل ألف عام فقط كما يردد اليهود؟» استنكر الجميع هذه المقولة بهمهمات أو بنفي لفظي، ثم عادوا للإنصات. «حتى لو كان زمن آدم أقدم من ألف سنة، فهل يعقل أن أبناءه تزوجوا أخواتهم؟ بل إن أحد الأخوين قتل أخاه ليفوز بأخته الأجمل! وهذا القاتل أصبح الأب لكل البشر؟ هذه قصة ملفقة من عدة أساطير منحوتة على الصخر أو منقوشة على ألواح طين يعود بعضها إلى ما قبل عهد آدم كما يحدده اليهود الآن. ثم قصة نوح»..

«أوافقك على صعوبة صدقية هذه الرواية، ولكن كيف خلق البشر إذاً ومتى؟» جاء السؤال هذه المرة من المُضيف، جاشم. تحرك ميتني في مجلسه بانتظار الإجابة عن السؤال، وانتابه شعور بالخيبة أن أفكار شقيل هذه ليست اقتناعاً لدى كل الأنباط.

«إذا كنا لا نعرف الإجابة عن شيء ما فهذا لا يعني أن نوافق على غير المعقول. كل الأساطير تقول إن الآلهة خلقت الناس. بعضهم خلق الناس ليعبدوه، وآخرون خلقوا البشر ليخدموهم، ثم غضبوا منهم فأرسلوا الطوفان عليهم. لا أدري متى خُلق الإنسان، ولا كيف، ولكن الإنسان أقدم مما نتصور. أينما ذهبت كنت أجد آثاراً للأولين. علينا ملاحظة كيف تغيرت أساليب الكتابة التي نراها الآن على الجدران كرسومات، ثم على الألواح الطينية كصور، وبلغات متعددة تدريجاً، والآن تكتب على الجلود وورق

البردي. هذا يعني بنظرة عكسية أن الإنسان عاش قبل هذه الرسوم الجدارية في الكهوف وخارجها. أي بدل النظر إلى تحسن الكتابة وأساليبها، تصورا ترديها والعودة إلى القدم، وحينها لن نعرف متى خُلق الإنسان أو كيف. ربما يستطيع البشر بعد ألفي عام من كشف هذا اللغز، وربما يبقى سراً، لكن ما يقال الآن من المتشددين هو شيء غير معقول، ونحن نرى أنها روايات مستنسخة تُستغل بأشكال متعددة من أقوام مختلفة». توقف الحديث أثناء طواف جاشم بالبلح الطازج على ضيوفه فرداً فرداً، وتردد ميتني إذ كان عليه تأييد شقيل بالقول إن روايات الكنعانيين المتناقلة بينهم تؤكد أن وجودهم في أوغاريت فاق الخمسة آلاف وخمسمئة سنة، وأنهم بالطبع لم يُخلقوا ذلك العام ولم يكونوا أول البشر.

«دعوني أروي عليكم واحدة من الأساطير السومرية التي نقل عنها البابليون ثم طورها اليهود من أسطورة خيالية إلى قصة نوح». لم يعترض أحد بالطبع بل اتخذ الجميع مواضع مريحة في الجلوس. «كان في سومر رجل من ثلاثة أرباع إله وربع إنسان يسمى جلجامش. يعني أبوه بشر وأمه إلهة، وبالتالي فهو ليس خالداً مثل الآلهة. وحتى آلهتهم لم تكن حقاً خالدة، وإلا فأين هي الآن؟ المهم أن جلجامش هذا هو ملك مدينة الوركاء، وقصته وجدت مسجلة على ألواح في المكتبة ومتداولة حتى الآن. لم يكن هذا الملك محبوباً من شعبه، لأنه كان يستعبدهم في إقامة سور ضخم حول المدينة، وظنوا أنه يبنيه لتمجيد ذكراه بعد الموت. والأسوأ أنه كان يدخل بالعرائس قبل أزواجهن». سُمعت أصوات وإشارات الاستنكار من المضطجعين يلوكون البلح. «اشتكى السكان إلى الآلهة، واستجابت إحداهن وخلقت إنساناً وحشياً وليس متمدناً مثل السومريين، وأسمته أنكيدو الذي أخذ يخلص الحيوانات من الصيادين الذين اشتكوا بدورهم

إلى الملك طبعاً. تفتق ذهن الملك جلجامش أن يرسل إحدى بغايا المعبد لتغري أنكيدو وتحضره وتبعده عن الحيوانات. العاهرة شمخات التي تعمل في معبد الإلهة عشتار روضت هذا الوحش، ولكنها أوغرت صدره على الملك فأعلن تحديه، وخاض الاثنان صراعاً طويلاً انتصر فيه جلجامش على أنكيدو، ولكنهما أصبحا صديقين لا ينفكان عن شرب النبيذ معاً. بعد فترة أراد جلجامش تحقيق شيء كبير، فقرر زيارة غابة أشجار الأرز، حيث تعيش الآلهة، ليقطع الأشجار كلها ويُخلد اسمه، وهذا يتطلب قتل الحارس الجبار خومبابا. أخذ الملك ورفيقه أنكيدو موافقة إله شمش، وانطلقا أشهراً حتى التقيا الحارس وقتلاه رغم توسلاته بالرحمة، مما أغضب إلهة الماء أنليل لأنها هي التي عينت الحارس في عمله. بعد قتله للحارس المخيف اشتهر اسم جلجامش وتقربت إليه عشتار لتتزوجه، ولكنه رفضها وأشعرها بالإهانة فطلبت من أبيها في السماء، أنو، أن ينتقم من هذا الملك. نزل ثور مقدس لأداء المهمة، ولكن الملك وصديقه قتلاه، وهنا قررت الآلهة الانتقام للثور المقدس، فأصابوا أنكيدو بالمرض ثم الموت لأنه إنسان عادي. حزن الملك على صديقه وتخوف أن يموت أو يقتل فهو ليس كامل الألوهية. سأل عن سر الخلود حتى عرف أن إنساناً واحداً قد ناله واسمه أتنابشتم، فانطلق يبحث عنه ليعرف منه السر. بعد طول عناء التقاه وزوجته، واستجاب لرغبته في معرفة سبب خلوده. قال له إن الآلهة بعد أن خلقت البشر أرادت الانتقام منهم لتكاثرهم السريع وكثرة ضجيجهم، فسلطت عليهم الطوفان. لكن أحد الآلهة أفشى بالسر لأتنابشتم، وطلب إليه أن يصنع قارباً كبيراً، وحدد له حجمه، وطلب منه أن يغلفه من الداخل بالقار ويستعد ليوم الطوفان فينجو من الهلاك هو ومن معه من الحيوانات، ثم أكرمته الآلهة، مع زوجته، بالخلود بعد أن انحسر الماء. هذا الجزء من الرواية اعتبره اليهود قصة نوح

والطوفان وحذفوا من قصة جلجامش كل شيء آخر وأبقوا على الطوفان وأضافوا في روايتهم أشياء وأساطير حدثت قبل الطوفان وأخرى حدثت بعده، وهم يعتبرون أن أولاد نوح أصبحوا الآباء الجدد لكل البشر الحاليين، وينسبون أنفسهم إلى أحدهم، ثم يعتبرون أبناء الأولاد الآخرين أقل شأناً».

لم يتمكن ميتني من إخفاء بسمة سريعة على وجهه لاحظها المتحدث، إذ تذكر صديقه اليهودي في غزة، واستنتج من كلام الكاهن أنه على علاقة بيهود، أو أقله مطلع على التغييرات التي تدس في مرويات التوراة وكتب اليهود الأخرى. «أظن أن لديك ما تود قوله أيها الكنعاني».

ـ «نعم، حديثك ذكرني بجار يهودي من الذين ولدوا في بابل واطلعوا على علوم وروايات وصور بلاد ما بين النهرين، وقد حضر إلى أورشليم واختلف مع الكهنة هناك وفر بحياته إلى غزة لأنه يعترض على الإضافات التي تؤخذ من بابل وتضاف بلا هوادة إلى الدين اليهودي. أجالسه منذ سنة تقريباً، والاستنتاج الرئيس الذي توصلت إليه، أن اليهود أصحاب أحدث وأصغر دين يسرقون الأديان الأخرى ليظهروا تدريجاً أنهم الأقدم، فهم يكتبون تاريخاً ويخطون قوانين ويصنعون آلهة وأنبياء مأخوذين عن حضارة بلاد ما بين النهرين، وقد أخبرني أن قصة نوح اليهودية مأخوذة عن أسطورة أتراهاسس السومرية»...

«ويأخذون عن الحضارة الفرعونية، والكنعانية أيضاً». قاطع شقيل ميتني وأكمل: «عليك التنبه أيها الغزي لأشياء أهم، هم لا يأخذون عن الآخرين ويطمسون المعالم فقط، فهذا يمكن تفهمه والتسامح حياله، ولكنهم مع كل تغيير واستنساخ يضيفون رواية أن ربهم وعدهم بالأرض المقدسة، وعندما يتم تجديد دينهم سيكون جوهر كتابهم هو تحقيق الوعد الإلهي بالأرض لهم من الآن إلى الأبد. اسأل جارك اليهودي عن أصولهم

وتاريخهم المؤكد وستجد كم هم حديثو التكوين متعددو الأصل، وقد تكونوا كمجموعة عمال عبيد في مصر، ثم لُفظوا إلى هنا، في سيناء بوعد من فرعون، ولكن الأرض لم تناسبهم مقارنة بما عرفوه في مصر، فدخلوا بلادكم وما زالوا يصارعونكم ويتخوفون من قوة الدول المجاورة، ولهذا ولدت لديهم فكرة الوعد الإلهي بالأرض، كونهم أضعف من كل جيرانهم ويريدون التمسك بالأرض بقوة الآلهة نفسها. أترى؟ لا يهم أن يأخذوا من بابل وتاريخ سومر وكنعان، قصة الخلق بعد تحويرها، أو قصة الطوفان بتحريف لا يكاد يذكر، أو رؤية العالم الآخر للجنة والنار والملائكة، أو تقمص الفرعون الموحد وجعله النبي أبرام، أو تحويل سرجون إلى موشى، أو غير ذلك الكثير، فكل تزوير وتغيير يصحبه تجديد لوعد الرب لهم بالأرض المقدسة». صمت الكاهن ودارت الأفكار في رأس ميتني وأراد سؤاله عن تفاصيل ما قال وعن قوله وغير ذلك، فماذا يوجد أيضاً؟ وكيف عرف هذا الرجل بكل هذه الأمور؟ قبل أن يفتح فمه وصل إلى آذان الجميع صوت هدير مرعب.

نهض الجميع من أماكنهم واعتكف البعض خوفاً من انتقام الآلهة لما قيل في الحال، ثم وصلت صرخات وعويل وطلبات استنجاد، لمعت السماء عن بعد في الجنوب، ثم وصلهم صوت رعد يصم الآذان. «الواد الواد» ركضوا إلى مصدر الصراخ وأوقفهم طوفان المياه التي وصلت إلى مسافة قريبة حيث كانوا يجلسون. عاد البعض لهدم الخيام والابتعاد بها وبكل ما يمكن إنقاذه، وتقدم آخرون بحذر ليمسكوا بما يرونه مجروفاً مع الماء، ماعز، حمير، أطفال، ملابس، وسائد... وغيره.

«لنسر مع الماء حتى الشاطئ، فهناك سيتجمع كل شيء، وربما ننقذ البشر من الموت، ونحذر النيام ممن نمر بهم». انطلق كثير من الناس للبحر

حسب طلب ميتني، الشباب ركضوا يصرخون للتنبيه، وغيرهم يخوضون قليلاً في الماء كلما شاهدوا ما يظنونه بشراً. كاد ميتني ينفجر من الضحك عندما همس له بالشار أن مشروع تربية السمان قد مات في المهد، فطلب منه أن يعود إلى المجلس وينقذ العربة وخيولها ليتمكنوا من العودة. اتسعت رقبة الوادي قبيل التقائه البحر ولكن حدة جريان الماء حافظت على سرعتها، وشقت المياه العذبة نهراً في البحر المالح، وحملت معها كل شيء إلى داخل مسافة لا يمكن الوصول إليها سيراً على الأقدام. عم الظلام الدامس، ووقف الجميع عاجزين بدون قوارب، فعادوا أدراجهم يلتقطون ما يقترب منهم على ضفة الوادي.

«ضوء النهار سيظهر حجم الكارثة ويجلب معه فرصة إنقاذ من لم يمت». قال الكاهن بتأثر محزن، فأخبرهم جاشم أنه يوجد على مسافة يوم للخيال في عمق الصحراء كتلة صخرية هائلة مرتبطة بمرتفعات متواصلة حتى البتراء، وفي الشتاء تصل عبر الوادي مياه أمطار من هناك، من دون معرفة الناس في العريش أنها أمطرت في الصحراء. «لكن هذا ليس وقت شتاء هنا أو في البتراء، ولو أمطرت فليس بذلك الحجم الذي يتسبب بفيضان كهذا».

«نعم يا سيدي». أجاب جاشم على تعليق الكاهن، وأكمل: «الجميع اعتقد ذلك، على ما يبدو، فنصبوا الخيام قرب ضفتي الوادي. عسى أن يرحمنا ذو الشرى ويكون معظم الناس قد أفاقوا وهربوا قبل ارتقاء المياه إليهم. مشكلتنا يا سيدي أن الكثير من سكان المنطقة جدد، ولم يجربوا أي مفاجآت شتوية هنا، والكثير يحبذون الإقامة قرب الوادي لتوافر العشب، وسهولة حفر برك مياه لخدمة قطعانهم». اقتربوا من حيث انطلقوا، وما زال مكانهم جافاً، فاقترح جاشم أن يخلدوا للراحة قليلاً إذ اقترب الفجر،

وسيكون يوماً صعباً على الجميع، وأضاف أن الشبان والشابات يبذلون كل جهدهم ويواصلون الإغاثة حتى الصباح. كان الاقتراح مستغرباً بترك الآخرين يعملون، ولكن الكاهن وميتني لم يعترضا، فالماء يهدر، والظلام دامس، ولن يمكنهم عمل شيء بالفعل سوى استرجاع بعض قواهم.

«أقله خف صوت الرعد وابتعد خطر المطر، ونتمنى على الآلهة أن تشرق الشمس في الصباح لتطبب البشر والحيوان والزرع والأرض».

«هكذا يخلق الناس الآلهة». انقلب ميتني تجاه شقيل إثر تعليقه هذا على دعاء جاشم. «الانتقال من حالة الاطمئنان إلى الخوف عبر كوارث، يؤدي إلى الهلع وعجز الرأس عن التفكير، فتتولد الاتكالية على شيء أقوى، ويرتفع الدعاء العلني له بفك الأزمة وتتسرب إلى النفس نذور وتعهدات بالطاعة إذا فرجت الأزمة، ثم تُفرج فيتم الشكر وتلبى النذور للمنقذ سواء كان إله الماء أو الشمس، أو يهوه اليهود أو داجونكم في غزة».

«أنا لست غزياً، ولكن داجون هو معبود الكنعانيين أيضاً، بل جلبناه معنا من أوغاريت إلى غزة ومدن الفلسطة، وفي عسقلان طوروا له أنثى إله هي دركيتو، فلا يمكن أن نبقيه أعزب». ضحكوا بهدوء وأضاف ميتني أن داجون ودركيتو نصف إنسان ونصف سمكة، وأنه كان إله البحر لدى الكنعانيين وتحت إمرة بعل وأورورا. «لا أدري إذا كان لحسن الحظ أو لسوئه أن اليهود هاجموا داجون في رواياتهم، وبالطبع انتصر إلههم دوماً، فقد حطم شمشون المعبد على داجون والحضور بدعم من إلهه الذي منحه القوة، وفي مرة أخرى بعد أن هزم الفلسطة اليهود وأخذوا منهم تابوت العهد الذي يحتوي الوصايا العشر، ووضعوه عند قدمي داجون في معبد أشدود، انتصر التابوت على داجون ووجدوه محطماً في الصباح، وبعد معركة جلبوع وهزيمة اليهود قطع الفلسطة رأس شاؤول وعلقوه في معبد داجون في بيت شان»..

«وماذ فعل الرأس هناك هذه المرة؟ زلزل الأرض؟» ضحك الاثنان على تعليق الكاهن الذي أضاف: «لاحظ أن الفلسطة لم يفتحوا التابوت ولم يطلعوا على ألواح الوصايا، ولم يحطموها كما تحطم إلههم!!» تنبه الاثنان أن مضيفهم لا يشارك في النقاش، فقد أعياه التعب ونام، فكفا عن الحديث.

أفاقوا على صوت بالشار يخبرهم بوصول قادم من أرض المعركة. كان ميتني أول من اعتدل من النوم ليواجه شعاع الشمس في عينيه. جلس وعقله يتذكر المكان والزمان والحدث، ثم نظر إلى بالشار وسأله عن أي معركة يتحدث. «المعركة في مصر. الرجل ركب حصانه من بعد ظهر أمس ووصلنا تواً، ويقول إن الفرس انتصروا وإن الجيش المصري انهزم إلى داخل البلاد. لقد قدمت له ولحصانه الطعام ويمكنكم الحديث معه».

«ماذا جرى للناس هنا؟ هل توقف جريان الوادي اللعين؟» جلس بالشار قُبالة نسيبه، واعتدل الكاهن وجاشم، فأخبرهم أنه لم ينم مثل آخرين طوال الليل، وأنه تم جمع عشر جثث حتى الآن، وأن الجميع يتوقع أن يكون البحر قد أخذ غيرهم، وكل من فقد شخصاً ولم يعثر على جثته يتأمل أن يجده حياً هنا أو هناك في الساعات المقبلة. قدم لهم بالشار تمراً وجبناً وخبزاً مما أحضره معه من غزة. اتفق الثلاثة على تأجيل الاستماع من القادم، فهو بحاجة إلى بعض الراحة. أوكلوا بالشار به وخرجوا لتفقد الأوضاع. لقد عادت المياه إلى مجرى الوادي الذي تأكلت جوانبه من الانهيارات، وتراجعت سرعة الجريان، وجلست بعض العجائز تنحن على ما ضاع، لكن بقية الناس تجمعوا قرب الشاطئ على أمل أن تلفظ الأمواج ما قدر له أن يعود إليهم. مجموعة من القوارب كانت تمشط المياه هنا وهناك، ويسحب ركابها ما يطفو بالقرب منهم. صار الكاهن يهدئ من روع الناس، ويطمئنهم بالتعويض من ذي الشرى، وينصحهم بالسكنى بعيداً عن مجاري المياه

وتفضيل المرتفعات. وتذكر أخبار مصر فأصبح يبشر الجميع بتحقيق الوعود وأن بعد العسر يسراً.

أخرج الكاهن تمثالاً من جيب العباءة ورفعه إلى أعلى ليراه الجميع. أخذ يرتل دعوات وصاروا يطوفون حوله. كلما طاف أحدهم سبع مرات تنحى جانباً للقادمين الجدد، ثم جلس واتجه إلى الجنوب، فجلسوا صفوفاً من خلفه، وانضم جاشم وميتني إلى الصف الأول. وضع الكاهن تمثال ذي الشرى أمامه وصار يسجد ثم يعود راكعاً وهو يتلو أناشيد لم يفهم ميتني معانيها، بينما الصفوف الراكعة من الذكور والإناث بكل الأعمار تسجد خلفه، وتعود للركوع في تقليد وانصياع تام، وتكرر ذلك سبع مرات، ثم سلم كل منهم على جاره وانتهت صلاتهم التي يشاهدها ميتني للمرة الأولى، ولكنها ذكرته بحركات اليهود أثناء الصلاة إذ يقفون صفوفاً أو فرادى ويحنون الجذع وهم يرتلون ثم يعودون للوقوف.

٣

لم يتنبه ميتني إلا للخضات القوية للعربة من حفر الطريق وهو عائد إلى غزة. قضى يومين إضافيين في العريش يستمع للأخبار الحربية التي تصل تباعاً، ويحاول مساعدة ومواساة النبطيين الذين كسبهم كأصدقاء وأهل، بعد معايشته معهم لكارثة الفيضان. كان بوده الإقامة مع الكاهن بضعة أيام أخر، فالرجل مستودع للمعلومات والعلم الذي جمعه من كثرة تنقلاته مع القوافل وتركيزه على العلوم الدينية القديمة أينما حلّ، واهتمامه بما تتوارثه الأديان المتتالية بعضها من بعض، لكن نسيبه بالشار أزعجه بطلب العودة إلى غزة، وكأنه عاشق ولهان يفتقد معشوقته، إلا أنه في الواقع كان يفتقد طبيخ الأهل، خصوصاً بعد انشغال العرب بمصابهم، ودفن موتاهم وترميم حياتهم.

وصل إلى العريش تباعاً قبل مغادرته لها ثلاثة يحمل كل منهم المتجددات للأحداث الحربية، التي طيبت قلوب العرب النبطيين، إذ قربتهم من تحقيق الوعود التي قدمها لهم الملك الفارسي كمبوجي إذ ساعدوه في الحملة. وجد الفرس الجيش المصري ينتظرهم متراص الصفوف، وكان جواسيس كمبوجي قد أبلغوه مسبقاً بما ينتظره. أمر الملك بإنزال العربات عن ظهور الجمال وتجهيزها، فأصبحت كقلاع صغيرة ذات عجلتين يجرها حصانان. على العربة وجدت غرفة خشبية صغيرة كقلعة تحمي السائق من أسلحة الأعداء ونبالهم، ومن محور العجلتين برزت معادن صلبة طويلة

وحادة تدور مع العجلة. كان هذا هو السلاح السري الذي حملة كمبوجي للمصريين، وهو من اختراع والده كورش، وقد استُعمل في فتوحات المناطق الأكادية، ويُستعمل الآن لأول مرة ضد جيش سامتك الثالث، ابن أحمس. سار الفرس إلى المصريين يتقدمهم المشاة للتعمية عن العربات وتسليحها خلفهم، ثم انشقت صفوف المشاة واخترقتها العربات من الخلف إلى الصفوف المصرية المتراصة، وصارت تحصد السيقان وتبث الرعب. تراكض الجنود هرباً من المفرمة، وداسوا بعضهم بعضاً، بينما تبعهم الفرس على الأقدام وعلى ظهور الخيل يطعنون من يلحقون به. تحصن الناجون في القلعة، وقذفوا القوات المحيطة بهم بقية اليوم، وعندما تدخلت السفن الفارسية تقذفهم برماح النار، انتهت المقاومة في الليل وأصبحت القلعة فارغة في صباح اليوم التالي، إذ توجهت القوات المصرية لتعيد تجمعها في العاصمة، من نفر، حيث يوجد أقدم هرم، وهو المدرج من بناء إمنحوتب، الذي يعود تاريخه إلى قبل ألفين ومئتي عام. على الأرجح إن القلعة في العاصمة، وهي على مسيرة يوم ونصف يوم من مكان المعركة، لن تردع الفرس بعد حالة النشوة التي دبت فيهم، والفوضى والرعب اللذين أصابا خصومهم. الأعداد الأولية للقتلى تشير إلى حوالى خمسين ألف مصري بين قتيل وكسيح، مقابل سبعة آلاف فارسي. على الأرجح أن أعداد أخرى ستموت، وغيرهم سيؤخذون أسرى، ومن المؤكد أن الملك كمبوجي سيضيف إلى لقبه صفات أخرى، وقد توقع الكاهن شقيل أن يُشهر كمبوجي كابن الإله رع، وهذا يعني أنه لن يجعل نفسه الإله الأكبر، ولكن والده كورش هو الذي سينال صفة رع. هكذا سيفهم الفرس الأمر، وللمصريين أن يفهموا كما شاؤوا، ولكن مصر لن تعد مستقلة بعد هذه المعركة، وستنضم إلى الأملاك الفارسية، وستنتهي المنازعة القديمة بين البلدين على مناطق

حوض البحر الكبير حتى إشعار آخر. تنكد حين تذكر أن الأخبار الجديدة ستصل إلى غزة لاحقاً في فترة أطول، ومشوشة بالإضافات والتهويل حسب مزاج المتناقلين.

أفاق من تخيلاته كيف يضمن مصادر أخبار صحيحة عما سيجري، فقد أخبره بالشار بصوت قلق أن هناك من يعترض الطريق. كان الغروب يقترب، وتوقعاتهم أن يصلوا قبل الفجر إلى بيوتهم إذا واصلوا المسير البطيء من دون إجهاد للحصانين. نظر ميتني إلى الأمام فشاهد أكثر من خمسة ملثمين يحملون السيوف واقفين على امتداد جذع شجرة ألقوها في عرض الطريق. صار ميتني يتأملهم لحظة بعد الأخرى حتى أوقف بالشار العربة قبل أن يصل إلى الجذع، فأحاط كل اثنين بجانب العربة ينظرون ماذا تحمل، وأمسك الخامس بلجام الحصان. حياهم ميتني فسألوه ماذا يحملون معهم.

«ربما عشر حبات تمر، وكسرة خبز، وقربة ماء». أجابهم ميتني وما زال يتأملهم إذ لاحظ شيئاً غير طبيعي فيهم، وقرر أن لا يتعامل وكأنهم قطاع طرق. «أنتم على الرحب لنتشارك في الطعام، ما نحمله إلى جانب ما معكم سيكفي بالتأكيد».

«أين البضائع التي اشتريتم من العريش؟» جاء السؤال من الشخص الضخم نفسه بينما الأربعة الآخرون متأهبون بسيوفهم لأي حركة مقاومة.

«يبدو أنكم خارج الصورة، ولا تعرفون من نحن، ولا علم لديكم بما حلّ بأخوتكم العرب في العريش». صمتوا بانتظار أن يفصح ميتني عن هذا اللغز، وتراخت الأيدي التي تحمل السيوف. «لقد انتصر الفرس، وسيكون لنا جميعاً دولة تنظم أمورنا في القريب. هذه الأنباء وصلتنا ونحن بصحبة الكاهن الأكبر شقيل الذي حضر مع الملك. لكن الخبر السيىء أن إخوتنا في العريش أصابتهم كارثة الفيضان وانشغلنا أياماً في نجدتهم». واصل ميتني

الحديث كأنه نبطي، يصور لهم حجم الكارثة وغرق الناس وضياع الأشياء، فقد أراد أن يشتت تركيزهم ويكسبهم إذ خمن أنهم من عرب الأنباط. «هل لديكم أقارب في العريش أو حولها؟» توجه بهذا السؤال المفاجئ إلى المستمعين الخمسة.

«أنا لدي أقارب هناك».. قال أحدهم وصمت فوراً. نظر ميتني إلى بالشار ثم دقق فيمن أجاب بذلك الصوت الأنوثي، وظن أن هذا شاب صغير السن كبير الجثة، أو خصي، أو في الواقع أنثى. تنبه لوجود صدر تحت اللباس الأسود الذي اشتد قليلاً على الأرداف أيضاً. واصل التأمل في الآخرين وهو يعرب لهم عن أمنياته أن لا يكون أقارب المتحدث قد مسهم السوء، وأصبح متأكداً أنها عصابة من النسوة الملثمات المسلحات، وهذا لا يقلل من خطرهن.

«لو أسرعتم الآن فقد تصلون في وقت مناسب لمساعدة أقاربكم هناك»..

«لن نسرع إلى أي مكان، ولا بد أن نغتصب أشياء منكم، أين الفضة والذهب اللذان كنتم ستشترون بهما البضائع؟»

«لم نذهب إلى العريش لشراء بضائع، ولكن لاستقبال الكاهن، ولمتابعة أخبار الحرب الفارسية المصرية. القليل الذي حملناه معنا، تركناه للمتضررين». اتضح لميتني أن الأربعة أسهل من الخامسة التي تولت الحديث منذ البداية. تقاربن عند رأس الحيوانين وتهامسن ثم عدن إلى وضعهن السابق، وطلبت زعيمتهن من ميتني وبالشار أن يخلعا ملابسهما لتفتيشهما. «ألا يمكن أن تفتشونا بدون تعرٍ؟» جاء الجواب برفع السيوف. قيدت العربة إلى مسافة جانب الطريق ولم يعد على الرجلين أي شيء يستر عوراتهما.

«تعرفن أن ما تفعلن معنا سيؤدي إلى مطالبتنا بحق عرب». قال بالشار وقد أُنزل عن العربة ورأس السيف يلامس ظهره، بينما قاطعات الطريق يضحكن على ما قال. أمرنه بالانبطاح على ظهره، وركبت إحداهن فوقه تغتصبه، بينما أخرى تضع السيف قرب رقبته حتى لا يقاوم، وتكرر الأمر مع ميتني.

«إذا قصرتم عن إرضاء خمستنا سنقطع دابركما، لو كان معكما مال لاغتصبناه وتركتم على حالكم». قالت المتحدثة من دون إزالة اللثام، أو خلع الملابس الخارجية وهي تستعد لامتطاء ميتني. «أراك لا تزال نائماً!»

«وكيف يمكن غير ذلك، سيف أختك على رقبتي وأنت تهددينه بالقطع، فكيف سيصحو لاستقبالك، أنت وهو حران».

«كلكم رجال مجانين تعتقدون أنه شخص مستقل ليسهل التنصل منه». قالت وقد أنزلت يدها تتدبر الأمر وأوعزت إلى حاملة السيف بالابتعاد. «لا يبدو أن صديقك يواجه أي مشكلة مع صغيره. مالت بجسمها عليه وشعر بصدرها يموج فوقه، وشم رائحة كريهة من فمها، فأزاح برأسه وأمسك بعجيزتها. أراد أن ينهي الأمر بسرعة فلم يعد يعرف إذا كانت هذه المغتصبة ستنفذ التهديد أم لا. قرر أن يبعد كل الأفكار عن ذهنه، خزي الموقف، قلة الحيلة، احتمال معرفة الزوجة من أخيها بما حدث، أي فكرة كهذه أصبحت تزاح جانباً وركز على ما يفعل، أو يُفعل به، تصوره بإرادته، وتخيل جسم مغتصبته مشدود القامة وصدرها ممشوقاً، وتشجع لإسماعها كلمات غزل قذرة ليثيرها فتثيره، ثم نادى حاملة السيف لتستعد هي الأخرى فقد اقترب دورها. نظر إلى جانبه فوجد بالشار قد غير الوضعية وبات يمتطي أنثى ثانية قد ظهرت ساقاها وكرات عجيزتها، فأثاره هذا الوضع، وقرر أن يقلده مع الثانية ليصبح هو الفاعل. اقترب من لحظات النهاية وتحرك ليقلب الزعيمة تحته، ولكنها ثبتته على الوضع نفسه حتى النهاية.

وصلا إلى وادي غزة مع مساء اليوم الثاني، فقد احتجزا طوال الليل ريثما أنجز بالشار ثلاثة، وميتني بالكاد أرضى الزعيمة وصاحبتها. تحررا من الملابس واغتسلا في البحر ثم صعدا الوادي قليلاً واغتسلا مجدداً في بركة مياه عذبة تجمعت في الوادي. لم يتحدثا كثيراً في الطريق بعد إطلاق سراحهما، كل منهما تعامل مع الأمر ذاتياً، ولكنهما تعاهدا على السرية، أو الأحرى أخذ ميتني من نسيبه عهوداً أن يكتم الأمر عن الجميع حتى لا يتسرب في النهاية إلى ثالثة. قال في نفسه إذا كان كل خبر عن الحرب سيصل إلى غزة سيُغتصب بهذا الشكل، فلن تتضح الحقيقة أبداً. قفزت أفكاره إلى ما سيُخبر أرمون به من المعلومات التي جمعها، قصص عن الأصول لروايات التوراة، حالة مصر الآن، وزيارته مع الكاهن شقيل لصخرة العريش التي خط عليها شعب أخناتون قصتهم. عاد إلى التفكير في ثالثة وماذا سيكون موقفها إذا عرفت أن النساء اغتصبنه، كان شبه متأكد أن بالشار سُيفشي الخبر بعد أيام على الأكثر، فالأمر لم يزعجه أصلاً، بل قد يعود مرة أخرى، طوعاً ورغبة، للقاء قاطعات الطريق. لم يتمكن من ضبط أفكاره، تبعثر تركيزه، لم يتمكن من اتخاذ قرارات افتراضية لمواقف محددة. جرت خيول العربة على الشاطئ ساعات حتى وصلت بهم إلى الميناء ثم صعدت شرقاً إلى المدينة واجتازا بوابة السور. ترجل ميتني على باب بيته، لم يجد زوجته في البيت، فأخبره بالشار أنه سيجلبها إليه بعد قليل، عندما تشرق الشمس، من منزل أهلها. أسمع ميتني بالشار الإنذار الأخير للكتمان وافترقا.

أفاق على مداعبة دبورا لخشمه وهي تكرر أن الدنيا الظهر، ضمها واستنشق رائحة بيض الدجاج والفلفل الحار المقلي بزيت الزيتون. سألها إذا كانت خية التي تطهو، وقبل أن تجيب دبورا وصله صوت زوجته تناديه للطعام. دخل الحمام وغسل وجهه ثم اتجه إلى المطبخ حيث وجبة لذيذة

كانت بانتظاره.. بيض وفلفل، وزيتون مكبوس بالفلفل، وزعتر بالزيت، وجبنة ماعز منقوعة هي الأخرى بزيت الزيتون، ومقالي فلفل وخضروات مشكلة، وخبز طابون ساخن. «أنا بحاجة للتغذية بالفعل». نظر إليها شاكراً هذا الاستقبال وأيقن أن السر لا يزال مكتوماً فأضاف: «كانت الأيام الأخيرة في العريش صعبة للغاية». قاطعته ثالثة بالإفادة أن بالشار أخبرها كل شيء. أعاد النظر إليها، فأيقن أن كل شيء ليس كل شيء. قبل أن ينتهي من طعامه، أمر خية أن تشعل ناراً وتسخن له الماء للاستحمام.

«هل رأيت الكثير من الموتى يا أبي؟» إذاً لقد سمعت عما تحدث به خالها لأمها عن مأساة العريش. قص عليها سبب تلك الكارثة العائد إلى إهمال الناس وقلة خبرتهم مع وديان الماء، فالماء والنيران خطران لا يستهان بهما ويجب الاحتراز منهما. طمأنها أن الخسائر كانت في الأشياء أكثر من البشر»..لكن خالي قال إن الموتى أكثر من مِئة». عاد يؤكد لها أن العدد أقل، وأن هذا الظن ساد في البداية مع هول المفاجأة. وأضاف أنه سمع، ولم يرَ، عن آلاف القتلى في الحرب الدائرة الآن في مصر، ثم أسمعها، لتسمع أمها، أن خطر الحرب لن يصل إلى غزة هذه المرة. كانت رحلته إلى العريش في الأصل استطلاعية ليؤكد لزوجته استتباب الأمن، وعندما أعلم أرمون بالرحلة طلب منه أن يبحث عن اللوح الفرعوني المكتوب هناك منذ مئات السنين.

٤

انشرح ميتني قليلاً وهو يجالس أرمون وحدهما في اليوم التالي على عودته من العريش، إذ تذكرحظه حين قرر كتابة ما سمعه من الكاهن شقيل عما نُقش على الصخرة السوداء، وما شاهده الكاهن من آثار ورسومات أثناء رحلاته التجارية إلى مصر وما سمعه من أحد كهنة الفراعنة، وما استنتجه هو شخصياً من أحاديث آخرين في العريش تناقلوا رواية الملك الفرعوني أخناتون أباً عن جد. فلو لم يكتب فوراً هناك ما سمعه، فربما سيعجز الآن عن تذكر المحتويات بدقة، خصوصاً بعد التجربة التي مر بها مع عصابة المقنعات، واختلاط المشاعر والأفكار التي يعيشها الآن. أما السبب الآخر، لشعوره بالراحة في هذه اللحظة، فهو أن العصابة لم تهتم باللفافة التي كتب عليها روايته، ولم تصادرها أو تتلف الأوراق التي خُطت عليها. ناولها لأرمون ليطالعها بعد أن أوضح له المصادر، ثم اتكأ قليلاً بانتظار تساؤل أو تعليق أو تكميل من جاره اليهودي الذي انغمس بسرعة في المحتوى:

بعد أن واجهت مصر تسلط الهكسوس وطردتهم، قبل ألف عام، استقرت الأحوال وباشر قادتها غزو الجيران لتوسيع حدودها ولضمان أمنها، وعدم تكرار قصة الهكسوس الذين حضروا إلى مصر جماعات صغيرة مهاجرة ثم ثاروا واحتلوا نصف البلاد مِئة عام. تدريجاً، وبعد التخلص من الهكسوس، تضاءل عدد الآلهة من آلاف إلى اتحاد إلهين فقط

هما رع وأمون، وبالطبع تكونت فئة كهنوتية متسلطة لنشر الدين الجديد وإزالة الأديان والآلهة الأخرى. جيلاً بعد الآخر تحكمت طبقة الكهنوت في مقاليد الحكم والحياة والدين والاقتصاد. بعد قرن ونصف قرن من الاحتلال الهكسوسي أصبح أمنحتب الثالث يحكم كابن إله. في عهده كان الكهنة يأخذون لأنفسهم كل الهدايا المقدمة للآلهة وللمعابد، وأصبح ثلث مصر وأملاكها للكهنة. ابن الملك أمنحتب الثالث أخذ يفكر وهو ينظر إلى الورشات الكثيرة التي تصنع تماثيل جميلة صغيرة وكبيرة وضخمة لما يعتبرونه آلهة، ومنها بالطبع تماثيل لوالده. صارت أسئلة الابن الشاب كثيرة، وغريبة: هل الإنسان يصنع الآلهة أم هي تخلق الإنسان؟ لم يعثر بالطبع على إجابات، اقتنع أن أفكار الكهنة متحجرة ولا يوجد لديهم تفسيرات مختلفة عما ساد لدى سكان الكهف قبل آلاف السنين. اتفق ابن الملك وبعض الذين يشاطرونه الأفكار على صدم المجتمع، فتنكروا وكسروا التماثيل. احتار القوم لاحقاً في هوية الفاعلين المقنعين كونهم علقوا المعاول على أذرع بقايا التماثيل. عندما عاد الأب من رحلة صيد قيل له: إن مجموعة ملثمين يقودهم خيال (أبرام) فعلوا ذلك. لم يمضِ الطويل من الوقت حتى فُضح الأمر ولقِّب ولي العهد من قبل الشعب باسم أبرام. تمر السنوات ويُنصب أبرام إلى جانب والده ملكاً مشاركاً على العرش. بالطبع تقبل الكهنة هذا الأمر على مضض فهم يعرفون توجهاته الدينية المختلفة عن دينهم، وأنه سيحرمهم مزاياهم وسيحد من مناصبهم، وربما يصادر كل مداخيلهم.

لم يُسجل الملك المشارك، كالعادة في اختتام التنصيب، اسم الإله أمون رع، ولكنه سجل اسماً جديداً للإله هو أتون، وتعني سيداً أو رباً. لم يهتم الملك بتسجيل غزوات أو إنجازات على الجدران مثل الذين سبقوه وتبعوه فيما بعد، ولكنه سجل ما يبشر بدين جديد يعتمد إلهاً واحداً فقط

وترمز الشمس إلى ذلك الإله الأوحد. تعهد هذا الملك الشاب أن يُطهر الأرض من الآلهة الأخرى، وشاركت الزوجة نفرتيتي، زوجها في توحيد إله واحد والابتعاد عن تأليه الذات، ورُسم الملك وهو يحمل المعول، ونقشت جداريات وهو يشارك زوجته في العناية بأطفالهم. شهدت سنوات حكمه، قبل التصدي له، تغييراً في كل الأشياء سواء نوع الحجارة للبناء وحجمها أو الرسومات الجدارية واللباس والتيجان والعربات، وبدأت الصلاة تأخذ مناحي ركوع وسجود وتقبيل للأرض. على الأرجح إن كل هذه التطورات قد أرعبت الكهنة في طيبة على مناصبهم وثرواتهم، فأثاروا الملك العجوز على ابنه وروجوا له أنه عُزل من الألوهية، ولم يعد ملكاً مشاركاً للابن الذي أغلق المعابد التقليدية في الجنوب، وأرسل الكهنة للعمل في الصحراء أو حولهم إلى كتبه. هكذا تشكلت معارضة كهنوتية ضمت إليها الملك الأب، أمنحتب الثالث، ضد ديانة ابنه والجيل الجديد الذي يقوده الملك الشاب أمنحتب الرابع، أو أبرام. حتى لا تُشن الحرب بين الأطراف تم الاتفاق أن يهاجر الابن إلى مكان آخر. وقع خياره على مكان في الجنوب أسماه أخت أمون، أي مسكن الرب، وعزم وتعهد أن يقيم هناك مدينة، ولا يغادرها أبداً، وسجل ذلك على لوحات صخرية.

في العام الخامس لحكم الملك الشاب انتهى العمل في المدينة الجديدة، وانتقل إليها مع أتباعه وسط احتفالات وغناء وفرح. في هذه المدينة المقدسة الجديدة، أخت أمون، أقيم معبد لا يوجد فيه تماثيل، وهنا غير الملك اسمه، من أمنحتب إلى «أخن أتون» أخناتون، صديق الرب، وأصبحت أسماء الناس مقرونة بلفظ أتون بعدما كانت مرتبطة بأمون. بل شن أنصار هذا الدين الجديد حرباً على لفظ الآلهة بالجمع لأنهم أصبحوا توحيديين يؤمنون بإله واحد، وأزالوا قدر الإمكان من الأشكال الحيوانية

المقدسة، وفصلوا بين الملك والرب. شعار هذه الجماعة أصبح «أخناتون ملك القطرين، وأتون رب العالمين».

كانت زوجة أخناتون، نفرتيتي، الزوجة الملكية الكبرى، فائقة الجمال، وله أيضاً زوجة ثانوية، اسمها كيا. أنجبت نفرتيتي ست أميرات، بينما أنجبت كيا بنتين وولداً، واكتسبت بذلك مكانة أفضل من بقية نساء الحاشية، ويعني اسمها، الغريبة، وهي أميرة من (ميديا) شمال بابل وبالقرب من أور التي يُنسب إليها الآن أبو الأنبياء. اضطربت البلاد عندما توفي والد الملك في طيبة، حيث كان الكهنة ضد الدين التوحيدي الجديد، بينما الجيش على خلافات فيما بينه، ولكن الكهنة والجيش أنذروا أخناتون بعد موت والده، أن يعود عن دينه أو يرحل ولا يعود أو فإنها الحرب. وكان الكهنة قد فشلوا سابقاً في محاولة لاغتيال الملك الشاب إذ كشفها رئيس حرسه.

تحركت القوات من طيبة براً ونهراً إلى المدينة المقدسة وحاصروها بعد أن طال انتظارهم لاستجابة الملك للإنذار. اعتبروه مسالماً أقام دولة داخل الدولة وقسم الشعب إلى ديانتين. صارت المدينة المقدسة تصلي للإله طلباً للنجدة، والمُحاصرون يهاجمون ويشعلون النار في المدينة ومنشآتها، والصراخ يتعالى والسهام تطلق والدماء تسيل، وكل شيء يُسلب، لأن الكهنة والجيش حرضوا الرعاع من عامة الشعب، فانضم اللصوص والقتلة والانتهازيون والفقراء المضللون إلى هذه الغزوة على المدينة التي تضم أكثر من مئة ألف نسمة. اختفى الملك وأمه وزوجاته وذريته ومشاهير حاشيته، ولم يعثر لهم على أثر، وهرب الناجون من المدينة التي أقاموا، هربوا شمالاً وجنوباً. البعض أعادوا التجمع في الشمال وقرروا المسير عبر سيناء والعريش إلى بلاد شبه الجزيرة (العربية). في العريش سجلوا قصتهم على حجر أسود ضخم لا يزال يُشاهد حتى الآن. أما الآخرون فهربوا نهراً

وبراً حتى غادروا مناطق الإدارة المصرية في بلاد السودان، وعبروا البحر من أضيق نقاطه إلى اليمن.

«هذا تسجيل جيد يا ميتني وصاحبك الكاهن النبطي ملم بمعلومات جمة». قال أرمون وقد انبسطت أساريره مما طالع: «لقد قضيت وقتاً طويلاً في بقايا مكتبة ملك بابل، أشور بانيبال، في نينوى، وبها ألواح من عهد حمورابي وقصص جلجامش وما سبقهما وتبعهما من ملوك حتى نهاية حكم الملك، مؤسس تلك المكتبة، قبل مئة عام. كنا آنذاك مكلفين من الملك ذي القرنين اختيار شرائع وأحكام نسجلها كقواعد لديننا الجديد الذي طلب منا تهذيبه لنسير على هديه في أورشليم. نقبنا في بقايا مكتبة نينوى، وراجعنا النسخ والألواح الأخرى في مكتبة بابل». سكت أرمون لأن ميتني يعرف بقية القصة، وكيف تطورت الخلافات بين اليهود الآن. «بوسعي مما طالعت وسمعت من الآخرين، أن أكمل هذه الملحمة وكيف انتهت، لأنها أصبحت في صميم عملنا، نريد بعضاً منها كأساس لدين خاص بنا له أصول مغروسة في التاريخ. وقصة أخناتون وسرجون وأساطير قديمة كلها متوافرة لدينا الآن بالنسخ وحملناها من بابل إلى أورشليم، حيث تتم الصياغة للدين اليهودي وتوحيد الروايات المتشابهة والاستفادة من النافع من أساطير وتاريخ الأولين لإنتاج رواية منقحة ومناسبة».

لقد عزم أخناتون وشعبه على الخروج من دائـرة سيطرة الحكم المصري الذي أصبح يضم ساحل البحر الكبير وبابل وبلاد النهرين، وبالطبع بلاد السودان كلها. صار هدفهم شبه الجزيرة العربية، جنوبها اليمن، ووسطها مكة، ومدنها الأخرى في الشمال وعلى شاطئ الخليج، والتي أصبحت منذ ذلك الحين تحمل أسماء مثل، يثرب وخيبر وتيماء وفدك وعكاظ وتبوك وغيرها الكثير. كلها أسماء أقرب للمصرية الفرعونية، وتحمل معاني ذات

صلة بهذا الشعب المتنقل ودينه الجديد. تعلموا من درس هزيمة مدينة الرب في مصر، فأقاموا القلاع والأسوار حول المدن التي يحلون بها، وبنوا داخلها مدارسهم وزراعتهم وصناعتهم ليحتموا بها وقت الحاجة، وتميزوا بحضارتهم عن البداوة التي عاشت هناك، بنوا قنوات الري والمدن في اليمن. أسماء هذه المدن وجبال شبه الجزيرة أخذت من اللغة المصرية إثر موجة الرحيل لشعب أخناتون، وهي ليست أسماء عربية نبطية، أو كنعانية أو فنيقية أو غيرها، إنها مصرية. في تيماء وبقية المدن الأخرى نقشوا قصتهم على الصخر بلغتهم المصرية، وأقاموا قبورهم كما في بلدهم الأصلي، أهرام وسراديب وتوابيت وملحقات بالميت. كانوا يريدون ديناً خاصاً بهم في مدينة تخصهم وحدهم، ولكن الكهنة تغلبوا عليهم وطردوهم من مصر، والآن تفرقوا في مدن شبه الجزيرة، وحولوا كلاً منها إلى شيء خاص بهم وانعزلوا عن الآخرين من أصحاب البلاد. حافظوا على دينهم لأنفسهم، ينمو بينهم بالتوالد وليس بالتبشير خوفاً من استثارة الآخرين ضدهم. وفي تيماء تحديداً أقاموا سوراً طويلاً لحماية المدينة ومحيطها.

«هنا يا ميتني تقف هذه الرواية، وهناك إجماع على اقتباس أشياء من سيرة أخناتون وتلبيسها سيرة أبرام ولكن ضمن إخراج آخر، لأن اليهود يكرهون المصريين. لا تنس أن هذه المقولات حدثت قبل حوالى ألف عام. بعضنا يريد جعلها أقدم من ذلك، ويريد قصة يصبح بطلها أبرام، سليلاً لنوح صاحب القارب والطوفان، وبذلك يتحقق الترابط بأساطير الأولين. وسيمكن حينها تقسيم سلالة نوح إلى أنواع، لنكون نحن اليهود من سلالة أفضلها، وننعت الآخرين، من أبناء بقية السلالات، بالسلبيات». نظر أرمون إلى مستمعه، ولم يتأكد إذا كان ميتني قد استوعب كل ما قيل له، فقرر إطلاعه

على مقارنات تاريخية متكررة وهي الآن محل نقاش وتخريجات واختلاف بين الكهنة في أورشليم، فقال :

كل المجتمعات القديمة، في مصر وبابل وأشور وكنعان وأوغاريت وغيرها، توارثت عوامل مشتركة في معتقداتهم وطقوسهم ويحتفلون بأعياد ذات توقيت واحد وأسماء متعددة. الدول تطوى والطقوس تبقى وتتداولها الأديان مع بعض التغيير، ولهذا يريد المدونون الآن الاستفادة من بعض هذه المعتقدات لتكريس الظن لاحقاً أن اليهودية حقيقة وضاربة في التاريخ. كل مدينة كان لها معبود تقدم له القرابين، والجميع أجمعوا على إله الشمس الذي تعددت مسمياته، وهو يطرد الشر والظلام. كذلك القمر كان طارداً للشر، واستفاد منه السومريون في قراءة المستقبل. وهناك إله مشترك آخر هو سيت وهو إله الشر، كما يمثل الثعبان رمز الشر الذي تدوسه أقدام الآلهة. كان الثعبان عند الكنعانيين يسمى لوياثان ونقله اليهود الآن في التوراة عنهم بشكل تام إلى درجة أن له عدة رؤوس أيضاً. وهناك تشابه بين أسطورة الثالوث المصري وبين أسطورة تموز الكنعاني، فقد أنجب إله السماء وإله الأرض ذكرين وأنثيين، فتزوج كل منهما أخته، فقتل أحدهما أخاه ووضعه في نعش قذفه في البحر، لكن زوجة المغدور بحثت عنه ووجدته على سواحل فينيقيا وأنقذته حتى عرف أخوهم القاتل بالأمر، فمزق أخاه قطعاً ورمى كل قطعة في بلد، وفي النهاية يكبر ابن القتيل وينتقم من عمه. هذه طبعاً تذكرنا بقصة بداية الخلق وآدم وحواء التي وجدت في عدة أساطير. يشترك الجميع أيضاً في تنظيم الديانة حيث الآلهة تختار الملك، والكهنة يبنون المعابد لسكنى الرب، ويسيطر الكهنة على الحكم حين يكون ضعيفاً أو يتجسسون عليه ويتحايلون حين يكون قوياً، وينسخ ويطبق اليهود الآن هذه النصوص (فإنك تجعل عليك ملكاً يختاره الرب إلهك..) ولذلك كله

لا غرابة حين تسمع روايات عن اشتراك اليهود في التعبد لآلهة كنعان بلغتهم التي أصبحت الآن تسمى لغة اليهود أو العبرانية. إله الجو عند الكنعانيين اسمه إيل، وهذا الاسم أصله من أوغاريت، ولذلك غيروا اسم يعقوب إلى إسرائيل ليعطوه قداسة وربانية إله الكنعانيين. كل الهياكل للديانات كانت من الحجارة غير المشغولة بحديد، وهذا ما يسجل في التوراة الآن. وكان القدماء يضحون بأبكارهم في مناسبات ومواسم، وهكذا أصبحت قصة التضحية من أهم قصص التوراة. كما أنهم يريدون نسب المُضحي بابنه، أبرام، إلى الأب الثاني للبشر، وهو نوح. قالوا إن لنوح أربعة أولاد، واختاروا لهم الأسماء، سام وحام ويافث وكنعان. الأخير غرق في الطوفان لأنه كافر. أما حام وهو الأصغر، حسب الرواية قيد الإعداد، فقد شاهد والده سكراناً وبانت عورته، ولأنه أخبر إخوته بدل أن يستر عورة والده أصبح مغضوباً عليه وعلى ابنه كنعان، ليصبحا عبدين لإخوتهما الآخرين وسلالتهم. وكان نوح قد زرع العنب بعد الطوفان وصنع النبيذ وشربه كنعمة ربانية.

«يعني كنعان الأول جعلتموه كافراً، وحام ملعوناً مع ابنه كنعان الثاني»..

«هذا لن يكون كل شيء». قاطع أرمون ميتني وطلب منه الإنصات بعد أن ذكّره بأن هذه الرواية كلها مختلقة وستبقى ملأى بالتناقضات والتداخل إذا لم يتمكن المؤلفون الآن أو لاحقاً من تصحيحها وضبطها.

نوح سيُسجل العاشر ضمن سلسلة أبناء آدم، وأبرام سيكون العاشر أيضاً لسلسلة نوح من ابنه سام، الذي هبط وأبوه وإخوته، وكل أزواج الحيوانات، من السفينة على جبل عرارات، وتفرقت ذريتهم أثناء الترحال حتى وصلوا إلى بلاد الرافدين، ولذلك سيُطلق على أبرام لقب الآرامي، نسبة إلى بلاد أرمينيا حيث رست السفينة. هنا يقرر مؤلفو التوراة أن يهبط أبرام وعشيرته ووالده إلى بلاد كنعان، ولم يسجلوا أي خلاف أو سبب لهذا القرار

بالرحيل. المهم هو الهبوط لبلاد كنعان وأخذها بقرار رباني. يعني كتابة توراة جديدة تناسب الوضع الحالي وتبرر احتلال الأرض، ولأن ذلك كله يبدو مكشوفاً لنا الآن، تحدث الهفوات والثغرات كما سترى من بقية الرواية التي يكتبون عن أبرام.

هبط أبرام وسارة وبعض عائلته، مثل ابن أخيه لوط، من أور في بلاد الرافدين إلى كنعان، مروا بدمشق ثم شكيم، وأقام أبرام خيمته على تلة بالقرب من بيت إيل، التي كانت مقراً لملوك كنعان. في الطريق سيتحدث الرب إلى أبرام واعداً إياه بأرض كنعان. ثم تقول الرواية إن القحط عم البلاد فقرر أبرام الترحال إلى مصر، بينما لم يترك الكنعانيون بلادهم بالرغم من هذه المجاعة! في مصر، يؤلف رواة أورشليم الآن، أن أبرام اتفق مع سارة الجميلة أن تدعي أنها أخته، لتحميه من خطر القتل إذا عرفوا أنها زوجته، ولتجلب له الخير، كما كتبوا. يصل خبر جمالها إلى فرعون، فيخطبها من أخيها أبرام ويدفع له فضة وذهباً وأغناماً كثيرة كمهر لسارة. بعد مدة يعرف فرعون أنها زوجة أبرام وليست أخته، فينهره على فعلته هذه ويطلب منه مغادرة البلاد، ويترك له ما أخذه مهراً لسارة، فيعود أبرام غنياً إلى كنعان، له عبيد وفضة وذهب وحلال كثير. عاد إلى بيت إيل، وتصدىٰ عبيده في معركة للصوص سرقوا حلال ابن أخيه لوط. ولا يوجد سبب أبداً لاختلاق هذه الرواية وتسجيلها في التوراة، بل الأدهى أنهم يريدون تسجيل رواية مشابهة مع ملك جرار. يرحل أبرام من بيت إيل إلى أرض جرار الفلسطينية ويلتقي ملكها أبا مالك. قبل اللقاء يكرر أبرام طلبه من سارة أن تدعي أنها أخته، ويتم ذلك ويخطبها الملك ويتزوجها ويدفع مهرها ألف فضة، ويخير أبرام أن يسكن من الأرض أينما شاء. وحدث أن حفر عبيد أبرام بئراً واستقى منها رعاة جرار، فطلب أبرام من الملك عقد اتفاقية تُحرم عليهم استعمال البئر

التي أطلق عليها بعدها بئر السبع. بعدما يعرف أبو مالك أن سارة زوجة لأبرام يناديه ويوبخه على العار الذي جلبه له أمام شعبه كونه تزوج امرأة متزوجة، ولكن التوراة لم تقل هنا إن الملك طرد أبرام من جرار أم لا. هذه كلها مدونات خيالية مختلقة سجلوها ولا أدري لها سبباً. يريدون أبرام بدوياً مترحلاً ونبياً لهم، بل أباً للأنبياء الذين سيسجلون أنهم تبعوه، ثم يعطونه تلك الخصال الرذيلة التي لم تكن سائدة آنذاك بين الشعوب، فكل من فرعون وأبي مالك غضبا لفعلة أبرام وسارة بهما، كما يقر المدونون ويكتبون الآن في التوراة.

جلس ميتني مشدوهاً لا يصدق ما يسمع ثم قال: «ويتهمون حام بن نوح بالعقوق وتحق عليه اللعنة لرؤيته مؤخرة والده السكران، ثم يعطي ربكم لأبرام هذا أبوية الأنبياء ويعده بأرض لا تخصه من قريب أو بعيد»... صمت ميتني وهلة يتذكر ما عرفه عن التوراة وما بها الآن ثم سأل أرمون: «إذا كان أبرام، وهو أبو أنبيائكم، رواية مختلقة ومبتذلة كما يبدو، فهل كل السلالة التي تبعت وهمية هي الأخرى؟» نظر إلى عيني جاره فلم يجد بها شعوراً بالحرج من السؤال.

«بعض الذين تبعوا حقيقيون ولكنهم يُزجون في سلسلة وراثية مصطنعة. الصفات الدينية التي تنسب إلى أبرام هي أيضاً صالحة سواء كان شخصاً حقيقياً أو وهمياً، ولكن الصفات التي يلصقونها به الآن، بعد ألف ومئتي عام، من وقته المفترض حسب تأليفهم، لا تتناسب إلا مع أحلام رآها بعض المُخرفين من الكهنة في أورشليم وهم نيام، فظنوا أنها إلهام، وأن سره عند رب العالمين». أراد ميتني أن يؤجل استكمال الحديث عن أبرام لما فيه من إحراج لجاره المنبوذ من جماعة أورشليم، فسأله عن شيء سمعه عن آدم وأبنائه يُنسب إلى التوراة. «الاختلاطات كثيرة يا ميتني، وأحد الأسباب لذلك

هو الصراع بين الرواية المتوارثة وبين ما يفترض أن تكون من عقلانية هادفة. القصة التي تتحدث عنها هي من النوع المتوارث وهي السائدة الآن، وتقول: إن ابني آدم اقتتلا لأن الرب تقبل قربان أحدهما من اللحوم ورفض قربان الآخر من القمح، فقتل صاحب القمح أخاه وهرب إلى بلاد النود، وهناك تزوج إحدى نسائهم!! طبعاً هذه القصة تتناقض مع كون آدم وزوجته وولديه هم أول من عمر الأرض، فكيف وجد الولد القاتل زوجة في بلاد أخرى؟».

«أتعرف أن أحد الرواة من جزيرة سامون التي يحكمها بوليكراتس، صاحب سفن أحمس، وهي السفن التي تشارك الآن ضد المصريين في الحرب، هذا الرجل راوية متنقل، وقد شاهدته في غزة وأنا طفل يروي عن شخصية أسطورية قديمة اسمها ديانسس. أتذكر أنه نسب إلى هذه الشخصية سيرها فوق الماء، وأنه يملك حبلاً يمكن أن يحوله إلى ثعبان أو سيف أو يأمره بشق الماء أو التحليق به إلى الفضاء»..

«نعم وكلما تتذكر ذلك من طفولتك أصبحت تربط بين روايته وبين ما طالعنا معاً هنا عن النبي موسى.. أليس كذلك؟» أومأ ميتني لأرمون برأسه، فواصل الأخير حديثه بالعودة إلى جماعة أخناتون: «الزمان المختار لقصة النبي موسى تأتي بعد أكثر من خمسمئة سنة على تشريد شعب الموحدين وملكهم أخناتون. لقد هرب بعضهم آنذاك إلى الشمال وغيرهم إلى الجنوب، ولكن نسبة منهم تم أسرهم أيضاً، وأرسلوا إلى معسكرات العمل حيث وجدوا أمامهم أحفاد أسرى الهكسوس. كانت حياتهم كلها عبودية وعملاً شاقاً في بناء الأهرامات والمقابر والقصور والمعابد. كانوا يكرهون المصريين والمصريون يكرهونهم أكثر، لأنهم يرفعون أسعار المعيشة ويشتغلون بالسخرة، وبالتالي تتناقص فرص المصريين في العمل، الذين كانوا أيضاً يظنون أنهم ينشرون الأمراض والرذيلة والجريمة ويجذبون

الذباب والبعوض. في معسكرات العمل هذه وجد أيضاً أسرى من جماعات الخابيرو المرتزقة، فكل لص ومتمرد يتم أسره في مناطق تقع تحت سلطة أو إدارة مصر آنذاك، مثل بابل وأقاليم البحر، أو ضبط السلطات لغزاة وقطاع طرق من تجمعات الخابيرو المرتزقة، كان يُرسل بهم إلى مصر ليعملوا بالسخرة ويعيشوا في معسكرات العمل إلى جانب شعب الموحدين وبقية العمال. أعتقد أن كثرتهم ومشاكلهم وكراهية الشعب في مصر لهم بالإضافة إلى تفشي أفكار شعب أخناتون بينهم، دفعت الفرعون لطردهم، خصوصاً بعد انتشار مرض الطاعون في المعسكرات، وعلى الأرجح إن الفرعون استعد أن يمنحهم وعداً بوطن لهم في صحراء سيناء المصرية، وهذا يحتاج إلى قائد أو قادة لتنفيذ هذا المخطط».

«هكذا صنع جماعة أورشليم قصة موسى النبي، لكن كيف أنجزوا هذه المهمة ومن أي جزئيات تاريخية؟» سأل ميتني صديقه.

«بدون شك هناك من قاد العبيد خارج مصر بالتعاون مع الفرعون، سواء كان اسمه موسى أو غير ذلك، إنما الإضافات الخارقة للطبيعة هي التي فيها شك وتهويل، وإن كان من طبيعة الأمور والدين أن تتم هذه الأشياء بأمر ورعاية إلهية، وبالطبع يتم الآن تحوير هذه الأسطورة لتخدم أهدافاً حالية محورها أحقيتنا في الأرض حسب وعد الرب، وهكذا تتحول رحلة خروج الأسرى والعبيد متعددي الأجناس والهويات مطرودين من مصر للسكن في صحراء سيناء إلى رغبة الرب، وتنفيذاً لوعده الذي أعطاه لأبرام وجدده لكل من تبعوه، حسب روايات المسجلين».

«قصدت بسؤالي إذا كنت تعرف الأسطورة التي نسجوا منها قصة النبي موسى، حياته، أفكاره، سحره، عصاه التي شقت البحر وفجرت الينابيع، وهبوط الألواح إليه من السماء؟» ضحك أرمون بعد إكمال ميتني سؤاله،

وأخبره أن هذا يحتاج إلى أيام لتوضيحه. «إذا كان اليوم غير مناسب يمكن أن نتحدث في الأمر لاحقاً». قال ميتني وقد تذكر أن جلسته مع جاره قد طالت وأن أحداً من الآخرين لم يأت حتى الآن.

«سأذكر لك الآن قصة قديمة مشابهة لقصة حياة موسى، ثم في الأيام التالية سنتحدث عن بقية شأن التأليفات». قال أرمون، فعاد ميتني للجلوس وكان قد باشر النهوض للمغادرة. «توجد في بابل ألواح متناسخة منذ ألف وثمانمئة عام، تروي قصة الملك سرجون صاحب الدور البارز في توحيد مدن ما بين النهرين. عن مولد وحياة هذا الملك نُقش على الألواح قوله إن والدته كانت كاهنة عظمى، وبالتالي لا يسمح لها بالزواج، وتُعاقب بالطبع لو نُكحت وحملت. للتخلص من هذه الورطة تصنع الأم صندوقاً وتطليه بالقار، حتى لا يغرق، وتضع طفلها فيه وتتركه للنهر. البستاني أكي التقط هذا الصندوق وربى الولد، سرجون، كابنه. الإلهة عشتار أحبت سرجون الذي بفضلها وبحنكته أصبح ملكاً وأرسل ابنته إلى المعبد لتصبح كاهنة مثل جدتها، لأن الكهانة كانت من اختصاص بنات الملوك آنذاك. رواية مولد موسى وإنقاذه مشابهة تماماً بكل التفاصيل، ويريد كتبة التوراة أن يأخذ موسى صفات سرجون في الشجاعة والقيادة، ولكن بالطبع مع بعض التغيير بسبب الدين الجديد والدور المناط بموسى لقيادة الرحيل وتأسيس مستعمرة في سيناء.

أنا سرجون الملك العظيم. كانت أمي كاهنة عظمى وأنا لا أعرف أبي. مدينتي كانت أزوبيرانو التي تقع على ضفاف الفرات. لقد حملتني أمي وولدتني سراً، ووضعتني في سلة من البردى ختمت غطاءها بالقير. ومن ثم رمتني في النهر الذي لم يغمرني، فحملني النهر وأخذني إلى الغراف أكي، فاتخذني أكي ابناً له، وجعلني بستانياً عنده. وعندما كنت بستانياً منحتني عشتار حبها فاضطلعت بمهمة الملوكية...

وبعد ذلك يتحدث النص عن قيادته للأمم ونجاحاته الحربية». هكذا اختصر أرمون بقية القصة لأنها لا تعنيهم الآن، وسأل ميتني إذا كان قد طالع النصوص التي سلمها له قبل السفر إلى العريش. نفى ميتني الاطلاع لانعدام الوقت منذ ذلك الحين ووعد بالاهتمام والمطالعة أثناء الليل إذا استمر الحال آمناً في غزة.

٥

عاد ميتني إلى بيته وفتح اللفائف التي أخذها من جاره قبل أيام. باشر يقلبها بسرعة، أراد العثور على شيء يتعلق بابني أبرام، إسماعيل أو إسحاق، أو أبنائهما ليتابع المسلسل حسب قصص التوراة. لم يجد مبتغاه، نهض ليعود إلى جارة طلباً لهذه المعلومة مكتوبة، التقى زوجته عندما خرج من مكتبه، أخبرته أن الغد هو بداية الشهر وأنها تريد أن يصطحبها إلى معبد داجون ليقدما قرابين الشكر على ابتعاد خطر الحرب عن غزة. جال بخاطره أن يوافقها الآن ليكسب الهدوء بقية النهار وطوال الليل، لكنه تخوف من عدم الوفاء غداً وما سيتبعه من نكد. «دعيني أجلب بعض اللفائف من جارنا قبل أن يذهب إلى مكان آخر، ثم نتحدث في الأمر».

«إذا نويت الحديث فأنت لا تريد الذهاب، ولا تحترم داجون، علاقتك هذه مع اليهود ودينهم تثير الشكوك. من حظك أن صاحبك لا نساء أو بنات في بيته».. توقفت وتذكرت أن زوجها لم يخنها قط. نظرت إليه فوجدته يبتسم بمرارة.

«اذهبي مع أهلك، داجون هذا ليس ربي، أنا لا أمنعك من الذهاب فلا تجبريني أنت عليه. خذي معك أي واحد من أخوتك أو أبنائهم، لا تأخذي دبورا معك». رمى بهذه التعليمات وقد تحولت بسمته إلى غضب دفين، وأزاحها من طريقه مغادراً إلى بيت جاره.

جلس مع اللفائف الجديدة وزجاجة نبيذ محلي الصنع، وتناسى زوجته خصوصاً أنها لم تكن في البيت عندما عاد. لم يعثر على شيء جديد عن إسماعيل وأمه، وعرف أن التوراة تعترف فقط بإسحاق كوريث لأبيه بالرغم من كونه الابن الثاني، وهذا ضد معتقد اليهود الذين يعطون الحق الوراثي للبكر من الأولاد. وجاء في التوراة أن إسحاق هو الذي ضُحي به، إذ ربطه أبوه فوق كومة الحطب ليشويه قرباناً للرب حتى ظهر له الكبش في الغابة بديلاً عنه. اطلع في الأوراق على موت سارة أم إسحاق، وعلى زواج أبرام امرأة اسمها قطورة أنجب منها أولاداً وبنات لم تذكر التوراة أسماءهم. اكتشف أن أبرام وإسحاق ابتعد أحدهما عن الآخر، ولكن بعد أن أرسل أبرام رئيس خدمه إلى بلادهم الأصلية في أور، لجلب زوجة من هناك إلى إسحاق، فجلب له رفقة بنت بتوئيل ابن ناحور الذي هو أخو أبرام. حبلت رفقة من ابن عمها إسحاق بتوأم صارا يتصارعان في بطنها أيهما يولد أولاً ليأخذ حق البكورية. سبق عيسو أخاه يعقوب في الميلاد، فأحب إسحاق ابنه عيسو الذي أصبح صياداً، وأحبت رفقة ابنها يعقوب، الذي أصبح فلاحاً متحضراً عن أخيه. مرة أخرى يتحدث النص عن حدوث مجاعة في البلاد، وتوجه إسحاق إلى أرض جرار في طريقه إلى مصر. هنا يسجل المؤلفون تدخل الرب ليطلب من إسحاق عدم استكمال الرحلة إلى مصر، ويجدد له ولنسله وعد الأرض كما أعطاها لأبيه أبرام. وتقول التوراة أن إسحاق هو الآخر التقى أبا مالك وتنازع آبار الماء معه حتى عقدا اتفاقية، وعثر عبيد إسحاق أيضاً على آبار جديدة فسموها بئر سبع، وهي ذات القصة المروية عن أبرام وسارة وأبي مالك، ولكنها الآن مع إسحاق ورفقة. هذا يدل على اختلاط وعدم مراجعة للنصوص التي توضع في التوراة، حسب ظن ميتني وهو يطالع بنهم مسلسل الأحداث كما يُراد لها أن تكون. وأكثر ما استغرب

ميتني بهذا الصدد ذكر التوراة أن إسحاق هو الآخر طلب من زوجته أن تقول إنها أخته، كما فعل أبوه مع أمه، ولكن ملك جرار هذه المرة شاهدهما يفعلان أشياء لا يفعلها الإخوة فيما بينهم، فامتنع عن الزواج بها بعد أن كان قد خطبها وحدد مهرها.

واضح أن يعقوب، ابن إسحاق، سيكون رائد القوم، فرغم عجزه عن سبق عيسو في الميلاد إلا أنه ارتبط بعقبة فصار يعقوباً، يُصوَر في كل أطوار حياته بالذكي الماكر واسع الحيلة. أضيف إلى ذلك صفات المخادعة والتلون، ليكون أمثولة لليهود وتبنيهم هذه الصفات، أو الأحرى ليعكس الصفات التي اكتسبوها على كل العصور لنيل أغراضهم، فيبدون كمن يقلد هذا النبي، الذي لا يستسلم أبداً. مثلاً، انتهز يعقوب فرصة عودة أخيه عيسو جائعاً من دون صيد، فعرض عليه شراء حقوق البكورية بطبق من العدس، ولأن عيسو كاد يموت من الجوع، حسب النص التوراتي، فقد وافق على المقايضة، وأصبح يعقوب هو البكر بعد أن استحلف أخاه ومنحه بعض الخبز إلى جانب العدس. هكذا أُبعد عيسو عن الطريق كما أُبعد إسماعيل وأبناء قطورة، وكما استبعد من قبل جده أبرام ابن أخيه لوط. وكأن هذا لا يكفي، فقد زوج مؤلفو التوراة عيسو من ثلاث زوجات كنعانيات، فسبب بذلك غصة لأمه، رفقة، وبالطبع لم يعد نسله صافياً لأنه تزوج خارج القبيلة. وفي قصة توراتية أخرى يتحايل يعقوب على والده الضرير ليكسب البركة. فقد طلب إسحاق من ولده عيسو أن يصيد ويعد له طعاماً. سمعت رفقة بالأمر فأوعزت إلى يعقوب أن يقدم اللحم لوالده، وألبسته أمه جلد جدي، لأن عيسو ذا شعر، وحتى لا يكتشف البصير إسحاق الأمر عندما يبارك ولده ويلمس جلده. انطلت اللعبة على إسحاق وبارك يعقوب وهو فعلاً يظنه عيسو. قبل عودة الأخير بالصيد والطعام لأبيه، عرفت رفقة أنه سيقتل يعقوب

بدل فعلته هذه، فطلبت من زوجها إسحاق القول ليعقوب ألا يتزوج من الكنعانيين، وأن يرتحل فوراً إلى حاران، حيث يسكن أخوها لابان، فيتزوج إحدى بنات أخيها هناك. هكذا هرب يعقوب من عيسو بعد أن جرده حق البكورية وبركة أبيه.

تركت التوراة يعقوب أعزب أكثر من سبعين عاماً، ثم تزوج بنت خاله ليئة بالغلط نتيجه لخداع من خاله، ثم تزوج أختها التي أحبها، راحيل بعد سبع سنوات، وتزوج أيضاً خادمتى ليئة وراحيل. في التفاصيل أن يعقوب نام في الطريق، وحلم برؤية الرب الذي قال له، أنا الرب إله أبرام وإله إسحاق، ثم كرر له الوعد: الأرض التي مضطجع عليها لك ولنسلك... في حاران يتعاقد يعقوب مع خاله أن يزوجه ابنته الجميلة راحيل شرط أن يخدم عنده مسبقاً سبع سنوات. في ليلة الفرح أبعد الخال المحبوبة راحيل واستبدلها في الظلام بأختها ليئة. عندما راجع يعقوب خاله في الصباح، قال له لا نعطي الصغيرة قبل الكبيرة. ثم اتفقا على سبع سنوات خدمة أخرى وزوجه راحيل، فكان له في النهاية منهما ومن الجاريتين زلفة وبلهة أولاده الاثنا عشر وبنته الوحيدة دينة.

تجلى الرب ليعقوب مطالباً إياه بالعودة، لكن خاله لم يعطه شيئاً يعود به، فاتفقا مجدداً على أن يخدم عنده ست سنوات مقابل الغنم المهجن الذي سيولد. على الفور أرسل الخال أولاده بكل الغنم المهجن المرقط إلى المراعي على بعد ثلاثة أيام، وترك تحت مسؤولية يعقوب الغنم الأبيض غير المهجن. انتظر يعقوب ميلاد الغنم الأبيض وجمع كل الأغنام المرقطة نتيجة لحملها سلفاً من تيوس مهجنة. عزل التيوس الصغيرة المهجنة في جهة والتيوس البيضاء في جهة أخرى، وكلما حان وقت التلقيح يطلق التيوس المهجنة على الغنم، ويعزل التيوس البيضاء. هكذا صارت المواليد الجديدة

مهجنة، وتكاثرت بهذه الطريقة أضعاف الغنم الأبيض. ارتحل يعقوب وأغنامة وزوجاته وأولاده سراً تاركاً بلاد جده وأمه إلى موطن ولادته في كنعان، وكان طوال الطريق متخوفاً مما سيفعل به عيسو حين يلتقيه. عندما عرف خاله لابان بالهروب، تبعه إذ اكتشف بعض المفقودات من البيت ومنها الأصنام المنزلية التي كانوا لها يتعبدون. ظهر الرب للخال في المنام محذراً إياه من الحديث مع يعقوب بخير أو شر. وعندما لحق الخال به تخوف من عقاب الرب فلم يتحدث عن شيء سوى السؤال عن سبب سرقة الأصنام، فأنكر يعقوب الأمر وأذن له بالتفتيش. هنا تخبئ راحيل أصنام والدها وتجلس عليها، وعندما يطلب منها أبوها أن تقف ليفتش ما تحتها تدعي أنها مصابة بالدورة الشهرية ولا يمكنها الوقوف، فيعود الأب خالي الوفاض وتبقى الأصنام لدى أهل يعقوب.

كان لقاء يعقوب وخاله بعد أسبوع من بداية الرحلة، وأصبح عليه الآن أن يرشو أخاه عيسو بهدية ووعود وصار يتمنى على ربه: نجني من يد أخي عيسو، لأني خائف منه أن يأتي ويضربني، الأم مع البنين. وأرسل يعقوب رسلاً سبقوه إلى عيسو أوصاهم بالقول: تقولون لسيدي عيسو هكذا قال عبدك يعقوب... كانت الهدية المقررة مئتين من الماعز وعشرين تيساً ومئتي نعجة وعشرين كبشاً وثلاثين ناقة مرضعة أولادها وأربعين بقرة وعشرة ثيران وعشرين أتاناً وعشرة حمير، وشكلها قطعان متفرقة لتصل تباعاً وتبدو كثيرة في عيني عيسو. كانت طريق يعقوب من الشرق إلى الغرب محاذية لسيل يبوق حيث الماء والعشب والسمك.

قبل اللقاء الأخـوي، وعند مخاضة على مفترق طرق بين الشمال والجنوب، صارع يعقوب الرب الذي تنكر على شكل إنسان وظهر ليعقوب مساء، فتصارعا حتى طلوع الشمس. ولما عجز الرب عن صرع يعقوب

ضربه على فخذه فخلع حقه، لكن يعقوب تمسك بالرب الذي طلب إنهاء المصارعة، إلا أن يعقوب طلب أن يباركه الرب مقابل أن يتركه وشأنه. سأله الرب: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الرب ومع الناس وقدرت... فدعى يعقوب اسم المكان فنئيل، لأني نظرت الرب وجهاً لوجه ونجوت بنفسي. هذه بالطبع ميزة فريدة ليعقوب إذ نظر الكثيرون الرب حسب التوراة، ولكن لم يتصارع أي منهم مع الرب ويتغلب عليه ويكسب بركته سوى إسرائيل. يعقوب وأبناؤه إذاً هم الذين يقابلون الرب ويجادلونه ويصارعونه ولا يقدر الرب عليهم، وبالتالي أزيلت الفروق بينهم وبين هذا الرب.

انتهى الصراع الشجاع مع الرب، فظهر عيسو وتقدم لأخيه، فما كان من المصارع إلا الانبطاح سبع مرات: وسجد على الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه. رفض عيسو الهدايا ولم يقبلها إلا بعد إلحاح من إسرائيل: إن وجدت نعمة في عينيك تأخذ هديتي من يدي لأني رأيت وجهك كما يرى وجه الرب فرضيت عني. وكانت الزوجات الأربع والأولاد قد سجدوا خلف يعقوب لعيسو الذي سامح أخاه وعرض عليه أن يسيرا معاً، ولكن يعقوب خلق المعاذير ففهم عيسو أنه يريد المسير وحيداً فتركه وشأنه. وصل يعقوب إلى شكيم واشترى قطعة أرض من زعيم المنطقة ونصب هناك خيمته وأقام مذبحاً دعاه إيل إسرائيل.

لم يعرف ميتني من مطالعته لفائف التوراة إلى الآن ما هي تعاليم هذا الدين من أبرام عبر إسحاق إلى يعقوب، فلم يعثر إلا على أصنام، ومذابح لحرق القرابين بأنواعها، وبالطبع الختان للأولاد كعلامة للاتفاق بين الرب وأبرام، ومثل هذا الختان كان سائداً في عهد الفراعنة القدماء قبل عهد أبرام. ثم من هو هذا الرب الذي يدعيه يعقوب ويظهر له في النوم ويتصارع معه

في الليل، ثم يسجد أمام أخيه في الصباح نفسه خوفاً من الضرب؟ سجل ميتني هذه التساؤلات ليناقشها مع جاره وبقية المعارف اليهود حين تتاح له فرصة، وأخذ يقلب في بقية اللفائف بحثاً عن رؤية ورواية التوراة لبداية الدين اليهودي، لكن باب مكتبه فتح وانتصبت زوجته أمامه.

«لقد رفض داجون قربانك».. قالت بتأكيد وحدة: «..هل تعرف لماذا؟» نظر إلى زوجته مشدوهاً لنبرتها ومحتوى كلامها.

«لم أقدم له قرباناً ولم أطلب من أحد أن يفعل ذلك نيابة عني». أجابها وهو يحدق إلى وجهها ويحاول أن يردع غضبه ويحيد ملامح وجهه.

«أنا قدمت القربان وقد قلب داجون الفخارية»..

«الفخارية من صنع أخيك لم تكن متوازنة القاعدة، لقد أعطاكِ لداجون المرفوض من فخاره، وبالتالي انقلبت وضاع ما فيها. هل كان طبيخاً لداجون؟»

«داجـون لا يأكل، والقرابين توزع لاحقاً على المحتاجين وزوار المدينة. تعرف ذلك، وأعرف أنك تلف وتدور تهرباً من الإجابة عن رفض داجون لقربانك».

«يبدو أنك تعرفين السبب، فأفصحي إذاً». قال لها بهدوء وقد تذكر بالشار، وعصابة المقنعات، فقرر أن يدفعها للاعتراف، أو التراجع.

«لم تعد نقياً يا ميتني، أليس كذلك؟»

«يمكنك الانتقال للسكن عند بالشار، أو عند أهلك، أو مشاركة دبورا في غرفتها. القرار لك، ولكن لا تثيريني بعد الآن. أغلقي باب المكتب» حاول أن يبقى هادئاً ولكنه كان يغلي من الداخل غضباً على نسيبه الثرثار.

أبعد منغصاته اليومية عن ذهنه، وعاد ميتني للغوص في بقية الأحداث التي جابهت يعقوب وذريته. بعدما افترق عن أخيه عيسو بعد مصارعة ربه،

اتجه يعقوب إلى بلدة شكيم وأقام هناك. ذات يوم، تقول التوراة: خرجت دينة ابنة يعقوب لتنظر بنات الأرض، فرآها ابن حمور الحوي، رئيس الأرض وأخذها واضطجع معها وأذلها وتعلقت نفسه بدينة ابنة يعقوب، وأحب الفتاة ولاطف الفتاة. وطلب الابن من أبيه أن يذهب ويخطبها من أبيها يعقوب، الذي سمع أن ابن حمور نجس ابنته. وترك حمور ليعقوب أن يحدد المهر وعرض عليه التعايش وتبادل المنافع. قبل أبناء يعقوب العرض واشترطوا أن يختن كل الذكور من قبيلة حمور المقيمة هناك في يوم واحد. وافق حمور وأمر بالختان، وهنا انتهز أولاد يعقوب عجز الذكور عن الحراك بسبب الختان وهاجموا القبيلة بقيادة اثنين منهم. حسب النص: وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر وقتلا حمور وولده بحد السيف وأخذا دينة من بيت حمور وخرجا ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة لأنهم نجسوا أختهم، غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة، وما في الحقل أخذوه ونهبوا كل ثرواتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما في البيوت. الآن جاء زمن الهروب بعد هذه الفعلة: فقال يعقوب لبنيه ولكل من كان معه اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم ولنقم ونصعد إلى بيت إيل فأصنع هناك مذبحاً للرب الذي استجاب لي في يوم ضيقي وكان معي في الطريق الذي ذهبت فيه. فأعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التي في أيديهم والأقراط التي في آذانهم فطمرها يعقوب تحت البطمة التي عند شكيم.

ما هذا؟ لقد خرجت الأخت بمحض إرادتها، والتقت ابن الحاكم، وربما كانا على موعد، وأرسل الشاب والده لطلب يدها بأي مهر، فلماذا الإيقاع بهم واستعادة الأخت بعد أن دخل عليها سواء برضاها أو لا؟ ألم يقدم الأجداد نساءهم لقاء المصالح؟ أم هذه الفرصة جاءت مواتية للقتل وجمع كمية أكبر من الغنائم والسبي ثم الانتقال من المنطقة إلى أخرى.

ثم ما هذه الآلهة التي كانوا يعبدون وطمرها يعقوب قبل الهروب؟ عندما خاف يعقوب وهو في الطريق إلى خاله هرباً من أخيه وبغية الزواج من بنت خاله، نذر نفسه وجاء في التوراة: ونذر يعقوب نذراً قائلاً: إن كان الرب معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه وأعطاني خبزاً لآكل وثياباً لألبس، ورجعت بسلام إلى بيت أبي يكون الرب لي إلهاً وهذا الحجر الذي أقمته عموداً يكون بيت الله وكل ما تعطيني فإني أعشره لك. ويبدو أن يعقوب نسي كل هذا، أو بالطبع نسيه المدونون فلم يتحدثوا عن دفع العشر مما جلب من عند خاله، وها هم قد جعلوه يعبد أصناماً عند خاله وفي طريق العودة وبعد أن أقام في أطراف شكيم الكنعانية.

لم يعثر ميتني على تفسير لتساؤلاته فقرر إضافة هذه الأسئلة ليجد لها إجابات إن استطاع، وواصل الرواية التوراتية عن يعقوب ليجد قصة زنى محارم من النوع الثقيل. لقد تدنس فراش يعقوب نفسه هذه المرة، فقد زنى ابن يعقوب البكر، رأوبين، من زوجته الأولى ليئة، زنى بزوجة أبيه، بلهة، وهي والدة أخويه دان ونفتالي، ولم يثر الأمر أبناء الزانية ضد أخيهم، وكل ما فعله يعقوب هو انتزاع حقوق البكورية من الزاني رأوبين وأسندها إلى ابنه يوسف، بكره من محبوبته راحيل، فصار لكل من ولدي يوسف حصة كاملة من ميراث جدهما.

حتى الآن، لم يكتشف ميتني مما طالع عن الآباء الثلاثة، الذين تعتبرهم التوراة أنبياء أجلاء، أي شيء يفيد عن دين وطقوس وأصول أو قوانين. التوراة في قصص الثلاثة تميز بين القوم وبقية الأقوام، وتميز بين سلالة أبرام نفسه، فتذكر ابنه البكر إسماعيل ثم تناساه، وبقية الأبناء من زوجته الأخيرة قطورة لا ذكر لهم، ويتم اصطفاء إسحاق الذي ينعزل عن أبيه، ثم يجعل مدونو التوارة إسحاق يميز بين ولديه التوأم، ولا يدعو ابنه عيسو يؤمن بأي

شعائر أو هداية بل تمت شيطنته فوراً، وبالطبع لم يطالب يعقوب بهداية أي قوم آخرين حتى بعد أن قبل أهل شكيم الختان، فتمت تصفيتهم وسلبهم... فأي رب هم يعبدون؟ يبدو إلى الآن أنه رب قبلي خاص بهم وحدهم يُمنع عن الآخرين، هذا بالرغم من عبادة هذه القبيلة لأرباب الآخرين. ميتني مقتنع منذ البداية أن قصص الأصول هذه كلها مختلقة ومحورة عن أساطير الأولين حتى يثبت يهود اليوم الذين يكتبون التوراة الآن قدمهم في التاريخ مثل قدم حضارات هذه المنطقة... لكنه مع ذلك لا يستوعب سبب تدوين هذه الأشياء، فلو كان هو الآن من جماعة المدونين لما اختار ما اختاروه. إذ كان ذلك كله في قصة الثلاثة الأوائل فقط فماذا عن بقية السلالة حتى نصل إلى جماعة المدونين البابليين والأنبياء المعاصرين لهم الآن.

٦

في غضون أيام قليلة على عودته من العريش، وصل إلى مسامع ميتني من نسيبه الصياد، بارنابا، بأن المعركة انتهت مساء اليوم الأول، وانسحبت القوات المصرية إلى القلعة القريبة من نهاية النهر، ثم ركبوا السفن إلى منف للاحتماء خلف السدود والمياه والأسوار المحيطة بالمدينة، وقد أرسل كمبوجي، ملك وقائد الفرس، في أثرهم سفينة تحمل مندوبين بمقترحات للاستسلام. لقد حضر بارنابا إلى بيت أخته ليصلح الحال بين الزوجين، ولكنه لم يتحدث عن الأمر قطّ، أراد فقط الحفاظ على التواصل وكأن شيئاً لم يكن.

استرجع ميتني ما يعرفه من خلفية عن وضع مصر الآن، فقد تولى بسماتيك الحكم بعد وفاة والده أحمس، ووقع على عاتقه الدفاع عن المملكة من الهجوم الفارسي الذي لم يكن يعرف موعده، ولكنه متأكد من حتميته بعد وفاة والده. كان هذا الأمير قد تربى بعيداً عن السياسة وفنون الحكم والحرب، لكنه وبالرغم من هذه الظروف الصعبة أظهر بعض الحكمة، فأمر بإبعاد المرتزقة الإغريق وإعادتهم إلى معسكراتهم نظراً إلى كراهية الشعب لهم، وحشد حراس وخدم القصور وملاحي الأسطول وذهب بالجيش إلى الميدان ليتحكم في موقع المعركة بين الصحراء والنيل. كانت خطة جيدة، ولكن خصومه الفرس كانوا متفوقين بمراحل

حيث حنكة القادة الحربيين المجربين في حروب متلاحقة ضخمة في بابل وليديا وغيرهما عبر العالم المحيط بهم. تلك الحروب الفارسية التي قادها الملك كورش بمشاركة من ولده كمبوجي، أنتجت أسلحة حديثة مرعبة ضد المشاة، ومقاليع وراجمات ضخمة على متن السفن التي دخلت النيل من البحر وتحمل الجنود الآن باتجاه منف حيث يحتمي الفرعون بسماتيك وبقية قواته وعائلته.

سار ميتني في شوارع غزة مشتت الذهن، يحاول الانشغال بتأمل سعة الشوارع ونظام تقاطعها في مربعات، ثم يشرد ذهنه إلى زوجته وإلى متى سيتحمل غباوة أفكارها، ثم يتذكر أن ثرثرة بالشار كانت الفاصلة في خلق مشكلته. لم تعد زوجته ثالثة تتحدث عن حادثة الاغتصاب التي تعرض لها، بل صارت أشبه بالخرساء في البيت بعد أن تجاهل وجودها، ولكن معرفتها بما حدث وانتشار الخبر بين أفراد العائلة صار يرهقه كثيراً. وصل إلى بوابة السور الغربية، كان الوقت عصراً وهواء منعش أقرب إلى البرودة يهب من الغرب مشبعاً برائحة البحر وطعم الملح. كاد يتجه إلى الشاطئ، ولكنه قرر التركيز على تسجيله لما يرى ويسمع، واستدار عائداً ليزور صديقه وجاره اليهودي، يؤنسه ويتناقش معه وينقل إليه ما جمع من الأخبار. أصبح كل من ميتني وأرمون يعتمدان كل على الآخر أكثر من السابق. بعد الهجوم على أرمون من قبل يهود أورشليم وضربه بشدة، قل زواره من يهود غزة خوفاً من عصابات المتطرفين العاملة بإمرة أورشليم، ومن طرف آخر فإن تصاعد التوتر في بيت ميتني صار يدفعه للانغماس أكثر في التسجيل وبالتالي مجالسة أرمون.

كان أي خبر يصل إلى غزة عن مسيرة الحرب في مصر، ينتشر فوراً بين الناس، ويحمل ميتني على الدوام آخر التطورات لجاره أرمون، إذ أصبح

يزوره يومياً ويطيل في الجلوس معه لتفقد وضعه ورعايته نفسياً إثر ما حدث له. روى ميتني أن القرى المصرية تناقلت أخبار السفينة الحربية الفارسية المتقدمة إلى منف تحمل مقترحات للاستسلام. عندما وصلت إلى هدفها صعد المصريون إليها وقتلوا ركابها ومثلوا بهم في طرقات العاصمة. ثم وصلت بقية السفن والقوات الفارسية إلى منف واحتلتها بسهولة، وطلب منهم تقديم عشرة من النبلاء مقابل كل قتيل فارسي من ركاب وبحارة السفينة المغدور بهم. طلب كمبوجي إحضار الفرعون المصري أمامه، بعد أن اعتقله مع عائلته وكل حاشيته وقواد جيشه. تعامل المنتصر مع المهزوم باحتقار شديد، وألبس ابنته ملابس الخدم والعبيد، وأرسلها مع بنات علية القوم ليسقين الجنود وراعى في ذلك أن يشاهدهن بسماتيك، الذي غض البصر عما حدث لابنته. ثم أمرّ ملك الفرس أمام خصمه المنهزم ابنه ومعه ألف مصري آخر من الأسرى الذاهبين للذبح، فغض بسماتيك النظر وتحمل. وتقول الرواية التي خرجت من منف، إن الفرعون المصري بكى وهو يشاهد أحد مساعديه يتسول لقمة عيشه، وعندما عرف كمبوجي بذلك أرسل إليه من يحضره وسأله لماذا لم يبك على ابنه وابنته ويبكي على حال مساعده. كانت الإجابة «يا ابن كورش إن مصائب بيتي كبيرة جداً حتى لا تستطيع البكاء لأجلها وأما ما أصاب هذا الرجل صديقى في أول شيخوخته من وقوعه في الفقر بعد أن كان كثير الأملاك والخيرات ظهر لي أنه يستوجب البكاء».

«هذه هزيمة كاسحة لمصر».. علق أرمون عندما انتهى ميتني من روايته، «..ورغم أن النتائج الفورية لمصلحتنا إلا أن تفرد الفرس بالمنطقة قد ينقلب سلباً في أي لحظة. مثلاً قد يطالبوننا بالمزيد من الجزية لأنهم لن يحتاجوا

إلى كسب ودنا ضد المصريين. عندما تتصارع الإمبراطوريات ترتاح الممالك الصغيرة»..

«أو تضيع بين الأرجل وتدهسها الجحافل». قاطع ميتني جاره، فقد أراد الانتقال إلى حديث آخر عن أبناء يعقوب وإذا ما كانت سيرتهم أفضل، كما أن لديه الكثير من التساؤلات عن نشأة الدين اليهودي وانعدام الطقوس في عهد أبرام وابنه إسحاق وحفيده يعقوب، وأبناء هذا الأخير المفترض أنهم أصل قبائل اليهود كما يحلو للمدونين الآن أن يسجلوا. «لم أقتنع بالروايات المذكورة عن الآباء الثلاثة الأوائل، فهي روايات مغمسة بالزنى والعار والقتل والخديعة ولا تناسب أنبياء، ولم أطلع بعد على ما يسجلونه عن أبناء يعقوب».

«إذا أردت التعرف إلى الروايات الزانية، فهي كثيرة ولا تتوقف، وعليك النظر إليها من زاوية تناقضها مع عنصر نقاء الدم الذي يروجه المدونون». قال أرمون وهو مضطجع ويبدو عليه الألم من جراء كسر ساقه والرضوض في ظهره. طلب من ميتني أن يحضر له بعض اللفائف من خزانة خلفه وباشر حديثه وهو يواصل البحث في النصوص ليستشهد بها. «الابن الرابع ليعقوب، اسمه يهوذا، وهذا الاسم كنعاني تماماً آنذاك. ويهوذا هو من الزوجة الأولى ليئة، ومن نسله، كما يُذكر لاحقاً في التوراة، جاء داوود الذي أصبح أول ملك على بني إسرائيل. هذا الابن، يهوذا، افترق عن إخوته وجاور الكنعانيين وتزوج منهم بامرأة ولدت له ثلاثة ذكور أكبرهم عيرا، وقد زوجه والده من ثامار الكنعانية»..

«ما سر التركيز على زوجات كنعان؟» قاطع ميتني حديث أرمون وضحك كلاهما.

«أراد المدونون كنعنة الزوجة لعيرا ابن يهوذا ليسهل ذمها، ولكنهم بذلك لطخوا سمعة ابن يعقوب، وشككوا في نقاء دم الملك داوود الذي

نسبوه إلى يهوذا». صمت أرمون وانبطح على بطنه ليخفف من وجع الأورام في ظهره. «المهم، عندما مات عيرا زوج ثامار، تزوجها الابن الثاني ليهوذا، أونان. هذا الآخر مات حسب رغبة المدونين، فصرف يهوذا الزوجة إلى أهلها بعد أن وعدها بالزواج من الابن الثالث، شيلة، ولكن عندما يكبر. تشككت ثامار في الوعد وتلكأ حموها، فما كان منها إلا التنكر في ملابس زانية واتفقت مع يهوذا على النكاح مقابل جدي، وأخذت منه خاتمه وعصابته رهناً حتى يرسل الثمن إليها. هكذا حملت ثامار من حميها بتوأم هما فارص وزارح، ولن تضحك إذا قلت لك إنهما تقاتلا في بطن الأم من يهبط قبل الآخر، وقد أفاضت التوراة بالشرح». كان ميتني مشدوهاً مما يسمع وتكاثرت الأسئلة في رأسه كيف لم يعرف الحمو زوجة ولديه بالتالي، لكنه حافظ على فمه مغلقاً ريثما ينتهي الراوي من روايته. «عرف يهوذا من القوم أن زوجة ابنه قد حبلت، فطالب بإحراقها، ثم أخبرته بحقيقتها وأعادت الخاتم فعرف أنه الأب، وتراجع عن المطالبة بالعقاب. وفارص هو صاحب السلالة التي أنجبت داوود».

«يا للهول!»

«يا للكارثة، لأن فارص هو الأب التاسع لداوود، وبالتالي وحسب شرائع موسى، لا يحق له أن يصبح ملكاً». قلب أرمون في الأوراق أمامه ثم طالع: «لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر، لا يدخل أحد منه في جماعة الرب»..

«هذا يعني أن سليمان لا يحق له الملك، لأنه الابن العاشر».

«..في الواقع إن سفر يشوع يحدد الأب الثالث لداوود وهو بوعز، وكأنه ابن زانية، ويقرن اسم والدته بالزنى ويقول عنها رحاب الزانية. ورحاب هذه كنعانية من أريحا أخفت جواسيس إسرائيليين في بيتها وكافأها

يشوع بن نون بالزواج منها فولدت له ثمانية أصبحوا أنبياء وأختهم حلداب التي اعتبرت نبية أيضاً، وبعدما مات يشوع أنجبت رحاب من سلمون ابنه بوعز وهذا هو الأب الثالث لداوود. ولا ننس هنا أن شرائع موسى تحرم على المؤابيين والعمونيين دخول جماعة الرب إلى الأبد لأنهم: لم يلاقوكم بالخبز والماء عند خروجكم من مصر.. ومسك الختام في أصل داوود، أن بوعز تزوج أرملة مؤابية اسمها راعوث، وولدت له عوبيد جد داوود المباشر».

«هل كل واحد من أبناء يعقوب، زعماء الأسباط الاثني عشر، لديه قصص غرامية ونكاحية؟».. تململ ميتني وهو يطرح سؤاله على صديقه الذي رفضه مدونو التوراة في أورشليم، ثم هاجموه بقصد قتله حين عرفوا أنه ينتقد توجهاتهم من غزة. كان ميتني يصوغ أسئلته حول الزنى والنكاح بأسلوب لا يشع منه أكثر من الاستغراب، ولكن أحياناً يسهو وتأتي تعليقاته بشكل استهجاني. «..أعتقد أن سيرة يوسف يصعب على أحد تشويهها، أليس كذلك؟»

«حياة يوسف في التوراة لا تخلو هي الأخرى من نجاسة، فهم لم يضعوا بها فقط محاولة زوجة لإغوائه، ولكنهم منحوه صفات سلبية في تعامله مع المصريين لاحقاً، بعدما تمكن من منصبه. تعرف طبعاً أنه ابن راحيل البكر، وهي المحببة لقلب يعقوب وعمل من أجلها أربعة عشر عاماً كراعٍ عند خاله».. أيد ميتني الحديث فقد اطلع على مجريات ذلك الجزء. «..وهو أول من تسلم سلطة فعلية من بني إسرائيل حتى حينه. أصبح وزيراً لفرعون غير مصري الأصل، فقصة يوسف حدثت في عهد استتباب الأمن تحت الاحتلال الهكسوسي لنصف مصر، هذا طبعاً حسب التواريخ التي يضعها المدونون من دون الانتباه إلى النظم السائدة آنذاك. إنهم يكتبون قصة يوسف الآن بعد ألف ومئتي عام على حدوثها المفترض»..

«من هم الهكسوس حسب رأيك؟»

«أقوام مغامرة مختلطة تسربوا إلى مصر، وهناك كونوا أنفسهم وسيطروا على منطقة الدلتا بالقوة وأقاموا نظاماً خاصاً بهم، وطوروا قواتهم بسرعة، إذ استعملوا الخيول في جر العربات الحربية، ولكنهم استعبدوا المصريين في منطقتهم المحتلة حتى طردهم أحمس الذي كان يحكم الشق الآخر من مصر. في عهد هؤلاء حدثت قصة يوسف، وهي بحد ذاتها تعكس درجة الخلافات وسوء التربية لأبناء يعقوب، الذين تآمروا على أخيهم لأنه محبوب من والدهم، فأنزلوه في البئر، وكانت النتيجة أنه بيع كالعبيد حتى وصل إلى مصر وإلى منصب الوزير».. سكت أرمون وهو يبتسم: «..طبعاً الذين عثروا عليه واشتروه وباعوه، هم الإسماعيليون الذين لا بد من دور شرير لهم في كل مرة».

«أعتقد أن المدونين متفقون على تفاصيل قصة يوسف»..

«لا لا أبداً، فالخلاف بينهم حول السبب في كراهية الإخوة له، وهناك خلافات أخرى منها مثلاً كيف خرج من البئر، ومن أخرجه، وهل بيع بالفعل وأصبح عبداً، أم أن قوماً عثروا عليه وحملوه معهم من دون بيع وشراء، والتوراة الآن بها كل هذه المتناقضات. فرواية أن إخوته باعوه إلى قافلة إسماعيليين متجهة إلى مصر، يعني أنه أصبح من طبقة العبيد، أما إنقاذه من البئر من قبل تجار ميديانيين وبيعهم يوسف للقافلة الإسماعيلية بعشرين من الفضة، يخرجه من طبقة العبيد. وينسب التوراة إلى يوسف قوله: لأني قد سُرقت من أرض العبرانيين». رفع ميتني حاجبيه مستهجناً هذه المقولة من المدونين على لسان يوسف. «نعم يا ميتني إنهم مستعجلون لتجيير الأرض لهم، لقد سموها أرض العبرانيين، على الرغم من أن كل أولاد يعقوب وأبنائهم لم يتجاوزوا بحال سبعين أو ثمانين شخصاً آنذاك، فكيف يقوّلون

ليوسف إنها أرض العبرانيين، هذا هراء يعبّر عن أمنيات، ولكنه يُظهر التزييف ولن ينطلي على أحد بالطبع». عاد أرمون ينقلب على جنبه، وساعده ميتني على تحريك رجله المجبرة بألواح الخشب. «لقد رأى يوسف في المنام الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ساجدين. فانتهره أبوه وقال: ما هذا الحلم الذي حلمت، هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟ فحسده إخوته وأما أبوه فحفظ الأمر. هكذا في التوراة بدون خلافات، ولكن بعد ذلك يتآمر الإخوة على يوسف، بعضهم يطالب بالقتل وبعضهم بإلقائه في البئر، ومن تذكر التوراة اسميهما بالتحديد هما رأوبين ويهوذا. المهم أنه بعد جهاد للنفس ومقاومة مطالب الزنى وسنوات من السجن تثبت براءة يوسف ويصبح وزيراً وصاحب سلطة فعلية بين الملك والشعب، وهنا استجلب والده وإخوته وعائلاتهم إلى مصر، وأوعز إليهم إذا سألهم فرعون أن يخبروه أنهم رعاة مواشٍ حتى يعزلهم عن المصريين، ويسكنوا وحدهم ولا يختلطون بالمصريين. قال فرعون ليوسف: أرض مصر قدامك في أفضل الأرض أَسكن أباك وإخوتك. وهنا أرسلهم يوسف إلى أرض جاسان بعيداً عن بقية المصريين ليحافظوا على عزلتهم. وجاء في التوراة: ثم عال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه بطعام حسب الأولاد».

«غرباء وبأرض خاصة وطعام بدون مقابل وعدم مشاركة للآخرين في حياتهم».

«هذا ما تقوله توراة المدونين يا ميتني. بالطبع كان الزمان قحطاً، ولكن يوسف تدبر سلفاً منذ سنوات وخزن الطعام والحبوب لاجتياز زمن القحط: وخزن يوسف قمحاً كرمل البحر كثيراً جداً، حتى ترك العدد إذ لم يكن له عدد. كان الطعام يباع للمصريين بيعاً: فجمع يوسف كل الفضة الموجودة في أرض مصر وفي أرض كنعان بالقمح الذي اشتروه. وجاء يوسف بالفضة

إلى بيت فرعون، فلما فرغت الفضة من أرض مصر، ومن أرض كنعان، أتى جميع المصريين إلى يوسف قائلين أعطنا خبزاً فلماذا نموت قدامك، لأن ليس فضة لدينا أيضاً، فقال هاتوا مواشيكم إن لم تكن فضة أيضاً، فجاؤوا بمواشيهم إلى يوسف فأعطاهم خبزاً بالخيل وبمواشي الغنم والبقر والحمير، فقاتهم بالخبز تلك السنة بدل جميع مواشيهم». صمت أرمون وطلب من ميتني أن يقفل فاه لأن الآتي أعظم، وأخذ يقرأ: «ولما تمت تلك السنة أتوا إليه في السنة التالية، وقالوا له لا يخفى عن سيدي أنه قد فرغت الفضة ومواشي البهائم عند سيدي، لم يبقَ أمام سيدي إلا أجسادنا وأرضنا، لماذا نموت أمام عينيك ونحن وأرضنا جميعاً، اشترِنا وأرضنا بالخبز فنصير نحن وأرضنا عبيداً لفرعون، واعط بذاراً لنحيا ولا نموت ولا تصير أرضاً قفراً. فاشترى يوسف كل أرض مصرّ لفرعون، إذ باع المصريون كل واحد حقله، لأن الجوع اشتد بهم فصارت الأرض لفرعون وأما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى حد مصر إلى أقصاه، إلا أن أرض الكهنة لم يشترها إذ كانت الكهنة فريضة من قبل فرعون فأكلوا فريضتهم التي أعطاهم فرعون ولم يبيعوا أرضهم. فقال يوسف للشعب إني قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون، هوذا لكم بذاراً فتزرعون الأرض ويكون عند الغلة أنكم تعطون خمساً لفرعون والأربعة أجزاء الأخرى تكون لكم بذاراً للحقل وطعاماً لكم ولمن في بيوتكم وطعاماً لأولادكم، فقالوا أحييتنا ليتنا نجد نعمة في عيني سيدي فنكون عبيداً لفرعون، فجعلها فرضاً على مصر إلى هذا اليوم، لفرعون الخمس، إلا أن أرض الكهنة وحدهم لم تصر لفرعون».

«كل هذا الظلم حملوه على ظهر يوسف، يستعبد الناس بينما أهله ينعمون في أرض جاسان»..

«بالضبط كذلك إذ كتب في التوراة: وسكن إسرائيل في أرض مصر في أرض جاسان وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جداً».

«هل يفهم المدونون لهذه الرواية بتلك التفاصيل أنهم يتهمون يوسف بالقيام بأكبر عملية خداع واحتكار لقوت المصريين لمصلحة جمع الفضة لفرعون غريب عن البلاد أصلاً؟ لماذا يصنعون تاريخاً وكأنه غابر في الزمن ويجللونه بهذه المكاره؟»

«هذا السؤال نوقش في أورشليم، ولكن همهم الأساس هو خلق رواية تاريخية قديمة تؤكد الانتساب، رواية أصول، ويقول بعضهم إن التشكيل بين السلبي والإيجابي سيعطي صدقية أفضل، بينما يقول آخرون علينا أخذ الرواية المروية المتوارثة التي لم تكن تنظر إلى هذه المتناقضات واللامعقول. هم يعرفون أيضاً نتائج هذا التصرف من قبل يوسف وما سيؤدي إليه. ففي سفر الخروج الذي يتحدث عن الفترة بعد يوسف وهزيمة الهكسوس وطردهم، ومن ثم خروج موسى بالمصريين، قالوا: قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلموا نحتال عليهم لئلا ينمو فإذا صارت حرب ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيتوم ورعمسيس، ولكن بحسب ما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا فاختشوا من بني إسرائيل، فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف، ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل. كل الذي عملوه بواسطتهم عنفاً».

«يمكنني أن أرى فلسفة وحكمة في هذه الرواية، فربما يريد المدونون الإشارة إلى أن الظلم يعود على الظالم بمثله». قال ميتني بينما أرمون يعلن رفضة برأسه ويتأوه وهو يبحث عن مرقد أكثر راحة.

٧

لقد ضاع الدين اليهودي خمسمئة عام تقريباً بعد يوسف حتى ظهرت قصة بطل جديد هو موسى، الذي رمته أمه في النهر، ونجدته عائلة فرعون وتربى في قصورها، وتعلم آداب المصريين وديانتهم. لكن البطل لا ينسى أصوله فيضرب مصرياً لنجدة عبراني، حسب تسمية المدونين الآن، فيقتله، ويراقب الموقف عبراني آخر، وهذا الأخير يظلم عبرانياً ثالثاً، فيتدخل البطل لنجدة المظلوم، وهنا يهدد الظالم موسى بأنه سوف يشي به للفراعنة عن قتل المصري، فيهرب البطل إلى بلاد مدين ويعيش عند كاهنها العربي ويتزوج ابنته وينجب منها.

بين يوسف وموسى يذكر مدونو التوراة قصصاً لبعض الأنبياء تشبه أساطير قديمة سادت بين الأمم، ولكنهم لم يكونوا مؤسسين مثل يوسف أو موسى، ولم تُضف إلى أساطيرهم مستجدات دينية.

إذاً هرب موسى إلى مدين ولجأ إلي كاهنها يثرون، الذي زوّجه ابنته، صفورة، وأنجبت جرشوم. في جو الأمن بعيداً عن قومه وعن مصر، ظهر الرب لموسي، وأخبره عن الانقطاع بينه وبين بني يعقوب، إسرائيل، فقال موسى للرب: ها أنا آتي إلي بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم، فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم، فقال الرب أهيه الذي أهيه، وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم. هذا حسب تدوينات

التوراة، وبهذا تحول البطل إلى نبي بطلب من الرب أهيه، ثم تحول اسم الرب إلى يهوه الذي: قال الرب أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل، يهوه إله آبائكم إله أبرام وإله إسحاق وإله يعقوب، أرسلني إليكم هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكري فاذهب واجمع كبار إسرائيل وقل لهم الرب إله آبائكم إله أبرام وإسحاق ويعقوب ظهر لي قائلاً قد افتقدناكم وما صنع بكم في مصر. فقلت أصعدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحوبيين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً.

هذا ما يريده مدونو التوراة الآن، خلق أساطير من أبطال وأنبياء يزج بهم في قضية عبودية ليبرروا احتلال أرض الآخرين، عبر تأكيد الوعد الذي زج به من الأصل ويتم تجديده، لأناس لم يكونوا في البداية من المنطقة، ثم استعمروا واستغلوا بلاد مصر مئات السنوات، وعندما لفظهم المصريون، وبدل أن يصمدوا هناك أو يحسنوا طباعهم أو يتقبلوا وعد فرعون بوطن في سيناء مصر، يتم التحوير لوطن في كنعان حسب وعد رباني، أي تبرير الواقع الحالي أثناء تدوين التوراة ونسبها إلى الرب وإلى تطبيق من أنبياء لم تثبت حقيقة أي منهم بالاسم أو الذكر على رسم أو لوح أو ذكر صمد على مدى السنوات إلى الآن عكس ما جرى مع آخرين وما زلنا نرى آثارهم.

ثم يطلب الرب من موسى: فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وكبار بني إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له، الرب إله العبرانيين التقانا، والآن نمضي في سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا. المدونون هنا يباشرون استعمال صفة العبرانيين، ويدّعون أن الرب طلب من موسى ومن بني إسرائيل الكذب على الملك ليمنحهم ثلاثة أيام إجازة يذهبون للصحراء للتعبد ثم يعودون إلى العبودية. وبعدما وافق الملك على طلبهم، طلب الرب منهم أن يكذبوا على الشعب المصري وينهبوه: وأعطي نعمة لهذا الشعب في

عيون المصريين فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين. وحسب تدوين التوراة فهذا ما حدث بالضبط كذبوا على المصريين وأخذوا الحاجيات بحجة الاحتفال بها ثم إعادتها، وكانوا يعرفون أنهم لن يعودوا، وكل ذلك بطلب الرب الذي بالطبع يتحمل الذنب. بدل منح الحبكة سمات أخلاقية تنبه المدونون إلى كيفية إقناع الملك بطلب الخروج للتعبد، ووجدوا الحل في الحوارات والأفعال السحرية التي قدمها موسى وأخوه هارون أمام الملك فمنحهم الإجازة الدينية، ثم بالطبع طاردهم عندما عرف أنهم هربوا بما احتالوا. هنا أيضاً لا بد لسحر موسى من إيجاد الحل للتخلص من المطاردين، فتشق عصاه البحر، فيعبرون ثم تغرق المياه المُطاردين.

من الطبيعي أن الهاربين الناجين أرادوا استعمار سيناء، وذلك حسب الاتفاق الفعلي لخروجهم من دون سرقة المصريين أو أفعال السحر التي مارسها النبي، وكلها مأخوذة عن أساطير لأبطال كانوا يمشون فوق الماء ويشقون البحار ويخرجون عيون الماء ولديهم حبال تتحول إلى ثعابين وغير ذلك. ضاع النبي والقوم في سيناء إذاً، وسبب هذه الرواية لتبرير البقاء في سيناء أربعة عقود في محاولة للاستيطان وبناء حياة ومدن من العدم، ولكنهم فشلوا وحبذوا العودة إلى عبادة الأصنام والرجوع إلى مصر حيث الرخاء. ولكن كيف حلّ المدونون معضلة عدم التوجه إلى أرض كنعان؟ قالوا في التوراة، إن الرب هو الذي أضاعهم حتى لا يذهبوا فوراً إلى أرض الفلسطينيين فيرون الحرب ويخافون ويعودون إلى مصر: وكان عندما أطلق فرعون الشعب أن الرب لم يهدهم إلى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة، لأن الرب قال: لئلا يندم الشعب إذا شاهدوا حرباً ويرجعون إلى مصر فأدار الرب الشعب

في طريق بحر... يعني بدل السير في الطريق القريب السهل المعروف إلى العريش وغزة، استداروا إلى الجنوب بمحاذاة البحر حتى جبل الطور القريب من مدين. إذاً لم يصدق وعد الرب بأرض كنعان على الفور، ولذلك أسباب أخرى غير خوفهم من رؤية الحرب. لقد خاطب الرب بني إسرائيل واعداً إياهم: أرسل أمامك الزنابير فتطرد الحوبيين والكنعانيين والحثيين من أمامك في سنة واحدة لئلا تصير الأرض خربة فتكثر عليك وحوش البرية. قليلاً قليلاً اطردهم من أمامك إلى أن تثمر وتملك الأرض.

تعاطي المدونين مع حلّ مشكلة الطعام للقوم نسبها إلى معجزات الرب: فتذمر كل جماعة من بني إسرائيل لموسى وهارون في البرية، وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً لنشبع وأنتما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتوا كل هذا الجمهور بالجوع.. وتكمل الرواية بأن الرب طلب من موسى تطييب خاطرهم ووعدهم أن يتعشوا لحماً ويفطروا خبزاً، وكان اللحم هو طير السلوى والخبز هو المنّ. ثم ملوا المن والسلوى واحتجّوا إلى موسى وتذمروا وطلبوا البطيخ: قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم.. هذا بالطبع أغضب موسى منهم فاحتجّ إلى الرب وأعلن له عجزه عن مجاراة وإطعام القوم، وتمنى على ربه أن يقتله قتلاً حتى لا يرى بلواه معهم.

القائد موسى يقرر من كثرة مشاكل الأتباع أن يترك سيناء، فأرسل فريقاً من الجواسيس إلى أرض الفلسطينيين، وبعد أربعين يوماً عادوا بتقرير متضارب، فقد أشار يوشع بن نون وكالب بن يفنه بالمسير، ولكن بقية الجواسيس نصحوا بالعكس وقالوا ما أخاف بني إسرائيل. قالوا: العمالقة يسكنون في أرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والأموريون يسكنون

الجبل، والكنعانيون يسكنون عند البحر وعلى جانب الأرض وجميع الشعب الذي رأينا فيها أناس طوال القامة، وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق من الجبابرة، فكنا في أعينهم مثل الجراد، هكذا كنا في أعينهم.. طبعاً عندما سمعوا بهذا رفعوا صوتهم بالبكاء، وحاول موسى وهارون تشجيعهم، فثاروا عليهما وهموا برجمهما ولولا تدخل الرب لقتلهم القوم. وهنا يضع المدونون سبباً آخر لبقاء الجماعة أربعين عاماً، فكل يوم استغرقته مهمة التجسس يعادله عام من التيه، كما أن الرب أراد الانتظار حتى موت كل من كان شاباً أثناء هذه الواقعة، ولم يرد الرب بالطبع قتلهم كلهم على الفور حتى ينجبوا غيرهم، ولكن الجواسيس الذين أهبطوا الروح المعنوية قتلوا بالوباء. وبسبب ثورة جماعة بني لاوي وبني رأوبين على موسى وهارون فقد شق الرب الأرض وابتلعت قادة الثورة، وانتشر الوباء، فمات أربعة عشر ألفاً وسبعمئة من الثوار.

على الأرجح إن البطل موسى أصبح بحاجة إلى إرشاد وقوانين لهذه الجماعات التي هامت في الصحراء، فتركهم قائلاً إنه ذاهب إلى الجبل وسيغيب طويلاً. ربما صعد إلى الجبل، وربما ذهب إلى مدين، أو ارتحل إلى بابل أو عاد إلى مصر، فهو الإنسان القوي البنية، جميل المظهر المتعلم والمطالع للأديان والحضارات، إذ تربى في قصر الفرعون. طال غيابه: فلما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا: قم اصنع لنا إلهة تسير أمامنا، لأن موسى الذي أصعدنا من مصر لا نعلم ما أصابه، فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها، فنزع كل القوم أقراط الذهب وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا إلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر، فلما نظر هارون بنى

مذبحاً أمامه، ونادى هارون وقال غداً نعبد للرب فبكروا في الغد، وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة، وجلس القوم للأكل والشرب ثم قاموا يلعبون.

عاد موسى بألواح سجل عليها شرائع للدين الجديد، فوجدهم يعبدون العجل ويلهون، فما كان منه في ثورة الغضب إلا أن ألقى بالألواح وكسرها، ثم غاب مجدداً وعاد بألواح جديدة. محتوى الألواح يشبه كثيراً ما سجل في الحضارات القديمة وهناك نصوص مأخوذة عن شرائع حمورابي، التي اطلع عليها يهود بابل الذين عادت الأجيال الجديدة منهم إلى أورشليم الآن على أثر طلب الملك الفارسي كورش منهم أن يتخذوا لأنفسهم شرائع وقوانين يلتزمون بها حتى يعيدهم إلى أورشليم، ليضمن التزامهم بدين أو بعرف متفق عليه. تقول الرواية الآن: إن موسى فشل في اختراق الأرض من طريق الساحل، فتوجه من سيناء إلى جنوب البحر الميت حيث اختلقوا أقارب هناك لبني إسرائيل هم أبناء عيسو أخي إسرائيل وهم الأدوميون، أو العمونيون والمؤابيون وهم من سلالة لوط. ولأن قوم لوط أبيدوا حسب رواية سابقة، يقول المدونون إن بنتي لوط خرجتا معه، وأسكرتاه وجامعتاه وأنجبتا قومي عمون ومؤاب القاطنين جنوب غربي وشرقي البحر الميت.

إن الحق في هذا التسطير هو صحة الحبكة بين البطل والأقوام الذين طردوا إلى سيناء بوعد فرعوني. فالبطل ابن أصول وعلم وتربية ملوكية وقدرة على القيادة، وقد أخذ معه سبعين مصرياً ليساعدوه في إدارة شؤون هذه الشراذم المتناقضة المختلفة الأصول التي تشترك في كونها فئات عبيد تعودت العمل الشاق والعثور على الطعام في آخر اليوم. وبالرغم من ذلك كادوا يصيبونه بالجنون، ثم مات وأخوه هارون شرق البحر الميت قبل أن تدخل جماعاتهم أرض كنعان.

٨

بمرور الأيام والأشهر على بداية الغزو الفارسي لمصر ووقوع الفرعون بسماتيك في الأسر، أصبحت الروايات التي تصل إلى غزة مبالغاً فيها أكثر مما يمكن لميتني أن يصدقه. آخر هذه الروايات أن بسماتيك استغل عفو الملك الفارسي عنه وسعى يخطط لثورة ضد الاحتلال، وعندما سمع كمبوجي بذلك أمر بسقيه دم الثور فمات بسماتيك بعذاب من جراء ذلك. لم يصدق ميتني هذه الدراما، لأن ملك الفرس قتل ابن الفرعون وبنته وحاشيته واحتل بلاده، وبالطبع لا يمكنه في هذه الظروف وضع بسماتيك في موقع يمكنه من التواصل والتخطيط لثورة، ثم لماذا قتله بدمِ الثور؟ ما كان يشغل ميتني بالفعل هو طريق العودة الذي سيسير فيه الملك الفارسي المنتصر عائداً إلى بلاده. هل سيعود كما حضر، من الطريق الصحراوي، أم سيعود عبر العريش وغزة وأورشليم ومدن الساحل ثم ينعطف شرقاً إلى بلاده عبر بابل؟

لقد اشتهر ذو القرنين، والد الملك كمبوجي، بالتسامح مع الأمم التي يغزوها، وعامل ملوكها وشعوبها بالحسنى إذا صدقوا معه، ولم يكن يجبرهم على اعتناق أي ديانة، فهو الذي أعتق يهود بابل بعد أن اشترط عليهم تسجيل أحكام وأعراف يتفقون عليها لينتهي الخلاف الذاتي فيما بين فرقهم، وطلب منهم الاستفادة مما تحويه مكتبات بابل ونينوى، فقرروا تدوين التوراة. لكن كمبوجي ليس بالضرورة نسخة عن والده، فها هو يمثل بالعائلة المصرية

الحاكمة، ويجمع ذهب المعابد، ولا يوجد انضباط قوي بين آلاف الجند في تعاملهم اليومي مع الشعب المصري الذي عليه إطعامهم والترفيه عنهم. حاول ميتني التخفيف من وقع الفكرة وما قد يحدث إذا عادوا إلى بلادهم عبر غزة ومدن الساحل، أخذ يقنع نفسه أن تعامل الفرس مع المصريين المنهزمين لن يكون مثل تعاملهم مع حلفاء خاضعين لفارس ويدفعون الجزية السنوية مقابل الأمن والأمان. كما أن فارس تريد استرضاء الحلفاء لضمان الجزية والهدوء، لكن هل يفهم الجند ذلك وهل تحكمهم قوانين صارمة؟ بقيت المخاوف معششة في رأسه وكان همّه الأكبر ما قد يحدث لابنته، ولبنات الغزيين ونسائهم.

«الصلوات لداجون وغيره لن تنفع، علينا توقع الأسوأ، والتفكير في حلول يمكننا تطبيقها». قال ميتني لاجتماع مجلس المدينة الأسبوعي بعد أن عرض عليهم مخاوفه، وكان قد طلب طرح هذه القضية للنقاش كخطر محتمل.

«لا يمكننا عمل ما قد يغضبهم، لن نغلق الأسوار بالطبع، نتمنى أن يعودوا من الطريق نفسه الذي سلكوه إلى مصر»..

«هذه أمنيات على الأرجح لن تتحقق». قال أكبر أعضاء المجلس سناً بعد أن قاطع حديث رئيس المجلس. «دعونا نسمع من ميتني ماذا لديه من أفكار كحلول».

«حتى نعيدهم من الطريق نفسه يجب أن يوجد سبب مقنع لهم. تمرد في الصحراء مثلاً أو في البتراء، وهذا صعب جداً ترتيبه خصوصاً وأن النبط حلفاء من الدرجة الأولى مع الفرس في هذه الغزوة». لم يظهر أي تقبل لهذه الفكرة على وجوه أعضاء المجلس، فواصل ميتني الحديث، «يمكننا اللجوء إلى الفعل الذاتي، أي ترقب طريقهم، ونكون قد جهزنا إناثنا ليتحركن

في رحلة دائرية بعيداً عن غزة، ويرجعن بعد رحيلهم.. يمكننا إذا لاحظوا الأمر الادعاء بأن هذا إجراء ديني نمارسه في هذه الأيام كل سنة». لم يظهر الارتياح على أي من أعضاء المجلس، وانتظروا طرحاً آخر من ميتني ولكن العضو الأكبر تنحنح فسكت الجميع وأنصتوا لما سيقول.

«الحل سيكون عبر الأنباط. هم الحلفاء الفعليون للفرس هنا، وهم بحاجتنا أيضاً بعد رحيل الفرس، وعلاقتنا بهم ممتازة». تواصل الصمت بعد هذه المقدمة في انتظار التفاصيل من هذا العضو الذي عايش الكثير من أزمات غزة ومدن الفلسطة الأخرى. «علينا الاستعداد وتحديد كم وكيف ومن أين سنجمع لهم القوت. إذا ساروا عبر العريش فهذا يعني أنهم سيمرون بنا، وحينها نباشر جمع المطلوب لإطعامهم ثلاثة أيام، ونرسل وفداً إلى النبط لنتفق معهم أن تكون الاستضافة مشتركة، ونخبرهم أننا سنقدم الطعام والشراب. ونحدد مكان الاستقبال ليكون جنوب غزة على مسيرة نصف يوم، هذا سيقلل من احتمال زيارتهم الجماعية لنا، وحين يواصلون المسير فلن يعسكروا مجدداً قبل ثلاثة أو أربعة أيام. أثناء إقامتهم جنوب غزة نذهب بوفد كبير لاستقبالهم والترحيب بهم، ونشكر الملك على تخليصنا من الفراعنة وعلى استتباب الأمن، ونبلغه بعد ذلك أننا نزين المدينة ليشرفنا بالمرور بها ومباركتها. هذا ما يجب الاستعداد له وعدم طرح الأمر على العرب الأنباط إلا بعد وصول الفرس إلى العريش».

«ونصلي لداجون أن يعود الفرس من حيث أتوا». قال رئيس المجلس وسط مظاهر الارتياح على وجوه الجميع لهذا الحل.

لم يكن ميتني قد انتهى من طرح الحلول في جعبته عندما قُطع حديثه، لكن الحل بحسن الاستقبال نال إعجابه أيضاً فقال قبل أن يغادر الاجتماع: إن هذا الحل لا يعارض أيضاً الإجراءات الذاتية لمن يتخوف على إناثه.

«وهناك فكرة إضافية قد يناقشها مجلسكم الموقر. أن نخبر اليهود في أورشليم بوصول الفرس إلى العريش ليرسلوا وفودهم لاستضافته عندهم، فهو ابن محررهم في بابل، وإليه يعود فضل تدوينهم الآن للتوراة». لم يعترض أي من الأعضاء على ما قاله وسمع بعضهم يقول وهو يغادر الجلسة: كل شيء في حينه، وآخر يتمنى أن تتولد ظروف تمنع الفرس من زيارة غزة.

لم يطمئن ميتني بشكل تام أن المخطط سينجح، وأن الفرس سيهبطون حيث يُطلب منهم ويمتنعون عن زيارة مدينة كبيرة قريبة عليهم، وتضم في أحيائها ما يتمناه الجنود بعد طول غياب عن أهلهم. لكنه أخذ يذكر نفسه أن ذا القرنين وابنه لطالما كانا متسامحين تجاه الأديان ويحترمان معتقدات الأمم المطيعة لهم، وبالتالي لن يظلما الناس. هذا على عكس ديانات الفراعنة، وتسلط الكهنة على الرعية بأعمال سخرة وسلب للخيرات وضمها إلى أملاك المعابد واعتبارهم الفرعون بمثابة ربهم الأعلى، أو ابن الآلهة. تذكر أيضاً الأساطير اليهودية، وما تحمله في طياتها من تهديد لغير اليهود، وما يُدون منها الآن في التوراة كقوانين إلهية يجب على اليهودي تطبيقها. اقشعر بدنه من فكرة أن يتحكم اليهود في غيرهم، ذات يوم. خطرت له فكرة أن ادعاء الوحدانية الإلهية هو الذي يسبب الحروب بين الأقوام والقبائل لأن كلاً منهم يريد لربه الأوحد أن يكون الأفضل، بينما في الماضي كان تعدد الآلهة رحمة للناس، ففي كل الأساطير كانت الآلهة تتقاتل فيما بينها من أجل فعل شيء للناس أو منعه عنهم. المؤمنون بدورهم كانوا يشكرون هذه الآلهة باحترامهم للتماثيل التي تحول الإله إلى شيء ملموس، وهم يعرفون أن هذا التمثال ليس ربهم ولكنه وسيط يمكن لهم رؤيته والتودد إليه وحمله معهم أو وضعه في بيوتهم كرمز. لليهود، الذين هم في طور تكوين ديانة الآن، تماثيل

يعبدونها كوسيط مع ربهم، ولدى ربهم أيضاً زوجة ولها تماثيل أيضاً، ولكن التوجه الحالي في التجديد الديني هو إلغاء زوجة الرب، والتنازل عن فكرة التماثيل التي حملها أنبياء اليهود معهم، والإقرار برب أكبر يمكن للأنبياء فقط رؤيته أو الاستماع إليه، وهم ينقلون للآخرين ما يريد الرب، ويفسرون معجزاته. لكن مدوني التوراة حالياً لم يتراجعوا عن فكرة أن كل ملك هو نبي بالضرورة، فكل ملوكهم في أساطيرهم المؤلفة كانوا أنبياء يكلمون الرب، ويملكون قدرات ويصنعون عجائب وخوارق، أو يطلبون من الرب شيئاً فيصنعه لهم.

لمع في ذهن ميتني فجأة كم هم أذكياء هؤلاء المدونون اليهود، فهم يجددون دينهم أثناء نقله من المتداول الشفهي إلى المكتوب، ولو لم يفعلوا ذلك فإن المتداول سوف تتراكم متناقضاته ويزول. بل هم يخلقون تفاعلاً بين الحاكم الملك النبي الإنسان، وبين الرب الذي يصبح قريباً منهم، وينسبون إليه الخير الذي يصيبهم، ويعتبرون ما يصيبهم من شر اختباراً ربانياً يراد منه إعادتهم إلى الصواب وإلى التعاليم المكتوبة مهما كانت قاسية على الأغيار. بل إن المدونين منحوا المؤمنين حق التمتع الغريزي، بالقتل والنهب والاغتصاب للأغيار وتحريمها فيما بينهم، ومنحوا الرجال حق التمتع الدائم في كل الأوقات بغريزة الجنس طالما هي بين القوم أنفسهم، فالرجل يحق له تعدد الزوجات والاستمتاع بهن، فأبو الأنبياء تزوج أربعاً، وابنه البكر ثلاثاً وإسحاق واحدة وابناه تزوجا ثلاثاً وأربعاً، وهكذا حتى زوجوا داوود تسعاً وتسعين وولده سليمان ستمئة زوجة وأربعمئة من السراري، وبالطبع يحق للمؤمنين السير على خطى ملوكهم وأنبيائهم، ولو قمع المدونون الغرائز لندر المؤمنون. هذا الحق الذكوري الشرعي مضافاً طبعاً إلى حق الاغتصاب وأخذ السراري في حالة الحرب كجزء من الغنائم.

هذا الحال لا يقتصر على الدين اليهودي، فالكثير ممن سبقوهم والأديان الأخرى الحالية تجعل بعضاً من الطقوس احتفالات باللذة البحتة أو أقله بالجمال والانبساط الحسي، حتى تربط الأتباع بالشيء المقدس. كما يقيم الأتباع الأبنية الفخمة لمن يعبدون، وفيها يمارسون ما يفرحهم وبالتالي يربطهم بدينهم وإلههم. أما اليهود فقد هدم معبدهم الصغير الوحيد، وفيه أو بالقرب منه كانوا يمارسون كل شيء يسعدهم بما في ذلك تقديم القرابين، والآن بعد زواله، أصبحوا يمارسون كل ذلك في بيوتهم أو في الأسواق، واستبدلوا القرابين بجلسات للتأمل والصلاة لربهم يوم السبت الذي أعلنوه مقدساً نقلاً عن الديانة الفارسية، واحتراماً للملك كورش الذي احتل بابل وطالب الأسرى اليهود هناك بتنظيم حياتهم. هكذا سجلوا في التوراة الآن أن كورش هو السيد المسيح، الذي أعطاه السيد في السماء كل ممالك الأرض.

تأخذ الأديـان بعضها عن بعض، الجديد يحور أو يطور أساطير الأسبقين ويدعيها لنفسه ويقر بأنها ولدت من الرحم نفسها، وذلك ليبرر الأصل وينفي بقية الأديان لأنها أخطأت في التفسير. وحتى ينجح الدين الجديد فعليه الحفاظ على فوائد للأتباع وترابط بين حياتهم الاجتماعية ولذاتهم ومواساتهم وبين دينهم، وذلك لضمان الولاء. وحين تعسر المهمة على أتباع الدين ويصبح عبئاً ومقيداً لهم ولا ينفعهم وربما يضرهم تكون ساعة نهاية هذا الدين قد حانت. المميز في الدين اليهودي قيد الإعداد أنه يرفض الآخرين ودياناتهم ولا يريد كسب أتباع الديانات الأقدم إذا تهاوت، إنه دين خاص لقبيلة محددة يمنع عليها التزاوج مع الأغيار أو ضم أمم أخرى إلى دينها هذا.

رغم اتساع الأرض وكثرة الأمم فيها اختار اليهود كنعان كعدو خاص،

ويدونون ديناً وإلهاً خاصاً لتسويد وجه كنعان والترصد له وتهديده ووعيده. لماذا لم يختاروا بلاد الحور وهي أصل نبيهم أبرام وجدّه نوح حسب تأليفهم، وهي بلاد الحوريات والأنهر الأربعة التي تنبع منها وتسيل في بقية الأرض، لماذا اختاروا بلاداً ليست لهم ولم يعيشوا فيها كما فعلوا في مصر، ولا لبن أو عسل فيها مثل منبعهم المزعوم، بل هم يقرّون بكثرة المجاعات فيها وبخروجهم منها مراراً بحثاً عن الطعام في مصر.

يريدون بالقصف الجوي عبر الزنابير، كما سجلوا، إبادة الأمم التي في طريقهم رويداً رويداً، حتى يبلغوا مبتغاهم في بلاد الحور والعسل واللبن والأنهر الأربعة، لماذا لا يجربون التعايش؟؟ ما هي الحكمة من دين كهذا يعادي الجميع؟ كيف يقسمون أبناء نوح إلى أقوام مختلفة ويتنكرون لكل إخوتهم وأبناء عمومتهم من نسل نوح الذين انتشروا في الأرض؟ توالت الأسئلة في رأس ميتني ولم يجد أجوبة سوى ترجيح الظن لديه أن اليهود في الأصل مجموعة مرتزقة ولصوص خرجوا من سجون مصر مع غيرهم من المنبوذين فقرر قادتهم، موسى أو غيره، ربطهم بأفكار وقيم وقوانين لينجوا من الصحراء ولينجزوا شيئاً. ولهذا لم يفهموا سوى قوانين الأنانية والنهب والقتل والاغتصاب، فتصرفوا وفقاً لها وأغضبوا قادتهم. أراد موسى حثهم على عدم البحث على مساعدة من الآلهة أو البشر، لأن الجميع قد تخلى عنهم فعزّز ثقة المجموعة بنفسها إلى حد ما، ولأنهم عادوا مراراً إلى الأديان وعبادة العجل تحرك موسى ووضع قوانين تجعل هذه الجماعات منفتحة على التوجيه الإلهي، بهدف الخروج من المحنة الحالية.

اختلطت الأفكار في رأس ميتني إلى درجة انعدام التركيز على أي منها، كلما يريد تأمل فكرة هجر غزة والسفر إلى أوغاريت تغزو ذهنه نتائج مثل هذا القرار على ابنته وأهله وإخوته وزوجته، هل ينفصل عنها قبل السفر؟ هل

يسافر بحجة العمل أو البحوث ومن ثم يقرر لاحقاً ماذا سيكون؟ ثم تتداخل الأفكار حول اليهود ودينهم قيد التدوين ومئات الأسئلة التي لا يعرف لها إجابات الآن. أفاق على صوت أرمون الذي اتكأ على كتفه وهما يجتازان منطقة الرمال سعياً إلى الشاطئ المبلل بحركة الأمواج الخفيفة. عاد إليه بعض السرور وهو يرى صديقه وقد عادت قدراته الجسدية وتعافى إلى حد بعيد من ذلك الهجوم الشرس الذي أريد منه القضاء عليه ليكف عن معارضة تجمع المدونين اليهود في أورشليم.

«تبدو مشتت الذهن يا ميتني، ولم أنظرك هكذا من قبل.. بإمكانك الإفصاح إذا أردت، فربما أساعدك قليلاً».

«لا يخفى عليك انشغالي بالكثير من الأسئلة حول دينكم الجديد، ولكن الشأن الخاص يؤرقني الآن إلى درجة الفشل في ترتيب أفكاري للتعامل معها». قال ميتني وبقي أرمون صامتاً منصتاً تاركاً لصديقه المجال عما يريد الإفصاح عنه. «أريد الرحيل إلى أوغاريت».

«الرحيل وحيداً أو مع دبورة؟»

«أريد أن تكون معي، ولكنها تحتاج إلى أمها في هذه السن، وربما هذه أكبر همومي. لقد مللت أمها وعنادها الذي صار يظهر لي غباة لم أكن أتصورها».

«هكذا فجأة؟»

«أتذكر الرحلة إلى العريش؟» سأل ميتني صديقه وكف عن الحديث متسائلاً إذا كان من الحكمة أن يخبر صديقه بما حدث، ثم تذكر أن كل عائلة زوجته يعرفون ما جرى، وربما كل إخوته، بل ربما جاره وصديقه هذا ملم بذلك الحدث. «لقد اعترضتنا عصابة نسوية واغتصبتنا». صمت ولم يسمع من أرمون قولاً أو يرى فعلاً. «والحمار نسيبي ورغم كل تأكيدي عليه أن

يلوذ بالصمت، أخبر أخته وبالطبع كل عائلته بالتفاصيل، فجن جنونها وكأنني الجاني وليس المجني عليه.. حياتنا تغيرت منذ ذلك الحين».

«وتشعر أن كل غزة وسكانها وجيرانها تعرف بالأمر، ولهذا ترتبك تصرفاتك وشخصيتك». ضغط أرمون على كتف صديقه وواصل الحديث: «لو أنك أفشيت الأمر لزوجتك ولكل الناس فوراً لما أصبح سراً يزعجك البوح به، فالعصابة اعترضت طريقك، وأنت تغلبت عليها ونكحت قائدتها وأعضاءها».

«كيف عرفت من نكح قائد العصابة، ألا يوجد واحد في غزة لا يعرف التفاصيل؟»

«الأهم من ذلك أن أياً من سكان غزة أظهر لك قلة احترام أو سخرية أو تعليقاً سمجاً، وهذا يدل على حسن أدبهم ومعزتهم لك وتقديرهم للموقف». لم يلحظ أرمون على ملامح صديقه أي تغير للأفضل: «سافر إلى أوغاريت للبحث والنزهة، وعندما تشعر بالشوق إلى غزة ستجدها مكانها بانتظارك. أعتقد أن المسافة أربعة أضعاف الطريق إلى العريش، ويمكنك السفر بحراً». أراد أرمون الخوض في تفاصيل الرحلة حتى يقنع صديقة بقرار الترحال الموقت، وأضاف فكرة خطرت له على الفور: «لو أردتني رفيقاً فسأذهب معك، ولكن بشرط السفر بحراً، لا أريد المرور في مناطق أورشليم واليهود وإلا لن أعود حاملاً رأسي على كتفي». لم ينتظر من صديقه جواباً وانتقل بالحديث إلى نقاشاتهم الدائمة ليستعيده من همومه الخاصة. أعرب أرمون عن مخاوفه من ظهور أديان أخرى في هذه المنطقة إذا استمر تفرد اليهود بفكرة الرب الخاص بهم، وأن تكون هذه الأديان منقحة عن اليهودية، منفتحة على الآخرين وتدعوهم للانضمام، وبالتالي يجب تميز أي دين جديد من اليهودية، وهذا بدوره سيؤدي إلى الصدام على خلفية معتقدات.

«لكن لماذا لا يختلفون مع الأديان الحالية؟»

«لأن الدين اليهودي لم يكتمل بعد ولم ينتشر أو يشتهر، ولم يكثر أتباعه، وكل معاركه المذكورة في روايات التوراة مختلقة وخرافية تهدف إلى خلق وعي جمعي مشترك..التحشيد لليهودية وضدها سيبدأ بعد الانتهاء بشكل أو آخر من التدوين».

«وهل ينتهي التدوين بانتهاء أصدقائك في أورشليم؟»

«طبعاً لا، لأنهم غير متفقين حتى الآن، ولن يتفقوا، والخلافات سوف تستمر لأسباب كثيرة منها انعدام الصدقية لما يدونون وكثرة التجني والسحر والمعجزات. وهكذا فالتدوين والتجديد قد يستمر حتى قرون قادمة، فكلما مروا بتجربة سيدونون ما يتعلق بها تنويهاً، والأنبياء لن يتوقف الإعلان عنهم أيضاً، وسيكون الملك نبياً كما هو الملك عند الفراعنة إلهاً أو ابن إله. الفكرة السائدة لدى الأكثرية بضرورة اختلاق روايات قريبة من الأساطير ولكنها تختلف عنها حتى لا يشارك أي قوم اليهود في دينهم ولهذا اختلقوا أنبياءهم لإمرار حكم وبطولات خاصة بهم، لكن مهمة الملك النبي سوف تتعقد بعد التدوين لأن عليه إنجاز المعجزات وإلا سيصبح خائناً للدين والشعب».

«اليهود إما يزيفون الماضي، مثل أصحابك، وإما يتنبؤون بالمستقبل، مثلك». ضحك الاثنان واستدارا عائدين على الرمال التي تمتص بعض الموج قبل أن ينسحب إلى البحر. «هل كل شيء مما يدونون مخترع أو منقح عن أساطير الأسبقين؟»

«بالطبع لا يا صديقي. المعضلة أن التدوين الآن يخلق روايات تناسب وتخدم الظرف الحالي وتمهد لما يريدونه في المستقبل، هم لا يخمنون المستقبل، وإنما يسجلون لصنعه، وذلك عبر تحديد قوانين الدين، وبناء شخصية المنتمي إليه، ووضع شروط التعامل مع الأغيار، والتركيز على

هدف مركزي». صمت أرمون لحظات وهو يهرب من مياه موجة فاجأتهما. «بالعودة إلى سؤالك، فليس كل الروايات في التوراة مختلقة. فمثلاً قصص اليهود في مصر تقوم على أسس تاريخية، فهناك ظلم وقع في مصر لجماعات متنوعة الأصول والصفات، منهم الهكسوس والخابيرو، وهم من مناطق الشمال أصلاً، إلى جانب عمال سخرة أجانب آخرين. وعندما طُردوا من مصر تصدى لقيادتهم أشخاص يعرفون بلاد الأصل، حيث أنهار اللبن والعسل. ووعدوهم بالذهاب إلى هناك ليستوطنوا كما استوطن الهكسوس في مصر سابقاً. هكذا انطلقوا من مصر صوب سيناء وصعدوا شمالاً مع البحر في أقرب طريق إلى بلاد الحور شمال بابل، وكانوا يتصورون أنهم سيقاتلون كل الشعوب في طريقهم، وأن يهوه سيرسل الزنابير من الجو لتقضي تدريجاً على الشعوب بين مصر وبين هدفهم. ولكنهم تخاذلوا في المحطة الأولى، في سيناء، وخذلوا قادتهم عقوداً من الزمن ثم قرروا استبدال الهدف بشيء أقرب جغرافياً طالما أنه سيخرجهم من سيناء القاحلة. واصلوا الطريق بعيداً عن مدن الفلسطة، ووصلوا إلى البحر المالح، وقطعوا النهر إلى الغرب ودخلوا بلاد كنعان خاضعين لأصحابها. وكانت أكثر من أربعمئة عام قد فصلت بين رحيل يعقوب وأولاده إلى مصر وبين عودتهم حسب ما يسجل المدونون، الذين اعترفوا بأن الهدف للمطرودين من مصر كان بلاد الحور، وعددوا الشعوب بين مصر وبين الحوريين التي ستقتلها الزنابير تدريجاً. الحقيقي هنا هو عملية الطرد للمنبوذين المكروهين من مصر، والبقية تأليفات توضع لتبرير ما جرى لاحقاً، وتبرير النتيجة الحالية، والهدف المنشود. ومن أجل ردع أي تناقض مع المعقول حولوا الخروج إلى إعجاز ديني تم بضربات ربانية لشعب مصر وشق البحر وهطل المن والسلوى من السماء لإطعام شعب الرب، وصنعوا معجزات وألفوا حروباً

وانتصارات على أمل الانطلاق من هذا التدوين لدين وتاريخ وحق في أرض لم تكن هي الهدف في الأصل».

«هذا المشروع سيفشل لمئات الأسباب، وأولها أنهم يبقون أنفسهم مميزين ومنعزلين عن بقية الأمم، إذا ضعف جيرانهم سيصبح تميزهم غطرسة وتكبراً، وحين يكون جارهم هو القوي المهيمن فسيكون تميز اليهود السبب في إذلالهم واستصغارهم. هكذا قد ينجحون موقتاً حتى ينقلب الميزان، فيذهبون ثم يعودون، وهكذا سينتقلون من دمار إلى آخر».

ضحك أرمون عالياً عند انتهاء صديقه من هذا الرأي وأخبره أنه أصبح مثل بعض اليهود يرى المستقبل ويتوقع الأحداث. «نعم نعم أصبحت ساحراً ومتنبئاً. ولكن أخبرني أنت ما هو موقع يهوه بالنسبة إلى اليهود وهل يحاسب ويعاقب ويكافئ بعد الممات؟» واستطرد ميتني موضحاً سؤاله: «للمصريين اعتقاد بالحياة بعد الموت، ومثلهم أصحاب ديانات سابقة، في أوغاريت القديمة مثلاً، حيث كانوا يعتقدون بالحياة بعد الموت ويتزودون بالطعام والأدوات والنفائس في قبورهم».

«الرب يهوه يعاقب ويكافئ في الحياة الدنيا، لا توجد لدينا حياة أخرى، هذا سيدخلنا في عقيدة وروحانيات وفلسفة جديدة مختلفة عما نحن فيه. مثلاً موسى الذي قاد الخروج من مصر، سجلوا عنه في التوراة زواجه من كوشية، أي زوجة حبشية، ولهذا احتج عليه أخوه هارون وأخته مريم، (فقالا هل كلم الرب موسى وحده، ألم يكلمنا نحن أيضاً...) ثم أعلنا الاحتجاج على زواجه، فغضب موسى وانتصر له يهوه وعوقبت مريم فوراً إذ أصيبت بالبرص. توسط لها هارون عند موسى فطلب هذا من يهوه أن يشفيها فشفاها. لو سمحت التعاليم بترك العقاب للحياة بعد الموت لما اتعظ أحد، فبعد الموت قصة أخرى تحتاج إلى إيمان أعمى وثقة بدون أي إثبات، وهذا

لا يناسب اليهود الذين يعشقون كن فيكون، ولهذا قصصهم مليئة بالإعجاز، وكل شيء يتم مباشرة بين الرب والرعية. إنه دين يومي، مثل الأديان والآلهة التي سبقت والأخرى الحالية، وظيفته تسهيل الحياة. كل نعيم يأتي منه مكافأة لعمل جيد مطيع، وكل سيىء يصيب الشخص أو الشعب يأتي نتيجة للعصيان وعقاباً فورياً قد يطول أو يقصر بحسب الالتزام بالتعاليم والعودة إليها. الثواب والعقاب هنا والآن، لا تأجيل لحياة أخرى بعد الموت أو اتكالية عليها. لو ذهب نبي إلى تلك الحياة وعاد من الموت يحدثهم عما رأى لما صدقوه، فهم يتجاهلون الإعجاز الدنيوي بعد أيام من حدوثه. في الأسفار الخمسة لا يوجد ذكر صريح جلي للحياة بعد الموت، والأسفار التي تدون الآن تؤكد مبدأ الثواب والعقاب الدنيوي فقط، إذ تجعل مناط الطاعة والمعصية هو الإثابة والعقوبة في هذه الحياة الدنيا المتمثل في البركات أواللعنات المادّية التي تصيب الإنسان، وتبرز واضحة جلية أهم الدعائم التي ترتكز عليها بركات الرب للمطيعين من بني إسرائيل في تمكينهم واستعلائهم على غيرهم من الأمم، وتأييدهم ونصرهم بتحقيق الوعد لهم، كما أن البركات واللعنات تحل بالجماعة ككل إلى جانب المصير الشخصي سلباً أو إيجاباً في وسط الجماعة». توقف أرمون ثم استدار على عقبيه لجولة جديدة من التمشي المبلول والنقاش. كانت الشمس تميل للغروب وتعكس أشعتها على سطح البحر. «هل تفضل لو كانت تعاليم اليهودية تؤمن بالثواب والعقاب في الحياة الأخرى؟»

قال ميتني بعد برهة صمت مجيباً: «لا أدري إذا كان هذا أفضل أو لا. في الواقع أنا غير مقتنع بفكرة الفراعنة بالحياة الأخرى، فالملك يستعد ويأخذ معه للقبر ما سيبقيه ملكاً عندما يعود إلى الحياة، والفلاح سيبقى فلاحاً والفقير فقيراً، أي سيفيق الجميع من راحة الموت للعودة إلى الشقاء

الذي تركوه. أفضل لو كان الأمر معكوساً تماماً، أي المظلوم يصبح ظالماً لمن ظلمه، والملك يخدم من خدموه، وهكذا. مثل هذا الحال قد يقنع الأغنياء والأقوياء والمتجبرين من تغيير ممارساتهم في هذه الحياة لينعموا في الحياة بعد الموت أيضاً».

«فكرة نبيلة يا ميتني، ولكن اليهود يكرهون مصر والمصريين في الدرجة الثانية لكراهيتهم للكنعانيين، وبالتالي لن يتقبلوا أي تعاليم يشتمّون منها رائحة مصر والاضطهاد الذي عاشوه هناك. ولا تنس أن فكرة كهذه تحتاج إلى نهج وعقيدة مختلفين لا يتناسبان بالضرورة مع تسرع اليهود في نيل مطالبهم. كل ظني أن موسى الراقي المهذب التي تربى في قصر فرعون وتعلم كل الفنون الممكنة، قد حاول تهذيب القوم المطرودين والتأثير فيهم إيجاباً، ولكن طبيعتهم وتركيبتهم فرضتا على القائد أن يتماشى معهم وبالتالي تم إنتاج قوانين جديدة ودين مميز، وهم الآن يدوّنون أشياء أقل أهمية مما هو متناقل عن مرحلة النبي موسى. أي إله يجب أن يروه ويحادثوه ويثبت ذاته لهم باستمرار مستجيباً أو منتقماً. يقر المدونون الآن ببعض المتناقل الشفهي عن حقبة موسى وأنه أوصى بحسن الجوار إذ قال: لأنه أي شعب هو عظيم له إلهة قريبة منه كالرب إلهنا في كل أدعيتنا إليه. وكما ترى يا صديقي فهم يعترفون بآلهة الآخرين ولكن ربهم هو الأفضل، وهذا يدل على شعور بالنقص وخوف من الذوبان جيلاً بعد الآخر، خصوصاً وأنهم كانوا دوماً مستعبدين يعيشون بين أقوام أقوى منهم، وأعتقد أن هذا ما يدفع المدونين الآن لوضع شرائع الحرب، والحث على قتل الأطفال والبشر والحمير حتى لا يفتن اليهودي بهؤلاء عن دينه وربه، وهكذا يحرمون التعايش ويشرعون جرائم الإبادة والقتل الجماعي. هم في الحقيقة أيضاً يخافون الذوبان بين الكنعانيين لهذا سطروا باسم الرب: انظر قد جعلت

قدامك الحياة والخير والموت والشر بما أني أوصيتك اليوم أن تحب الرب إلهك وتسلك في طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه، لكي تحيا وتنمو ويباركك الرب في الأرض التي أنت داخل عليها لكي تمتلكها فإن انصرف قلبك ولم تسمع بل غويت وسجدت لآلهة أخرى وعبدتها فإني أنبئكم اليوم لا محالة تهلكون»..

«وظني أنهم لم يسلكوا طريق الرب الذي يدعون، لأنهم آنذاك في فترة موسى كانوا أقل من أمة بل مجموعة متناثرة وخليطاً من العصابات والقبائل غير المنسجمة فيما بينها يوحدها الغزو والرعي والهجوم على قرى صغيرة وأكل خيراتها ثم المسير والبؤس». قال ميتني وسط إعجاب ظاهر من صديقه لما أصبح يسمعه من قوة تحليل وربط واستنتاج للأمور.

«هذا ما أظنه بالضبط ولم يقتربوا مما يشبه الأمة إلا بعد استقرارهم وسط الأغلبية الكنعانية فأصبحوا يقتبسون منهم أصول الزراعة والتجارة والصناعة وغير ذلك من نواحي الحضارة واللغة وأصبحوا يستجدون إلهة الخصب الكنعانية وعادوا يقدمون قرابين مثل الكنعانيين، وعبد بعضهم بعل وعشتروت تماماً، بينما احترم البقية إلهة الكنعانيين إلى جانب ربهم الخاص. ولأن المدونين يعرفون ما جرى حسب الرواية المتناقلة فقد سجلوا في التوراة الآن: فسكن بنو إسرائيل وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا البعليم والسواري فحمي غضب الرب لي إسرائيل فباعهم كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين فعبد بنو إسرائيل كوشان رشعتايم ثماني سنين»... توقف أرمون وثبتت عيناه على البحر بينما ميتني ينظر إليه ثم استدار بناظريه إلى البحر ليشاهد مئات السفن تبحر شمالاً. استوعبا فوراً أن ملك الفرس قرر العودة من مصر بحراً على متن سفنه، وما استولى عليه

من سفن المصريين أيضاً. تنفس ميتني الصعداء وهو يتأمل هذا المنظر، فقد اطمأن إلى أن الفرس لن يمروا بغزة، ولن يتضرر أحد وخصوصاً ابنته دبورة.

«لو أبحرنا خلفهم في الأيام القادمة إلى أوغاريت».. توقف أرمون ونظر إلى صديقه وأكمل: «..فلن يعترضنا قراصنة أو عصابات ذكورية أو أنوثية».. ثم قهقه الاثنان وانسحبا من مجال الموج وجلسا على الرمال يتمتعان بهذا الحدث ويميزان السفن المصرية النهرية من الأخرى التي استولى عليها الفرس.

«ما هي أكثر المبالغات استهجاناً في التوراة كما تراها أنت كونك غير يهودي؟»

«إنها لا تعد ولا تحصى، فكل أفعال الرب مبالغ فيها، ولكن أجمل الأشياء هي ما فعله شمشون إذ قتل ألف فلسطيني بفك حمار، كيف فعل هذا؟» دب الضحك في الصديقين بشكل متصاعد «يبدو أن الفك مفترس»..

«أو هو طائر».. قاطعه أرمون «..يضربهم واحداً بعد الآخر في مقتل. يهود لديهم شمشون كهذا، يعتقلونه بثلاثة آلاف يهودي ويسلمونه مقيداً إلى الفلسطينيين حسب طلبهم لعقابه على حرق الزرع، فيفك القيود ولا يجد سوى فك حمار يطلقه لقتل خصومه».. نهض الاثنان مهرولين شرقاً بعيداً عن الشاطئ إذ أبصرا قافلة جمال تتقدم بأربعة صفوف من الجنوب باتجاه الشمال بمحاذاة السفن.

«ولو سرنا في إثر هؤلاء حتى أوغاريت فلن تعترضنا عصابات».. قال ميتني وهو يلث ويضحك ويسند صديقه حتى التقيا جموعاً غزية هرولت من المدينة إلى الشاطئ لمتابعة ما يجري.

أحفاد بولس

الرواية الثالثة

١

«سيغضب منك الرب، ستعُاقبين في الدنيا والآخرة، سأغضب منك أيضاً، وسيشعر خطيبك بخطيئتك، ولن يتم الزواج، وستعم الفضيحة ويُدمر مستقبلك، هذا من دون ذكر ما سيفعله بك والدك وإخوتك». قالت الأم لابنتها حين لاحظت الهدوء والانشراح يشمل ملامح وجهها، إذ افترضت أنها عادت تفكر في حبها الأول، وتخوفت أن تكون ابنتها، ماري، قد التقته مجدداً أثناء خروجها المتكرر للعمل أو للتجهيز لعرسها المقبل. لم تكن هذه المرة الأولى التي تهدد مجدلينا ابنتها وتتوعدها بالعقاب والغضب الإلهي. كانت المرة الأولى قبل سنوات حين عادت إلى البيت فرحة تحمل بعض البخور الذي أهداه إليها حبيبها، فتم توبيخها من الأم وأبلغت والدها وعرف إخوتها واعترفت هي فوراً أنها تحب قريبها المتزوج الذي يكبرها سناً. وبّخوها معاً وأخذوا عليها العهود بعدم لقائه مجدداً، وطلبوا منها أن تستغفر ربها وتكثر من الصلاة والدعاء. لم يطلبوا منها الاعتراف للكاهن في الكنيسة ليمسح لها الأخطاء، فهم عائلة محافظة يعتبرون أنفسهم أشد إيماناً وأنصع رؤية من الكاهن. حدثهم والدهم باستمرار أن أجدادهم استقوا المعرفة من أبيهم بولس، الذي اشتغل في صنع الخيام هنا في مدينتهم طرسوس، وكان اسمه شاؤول. جدهم الأول هذا أصبح الرسول بولس، وقد ضبطه الجند

بأمر من القيصر نيرون واتهموه مع مسيحيين آخرين، بإحراق روما وقتلوه كما تقول الروايات المتناقلة، وكان ذلك قبل مئة وثمانية وعشرين عاماً.

منذ ضبطها عائدة بهدية البخور إلى البيت، قرروا الإسراع في البحث لها عن زوج يزيح عنهم همها، وترضخ له بفعل العرف والدين وقوانين الزواج المسيحية. لم تبلغ هي حبيبها بما جرى لها آنذاك، ولكنها غابت عن كل الأماكن التي قد يلتقيان فيها، ولم يُسمح لها برؤيته حين كان يزورهم في البيت، وبالطبع لم يخبروه بمعرفتهم وبغضبهم مما جرى، بل فاتحوه بأهمية البحث لها عن عريس. لقد فهموا من ماري كيف تحبه، أو هكذا ظنوا، ولكنهم لم يعرفوا قط نوع الحب الذي يكنه أوغسطين لها، هل يحبها كأنثى ويتمنى أن تصبح عشيقته، أو يحبها حباً عذرياً، أو حتى لا يتعدى الأمر الاحترام والعطف عليها كقريبة شاهدها تكبر وتنضج على مر السنوات. بالنسبة إليهم كمؤمنين فإن الخلوة بين ذكر وأنثى تؤدي إلى الخطيئة، أما أوغسطين فلا يُقر بالتدين ولا يعترف بوجود الشيطان، ويقول دوماً إنه اختلى مراراً بإناث ولم تكن النتيجة حتى الاقتراب من أي خطيئة. لقد اشترك مع عائلة ماري بأربعة أجداد منذ أيام الرسول بولس، وافترق عنهم بالجد الأخير فقط، وهو مسيحي النشأة أيضاً، ولكنه مثل والده وجده لم يكونوا متزمتين في تطبيق قوانين الدين المتتالية والمتكاثرة يوماً بعد آخر.

التحقيق العائلي الأول معها لم ينتج منه أن أوغسطين قد قبلها أو غازلها بكلام شائن، كل ما في الأمر أنه ودعها بوضع ظهر يده على خدها. نتيجة التحقيق الأخير الذي انفردت فيه الأم لم يؤد إلى نتيجة أفضل، ولكن ماري اعترفت لأمها أنها لا تزال تحب أوغسطين ولا تكره خطيبها وتعهدت التكفير عن الذنب بالصلاة والابتعاد عن حبها الأول هذا، وفي المقابل تعهدت الأم أن لا تخبر بقية العائلة بهذا الاعتراف حتى لا يتسرب

الخبر إلى ميخائيل خطيب ماري فتعم حينها الفضيحة. أكثرت الأم في هذه الجلسة مع ابنتها في توصيف أوغسطين بأنه وثني لا يحترم الرب، وبالتالي لا يراعي الحرام والحلال، وصارت تستشهد بما فهمته من مقولاته وأحاديثه عندما يتزاورون، وذكّرت ابنتها بأنه قال عن الكهنة ورجال الدين إن أي أنثى جميلة يمكنها بغمزة عين إغواء أكثرهم إيماناً وورعاً. كادت ماري تضحك وهي تستمع إلى والدتها، ولكنها تماسكت ولم تعارض أو تعلق إلا بإظهار التأييد عبر الإيماء برأسها. لقد تذكرت بعض ما كان يقوله لها عندما يلتقيان مصادفة أو إثر موعد مسبق عن لقاءاته مع الكهنة والفلاسفة في مدينتهم. لم تكن تستوعب أغلب ما يقوله، وحين كان يبسط لَها الأمور كانت تضحك وتميل إلى تصديقه وتنسى كل تربيتها الدينية التي تمنعها من التبرج والتجمل وتطالبها باللباس المحتشم، بينما بقية فتيات المجتمع ونسائه يعشن بحرية شاملة. بقيت نتيجه هذا التحقيق سراً بين الأم وابنتها مع عزم الأم على تشديد الرقابة وكثرة الأسئلة قبل الخروج وبعد العودة، وتعهد ماري زيادة في الصلاة المفترض أن تنهى عن الأخطاء والمنكر.

لقد أثبت آباء المسيحية الأوائل طوال أقل من قرنين حتى الآن عداوتهم للنساء، والجميلات منهن بالتحديد، فمنذ خروج الدعوة في أعوامها الأولى من الجليل والناصرة وأورشليم إلى بلاد اليونان والرومان، عمت الدهشة رجال المسيحية الأوائل لما شاهدوا خارج فلسطين من انتشار لما يعتبرونه فواحش ومنكرات أدت إلى انحلال في الأخلاق. هكذا اعتبروا أن المرأة هي المسؤولة عن هذه النتيجة، لأنها تملك حرية الخروج من البيت والاختلاط، فأعلنوا أنها الشيطان وأن عليها الخجل من جمالها الذي هو بمثابة سلاح إبليس للفتنة والإغراء، وبالطبع يطالبونها بالانضباط والتخفي حتى تسهل مهمة المؤمن في مقاومة الغرائز، بدل أن يطالبوا الذكور بغض النظر، وتأكيد

إيمانهم بإظهار قوة إرادتهم وتهذيب غرائزهم، ومع ذلك يقولون: إن التدين فطرة تولد مع الإنسان. هذه النظرة إلى المرأة كانت معدومة في المجتمعات الوثنية اليونانية والرومانية لذلك لم تتحول الأنثى لديهم إلى شيطان، بل إن معظم آلهتهم كان إناثاً. أما المسيحية، وهي دين يهوديّ أصلاً، فقد أخذت النظرة التوراتية نفسها على الأنثى، وعندما شاهد المسيحيون الجدد انطلاق الإناث في بلاد اللجوء اعتبروا النساء والجميلات تحديداً: أنهن شرّ لا بد منه، وآفة مرغوب فيها، وخطر على المجتمع رغم أنها محبوبة ولكنها فتاكة.

مجدلينا وابنتها ماري وأوغسطين وكل عائلتهم ليسوا يهوداً الآن، ولكن دينهم امتداد لليهودية أخذ عنها الكتاب والعادات والنظرة إلى المرأة، وأخذ هذه الأشياء من منابعها في فلسطين، حيث المجتمع المحافظ والدين الذي يعتبر الأنثى سلعة تباع وتشترى. تعاليم التوراة، التي أصبحت جزءاً من الكتاب المقدّس ومكملاً للأناجيل، وضعت الأنثى دون الذكر، وكتب عليها أن تحمل وتنجب وتطيع الزوج، ويمكن للرجل بيع ابنته، وتقول التوراة: المرأة التي هي شباك، وقلبها إشراك، ويداها قيود، الصالح أمام الرب ينجو منها. أما الخاطئ فيؤخذ بها... وهناك الكثير مثل ذلك مما يُحترم ويُطبّق من قبل اليهود وانتقل إلى النصرانية، إذ نرى بولس الذي أسس المسيحية خارج فلسطين يُحمّل المرأة خطيئة آدم، ثم يقول: لتتعلم المرأة السكوت في كل خضوع، ولكن ليس للمرأة أن تتعلم ولا تتسلط على الرجل، بل تكون في سكوت، لأن المرأة أُغويت من الشيطان. ويقول أيضاً: الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل، والرجل لم يُخلق من أجل المرأة بل المرأة خُلقت من أجل الرجل.

كان من السهل لمثل هذه الرؤية المتشددة أن تنتشر في فلسطين بين اليهود كونها مقتبسة من معتقداتهم، ولكنهم رفضوا المسيحية. تنكّر اليهود

للمسيح الذي جاء من بطن كتبهم ليقول لهم إنه من نسل النبي داود، وإنه المسيا المنتظر من قبل اليهود بأمر من كتابهم، وقد جاء ليبشر بمملكة الله على الأرض التي ينتظرونها وأنها قريبة. طالب المسيح اليهود بتوقع الانقلاب والثورة التي ستغير العالم وتطهره من الظلم، وطالبهم بالتقرب لله إذا أرادوا احتلال مكان بين المختارين. الكهنة أنكروه، والرومان اعتبروه يدعو إلى نهاية سيطرتهم على فلسطين، وكانت النتيجة صلبه واستكمال تلاميذه للدعوة بين اليهود. حين خرجت الدعوة بفعل بعضهم خارج فلسطين، وفي مقدّمهم شاؤول الطرسوسي، انتقلت عبر تجمعات اليهود الذين يقطنون مدن الإمبراطورية، وكان يهود الشتات أقل تشدداً من يهود فلسطين. ما ساعد أيضاً على هذا الانتشار هو وجود مؤمنين باليهودية ولكنهم محرومون من الانتماء إليها، ووجد هؤلاء الفرصة في الانتماء إلى هذا الدين اليهودي الجديد الذي يسمح لهم بالعضوية، كما انضم إليه بعض اليهود المتمتعين بالمواطنة الرومانية مثل شاؤول الذي تلقب ببولس، وانقلبت حياته في ليلة واحدة من معاد شرس للمسيحية إلى أهم داعية لها. على الشاكلة نفسها انقلب الآن ترتوليان من ماجن داعر إلى فيلسوف مسيحي يقول عن المرأة: إنها ناقصة لنواميس الله مشوهة لصورة الإله الرجل، أي المسيح. وتوجه هذا النصير إلى المرأة بالقول: ألا تعلمن أن كل واحدة منكن هي حواء؟ أنتن المدخل الذي يأتي منه الشيطان. لقد دمرتن بهذه السهولة الرجل، صورة الله.

كان أوغسطين أحياناً يحدّث ماري عن جدهم شاؤول ولكنها لم تكن تصدقه، وتظنه يتجنى على هذا الجد الذي أسس الدين الجديد خارج فلسطين، بل لم تستوعب مقولة أن أصلهم يهودي، وحين أبلغها أن الجد شاؤول قبل أن يسمي نفسه بولس كان من أشد المحاربين للمسيحيين في

طرسوس، وأنه طاردهم وشارك في أسرهم ورجمهم في أورشليم، كانت تتأثر إلى درجة البكاء، فيخفف عنها بالقول إن كل إيمان قوي يسبقه خطأ جسيم، وإن العبر في النتائج. ثم يعود لإخبارها بما لديه من معلومات وعلم حصّله في مدارس طرسوس، ومجالس فلاسفتها ومجادلات المسيحيين مع الوثنيين والأفلاطونيين وأنصار آلهة الإغريق، وبالطبع مع اليهود. كان أوغسطين يرتاح للحديث مع ماري في هذه القضايا على الرغم من جهلها طرق الدين والفلسفة، ولكنها كانت تفوق بذكائها متوسط بقية سكان طرسوس، وكان يقصد طرح هذه المواضيع معها ليرى فرص وآفاق الأفكار القابلة للتصديق والانتشار.

في آخر لقاء لهما أراد أوغسطين محادثة ماري عن ترتوليان الفيلسوف المعاصر والمدافع عن المسيحية وعدو المرأة، وكيف كان لاهياً لعوباً في السابق وأصبح الآن مؤمناً. كان هدف أوغسطين إيصال رسالة إلى حبيبته الصغيرة أن سبب إدمان ترتوليان الجنس سابقاً هو الذي يدفعه إلى كراهية الإناث الآن. لكن ماري طلبت منه تفاصيل عن حياة جدهم بولس، إذا كان لديه من القصص ما يغاير ما سمعته من أبيها عن نشاط الجد ودعوته واستشهاده وهو الذي لم ير المسيح أو يجالسه.

كانا يتمشيان في الشارع المحاذي للنهر صعوداً إلى بحيرة صغيرة وسط المرتفعات شمال المدينة. «جدنا شاؤول»..

«جدنا بولس». قاطعته.

«جدنا بولس».. استجاب لها بابتسامة رضى ومسح بيده على خدها. «كان يهودياً متعصباً لدينه، وسافر من طرسوس إلى أورشليم تاركاً جدتنا عند عائلته الغنية، ليتعمق في الناموس على يد المعلم الشهير غمالائيل. كان ذلك بعد صلب المسيح، ثم مات غمالائيل، وكانت أجواء أورشليم مضطربة

مليئة بالسعار والجنون بين المتنافسين. حتى ذلك الحين كان موقف اليهود يتقبل المسيحيين كونهم يهوداً يحفظون الكتاب، ويُعتبرون فئة يهودية حتى جهر استيفانوس بأن المسيح هو ابن الله وهو المسيا المنتظر من اليهود. هنا اعتبر جدنا مثل آخرين من اليهود أن هذا خروج عن الدين لأن المسيح فشل وصُلب ومات وبالتالي ليس المسيا. وبدأت مطاردة اليهود للمسيحيين في أورشليم وشارك جدنا فيها بنشاط وأمسك باستيفانوس وشارك في رجمه حتى الموت، بينما المسكين يطلب من ربه أن يصفح عن قاتليه، وكان قد قال لمحاكميه قبل الرجم: أي الأنبياء لم يضطهده آباؤكم من قبل. لذلك يُعتبر استيفانوس الآن الشهيد الكامل والأول للكنيسة».

«جدنا الذي أسس المسيحية خارج فلسطين قام بذلك؟» قالت ماري وهي تسحب يدها من يد أوغسطين.

«يا حبيبتي».. قال لها وهو يمد ذارعه ليضمها وهما يتمشيان على ضفاف النهر، ولكنها قفزت بعيداً عن مداه وواصلا المسير وشمس الصباح تضرب وجهيهما. «..عندما غادر جدك بولس أورشليم ظهر له السيد المسيح فعاتبه على أفعاله وأرشده للصواب وأخبره بقصصه ومعجزاته، وهنا تاب جدك وآمن واعتبر نفسه رسولاً وصاحب مهمة عليه تنفيذها خارج فلسطين». نظرت إليه فلم يفهم شعورها حتى تبسمت. فعاد يؤكد لها صحة ما قاله حتى لا تظن أنه يسترضيها بتحويل القصة حسب مزاجها.

«يعني عرف كل شيء عن سيدنا المسيح أثناء ملاحقته للمؤمنين وتعذيبهم، ثم ظهر له سيدنا على الطريق فانقلب جدنا رأساً على عقب من اليهودية إلى المسيحية».

«هذا صحيح تماماً يا ماري».. قال لها وهي تمد أناملها إلى يده. «..منذ ذلك اليوم أصبح يجول ويهدي الناس ويشكل جماعات مسيحية

أينما ذهب حتى سمع به برنابا القبرصي، وهو يهودي ورسول، ولكنه ليس من ضمن الاثني عشر هو الآخر. ذهب برنابا هذا إلى أورشليم وآمن وبعد صعود المسيح باع حقله ووضع ثمنه عند أقدام الرسل ثم عاد إلى قبرص داعياً اليهود ليتنصروا. عندما سمع برنابا بنشاط جدنا بولس انتقل إلى هنا وخرج الاثنان من طرسوس في جولة إلى عدة مدن، أحياناً يستقبلان بحفاوة وأحياناً أخرى يغادران المدينة هرباً بروحيهما حتى كانت نهايتهما المأسوية». نظرت ماري إلى أوغسطين بحزن، فقبّل عينيها لأول مرة، واعتذر عن الوصول بسرعة إلى النهاية، وواصل حديثة منتشياً بمتعة التقبيل، إذ شعر بشفتيه بحركة عينيها تحت الجفن، وامتلأ بلذة تفوق لمس الخدود، ثم عاد للحديث مع رجفة في صوته: «توجها من هنا إلى أنطاكية بسيديه، وكان بها مجموعة يهودية كبيرة استقبلتهما بالترحاب حتى عرفا أن جدنا يدعو الوثنيين إلى جانب اليهود إلى الدين الجديد، فثار اليهود عليهما وفرّ مع برنابا إلى أيقونية المجاورة ولكن بعد أن شكلا خلية مسيحية من الوثنيين. أخذتهما الرحلة إلى أنطاكية سوريا أيضاً، وكان هناك جماعة كبيرة من مسيحيي فلسطين وقبرص ومن وثنيين اعتبروا أنفسهم مسيحيين لا يهوداً متنصرين، وهي الفكرة نفسها التي كان بولس يدعو إليها، أي ضم من يريد الانضمام إلى هذا الدين الجديد. هنا ظهرت مشكلة جديدة كون المسيحيين الجدد من غير اليهود رفضوا تطبيق شرع الختان. اعتبر اليهود هذا تمرداً على الناموس وشريعة ابراهيم وموسى، بينما اعتبر المسيحيون الجدد أن ذلك البند من الشريعة لا يُلزمهم. كبرت هذه القصة وظهرت بوضوح بوادر تميز للمسيحية عن اليهودية، وكان بولس وبرنابا يدعوان غير اليهود إلى الانضمام للمسيحية، بل في أنطاكية استعمل اسم المسيحية لأول مرة، وكان اسمهم في فلسطين شيعة الناصريين. رفض الختان وانتحال التسمية

وقبول ضم الوثنيين، كانت خروجاً آخر على الدين القديم، بينما معظم الرسل في أورشليم اعتبروا أنفسهم يهوداً مجدّدين ويبشرون باقتراب قيام مملكة الرب ويدعون الناس إلى الاستعداد. هكذا سافر بولس وبرنابا إلى أورشليم، واجتمعا مع بطرس وبقية الحواريين الأحياء مثل يعقوب، وساهم برنابا في تلطيف الأجواء بين بولس وبطرس كونه يعرف الطرفين، وحدث الرسل وشيوخ اليهود كيف أبصر بولس الرب في الطريق وكلمه. أخبرهم برنابا بمجاهرة بولس باسم يسوع في دمشق وأنه تحمّل الأذى من اليهود، وشرح لهم ماذا فعلا معاً في أنطاكية طوال عام كامل قبل أن يحضرا معاً إلى أورشليم. هكذا صار بولس يدخل ويخرج من أورشليم مع بقية الرسل. في النهاية تمكن برنابا وبولس من إقناع الرسل بعدم ضرورة ختان من يدخل إلى المسيحية خارج فلسطين، وكانت هناك مقاومة من شيوخ اليهود لهذه الفكرة وأصروا أن من لا يختتن لن يحصل على الخلاص. كان هذا من بين الأسباب التي أدت إلى التحريض اليهودي ضد بطرس وسجنه، بعد أن اقتنع بنفي الختان في الخارج وتقبل فكرة الختن في فلسطين. ظل بولس وبرنابا في أورشليم حتى موت الملك المحلي هيرودوس ومن ثم خروج بطرس من السجن. حين ذلك قررا السفر لاستكمال الدعوة بين الأمم وفق الأسس الجديدة المتفق عليها، وخصوصاً أن فكرة قيام مملكة الرب على الأرض قد بدأت تخبو بعد طول الانتظار».

«آبانا الذي في السماوات، ليتقدّس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض». قالت ماري بعد أن استردّت أصابعها من يد أوغسطين، وذكّرته أن هذا النص دعاء من الإنجيل، وبالتالي سيتحقق ما نادى به المسيح من قيام مملكة الرب على الأرض.

لاحظ أوغسطين أن حبيبته الصغيرة لم تنظر إليه، وفهم أنها لا تؤيد

رأيه في خبوّ فكرة قيام مملكة السماء على الأرض، ولم يرغب في إزعاجها بتأكيد رأيه حتى لا تنقطع اللقاءات بينهما، وخصوصاً بعد أن تركته يقبل عينيها. «يا حبيبتي قصدت القول إن جدنا بولس اعتمد على أسس جديدة في دعوته حتى لا تموت الفكرة بمرور الزمن بانتظار قيام مملكة الرب على الأرض، وها نحن بعد حوالى مئتي سنة ننتظر». كتفت يديها تحت صدرها وزمّت شفتيها، وأضاف: «بالفعل لا يوجد سبب لأن تزعجي نفسك لأن فكرة قيام مملكة الرب على الأرض طرحها يوحنّا المعمدان، وسمعها عيسى منه في صباه قبل أن يعرف أنه المسيح». صمت، فنظرت إليه مستفسرة بعينيها. «نعم، هذا ما حدث وهو مدوّن في الإنجيل الإصحاح الثالث. هل أوجز لك المحتوى؟» وافقته بإيمانه وهي غير مصدقة ما قال. «بعد أن عاد عيسى وأبواه من مصر سكنوا الناصرة وتجولوا في الجليل. تخطى عيسى مرحلة الصبا وسمع عن يوحنّا المعمدان الذي يعمّد الناس في نهر الأردن ويصفه اليهود بالصوت الصارخ في برية يهودا. ذهب إليه عند الأردن وسمعه يقول للناس: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات. ويقول الإنجيل إن لباس يوحنّا كان من وبر الإبل ويأكل جراداً وعسلاً برياً، وخرج إليه الناس يتعمدون ويعترفون بخطاياهم، فلما رأى كثير من اليهود الفرّيسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم: يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي فأصنعوا ثماراً تليق بالتوبة... أنا أعمدكم بماء التوبة ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى منّي الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه، هو سيعمدكم بالروح القدس والنار... هذا مسجل في الإنجيل الذي كتب فيه أيضاً: حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنّا ليتعمد منه، ولكن يوحنّا منعه قائلاً أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ؟ فأجاب يسوع وقال له اسمح: الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل برّ، حينئذ سمح له. فلما

اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وأتيا عليه وصوت من السماوات قائلاً «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت». عندما توقف أوغسطين عن استذكار نص الإنجيل هذا وجدها تنظر إليه بأعجاب وتحكّ حجاب رأسها.

«ذاكرتك قوية إذا كان هذا نصاً من الإنجيل».

«أنت عنيدة بشكل لا يليق بجسمك ومنظرك الوديع الجميل. إنها سلسلة من أنبياء اليهود ورسلهم، وجدّنا بولس هو صاحب فكرة وتطبيق نشر الدين الجديد بين الأمم وفتح أبوابه لغير اليهود، ولهذا أراد تمييز المسيحية منذ البداية برفض الختان. بدون الذين نشروا الدين خارج فلسطين كانت الفكرة ستذوب بين اليهود».

«يعني سيدنا المسيح لم يدعُ إلى دين جديد؟ كان فقط يطلب من اليهود الاستعداد لقيام مملكة السماء على الأرض، وهذا الانتشار عبر الأمم جاء بفعل جدنا بولس؟» سألته باستغراب ظاهر وكانا قد وصلا إلى شاطئ البحيرة، فاستدارت واستدار معها ممتعضاً. كان يتمنى أن يختفيا بين الأشجار حول الماء فربما رضيت بقبلة جديدة بعيداً عن الأعين.

«يبدو أن حواراتنا الجدية هذه ستحرمني على الدوام من ضمك أو تقبيلك». نظر إليها لسماع أو لرؤية ردة فعلها، فشاهد احمرار وجنتيها وإسبال رموشها، وابتسامة خجل لم يفهم منها تمنعاً أو قبولاً. قرر الاستمرار في الحديث بعد أن أخذ وعداً للقاء بعد يومين بالضبط، ووافقت أن يجولا حينها بين الأشجار حول البحيرة. «كان سيدنا المسيح متردداً في دعوته للأمم، فهو يهودي جاء يبشر بالخلاص لليهود ولغيرهم وليس لنشر دين جديد. في تلك الأثناء قبل المسيح وبعده انتشرت القناعة بين اليهود باقتراب موعد المسيا المنتظر منهم. هكذا جاء يوحنّا قبل المسيح مبشّراً باقتراب

حلول المسيا الذي سيملك العالم هو ومريدوه من اليهود. وبعد سيدنا عيسى فوراً ظهر ثوادس وادّعى أنه المسيا وحرض اليهود على التمرد، فقطع الوالي الروماني رأسه. وبعده بعشرين عاماً ظهر مناحم مدعياً أنه المسيح وتظاهر بالصلف والأبهة، فقتله بعض من مريديه وهو في طريقه إلى الهيكل لوضع إكليل المسيح على رأسه. كان بعض اليهود في فلسطين يصدّقون كتابهم بحتمية ظهور المسيح وبالتالي ناصروه واستعدّوا للتمرد على الإمبراطورية ظناً منهم أنهم عائدون بعد الموت قريباً ليحكموا الأرض مع المسيح. أما برنابا وجدّنا بولس ورسل غيرهما فقد خرجوا من فلسطين إلى الأمم يدعون إلى دين جديد كفرع من أصل يهودي، ولكنه يقبل انضمام الجميع إليه، وألغى الختان وألغى عطلة السبت، واستفادوا من مقولات سيدنا عيسى ولكن في إطار مستقل، وخصوصاً بعد اشتراك اليهود في التصدّي له في حياته والعمل على صلبه ثم ملاحقة أتباعه». وصلا في سيرهما إلى الشارع المعبّد قبالة المسرح الروماني، حيث كثرت حركة الناس مع اقتراب موعد الظهيرة.

«أعرف كيف استشهد جدّنا، ولكني لا أعرف كيف استشهد برنابا، وكيف تطورت علاقته بجدي بعد مغادرتهما أورشليم». ابتعد عنها قليلاً لاقترابهما من مدرسة الفتيان التي يعرف الكثير من معلميها، فهم الآن في وسط طرسوس التي يقطنها ربع مليون نسمة ولا يريد أن يراهما من يعرفهما في تقارب يوحي بحب.

«في الحقيقة، يا ماري، لا أحد يعرف الآن كيف مات جدنا بولس». توقف عن الحديث ونظر إليها ليرى وقع كلماته، فإذا بشفتيها تشكلان دائرة. راعى أنها مدهوشة واستبعد فوراً ما ومض في ذهنه، وعاد ينظر إلى الأمام مواصلاً حديثه: «كان جدك بولس قيد الإقامة الجبرية في روما طوال آخر عامين من عمره، ولكنه كان يتنقل بحرية ويستقبل مريديه في مقر إقامته، ومن ثم اختفى فجأة. بعض

محبيه قالوا صعد إلى السماء، وغيرهم قالوا حرر نفسه من الإقامة الجبرية فخرج ولم يعد، وهناك من قال، بعد سنوات على اختفائه، إن الرومان قطعوا رأسه، وهذا مستبعد لأنه كان مواطناً رومانياً يتمتع بكل الحقوق، ولهذا أصلاً لم يتمكن الوالي في أورشليم من قتله بعد إلقاء القبض عليه في زيارته الخامسة». أعاد النظر إليها واقترح أن يخبرها بالرواية حسب زمنها، فطلبت منه الايجاز لاقترابهما من نقطة اللقاء والفراق أمام الهيبودروم، حيث تقام مسابقات الخيل. «عندما غادر برنابا وبولس أورشليم انضم إليهما مرقس في الرحلة إلى أنطاكية، ومرقس هو ابن أخت برنابا، ولكنه لصغر سنّه لم يتحمل الأعباء والضغوط الشديدة والمقاومة التي تلقوها أثناء الدعوة، فقرر مرقس العودة إلى أورشليم حيث تقطن أمه مريم، وكان منزلها هو أول مقر كنيسة في أورشليم. بعد سنوات من العمل معاً عادا إلى أورشليم حاملين معهما معونات من تلاميذ أنطاكية إلى الإخوة الساكنين في اليهودية، حيث عانت البلاد مجاعة في ذلك العام. ثم قررا السفر مجدداً، وأراد برنابا أن يأخذ معه ابن أخته مرقس مرة أخرى، ولكنّ بولس عارض واعترض على اصطحاب مرقس، فافترقا وذهب برنابا ومرقس إلى قبرص بينما عاد بولس إلى أنطاكية ومنها إلى بلاد أخرى». أسرع أوغسطين في الحديث وتباطأ في المسير وقال: «في سلاميس بقبرص قبضوا على برنابا بتحريض يهودي للملك هيباتيوس الذي لم يحكم عليه وتركه في سبيله، فأخذه اليهود وجرّوه في ملعب خيل كهذا الذي نلتقي ونفترق عنده. رجموه وحرقوه فأخذ مرقس جسده ودفنه هناك ووضع على صدره كتابات من تأليفه. كان ذلك عام ٦١ للميلاد في السنة السابعة لحكم نيرون». توقف أوغسطين وماري، ووعدها بإكمال الأحداث وما جرى مع جدّهم الأول بولس عندما يلتقيان بعد يومين، فوعدته بالحضور، وافترقا بعد أن مسح بيده على أذنها من فوق الحجاب ثم على خدّها.

٢

انتقل الخبر من أمين المكتبة عبر الواقفين في الطابور ينتظرون دورهم لتسلّم ما يريدون من كتب، بأن المحامي ترتوليان وصل إلى طرسوس منذ أسبوع قادماً من روما ليعمل في جامعتها، وأنه سيلقي محاضرة غداً هنا في قاعة المكتبة. هذا لا يبرّر إطالة الانتظار في مكتبة مدينة مثل طرسوس، لكنّ الجمهور كان يستمعَ إلى معلومات عن هذا المحامي ويسأل عن خلفيته ويتبادل ما يعرف عنه من معلومات. هكذا أخذ الطابور في التمدّد. كان أوغسطين يعرف بعض الأمور عن ترتوليان، ولكنه لم يشاهده أو يستمع إليه من قبل، فأنصت حتى أصبحت حصيلة معلوماته لا بأس بها، وتؤهله لطرح بعض الأسئلة المحرجة في محاضرة الغد إذا لزم الأمر.

تحولت طرسوس، بعد أن احتلها الرومان قبل ميلاد المسيح بستة عقود، إلى مدينة علم وتجارة تضاهي أثينا والاسكندرية وروما. آنذاك جاءها الغزو الروماني في خلال حملة مطاردة بحرية للقراصنة، وطوال القرنين المنصرمين أصبحت المدينة مزدهرة في الفكر والفلسفة والتعليم، وتوصف عن حق بمدينة جامعية. لقد كتب المؤرخ سترابو عن المدينة في القرن الأول: إن أهل طرسوس نذروا أنفسهم لدعم العلم بشكل عام وليس للفلسفة فقط، ففاقت المدينة أهمية أثنيا، بل الاسكندرية أو أي مكان آخر توجد فيه مدارس ومحاضرات وفلاسفة. بعد المرحلة التي تحدث عنها

سترابو تكوّنت هنا الكثير من مدارس البلاغة والرياضيات وعلوم المجادلة التي استفاد منها الرسول بولس ابن المدينة في دعوته الدينية لاحقاً. وكان مُعلّم ومستشار القيصر أوغسطس قد ولد وتعلّم في طرسوس، وهو أثينودورس الذي عاد إلى مدينته في عام خمسة عشر قبل الميلاد ونشط في تنظيم إدارتها المدنية.

ما سمعه أوغسطين في طابور المكتبة عن ترتوليان يفيد بأنه ولد في قرطاجنّة قبل اثنين وثلاثين عاماً، وأنه اعتنق المسيحية قبل عامين فقط، وعاش قبل ذلك في جو وثني، وكان والده قائد فرقة رومانية في أفريقيا. ثقافته لاتينية ويونانية ويهتم بالفلسفة والشعر، ولكنه درس القانون وأصبح معلماً في البلاغة.

«ماذا ستقول في تقديمك ترتوليان للجمهور غداً؟» بادر أوغسطين أمين المكتبة عندما وصل إليه. كان يريد السؤال عن أوراق تفيد بكيفية موت بولس أو بطرس، ولكنه طرح هذا السؤال على الرجل لمجاراة التطورات.

«لم أفكر في تقديم مطوّل، فقط اسمه ووظيفته وترحيب سريع به». أجاب الأمين، ثم سأل أوغسطين إذا كان يلزم أكثر من ذلك. كان أحدهما يعرف الآخر جيداً، ولكن ليس إلى درجة الصداقة، وإنما الاحترام المتبادل.

«الزائر غريب عن مدينتنا، وأظن أنه مغرور بنفسه، وخصوصاً أنه ابن سنتوريو وقادم إلينا الآن من روما إلى مدينة ليس كل سكانها مواطنين رومانا. لو كنت مكانك لأسمعته موجزاً عن مدينتنا، وسيكون هذا تذكيراً للحضور أيضاً بواقعهم وموقعهم». وافق أمين المكتبة فوراً على الفكرة وسأل أوغسطين إذا كان بوسعه الآن مساعدته في تسجيل عناوين ما يمكن قوله. اتفقا على العمل فوراً، وطلب الأمين من أحد مساعديه أن يخدم الجمهور، بينما انتحى الاثنان جانباً وجلسا يتذكران ويسجلان.

«طرسوس مدينة منفتحة منذ القدم». قال أوغسطين بينما أمين المكتبة يسجل ملاحظات. «بعد اغتيال يوليوس قيصر تقاتل جنرالاته على تقسيم الإمبراطورية، وقد اهتم مارك أنتوني بالمدينة وفيها التقى الملكة المصرية كليوباترا وعقد معها التحالف». تبسم الأمين وهو يتذكر هذه المعلومات وذهنه يخطط كيف سيصوغها في خطابه. «لا تنسَ التذكير بأن المدينة مفتوحة دينياً، ويمكنك إضافة أن جيوش الإمبراطورية عندما يحاصرون مدينه يطالبون آلهتها بالاستسلام لهم قبل أن يهاجموها، ومنذ ذلك الحين والديانات تتعايش في مدينتنا. ومن بين تشريعاتنا التي فرضها يوليوس وأغسطس ونعتز بها: حماية الحريات الدينية، وهكذا أعفى اليهود ثم المسيحيين من طقوس معينة، وأهمها عدم تطبيق قانون الحظر للجمعيات السرية عليهم، وأعفوا من الخدمة العسكرية، ولكن عليهم دفع ضرائب في المقابل. نستضيف مجموعة كبيرة من الأديان والآلهة، أديان الرومان وآلهتهم وأديان فارس ومصر ومن يعبدون قوى الطبيعة والسحر، وحتى ميثرا التي يحبها القراصنة، كلهم في أمان هنا». تروّى أوغسطين بعد أن أشار الأمين إلى أهمية التنويه بالوضع السياسي، ثم قال: «طرسوس عاصمة مقاطعة سيلكا، منحها مجلس الشيوخ وضع المدينة الحرة التي تحكم نفسها بعيداً عن حكم المقاطعة، ومعفاة من دفع الضرائب، ولهذا تضاعف تعداد السكان والحرفيين والتجار الذين انتقلوا للحياة فيها، وسكانها مواطنون رومان إذا أثبتوا انتماء أربعة أجيال متتالية منهم إلى المدينة».

«هذا ممتاز وكثير بعد أن أصوغه بشكل خطابي، ولكن لا بأس من الإشارة إلى واقع وأهمية التعليم الذي سيعمل فيه ضيفنا».

«نحن مدينة تجارة وجامعة منذ أيام الرسول بولس الذي كان يعمل في صنع الخيام قبل أن يغيّر اسمه من شاؤول اليهودي إلى بولس المسيحي.

يأتي المعلمون والطلاب إلينا من بلاد الإغريق ومصر وأفريقيا وروما، يجلبون ثقافتهم وأديانهم، ويتعلمون ثقافتنا. لكن الشأن الأهم بصدد التعليم هو تفاني التجار والأغنياء في دفع التبرعات لإقامة المدارس والجامعات، ويشجعون أبناء المدينة على الخروج للتدريس في أثينا وورودس والاسكندرية وغيرها، يُعلّمون الفلسفة والبلاغة والقانون والرياضيات والفلك والطب والجغرافيا وعلم النبات».

«هذا كثير وكافٍ.. كيف أخدمك الآن، فأنت لم تكن تعرف أن ترتوليان سيحاضر هنا غداً».

«هذا صحيح». قال أوغسطين وشرح لرفيقه أنه يحاول معرفة كيف انتهت حياة كل من بولس وبطرس، كون الأناجيل لم تتطرق إلى ذلك والمعلومات المتداولة متناقضة ومتضاربة.

«حسب ظني ومعرفتي بما لدينا في المكتبة، فلا يوجد ما يعطي إجابات شافية. ولكن لماذا لا تحضر غداً وتسأل ترتوليان، فهو متنصّر حديثاً وربما اطّلع في روما على ما يفيد بهذا الصدد، لأن الروايات تقول إنهما قتلا في روما». كان أوغسطين مُلمّاً بالكثير من الإشاعات، فبعضها يقول إن بطرس وبولس عذّبا، وصلب بطرس مقلوباً وقطع رأس بولس، ويقال إن بطرس لم يدخل روما قطّ وبولس اختفى من الإقامة الجبرية قبل إلقاء القبض عليه وصعد إلى السماء.

«سأرى وأحاول الحضور غداً». قال أوغسطين وهو يودّع أمين المكتبة الذي أعاد التمني عليه أن يحضر غداً وسط النهار. فكّر أوغسطين في زيارة بيت ماري ودعوة والدها إلى حضور الاجتماع حتى تفهم هي أنه لن يتمكن من اللقاء معها، ولكنه عدل عن الفكرة مفضلاً رؤيتها عن الاستماع إلى معلم بلاغة كف قبل عامين عن حياة الخلاعة. كانت نشوة تقبيل عينيها تعاوده

كلما اختلى بنفسه، فيتخيل ما سيصيبه من سعادة لو سلمته ماري شفتيها النضرتين. بين الحين والآخر ينفض رأسه بقوة لإبعاد هذه الأفكار حتى لا يتطور تخيله لعلاقتهما بسرعة إلى ما لم يكن يفكر فيه قبل ذلك.

انطلق إلى ورشة صناعة الخيام التي ورثها عن والده بالإضافة إلى أكثر من خمسمئة غنمة سوداء يُجز صوفها مرتين سنوياً، ويشتري المزيد مما يجزه الرعيان المنتشرون حول المدينة عن غنمهم، وذلك لتوفير المادة الخام لصنع الخيام السود. أفضل أنواع خيام الشعر السود المنتشرة في آسيا وسوريا وفلسطين تُعرَف بالطرسوسية. إنها بيوت متنقلة تحمي من حرّ الشمس وبرد الشتاء، تستعملها القوافل والبدو الرحل والجيوش. ينسج عمال أوغسطين سلعاً أخرى من هذا الصوف مثل العباءات وسجاد للأرض وأغطية للجدران، بل صنعوا منها أكياساً لنقل الموتى.

لم يتمكن من تركيز ذهنه على أي شيء آخر. كلما تفحص ذهنياً مشكلة ما في مجال العمل عادت أفكاره إليها، وقاوم بمحاولة تخطيط ماذا قد يقول غداً إذا ذهب إلى اللقاء في المكتبة، لكن ماري تعود لغزو أفكاره. هكذا جلس على مقعد حجري يطل على نهر السندس الذي يقطع طرسوس نصفين، وقرّر أن يشغل نفسه بها، ولكن من زاوية معرفة سبب حبه لها، وآفاق هذا الحب. سأل نفسه إذا كان يحبها بسبب فرق السن بينهما وإذا كان هذا يعني شهوة جنسية؟ ليس كذلك لأن ممارسة الجنس متاحة في المدينة مع من هنّ أجمل منها وأصغر سناً. هل يحبها كونه لم يرزق أطفالاً من زوجته، وبالتالي يتمنى بدون شعور أن تحمل له أطفالاً؟ كل الحيوانات ذكوراً وإناثاً تتفحص رفيقها قبل التزاوج بحثاً منها عن الصالح لإنتاج أجيال جديدة قوية، فربما تصرّفه يحمل طباعاً انفطر عليها الإنسان مثل الحيوان، ولكن الأول يهذبها ويكتمها بينما الثاني لا يبالي فيختار ويجدد خياراته كلما

لزم الأمر. فكر في احتمال أنه يحبها لأنها مختلفة في لباسها عن الأخريات، لكن اليهوديات يلبسن مثلها ويتحجبن، ومع ذلك لم يُعجب بمسيحية أخرى أو بيهودية. توقف عن الاسترسال وتساءل إذا كانت تحبه أصلاً بالأسلوب نفسه؟ ثم سأل نفسه كيف يحبها وماذا يريد منها وهو المتزوج وهي المخطوبة؟ هل يفكر كل الناس هكذا في هذه الظروف ولكنهم يكتمون ما يدور في خَلَدهم؟ تذكر أنها لم تمنعه من تقبيل عينيها، ولا تعارض تحسسه ليديها أو وجنتيها، وهو يعرف من لغة جسدها أنها تحبه، إذ تحمرّ وجنتاها حين يسمعها إطراءات لجمالها، ويتدلل جسدها ويتمايل عندما يمدح ذكاءها، وتبتسم له كثيراً ويظن أن نظراتها توصل إليه ما يتمناه من الرسائل. لكن كل ذلك قابل للتزوير والإنكار، ولا بد من سؤالها والحصول على إجابة واضحة منها: أتحبه عذرياً أم الأمر قابل للعشق؟ استنتج من أفكاره هذه أنه لا يريد الاكتفاء بالحب العذري، فلو أراد ذلك فقط لما قرر أن يسألها عن غيره ولانتظر أن تُقدم هي على الخطوة التالية نحو العشق. تبسّم وهو يحدق إلى جريان ماء السندس، إذ استهزأ بفكرة الحب العذري وتذكّر أنه طالع مقولات بعض الفلاسفة بأنه لا يمكن أن لا يميل محبوب إلى حبيبه جسدياً، فالروح والجسد لا يفترقان، وعيون المحبين تشهد باشتياقهم بعضهم إلى بعض، وإنما يكتمون أمرهم ويتجلدون على مضض. كما أنهم على رأي الشعراء يتزاورون ليلاً في الأحلام ولا يرقد أي منهم إلا يرى نفسه لحبيبه مضاجعاً. قال لنفسه بأن من يريد الحب العذري بوسعه حب البحر والنجوم والقمر، أو حتى أجمل نساء الأمم، أو يصبح حبيباً عذرياً لبعض إناث الآلهة.

رقد باكراً وأغمض عينيه ولكنه لم ينم، أراد أن يحاسب نفسه من منطلق ديني، فهو يعرف أن شرائع اليهود والمسيحية متشابهة في هذا المجال، وأنه

يمكن تسويغ المقولات بليبرالية أو تحفظ أو تشدّد إلى الدرجة التي يُمنع فيها على الأنثى أن تُظهر شيئاً من جسدها، ناهيك بمرافقة غير المقربين من أهلها. حسب رؤيتهم يحق لأهل ماري أن يعترضوا على اللقاءات لو عرفوا بأمرها، وخصوصاً أنها باحت لهم في الماضي بحبها له. لكنه غير متدين ولا تهمه شرائع اليهود والمسيحيين بهذا الصدد، إنما تحكمه أخلاقه، ومن هذا المنطلق يناقش نفسه حول الصواب والخطأ، أو الأحرى حول درجة الخطأ في تصرفه كونه لا يحمل أيّ ذرة من الصواب، فهو متزوج وهي مخطوبة، وهناك فرق السن الذي يقاوم أي آفاق لتقارب شرعي مستقبلي محتمل بينهما. لو اقتنع بالحب العذري لأمكنه تقبل الأمر حتى لو تطور الحب بينهما إلى القبل، أما ما أصبح يفكر فيه فلا يجوز وفق أي شريعة أو قانون أو طبع أو فطرة. تباً للحب، قال لنفسه من دون أن يتقلب في فراشه حتى لا تشعر زوجته بقلقه. النظرة تؤدي إلى اللمسة، وهذه إلى قبلة على الخد، ثم تمنيات بقبلة شفاه، وبالتأكيد لن تكتفي الشهوة بذلك. التداني بالعناق يبدو للمحروم غاية الطلب، ثم يلثم الفاه لإزالة الشغف فإذا بالهيمان يتصاعد لأن الشفتين عجزتا عن إطفاء الغليل الذي يتطلب امتزاج الجسدين والروحين. وماذا إذا تم هذا الامتزاج كنزوة، هل يزول الحب العارم ليعاود التجدد بعد حين، أو يضعف ويسهل التعامل معه عندما لا يصبح نادراً ممنوعاً ولكنه يبقى محرما؟ لم يصل إلى نتيجة من هذه الأفكار ورأى أن يتمهل ويترك الأمر لها لتحدد خطوات التقارب بينهما.

انتصف النهار ولم تحضر ماري في الموعد المتفق عليه، شعر بقلق لأن هاجس معرفة أهلها بالأمر لا يفارقه كلما تأخرت عن موعد بينهما، وحين تخبره أنها توعكت أو جاءهم زوار أو حضر خطيبها لزيارتها، يرتاح كون علاقتهما ستتواصل. رأى أن يتحرك إلى المكتبة ليستمع إلى ما سيقوله

ترتوليان، أما ماري فسيتربص بها في مواعيد خروجها للتسوق أو يوم الأحد حين تذهب مع والديها وإخوتها إلى الكنيسة. لو كانت تقرأ وتكتب لوجد من يحمل إليها ومنها رسائل لتجديد اللقاءات، أو لكتابة ما يصعب قوله وجهاً لوجه، لكنها أمية مثل الغالبية العظمى للإناث من كل الملل وأتباع كل الأديان. قلة قليلة من الأعيان يُسخرون معلمين لبناتهم بضع سنوات فقط، أما الصبيان فالمجال مفتوح أمامهم بدون قيود.

وجد أوغسطين مقعداً شاغراً في الصف الأخير في قاعة المكتبة، وكان ترتوليان على ما يبدو في بداية حديثه، إذ لا يزال يتحدث بحيادية وصوت جهوري، ولكنه هادئ يتناسب مع تقاطيع وجهه المستدير ولحيته الضخمة المهذبة من أطرافها على شكل مستطيل. «... حقاً إنني أعرف أن الجسد نفسه الذي مارست به الزنى هو الذي أبذل الآن الجهد ليبقى في عفته»... خمن أوغسطين أن الرجل يتحدث عن الدوافع التي أدت به إلى تغيير طريقه من الخلاعة إلى العفة كما يقول. «...أفضل في أغلب الأحيان ألا أتحدث عن تلك الأفعال حتى لا أحيي ذكراها في نفسي». تقبّل أوغسطين المعاني بايجابية من هذا الرجل الضخم الذي اشتغل أيضاً في رياضة المصارعة في المسارح وهو الآن أبعد ما يكون شكلاً وتخيلاً لرجل صالح ورع. مثل غيره من المواطنين الرومان الذين آمنوا بالمسيح، فإن السبب الأول للإيمان والانتماء هو مراقبتهم لثبات المسيحيين على العذاب والآلام وتقبل الاستشهاد، بينما غيرهم منغمسون في ملذات الجسد. «... ويضطر كل من يشاهد صبر هؤلاء العجيب أن يبدأ بالشك فيما يدور حوله، وفور اكتشافه الحقيقة فهو يعتنقها. بل يفترض في كل مؤمن أن يبحث عن الحقيقة ويدافع عن الحقيقة، لأنها الفرق بين الوثنية والمسيحية. لقد أراد المسيح قيادة البشر إلى معرفة الحقيقة وإله المسيحية هو الإله الحقيقي، والحقيقة

هي ما يكرهه الشيطان، وما يرفضه الوثني، وما يتعذب لأجله المسيحي ويموت. الحقيقة هي التي تفرّق بين المسيحي والوثني». كان ترتوليان يشدد على كلمة الحقيقة كلما خرجت من فمه، ويرتفع صوته فجأة ثم يعود إلى وتيرته التي ارتفعت عما كان عليه الحال قبل قليل. «لقد أبلغت قادة الوثنية في روما، وأقولها لهم هنا أيضاً وفي أي مكان: إذا كان معشر المسيحيين شرّ الناس، كما تزعمون، فلماذا تعاملوننا بصورة مختلفة تماماً عن زملائنا المجرمين الآخرين، بينما يقضي العدل أن الجريمة نفسها تستوجب المعاملة نفسها». استغرب أوغسطين أنّ هذا القانوني يتحدث وكأنه يعيش قبل قرن من الزمان. «... الحق أنه ضد القانون أن يدان إنسان لم يُسمع دفاعه. المسيحيون وحدهم هم المحظور عليهم أن يتكلموا لتبرئة ذواتهم دفاعاً عن الحق حتى لا يعاونوا القاضي على إصدار حكم عادل. كل ما يُعنى به القضاء، هو تحقيق رغبات تنطوي على الكراهية ألا وهي: الاعتراف بالاسم (مسيحي)، لا فحص التهمة. أنتم لا تتعاملون معنا بالطريقة المتبعة في الإجراءات القضائية مع بقية المذنبين. في حالة المتهمين الآخرين الذين ينكرون، تلجأون إلى التعذيب حتى يعترفوا، أما المسيحيون فهم وحدهم الذين يُعذّبون حتى ينكروا!!»

توقف ترتوليان برهة ريثما ينتهي حوالى مئتين من الجمهور إعجابهم بحديثه وتحديداً قوله: الآخرون يعذّبون ليعترفوا والمسيحيون يعذّبون لينكروا مسيحيتهم. كان أوغسطين يتمنى لو تحدث الرجل بصيغة الماضي لأن كلماته لا تنطبق على الوضع في طرسوس، حيث تتعايش الأديان والوثنية بأنواعها، وربما تتسبب مواقفه هذه بإثارة نعرات وتحزبات المدينة في غنى عنها. انتقل المتحدث بعد هدوء القاعة إلى الشق الفلسفي من محاضرته بالهجوم المباشر: «أي علاقة بين أثينا وأورشليم، بين الأكاديمية

والكنيسة، بين الهراطقة والمؤمنين؟ إننا أبرياء من الذين ابتدعوا مسيحية رواقية، أو أفلاطونية، أو أبيقورية، أو جدلية. بعد المسيح والإنجيل لسنا بحاجة إلى شيء، وهل هناك مجال للتشبيه بين المسيحي والفيلسوف، بين تلميذ السماء وتلميذ بلاد اليونان، بين من يهدف إلى الحياة ومن يهدف إلى الشهرة، بين من يبني وبين من يهدم، بين من يحافظ على الحقيقة ويبشر بها وبين من يفسدها؟» شعر أوغسطين بصدمة ممّا يسمع من مواقف متطرفة تلغي الآخر تماماً، وتحتكر الحقيقة بين الأديان وتنفي الفلسفة والفلاسفة، وخصوصاً أن الفلسفة الرواقية واسعة الانتشار في طرسوس. كان أوغسطين عازماً على طرح بعض الأسئلة وبداية حوار عندما ينتهي الضيف من حديثه، ولكنه اقتنع بعدم جدوى أي مجادلة مع ترتوليان، وعاد ينصت إلى أقواله: «... إن النفس تنزع بطبيعتها ومن صميمها إلى الدين، ولا سيما في أوقات الشدة، فتبدي العواطف الدينية التي فطرها الله عليها»... هذه مقولة فيها نظر وتتفق حولها كل الأديان وتتضارب، كما ظن أوغسطين. «... الأصل هو ما نقل عن المسيح ورسله، والله هو المُشرّع والقاضي الذي يطبّق ما شرّع الله، والإنجيل هو دستور المسيحيين، والخطيئة هي مخالفة هذا الدستور وهي بالتالي حرام يُغضب الله، والخوف من الله المشرّع والقاضي هو بداية الخلاص». هذا الرأي ينفي كل ما قبله من أديان وبالتالي يعاديها، وهو لا يختلف كثيراً عما جاء في التوراة، ولكن كل طرف يؤكد أنه الصواب وأن ربّه هو الأصحّ، وأن الفطرة الدينية عند الإنسان تكون مجبولة لدين كل منهم، ولهذا يقتتل اليهود والمسيحيون فيما بينهم أكثر من اختلاف كل منهم مع الوثنية الرومانية، وهكذا اختلف اليهود أنفسهم شيعاً وطوائف تكفر بعضها بعضاً، وهذا ما تسير عليه المسيحية الآن بتعدّد الأناجيل. إنّ الكثير من مؤلفات المسيحيين والروايات المتناقلة عنهم تؤكد أن كل مصائب

المسيحيين هي نتيجة لتآمر يهودي عليهم بما في ذلك إحراق روما وإلصاق اليهود التهمة بالمسيحيين، ولا ينسى أي مسيحي أنّ اليهود هم الذين حرّضوا الرومان على المسيح، وأن اليهود شاركوا عملياً في رجم الرسل والقديسين وقتلهم وصلبهم. أفاق أوغسطين من أفكاره على صوت ترتوليان وهو يُحرّم رسم الصور وصناعة التماثيل أو التعبد لها، وهاجم المنجّمين والسحرة وصناع الآلهة الوثنية وطالب بمنعهم من دخول الكنائس، ونفى تبرير أن الصناع المسيحيين بحاجة إلى الرزق وقال: إن المؤمن لا يخشى الموت، وبالتالي فإنه لا يخشى الجوع.

كان أوغسطين يعرف مما سمعه في السابق عن ترتوليان أنه متشدد في شؤون المرأة، وظن السبب في هذا يعود إلى الحياة الماجنة التي عاشها ترتوليان قبل إيمانه وبالتالي تحميل النساء مسؤولية أخطائه وممارساته، ولكن يبدو أن الرجل متشدد في كل النواحي، ومثل هؤلاء ينقلبون بسرعة وعنف إلى اتجاهات متضادة. انسلّ أوغسطين من الاجتماع قبل نهاية خطاب الضيف، واسترجع ما قاله وطالب به مع غيره من الأصوليين تجاه الإناث: عليهن الاحتشام في ملابسهن، وطالب الوعاظ أن يطالبوا بتغطية رؤوس العذارى في الكنائس أثناء الصلوات، وهو من ضمن مجموعة من اللاهوتيين الذين يعتبرون أن المرأة جسد لا روح فيه باستثناء أم المسيح، أما بقيتهن فهن ألد أعداء الرجل لأنهن يثرنه جنسياً ويدفعنه إلى الهلاك، ووصل الأمر ببعضهم إلى التساؤل عن سر خلق الله للأنثى، وإذا لم يكن من الأفضل أن يتصادق رجلان، وحين يضطرون إلى الاعتراف بوجود امرأة صالحة فإنهم يعتبرونها رجلاً. هذه المواقف مستقاه من مبادئ الدين اليهودي الذي يطالب بغطاء الرأس للإناث وتحجبهن في اللباس وعدم اشتراكهن مع الرجال في أي عمل، وعدم رسمهن أو النظر إلى رسومهن، فهن عورة وجب إخفاؤها.

٣

في طريقه إلى مشغل الخيام، أفاق أوغسطين على تحية مقتضبة من ميخائيل القادم من عمله في السوق المركزية لطرسوس حيث تباع المنتجات بالجملة ويلتقي التجار من كل أرجاء الإمبراطورية، بل أحياناً تصل حمولات قادمة من الصين براً عبر طريق الحرير مروراً بإمبراطورية كوشان وفارس، أو بحراً عبر الهند وعدن وصولاً إلى صحراء فلسطين وحتى أوغاريت وأنطاكية. اعتلت وجهه ابتسامة عريضة وهو يرد تحية خطيب ماري، فهذه فرصة للاطمئنان إليها وربما معرفة سبب تخلفها عن الموعد ظهر اليوم، كما أن شعوراً داخلياً دفع أوغسطين إلى ترحيب فوق عادي بميخائيل، ربما الشعور بالذنب، أو الأمل في تمتين علاقة تمتد طويلاً وتسهل عليه لقاء حبيبته.

«أراك منزعجاً مستعجلاً».. قال أوغسطين وهو يتأمل ملامح ميخائيل

«لعل كل شيء على ما يرام بمشيئة الرب!»

«استمعت الآن من تجار إلى أنباء عن كارثة حلت بروما». حاول ميخائيل تهدئة مشاعره وأكمل: «حريق هائل، ويقول تجار في السوق إنه أكبر من حريق روما الأول قبل مئة وثمانٍ وعشرين سنة، أو أقله أكثر تكلفة لأنه دمر الهوريابيبراتاريا وكل شيء على الطريق المقدس حتى معبد السلام». أغمض أوغسطين عينيه تذكراً للمكان الذي يعرفه حين زار روما قبل

خمس سنوات لعقد صفقة مع الجيش الإمبراطوري حول تزويدهم بالخيام والأكفان. الهوريابييراتاريا، أو مخزن الفلفل، هو تجمع ضخم للبهارات وكل أنواع المواد المستوردة والمخزّنة في روما، ويبعد معبد السلام عن المخزن مسافة كبيرة مليئة بالقصور.

«السبب، هل قال التجار ما هو السبب، أو ماذا يقال في روما؟» سأل أوغسطين ميخائيل، وقد استدار على عقبيه وسار معه حيث لا يعرف مقصده.

«إشاعات تدور حول انتقام الآلهة لأن عذارى فيستا عندما هربن من معبدهن حين وصلته النيران اتجهن عبر الطريق المقدس إلى القصر الإمبراطوري، فلحقتهن النيران ودمرت القصر أيضاً». توقف أوغسطين عن المسير وأبلغ خطيب ماري أنه سيذهب إلى السوق ويتقصى المزيد من التفاصيل، وعرف قبل أن يفترقا أن ميخائيل ذاهب لتناول الطعام في بيت خطيبته ماري، فحمّله السلام إلى الجميع وافترقا ولكن بعد أن أبلغه أوغسطين أنه قادم من محاضرة في المكتبة.

في السوق اتجه أوغسطين مباشرة حيث تجمع أكثر من عشرين شخصاً حول أحد التجار. استمع إلى ما يقوله الرجل، فتيقن أنه ليس شاهد عيان للحريق، لأنه يخلط في جغرافية الشارع، وإنما هو يتحدث بما سمع وبالتالي يهوّل ويزيد أو ينقص حسب ما يراه مناسباً. سأل أوغسطين تاجراً آخر عن شيخ القافلة، فأرشده إلى رجل لا يتجاوز الثلاثين من العمر، متوسط القامة حليق الذقن يضع على رأسه عمة تشبه ما يستعمله ترتوليان، فظن أنه مسيحي أيضاً، لكنه تأكد بعد تبادل التحية معه أنه ليس مسيحياً أو يهودياً. عرّفه بنفسه وبامتلاكه مشغلاً كبيراً للخيام، ورجاه أن لا يتردد في سؤاله إذا احتاج إلى أي خدمة في طرسوس. «لقد زرت روما وأعرف المنطقة التي شبّت فيها النيران، وأظن أن رفيقك في القافلة يتحدث إلى الناس بشيء من المبالغة».

«هو لا يبالغ في الكم، ولكنه فعلاً لم يشاهد ما حدث. كلنا وصلنا إلى مخزن الفلفل بعد نهاية الحريق، نزلنا إلى روما من البحر فسمعنا بما حدث واتجهنا كالعادة إلى المخزن ووجدناه قد تحول إلى رماد». تمهل الشيخ، ولكن أوغسطين حثه على إكمال روايته. «تعرف أنت بالطبع حجم ودور المخزن في اقتصاد الإمبراطورية. كل روما حزينة وخائفة ومنكوبة لأن خيراتها تحولت إلى رماد. لقد اطلعت مصادفة على معلومات وأرقام حول الخسائر لم أكن أتخيلها قطّ». صمت الرجل بعد أن أشعل ذهن أوغسطين بالفضول والترقب.

«بودي الاستماع إليك وقتما تشاء، وحبذا لو قبلت دعوتي لك إلى طعام في بيتي أو في مشغل الخيام إذا كان يهمك الاطلاع على صناعتنا». لم يكن أوغسطين بحاجة إلى تصريف خيامه، ولكنه تمالك مشاعره حتى يتعرف إليه الشيخ ويعطيه المعلومات التي في حوزته.

«عندما وصلنا إلى بقايا مخزن الفلفل في بداية الربيع هذا العام، بعنا القليل ولم نجد ما نشتريه، وأعلنا خطتنا للمسير في قافلة من روما إلى أنطاكية ، اتصل بي عالم جليل خسر كل أثاث بيته وكتبه وأدواته في الحريق، إذ أودعها هناك ريثما ينتقل من بيت قديم إلى آخر جديد، لو تأخر الحريق يومين فقط لما خسر أي شيء، سألني إذا كنت سأمر بمدينة برجاميوم، فأخبرته أنها بالفعل في طريقنا هي وسمرنا وجارتهما أفينوس ومن ثم نتوجه إلى طرسوس. فأخبرني الرجل أنه سيكتب رسالة إلى صديق له في مسقط رأسه برجاميوم وسألني إذا تكرّمت بتوصيلها. عندما عرفت أن الرجل هو العالم الطبيب المشهور جالينوس كدت أطير من الفرح في تلك الأيام الحزينة». هكذا إذن عرف بالمعلومات التي يتحدث عنها، ظن أوغسطين، وخمن أن جالينوس أخبره بالمحتوى حتى لا يفتح الرسالة في الطريق، أو أنه

فتحها. «..عندما سلمت الرسالة إلى صاحبها أعاد قراءة الكثير من مقاطعها عليّ واستمعت إليه في الأيام التي تلت يتحدث لآخرين عما ورد بها من تفاصيل».

قرر أوغسطين أن يمهد لحديث شيخ التجار عبر التطرق إلى ما شاهده في روما أثناء زيارته لها، وما جمعه من معلومات عن حقبة تاريخها في القرنين المنصرمين، وباشر حديثه بالتذكير بثراء المدينة في عهد الإمبراطور الحالي، كومودوس ونشاط التجارة فيها. قال: بعد الحريق الأول في عهد نيرون عاد النشاط العمراني، فشرع الإمبراطور في بناء قصر مترامي الأطراف وصادر الأراضي المحيطة به بعد أن دمرت النيران آنذاك كل المنطقة.

«لكني سمعت في روما أحاديث سيئة جداً عن الإمبراطور الحالي». قال شيخ التجار مقاطعاً حديث أوغسطين الذي تحقق من نجاح فكرته في استنطاق الشيخ. «..يقول أهل روما إن نُذُر شؤم سبقت الحريق هذا الربيع إذ حلَّقت نسور كثيرة فوق معبد كابيتوليوم وأطلقت صيحات لا تبشِّر بخير. وسُمِع نعيق بوم في لحظات الليل السابقة لنشوب حريق في أحد المنازل وبلوغ النار معبد السلام. من هناك اجتاح الحريق مخازن البضائع المصرية والعربية. طبعاً هناك تضارب في الأقوال من أين بدأت النيران ولماذا، لكن الناس بعد الحريق تتكهن بأنَّ دمار معبد السلام كان نذيراً بحرب مقبلة. وكانت رائحة الحريق تشبه قرباناً جنائزياً هائلاً، وسمعت أن أحد مشاهير روما قال متشائماً: إنَّ احتراق المخازن المليئة بالسلع الأجنبية كان إشارة إلى أنَّ الشرَّ المقبِل سوف يشمل العالم أجمع. وقال غيره إنَّ كومودوس فَقَدَ تأييد الناس وإنهم ألقَوْا مصائبهم على عاتق الإمبراطور مباشرةً». صمت شيخ التجار وفهم أوغسطين أنه متردد في إضافة ما يقال عن الإمبراطور منذ زمن بأنه كان على علاقة جنسية مع والدته فوستينا.

«لقد لبس حلة هرقل ونجح في حروب ولكن الناس لا تعترف له بفضل، مشكلته أنه جاء خلفاً لأبيه الإمبراطور ماركوس الفيلسوف الرواقي، الذي أصبح يُعتبر آخر الأباطرة الخمسة الصالحين، فروجوا عنه علاقة مع أمه الشابة ولم تسكت الألسن عنه أو تهدأ منذ عام مئة وثمانين حتى الآن. يرون فيه نيروناً آخر». استرجع أوغسطين معلوماته عن نيرون ومن تبعوه وأولهم فسبازيان الذي تسلم الحكم عام تسعة وستين، وأمر فوراً بإعادة الأراضي المصادرة لغايات بناء قصر نيرون، وباشر تشييد أبنية ضخمة مثل الكولوسيوم الذي يتسع لخمسين ألف متفرج وأصبح المسرح الذي يُلقى فيه المسيحيون للحيوانات المفترسة، وفي الطرف العلوي من الطريق المقدس أنشأ فسبازيان مجمعاً مدنياً جديداً وباهراً صار يُعرَف بمعبد السلام. شُيِّد ذلك المعبد تخليداً لذكرى انتهاء الحرب اليهودية التي دامت أربع سنوات وانتهت عام ٧٠، عندما قمع فِسبازيان وابنه تيتوس تمرُّداً كبيراً في منطقة يهودا. وكان ذلك الصرح يرمز إلى شيء آخر، إذ أصبح فِسبازيان الإمبراطور على أثر انتصاره في حرب أهلية شرسة ومرحلة همجية أثناء عهد نيرون وبعده.

أقام الإمبراطور فسبازيان معبد السلام على تلة أعلى الكولوسيوم فيما يشبه ميداناً تحيطه المباني شاسعة المِساحة، تتوسطه حديقة تكثر فيها بِرك الماء والتماثيل. كان لذلك الفناء المقدس سمات الحديقة العامة، بينما احتوت المباني المحيطة به على مكتبة كبيرة. وقال معاصرون في روما إن معبد السلام تجاوز حدود المخيلة البشرية وأنفق عليه الكثير من الأموال والثروات التي كانت تحت تصرف الإمبراطور المنتصر. وقد زيّن ذلك المكان بتحف فنية قديمة من الرسم والنحت، وجمع في فناءٍ مقدّسٍ واحدٍ كلَّ الأعمال الفنية الفردية التي كان بعض الناس على استعداد لأنْ يسافروا

عبر العالم لمشاهدتها، ووضع فيه أيضاً تحفاً ذهبية غُنمت من اليهود. لقد عُرِض في إحدى الحجرات الكثيرة بذلك المجمَّع المينوراه اليهودي، وهو الشمعدان سباعي الشُعب الذي أُخِذ غنيمةً عندما سقط معبد أورشليم في أيدي القوات الرومانية. هكذا فإن معبد السلام يرمز إلى قوة الدولة الرومانية المستردة بعد نيرون واستقرارها. وبالقرب منه كان معبد فيستا، الدائري الصغير الذي يحتوى على إلهة النار والبيت الرومانية، وفيه نار مقدسة ترعاها عذارى فيستا الستُّ، اللائي يُخترن من أغنى عائلات المدينة وأعلاها مقاماً. شعلة النار ترمز إلى روح روما وثرواتها، ويُظَن أن تلك النار إذا انطفأت يوماً فسيكون ذلك نذيراً بحلول كارثة وشيكة على الدولة الرومانية. يضم معبد فيستا أيضاً تمثال بالاس أثينا (البلاديوم)، وهو تمثال خشبي مقدّس لأثينا يُفترض أن إينياس أنقذه من دمار طروادة. وكان يُعتقد أن استمرار نجاح روما يعتمد على الاحتفاظ بتلك التحفة الأثرية سالمة. كل ذلك أصبح الآن في مهب الريح بعد أن دمرت النيران كل شيء.

«تعرف أن جالينوس يعمل طبيباً خاصاً عند الإمبراطور كومودوس».

قال الشيخ لأوغسطين الذي أومأ له بالإيجاب وتمنّى أن يسمع منه الآن بعض ما سمعه وشاهده. «..وكان طبيباً لوالده أيضاً الذي اتبع الفلسفة الرواقية. مثل بقية الناس الآخرين، كانت ثقة الطبيب بالمخزن عالية جداً بأنه لن يتعرض للسرقة أو للحرائق لأنه تحت حراسة الجند وساحاته مليئة بقنوات المياه. لقد انتقل الطبيب إلى منزله الريفي وكان قد أودع أغراضه مخزن الفلفل وينوي استردادها، فجاء الحريق كارثة على المستوى الشخصي، إذ ذهبت كل مقتنياته الثمينة مثل أصول مالية قيّمة كعملات ذهبية وفضيات غالية وإقرارات بديون مُستحَقة له. لكن الخسارة الحقيقية التي يقول أهل روما إن الطبيب استشعرها كانت تدمير مواد أبحاثه، ومنها عدد

كبير من الكتب والعلاجات المتخصِّصة ومجموعة متنوعة من الأدوات الطبية الفريدة في نوعها. سمعته يقول: لقد نصب لي القَدَر شَرَكًا ليحرمني من كثيرٍ من كتبي الطبية. وقد كابَدت خسارة فادحة أخرى، ألا وهي دراسة المفردات اللغوية التي جمعتها من الكوميديا الإغريقية. ومما فهمت من بعض ما جاء في رسالته أن أصحاب المهن الطبية استخدموا الحجرات الخارجية للمخزن لحماية مكوّنات نادرة ومستحضرات طبية غير عادية.

كان بعض تلك المواد من القصر الإمبراطوري، وقد حصل عليها جالينوس عندما كان يحضِّر الأدوية لماركوس أوريليوس، وتضمَّنت كمية كبيرة من القِرفة الطبية عالية الجودة التي رأى جالينوس أنَّه لن يتمكن من تعويضها أبـداً. كان يعتبر تلك اللوازم الطبية الغالية أساسية لمهنته ولا يمكن الاستعاضة عنها من خلال التعامل مع التجار الفرديين. وذكر في الرسالة أنه فقد في الحريق نسخاً أصلية من أول كتابين في دراسة طبية يعدها حول تركيب الأدوية بحسب الأجناس. كذلك ذهبت مذكرات ودراسات كثيرة.

ذكر جالينوس أيضاً في رسالته تفاصيل عن خسارته إرثاً ثميناً كان قد حصل عليه عندما كان طبيباً شاباً، وهو مجموع أبحاث طبية مهمة جمَّعها أطباء بارزون من مسقط رأسه. إحدى تلك المجموعات تتضمَّن مركَّبات متخصِّصة دُفِع نظيرَ كلٍّ منها أكثر من ١٠٠ قطعة ذهبية. وتضمَّنت مجموعة خاصة أخرى من طبيب كبير يُدعَى تيوثراس علاجات طبية مجمَّعة من جميع أنحاء العالم ولا يمتلكها شخص آخر. وعندما تُوفِّي تيوثراس متأثراً بالطاعون الأنطوني الذي تفشَّى بين عامَي ١٦٥ و١٨٠، أصبح جالينوس المستفيد الوحيد من تلك المعرفة. فذكر في رسالته أنه إن كان ثَمةَ من يمتلك علاجاً مهماً، كنت أستطيع الحصول عليه من دون صعوبة جمَّة. كل ذلك التهمته النيران ولم يتبقّ سوى عدد صغير من علاجاتٍ كان قد أخذها

معه إلى منزله الريفي الجديد في كمبانيا، ومركّبات كان قد عهد بها طوعاً إلى أطباء آخرين. لذا فقد أتت النيران التي التهمت حجرات مخزن الفلفل على ثروةٍ من المعرفة المهنية لا يمكن تعويضها. وأتذكر جملة مما كتب في رسالته: إلا أنني لم أذكر أسوأ ما في الأمر، فلم يكن ثَمَّةَ أمل في تعويض مجموعة الكتب التي فقدتها، إذ إن جميع المكتبات على هضبة بالاتين احترقت في ذاك اليوم». ساد الصمت برهة بين الشيخ وأوغسطين وكانت أصوات الناس في السوق تصلهما من دون التأثير فيهما. «لم يكن جالينوس الوحيد الذي خسر مقتنياته، فقد كتب في رسالته أن عالم النحو فيليبيدس قد مات غمّاً بعد التهام النيران كتبه. كثيرون من المهنيين خسروا بضائعهم حين وصلت النيران من مخزن الفلفل إلى مخزنِ فسبازيان الضخم المجاور، حيث تُجمع الضرائب العينية عن البضائع في الإمبراطورية. هناك احترقت مخزونات الكتان وورق البردي المصرية. وفي معبد السلام الذي ساد الظن أنه أكثر بقعة آمنة في المدينة، ومعروف بأنه أكثر المباني المقدسة غِنى في روما، إذ احتوى على كنز دفين هائل من التحف الذهبية والفضية. وأصبح بمثابة مستودع مهم يمكن الناس تخزين أموالهم الخاصة فيه بأمان. وبسبب كارثة الحريق في عهد نيرون، فقد أبقى كثير من الناس أغلى ممتلكاتهم في معبد السلام حِفاظًا عليها. عندما اندلع الحريق فقدوا مدخراتهم، وفقد بعضهم ثروات كاملة في تلك الكارثة. في ليلة واحدة، أحال الحريق رجالاً أثرياء إلى فقراء، فاشترك الجميع في الحداد على تدمير الصرح العام، لكن تحسَّر كلّ شخص أيضاً على مصابه الشخصي. كل من أصابهم الدمار راحوا يجوبون شوارع روما بعباءات سود وقد بدا بعضهم هزيلاً شاحباً، وكلهم لاحت عليه مظاهر الحداد».

٤

أفاقت بربارة نشطة من نوم هادئ وقررت ألا توقظه إلا بعد إعداد الفطور. لقد تودد إليها بالأمس وأرضاها بعزمه اصطحابها إلى الكنيسة إذا رغبت، فأرضته بتدليله في الفراش بما يرغب ولا يفوز به إلا فيما ندر. عذبه ضميره قليلاً قبل أن يغفو، فقد فكّر في حبيبته وهو يضاجع زوجته، وباعها تنازله للذهاب معها إلى الكنيسة بينما هدفه رؤية ماري الشابة هناك، وتحسس سبب إخلالها بالموعد قبل أيام. لا يمنع أوغسطين زوجته عن الذهاب كل أحد إلى الصلاة مع المسيحيين سواء في الكنيسة أو على الأعشاب قرب حافة نهر السندس، ولكنه لا يحبذ الذهاب إلى هناك، فتمتنع برباره عن الذهاب بمفردها. تعرف أوغسطين إلى زوجته قبل خمس سنوات أثناء رحلة عمل إلى بلاد الإغريق، ولقبت من أهلها وأقربائها بربارة قبيل الرحيل معه إلى طرسوس إذ ستصبح غريبة عن أهلها، وهذا ما يعنيه هذا اللقب الذي احتفظت به إلى الآن. تعرف كل أقربائه وكثير من العائلات المسيحية الصديقة ولكنها تعتبر أن من غير اللائق زيارة الكنيسة من دون رفقة زوجها.

قرر أوغسطين أن يُلقي التحية ملوّحاً بيده للجميع حتى يتفادى سلام الأيادي والقبل، هذا ما يفعله في العادة عندما يغادر تجمعاً عائلياً، ولكنه الآن متخوف من ردود فعل أهل ماري إذا كانوا قد عرفوا عن تجدد اللقاءات

معها. اقترب منه الأقرباء الذين لا يرونه إلا فيما ندر في مثل هذه اللقاءات، وتقدّم منه والد ماري وإخوتها وصافحوه، وألقت مجدلينا التحية ولكنّ عينيها كانتا تطلقان سهاماً تجاهه، فتأكد أن الأم انتزعت الاعتراف من ابنتها ولم تخبر زوجها وأولادها، ثم انضم إليهم ميخائيل وماري وكانا يتأملان مياه السندس. صافحته بعد خطيبها وشدّت على يده فأومأ برأسه لها وتمنى أن يتمم الرب للخطيبين بسلام. «أعتقد أن الخطبة ستكون عن حريق روما»، قال أوغسطين، واتجه الجميع إلى بقية المؤمنين عندما سمعوا راعي الكنيسة يناديهم للقداس.

أعطى القس ظهره للسندس، وواجه أكثر من خمسمئة مؤمن، وكان غيرهم يتوافدون متأخرين للمشاركة. لم يكن هذا يشابه العدد الأسبوعي، بل يزيد عنه بأضعاف، ويبدو أن الكاهن عرف السبب، فبدأ القداس بتلاوة «الانتقام لي، قال الرب» وانتقل مع الجموع إلى أنشودة. كان القداس في الهواء الطلق بينما الجميع واقفون عدا قلة من كبار السنّ جلسوا يمين الكاهن على حُصُرٍ أحضروها معهم. أخذ الخطيب يفصل في الخسائر التي أصابت الإمبراطورية جراء الحريق، وينقل إلى المستمعين ما انتشر من أقاويل حول انتقام الآلهة ونذر الشؤم لما سيأتي، ولم يؤكد في حديثه أن الآلهة المعنية هي آلهة الرومان، بل ترك الأمر هائماً، وكأن الرب المسيحي هو المقصود بفعل هذا الانتقام ضد الإمبراطورية. كان من الجلي أن هذا العدد الكبير من المسيحيين قد حضروا القداس بحثاً عن معلومات وعن تضامن وخوفاً مما قد يأتي. ففي الحريق الأول لروما سيقت الاتهامات للمسيحيين، وواجهوا أشدّ أنواع التنكيل والعذاب طوال أربع سنوات حتى نهاية حكم نيرون. والإمبراطور الحالي كومودوس يشترك مع نيرون في الكثير من الخصال السيئة، وعلى الرغم من مئة وثماني وعشرين سنة تفصل بين الحريقين، فإنّ

المسيحيين يتخوفون من تكرار الاتهامات والنتائج، وخصوصاً أن الخصوم لم يتغيروا سواء اليهود أصحاب النفوذ على الحكم عبر النساء آنذاك والآن، أو الخصوم الوثنيين والطوائف الفلسفية والدينية الأخرى. لذلك أعرب أوغسطين بالذات عن استغرابه همساً لميخائيل عن حديث الانتقام الذي يتفوه به الكاهن، وكأنه يُعلن مسؤولية رب المسيحيين عن الحريق الذي أضر بالإمبراطورية ومواطنيها واقتصادها. كان يهمس قرب أذن ميخائيل وعيناه تناغيان عيني ماري التي تقف عن يسار خطيبها، بينما بربارة تقف عن يمينه.

انتهى القداس وتشكلت مجموعات تتناقش وتتبادل المعلومات والقيل والقال حول الوضع في روما، وأخبر أوغسطين أقرباءه وأصدقاءهم أنه جالس يومين شهود عيان حضروا من روما واطلع على محتوى رسالة الطبيب جالينوس حول الخسائر وكيفية بداية النيران ومسارها، وأن المسيحيين لا ذكر لهم هذه المرة. «على الرغم من أنه كان يُسمَّى مخزن الفلفل، فقد كانت تُخزَّن فيه جميع أنواع البخور الواردة من شبه الجزيرة العربية والصومال، إلى جانب التوابل الواردة من الهند والشرق الأقصى»، قال أوغسطين وسط إنصات الحضور من حوله. «كان ذلك المخزن للسلع الدولية القيِّمة شاهداً على مدى قوة الإمبراطورية، ففي كل عام كانت السفن تبحر من موانئ البحر الأحمر في مصر إلى المحيط الهندي، وكانت تزور مراكز التجارة في الصومال وشبه الجزيرة العربية والهند، وتعود بآلاف الأطنان من البضائع الشرقية التي تمدُّ بها الأسواق الرومانية. وحتى في بداية تلك التجارة قبيل ميلاد سيدنا المسيح بعقدين من الزمن كانت مئة وعشرون سفينة رومانية تبحر سنوياً إلى الهند». بحث بعينيه عن مكان ماري وواصل حديثه: «بالطبع أهم ما في الأمر للإمبراطورية هو الضرائب على واردات هذه التجارة، إذ تُقدَّر برُبع قيمة البضائع الشرقية الداخلة إلى

الإمبراطورية، ولكن عوضاً عن الدفع نقداً كان بإمكان التجار التنازل عن ربع بضاعتهم لضباط الجمارك في مصر، وهذا ما كان يفضله التجار بدل التسديد النقدي. وهكذا وضعت الإمبراطورية يدها على كميات هائلة من العطور والبخور والبضائع المستوردة وخزنتها في روما لتبيعها للسكان. ولا ننس هنا أن حمولة السفينة هرمابولون وحدها تعادل تسعة ملايين سسترس. كان المخزن الرئيس قبل الحريق مقسماً من الداخل إلى متاهة من حجرات التخزين والساحات المغلقة العالية. كان هناك قنوات مائية متعددة في جميع أنحاء المجمع من أجل ترطيب الجو الخانق الناجم عن الرائحة الجافة العبقة لمخزونات التوابل. يُرجّح أن المخزن كان يتسع لما يربو على خمسة آلاف طن من التوابل عندما يمتلئ عن آخره. تلك الكمية تقدر بأكثر من ٢٠٠ مليون سِسترس، أي أن ربع دخل الإمبراطورية أكلته النيران». كان أوغسطين يمزج معلوماته التجارية مع ما سمع من تفاصيل أدلى بها شيخ القافلة في عدة جلسات. «ليس الإمبراطورية فقط التي خسرت من الحريق. كان الناس أيضاً يودعون كنوزهم النفيسة حجرات المخزن، لأنهم كانوا واثقين بأن المخازن القائمة على طول الطريق المقدس لن تصل إليها النار أبداً. كانت ثقة الناس منبعها عدم وجود أخشاب في المبنى سوى الأبواب، وكذلك لم تكن تلك المخازن قريبة من أي منازل خاصة كبيرة. إضافةً إلى ذلك، فقد كان المرفق تحت حراسة عسكرية. وصل الحريق إلى مخزن الفلفل أولاً، ثم امتد عبر الطريق المقدس وصولاً إلى معبد السلام. ومن هناك امتدت ألسنة اللهب إلى هضبة بالاتين والقصر الإمبراطوري. تأججت النيران في مئات الأطنان من التوابل والبخور الموجودة في مخزن الفلفل وتصاعدت سحب الدخان ورائحة التوابل إلى السماء، ولعدة ليالٍ عبقت العطور المكان وكأنه في شبه جزيرة العرب. ولهذا فلا يستغرب الاعتقادَ بأن الحريق كان

ذا نشأة خارقة للطبيعة وغاية سماوية. وعلى الأرجح لاح للناظر أن مخزن الفلفل كان يقدم نفسه قرباناً للآلهة في حريق هائل مروعٍ. وانتشر الاعتقاد بين أهل روما أن بالحريق عنصراً خارقاً للطبيعة ونذيراً من الآلهة بموت قريب للإمبراطور كومودوس، وانهيار الإمبراطورية، وخصوصاً لتناول الناس رؤية نُذر غريبة أخرى سبقت الحريق، مثل النجوم التي ظلت بازغة طوال النهار. ما شجع هذا الترويج أنه لم يكن ثَمةَ تجمع لسُحب دكناء، ولم يكن ثَمةَ عاصفة رعدية لتشعل النار التي امتدت إلى معبد فيستا فكشف تمثال أثينا بالاس الذي أُحضر من طروادة للجمهور، وهو التمثال الذي يعبده الرومان ويُبقونه بعيداً عن الأنظار. فما كان من عذارى فيستا إلا أن حملن التمثال وهربن به من الطريق المقدس إلى القصر الإمبراطوري. إلا أن الحريق المهلِك تبع خطاهن إلى القصر. لم تفلح جهود الإطفاء التي شارك فيها الإمبراطور كومودوس شخصياً ولم يُنقذ الموقف إلا المطر الذي انهمر بدون سحب سبقته، فصار الناس على قناعةٍ الآن بأن الحريق بدأ وتوقف بإرادة الآلهة وقوتها». واختتم أوغسطين حديثه بأن هذا يعفي المسيحيين من أي تهم وليس مثل المرة السابقة.

انسحبت الإناث من بين الجمع وشكلن دائرة خاصة بهن، وكان من الصعب للوهلة الأولى التمييز من الخلف بين بعضهن وذلك للتشابه في اللباس وغطاء الرأس. لم تفرض التعاليم المسيحية على الرجال صنفاً أو أسلوباً معيناً في لباسهم، والكثير منهم ما زالوا يقلدون اليهود في غطاء الرأس، ولكنهم جعلوه عمة وليس قلنسوة، فالعادة غلابة، وكما أخذ اليهود عادات من سبقوهم وبعض طقوسهم، فالمسيحية وأي دين جديد قادم لن يمكنه الانفصال التام عن الماضي، بل على الأغلب إن العادات الأقدم هي التي تحور وتشكل طقوس الأديان. لكن الأديان السماوية، كما يُسمي اليهود

والمسيحيون ديانتهم، تختلف عن غيرها في تقييد الإناث وفصلهن عن الذكور، وتخصيص أدوار ومهام محددة لهن، بينما الأديان الأخرى تحترم الأنثى، بل تجعلها إلهة.

«المصائب التي حلت بالإمبراطورية لن تنتهي إلا بنهاية روما، إنهم يعترفون بأنها انتقام إلهي، ولكنهم يعتبرونه انتقاماً من الإمبراطور فقط، ولكنه بالفعل انتقام من كل نظامهم ومجتمعهم وعقاب على انهيار أخلاقهم، فالرب يضربهم في انتقام جماعي، حروب أهلية واغتيالات وحرائق وكوارث». قال أبانوب وهو يمغط جسمه، ويكاد يقف على أصابع رجليه. وأكمل: «..منذ صلبهم لسيدنا وحتى الآن وهم يعانون الكوارث، اغتيالات على أعلى مستوى، زواج محارم ودعارة في قصور الإمبراطور وفي فلل الأعيان ورجال مجلس الشيوخ، ورشوة ومحسوبية وتلاعب أنصار اليهود في السياسات وتأثيرهم فيها. لا توجد معصية أو فسق إلا تجده بينهم».

«ولكننا على نقيضهم في كل ما ذكرت، ومع ذلك نتلقى العذاب والبؤس منذ صلبهم سيدنا حتى الآن». قاطع الشاب إيليا عمه أبانوب والد ماري. تبسم أوغسطين وكان بودّه التعليق على آراء قريبه، ولكنه اكتفى بكلام إيليا. هو يعرف من حوارات سابقة أن المتدينين يصعب التفاهم معهم، يُهاجمون الرشوة وهم أول من يقبلها لو عرضت عليهم، ويدّعون العفة وعيونهم لا تترك عابرة سبيل، ويحاكمون غير المسيحيين بمقاييس مسيحية، ويدّعون التجديد بينما هم يقدّسون كتب اليهود.

«نحن نسعى، يا بني، لنكون على نقيضهم، وعندما يكتمل تطبيقنا للتعاليم سوف نكون الغالبين، رضاء الرب عنا يتبعه إزالة الظلم». قال أبرام لولده إيليا حتى لا يتبادر إلى ذهن أي من الحضور أن بيت أبرام تسكنه الشكوك. وأضاف: «لقد نجح أجدادنا وآباؤنا في نشر التعاليم، ولولا

مؤامرات اليهود التي لا تتوقف لكان عذابنا أقل ودعوتنا أسهل وأسرع انتشاراً». همهم الحضور مؤيدين وسُمع من قال بينهم إن مؤامرات اليهود لا تنجح إلا حيث يسود الفساد السياسي.

«نعتز بتعاليمنا وديننا، ولكن الرومان واليهود والمانديين والرواقيين وغيرهم يعتزون بما لديهم أيضاً، والظاهر أننا جميعاً في مركب واحد نعرّض أنفسنا للغرق». أجاب إيليا وسط دهشة والده وعمّه وأوغسطين، وأضاف قبل أن يقاطعه أحد: «..بدل اتهام الآخرين بالخطيئة علينا إثبات نجاعة تعاليمنا فينضم الآخرون إلينا».

«خطيئتهم شيء يمكن غفرانه، ولكن تبريرهم للخطيئة هو عمل شيطاني من الدرجة الأولى». قال أبانوب والد ماري، وتوارى ابن أخيه إيليا عن الأنظار. تراجع أوغسطين قليلاً وجلس على حجر قريب حيث يمكنه سماع ثرثرة الرجال ومراقبة الإناث من بُعد. تعرّف إلى ماري من الخلف، وجال في ذهنه علاقة الصبا والشباب مع والدها وعمها المتزمتين الآن ولم يصدق أنهما الآن نزيهان ملتزمان التعاليم، فوالدها جشع وهو اسم على مسمى، أبو الذهب، ولكنه متوسط الحال منصاع لزوجته التي تتحدث في اللقاءات العائلية بالنيابة عنه وعن أولادها وتقاطعهم في منتصف الحديث لتكمل عنهم، أو تتصدى بالإجابة عن أي استفسار أو سؤال لأي منهم. لم يكن أبانوب وأخوه أبرام يختلفان عن أوغسطين قبل الزواج، ولكنهما الآن يتصرفان وكأنهما لم يقتربا من باغية قط. حياتهما الاجتماعية والاقتصادية لا تثبت أمام الفحص المسيحي، ولكن فيما يتعلق بالجنس يتظاهران بالاكتفاء والعفة والالتزام. الوثنيون أصدق في هذا المجال، إذ لا يتنكرون لرغباتهم الجنسية، وهم لا يُستثارون جنسياً بسهولة لأنهم غير محرومين، حتى اليهود أسهل في هذا المجال من المسيحيين. أسوة بيعقوب، يحق

لليهودي الزواج بأربع نساء في وقت واحد، ويمكنه الطلاق وإعادة التزوج، ولا يُستهجن لديهم أن يتزوج كبير السن أنثى صغيرة طالما أنها نضجت جسدياً واستقرت دورتها الشهرية حتى لو كان عمرها عشر سنوات أو أقل، وهم يتفاخرون بحب نكاح العذارى، ولهنّ في كتبهن مكانة خاصة. هذا كله محرّم على المسيحي، وكلما كان متعمقاً في الدين وجب أن يتعفف في الجنس إلى درجة عدم التزوج بتاتاً. والمسيحي يعيش في تناقض مع ذاته ودينه وخصوصاً أن العهد القديم، أي التوراة، هو جزء لا يتجزأ من التعاليم المسيحية.

تحركت ماري بإشارة من أمها إلى الطرف المقابل من الدائرة النسائية، يبدو أنها راقبت أوغسطين وظنت أنه يستمتع بالنظر إلى مؤخرة ابنتها. هكذا تمكن الحبيبان من استراق النظر أحدهما إلى الآخر، وانتهز أوغسطين الفرصة حين ودع أحد المجتمعين راسماً بيده إشارة يفهم منها أراك غداً، فخفضت ماري رأسها حتى لا تربط مجدلينا بين الإشارة وعينيها. وقف أوغسطين وودّع الجميع هاتفاً إلى اللقاء، وسمعته زوجته فانضمت إليه وعادا صامتين. «أشعر بتقارب مع جارنا سليمان وعندي احترام له أكثر من بعض الذين رأيتهم اليوم». كان يريد القول أكثر من كل الذين رأيتهم، ولكنه أحبّ أن يراعي شعور زوجته التي نظرت إليه بعينين تعبران عن مزيج من الاستغراب والتساؤل. سليمان هذا متزوج من أربع نساء، اثنتان يمكن أن تكونا في عمر بناته، واثنتان لا تتعديان عمر حفيداته، وهما بالفعل حفيدتان لصديقين من أصدقائه. ولسليمان أبناء وأحفاد من زوجات سابقات، ولا يُسمع لزوجات سليمان أي ضجيج أو قتال مع بعضهن، ويعشن في وئام تام وكأنهن أخوات. «أقله الرجل متناغم مع ذاته ورغباته، ويسهل عليه أن يكون عفيفاً عكس المنافقين الذين يطالبهم دينهم بكبت النساء، ويتركون

أنفسهم ليُكبتوا من نسائهم وكلهم من أصحاب العيون الزائغة وفي مقدمهم البطريرك». قال أوغسطين لزوجته رداً على نظرتها الاستفهامية، ولم يكن بحاجة ليعيد عليها ما أسمعها إياه مما يقال عن البطريرك في طرسوس.

«أبونا غير متزوج ولذلك تكثر الأقاويل الجنسية حول تصرفاته». لم يعلق على ما قالت زوجته، فقصص الرجل مُؤكدة، فهو يخرج متنكراً ليلاً بحجة التعسّس على المؤمنين، ويتجه إلى البيوت التي رجالها على سفر أو إلى بيوت يتامى من الإناث أو إلى مجالس نسوية ليلية، فيتنصت على ما يقلن، ويتبصبص بنظره حيث أمكن ذلك، ومن ثم يواجههن لاحقاً بما كن يقلن ناهياً أو مؤيداً، بل إن الأقاويل لا تقف عند ذلك.

«صدقيني، يا بربارة، لو تزوج الرجل لكان أشرف وأفضل للجميع».

«على كل الأحوال وضعه أفضل مما يمارس الوثنيون كأفراد وكهنة وأباطرة». ردت على استنتاج زوجها ولكن بهدوء تام، فهي تعرف أنه سيقول لها نحن نحاسب كل واحد حسب زمانه وقناعته ودينه. «هل يعقل الزواج بزوجة الأب؟ كيف يمكن لإمبراطور زواج ابنة أخته، أو حتى أخته أو نكح أمه أو ممارسة الجنس مع الغلمان؟» عرف أنها تقصد الإمبراطور تيبريوس الذي كان يتلذذ بهتك الأطفال.

«دينهم لا يمنع ما تذكرينه، ومع ذلك فهذا غير مُحبب بالفطرة البشرية، أقله حتى نتميز من الحيوانات التي تفعل هذا». صمت وهنة ثم شرح لها أن علية القوم يفعلون ذلك حفاظاً على مناصبهم، والرعية تفعل ذلك حتى لا تذهب أموالهم ورثة لخارج العائلة. «مع ذلك فأنت على صواب لأنهم متعفنون في كل تصرفاتهم، وأنا أقصد الأباطرة وأعضاء مجلس النواب وقادة الجيش». وصلا إلى منزلهما ولم يرغب أوغسطين في مناكفة زوجته.

استلقى على الأريكة بانتظار أن تعد غداء يوم الأحد، وقرر أن يسترجع ما عرفه من كتب التاريخ والروايات المتناقلة عن مسلسل الأباطرة وأفعالهم.

يعود تاريخ تكوين الإمبراطورية الرومانية إلى ثلاثة قرون قبل ميلاد المسيح، وكان أول من اخترع لقب إمبراطور هو يوليوس قيصر الذي أراد أن يصبح ملكاً للجمهورية، ولكنه قُتل بخناجر أنصار الجمهورية فقامت الحرب الأهلية وامتدت ثلاث عشرة سنة حتى توافق ثلاثة من العسكر على الحكم معاً، وانتهى الحال بتخلص أوغسطس من شريكيه وإعلان نفسه إمبراطوراً. تزوج أوغسطس ثلاث نساء، ورزق من الأولى ابنة وتبنى أولاد زوجاته الأخريات. ابن الزوجة الثالثة ليفيا دورسيلا، تيبريوس، تربى في القصر، ثم التحق بالجيش، فأثبت نفسه في المعارك وأحبه الجنود، إذ عاش بينهم، وأكل معهم جالساً وليس مستلقياً كما يفعل النبلاء، وتصفه المراجع بطول القامة والوسامة، ولكن ملامحه توحي بالحزن، يحب الانطواء، حتى انتقل للعمل مع الجيش بعد تلقيه العلوم في القصر الإمبراطوري. أجاد اللغة الإغريقية إلى جانب الرومانية، وتعلم الفلك وتفسير الأحلام وتمرس في الطقوس الدينية. نتيجة لتعلق الجند به لم يجد تيبريوس صعوبة في اقتناص كرسي الحكم، كون أوغسطس لم ينجب أولاداً ليرثوه، كما أنه تزوج ابنة الإمبراطور زوج أمه فأصبح ابنه بالتبني وصهره أيضاً. سخا على الجند وسعى لكسب المعارك بدهاء وفن، وليس على حساب دماء الجنود. الوجه الآخر لتيبريوس هو المجون، فقد كان لديه جوارٍ يعلمنه فنون ممارسة الجنس، وكان يهوى هتك عرض الأطفال ويغازل سيدات روما بألفاظ فجة، كما أنه يستمتع بتعذيب الآخرين. وكان له أقوال مأثورة مثل «من بعدي فلتأكل النيران الأرض». أثناء فترة حكمه عيّن كراتوس وبيلاطس لحكم إقليم اليهودية، وآنذاك صلب المسيح، وكان تيبريوس قد طرد اليهود من

روما فترة من الزمن، ثم ألغى هذا الأمر وعوضهم عن قساوة حكام الأقاليم عليهم. وقد أنشأ الحاكم المحلي المُعيّن هيرودوس مدينة طبرية على بحيرة الجليل تكريماً وحفظاً لاسم الإمبراطور الذي توفي بعد عمر طويل في ربيع عام سبعة وثلاثين.

في السنوات الأربع التالية تولى كرسي الحكم كاليغولا، وهو ابن أخي الإمبراطور المتوفى تيبريوس، وعاش في قصره مدة من الزمن أثناء طفولته، وكان يشاهد أفعال عمه الماجنة. وهناك من يروي أنه أُغْتصب من عمه. لكن في الفترة التالية أصبح يرافق والده في المعارك وهو يلبس زي جنود صنع خصوصاً ليناسب صغر حجمه، ولهذا لُقب كاليغولا أي الجزمة الطويلة. عند توليه الحكم حاولت أخته أغريبينا التدخل في شؤون الدولة، فقام بنفيها مع طفلها نيرون وأخته الثانية خارج روما، إذ كان يعرف خدعها وكانت حتى ذلك الحين قد قتلت بالسم والد طفلها، وسنرى أنها لاحقاً قتلت زوجين آخرين أحدهما إمبراطور لتمنح نيرون الحكم وهو صبي، ليقوم بدوره في ذروة جنونه بقتل أمه. أظهر كاليغولا البطش منذ بداية عهده، فتحول العطف الجماهيري على الطفل بالملابس العسكرية إلى كراهية وخوف من جنونه ومجونه. حكم الإمبراطورية بشكل مطلق، وهمش مجلس الشيوخ، بل في عامه الأخير عيّن حصانه المفضل عضواً في المجلس. كانت النزوات تنتابه فيصدر الأمر بقتل أي كان سواء من الأعيان أو الأجلاء، ذلك حتى يستمتع بالقدرة على الموت وقتما شاء، وكان يقول لجلاديه وهو يراقب القتل: أشعروه أنه يموت. منجزاته المعمارية في سنوات حكمه القليلة دفعت بعضهم إلى الاعتقاد أنه عبقري، وعندما يفلت زمامه يصبح مجنوناً، بل وصلت به الأمور ليعلن نفسه إلهاً يمكنه البناء والقتل والتعذيب بأساليب مبتكرة. هكذا أمر بإقامة تماثيل ضخمه له، ونصب منها واحداً في أورشليم

لإغاظة اليهود، ونقل مسلة تحتمس من مصر إلى روما ليستفز المصريين. ثم أعلن تأليه أخته دروسيلا وأشيع أنه تزوجها أيضاً على طريقة إلهة اليونان الأسطورية. لكنه أيضاً كان يعرف حدوده، فقد عجز عن نيل القمر وحاول إطلاع الشمس من الغرب، وحزن كثيراً لفشله. أجبر أشراف روما على التنازل عن ورثتهم لخزينة الدولة، ثم أطلق من يقتلهم لتصل الأموال إليه بسرعة. لم يكن كاليغولا ليصمد طويلاً بدون النفاق الذي أحيط به، وكان يعرف ذلك. ذات مرة تظاهر باقتراب موته، وأخذ يستمع من وراء حجاب إلى المحيطين به الذين أطلقوا الأماني بدفع كل ما لديهم لو نجا من الموت، ووصل الأمر ببعضهم بتقديم أنفسهم قرابين بديلاً عنه، عندها خرج عليهم وطلب من كل واحد أن ينفذ ما استعدّ به. وسمع ذات يوم من يمجد عهده بالقول إنه خلا من المجاعة، فأمر بإغلاق المحالّ وعمل كل شيء لاصطناع مجاعة في روما، وصار يتلذذ بتعذيب الناس جوعاً. ونقل عنه القول: أنا سأحل بدل الطاعون. كانت حادثة الحصان عام واحد وأربعين قمة جنونه. دخل مجلس الشيوخ على ظهر تانتوس، فاعترض أحد الأعضاء على ذلك حتى قال له الإمبراطور: أنا لا أدري لما أبدى العضو المحترم اعتراضه على الرغم من أن تانتوس أكثر احتراماً، فهو يحملني على ظهره. هنا هتف له بقية الشيوخ بالتأييد، فأصدر قراراً بتعيين جواده عضواً بدل العضو المعترض. هذا التعيين يتطلب احتفالاً رسمياً، وحضر الشيوخ إلى المأدبة باللباس الرسمي ليجدوا أن التبن والشعير وضع لهم في الصحون المذهبة. دُهشوا فأخبرهم كاليغولا أنه شرف لهم أن يأكلوا مثل تانتوس، فأكلوا ما عدا واحداً احتج وقذف تانتوس بالصحن، فهجم عليه الحراس، وتحولت المأدبة إلى معركة، إذ انضم بعض الشيوخ إلى زميلهم بينما البقية يصرخون والتبن يملأ أفواههم.

تذكر أوغسطين أن كاليغولا قتل قبل قرن ونصف قرن من الزمان فقط،

ولكن لا توجد رواية موثقة حول طريقة قتله، وذلك لكثرة أعدائه. الرواية شبه الرسمية تقول إن المعركة يوم تنصيب تانتوس انتهت بقتل الإمبراطور على أيدي الشيوخ!! وهناك رواية ثانية مفادها أنه سخر من أحد حراسه بتشبيه صوته بصوت عاهرة، وكان الإمبراطور قد اغتصب زوجة حارس آخر، فاتفق الاثنان على قتله، ونفذا ذلك بالسيوف عندما شاهداه وحيداً في أحد ممرات القصر، فتركاه يسبح في دمائه. أما الرواية الثالثة فتقول إن أخته أغريبينا والدة نيرون وجهت من منفاها في جزيرة بونتيا من دس له السم فمات مع زوجته وطفلته الصغيرة. الرواية الرابعة تقول إن ضابط الجيش كاسيوس شاريا قتل الإمبراطور في اليوم الثالث لاحتفالات أقيمت لتوديعه للسفر إلى مصر. عندما انتشر خبر موته في روما لم يصدّق الناس ما يسمعون، وظنوا أنها أحدث حيلة ليعرف من سيفرح لموته فيعود وينتقم منهم بطرائق جديدة غير تقطيعهم بالسيوف وإلقاء أجسادهم للحيوانات المفترسة. لكن الخبر تأكد فانطلق أهل روما يحطمون تماثيله الكثيرة في كل مكان.

من الجلي أن روما والإمبراطورية ككل تزعزعت ثقتها بكل شيء، لا أمن ولا قانون، والنفاق مستشر والاقتصاد متدهور جراء أحداث السنوات الأربع المنصرمة. هكذا قرر قادة الجيش ضبط الأمور بسرعة، فقرروا تنصيب عم كاليغولا ضعيف الشخصية لأن الإمبراطور المقتول لم يخلف أولاداً يرثونه كما هي العادة. عندما دخل الجند على العم كلوديوس ليبلغوه قرار تنصيبه، ظن أنهم قادمون لقتله، فاستلقى على الأرض يتضرّع إليهم. ولد كلوديوس مشوّهاً في رجله عرج، ويرتعش وينطق بتأتأة، وهذه العيوب جعلته مسخرة لابن أخيه الذي لم يقتله أو ينفيه، وكان اسمه بين العامة يستخدم كصفة للبلاهة. كانت الرغبة عند الجيش في تعيينه في منصبه

حتى لا يعارض رغباتهم، وأيدهم مجلس الشيوخ للهدف نفسه. أول أفعال الإمبرطور كان إعادة ابنتي أخيه أغريبينا وابنها نيرون وأختها ليفيلا من المنفى. وجه كلوديوس الجيش لاحتلال بريطانيا، وزارها في العام الثالث من حكمه، وأمر بتنفيذ مخطط لبناء قناة في روما كان يوليوس قيصر قد وضعه قبل تسعة عقود. مصائب هذا الإمبراطور كانت نسوية المنشأ، إذ تقربت أغريبينا إلى عمها وأثارت حفيظة الزوجة الثالثة للإمبراطور، ميسالينا، والدة بريتانيكوس وهو الابن الشرعي للإمبراطور، بينما أغريبينا تريد دفع ولدها نيرون ليرث عرش عمها. اشتد التنافس بينهما وأخذت كل واحدة تشي بالأخرى، حتى تغلبت أغريبينا على ميسالينا الجميلة والفاجرة الشهوانية التي عرف عنها اصطياد عشاقها في القصر، وروي عنها أنها طلبت مضاجعة زوج أمها، وعندما رفض أوشت به للإمبراطور الذي أعدمه بتهمة الخيانة. وكان من عشاقها عضو مجلس الشيوخ كايوس سيليوس، وعندما فضحت أغريبينا الأمر وكان عمها خارج روما، تخوف العاشقان فقرر كايوس الانقلاب، ولكنه فشل وأمر الإمبراطور بذبحه وتقطيع رجليه ويديه، وأمر بقتل زوجته الثالثة ميسالينا بعد تردّد طويل. خلت الساحة لأغريبينا وتعلق عمها بها إلى درجة استصدار قرار من الشيوخ بإمكانية الزواج بها، وتبنى رسمياً ولدها نيرون. نشطت الزوجة الجديدة الآن على تفخيم ولدها على حساب الابن الشرعي بريتانيكوس، فأظهرته في الاحتفالات والمراسيم كشاب مكتمل، بالإضافة إلى ذلك تقربت من أوكتافيا أخت بريتانيكوس ومهدت لزواجها من ولدها نيرون ليصبح الصهر والابن بالتبني للإمبراطور كلوديوس. نجحت مخططات أغريبينا لكن بعد عام على زواج نيرون من أوكتافيا، مرض كلوديوس وشعر آنذاك بنفوذ ابنة أخيه وبالظلم المحيق بحق ولده، وقبل أن

يفعل أي شيء سعت أغريبينا للحصول على سم لا تظهر آثاره، وتخلصت من عمها وجندت كل معارفها لتعيين نيرون إمبراطوراً.

أفاق أوغسطين على صوت زوجته برباره تناديه لتناول الطعام، ولمعت في ذهنه خاطرة أن حبيبته ماري مهتمة بتاريخ جدهما المشترك بولس، الذي عاش سنوات في روما ومات فيها أثناء حكم نيرون الذي شهد قمة عمليات تعذيب المسيحيين بعد اتهامهم بإحراق روما. هكذا عزم على مراجعة ما لديه من كتب ومخطوطات عن تلك الحقبة ليرويها لماري إذا تمكنت من لقائه غداً.

٥

مع بداية عهد نيرون في العام أربعة وخمسين، كانت الأديان المشرقية المصدر منتشرة في روما إلى جانب آلهة الإغريق والرومان، ولم يبدأ التبشير بالمسيحية عملياً إلا بوصول بولس أسيراً من فلسطين، حيث أرادت زعامة اليهود تصفيته أثناء زيارته الخامسة لأورشليم، لكنّ ضابطاً رومانياً أنقذه منهم وأرسله تحت الحراسة إلى مقر الوالي في قيصرية ليحكم في شأنه. مكث بولس سنتين في الاعتقال حتى حضر والٍ جديد، فلم يجد هذا مناصاً من إرسال بولس إلى روما ليضعه تحت تصرف الإمبراطور، كونه مواطناً رومانياً يتمتع بحقوق تؤهله للمطالبة بالمثول أمام الإمبراطور، إذ ليس مسموحاً بتعذيب مواطني الإمبراطورية، وإذا حُكم على أحدهم بالإعدام فينفذ الحكم بالسيف وليس بأي أسلوب تعذيبي. وصل بولس إلى روما بعد رحلة بحرية كادت تودي بحياته، إذ غرق المركب بالقرب من جزيرة يونانية ومات مرافقوه، ولكنه أكمل الرحلة إلى العاصمة، فوجد الترحيب هناك، إذ كانت المعرفة بالمسيحية قد سبقته، ووجدت آذاناً صاغية عند بعض رجالات القصر. إدارة شؤون الإمبراطورية آنذاك تولاها معلم نيرون الفيلسوف سينيك وقائد الجيش بوروس، وهما اللذان ساعدا أغريبينا على تنصيب ولدها نيرون إمبراطوراً. مُنح بولس حق الإقامة الجبرية المفتوحة ريثما يُبت أمره، وكان يستقبل رواده في بيت استأجره ويجالسهم ويعلمهم

المسيحية علانية. في رسالته الشهيرة التي كتبها في روما إلى أهل فيليبي قال: «يسلّم عليكم جميع القديسين ولا سيما الذين من بيت قيصر» وعلى الأرجح إن الفيلسوف سينيك كان هو المقصود بذلك.

بدورها وجدت اليهودية في روما منذ زمن بعيد، حين سار اليهود على خطى الاسكندر المقدوني وتبعوه في غزواته يبيعون ويشترون. لاحقاً صار أتباع اليهودية عرضة لأمزجة القادة اليونان، ومن ثم الأباطرة الرومان الذين ورثوا الإمبراطورية الإغريقية. لم تكن اليهودية محببة لدى عامة الشعب كونها منغلقة على نفسها ولا تسمح بالانتماء إليها، لكنها تسعى لكسب الأنصار في مراكز مهمّة للاستفادة منهم. كانت اليهودية معروفة بين سيدات روما ويفضلنها على غيرها من العبادات الشرقية. إلى جانب اليهودية الشرقية عرفت روما أيضاً إله النبيذ الإغريقي باخوس، وكان الجند يتعبدون له بالشراب وحلقات الرقص في كل الإمبراطورية، فاعُتبر خطراً على الأمن، ولهذا تحوّل هذا المعتقد إلى السرية، وبالتالي زاد تعلق أنصاره ومريديه به وصاروا يجتمعون خلسة لأداء مناسكهم. أيضاً الربة المصرية إيزيس كانت تُعبد في روما، وفرض على المنتمين الجدد أن يصوموا في البداية قبل قبولهم، فتظهر لهم إيزيس تعبيراً عما سيلاقونه في الحياة الأخرى بعد الموت، فهي التي بحثت طويلاً عن جثة زوجها الذي هو أخوها أيضاً، وأعادته إلى الحياة وأختبأت بين المستنقعات تربّي ولدها حورس حتى كبر وانتقم من عمه الذي قتل والده. إلهة الشمس الفارسية ميثرا كانت هي الأخرى تُعبد وموقرة بين الجند الرومان، لأنها قتلت الثور الذي هو أول المخلوقات وأقواها، وبالتالي تمثل ميثرا لديهم مبادئ الطاعة والتضحية والشجاعة. وكانت العضوية لهذه الديانة مقتصرة على الذكور، ووصلت عبادتها بين جند الرومان حتى معسكراتهم في بريطانيا.

جمع أوغسطين هذه المعلومات لتكون ذخراً له في الحديث مع حبيبته ماري عن جدّهما الأول بولس. لم يكن على ثقة أنها ستتمكن من الحضور للقائه. صحيح أنها شاهدته يشير إليها بذراعه في التجمع على نهر السندس بعد الاجتماع الكنسي، ولكنه غير متأكد أنها فهمت الإشارة أو أن ظروفها ستسمح لها. كان يعرف أنها مغرمة بأي معلومات عن الجد بولس والظروف التي عاش ومات فيها، ولهذا تعمق في جمع تفاصيل مرحلة حكم الإمبراطور نيرون.

في بداية حكمه كان نيرون لم يتجاوز السادسة عشرة بعد، وكانت والدته تدير الدولة بإرشاد وتعاون من الفيلسوف المحنّك سينيك مؤلف الخطب الحماسية، والضابط بوروس الذي أصبح قائداً للجيش كما وعدته أغريبينا قبل التخلص من عمها الإمبراطور كلوديوس. تسلم الفيلسوف والقائد مهمة إكمال تربية نيرون، وأغدقت الأم بدورها على أعضاء مجلس الشيوخ، فتناسى الجميع كيف قُتل الإمبراطور السابق وتجاهلوا حق ولده الشرعي بريتانيكوس في الحكم. لكن المشاكل قفزت لأغريبينا من حيث لا تدري، فقد ملّ ابنها تمثيل دور الإمبراطور، بينما أمه تتدخل في كل شيء، ولم يعد بوسع القائد والفيلسوف ضبط تمرد نيرون الذي أظهر في البداية عاطفه إنسانية حين منع المصارعات القاتلة في روما، وكان شخصياً يحب الموسيقى والتمثيل. أصبح يستقل في قراراته وابتعد عن زوجته أوكتافيا كونها صنيعة والدته، وانجذب إلى مغنية آسيوية اسمها أكتي، مما دفع الأم إلى توبيخه وتحذيره أن استمراره في العناد سيدفعها إلى تنصيب الوارث الشرعي بديلاً عنه. ربما لم يصدّق نيرون تهديد أمه، ولكنها قوية ومتنفذة، ويهمها بالدرجة الأولى أن تحكم. هكذا قام نيرون بتسميم بريتانيكوس لإزالة التهديد، ثم نشط لتحجيم دور أمه، فأخرجها من قصر الحكم إلى قصر

عائلي آخر وتعامل معها رسمياً، ثم انطلق حراً إلى العربدة وإشباع رغباته، فتحول حكمه إلى كارثة على الشعب. كان يظن أنه مغنّ بارع، وأصبح يتنكر بزي اللصوص، ويقطع الطريق ليلاً مع عصابته ويقيم حفلات ماجنة. ذات حفلة أخبره بعض أصدقائه أن والدته تعد انقلاباً ضده فأرسل لها قائد الجيش والفيلسوف سينيك لاستجوابها، فنعتته بأشنع الألفاظ، ولكنها أثبتت براءتها، فعاد الهدوء الحذر بين الابن والأم إلى حين.

انتهت الهدنة بتعرّف بوبيه إلى نيرون التي دفعته لاحقاً إلى طلاق أوكتافيا وإعدامها بتهمة الزنى، ونجت أمه من حادثة غرق دبرها لها بتحريض من بوبيه، ثم أرسل لها من قتلها وحرق جثتها. ثم ضاق نيرون ذرعاً بالفيلسوف سينيك واعتبره من رجال مرحلة ولّت، فأرسل له أمراً أن يقتل نفسه بقطع شرايينه، وحوصر بيته حتى نفذ الفيلسوف العجوز طلب الإمبراطور المجنون، واتضح أن بوبيه انتصرت وتزوجت نيرون، وهنا بدأت بتدبير المؤامرات ضد المسيحيين واختفى بولس من روما.

في الوقت التقليدي للقاء، شاهد أوغسطين من بعيد ماري قادمة تسير على ضفة النهر، فاجتاز الشارع حيث كان قد وصل قبل قليل، وسار أمامها حتى لحقت به. تبادلا التحية من دون تلامس، وواصلا المسير باتجاه البحيرة والأشجار والزهور البرية التي تحيط بها. أخبرته أنها بالكاد تمكنت من الخروج، وأن أمها عرفت باللقاء الأخير الذي تم بينهما، وأخذت منها الوعود والعهود والأيمان أنها لن تلتقيه. انزعج لما سمع ولكون مجدلينا أصبحت تعرف فعلياً بحبهما، وفهم معنى نظراتها السامة إليه في الاجتماع الكنسي، واستغرب بالفعل أنها عقدت مع ابنتها صفقة أن لا تخبر والدها شرط توقف ماري عن اللقاءات. تمالك مشاعره وطمأن ماري أن الأمور سوف تسير على ما يرام، وأن خطبتها إلى ميخائيل سوف تتوج بزواج قريب،

وهذا سيغير الوضع ويخرجها من دائرة رقابة أمها وتحكّمها. أخذ يحادثها عما جمع من معلومات، ولاحظ أن شرودها الذهني أخذ يتلاشى وهي تستمع إلى دور العشيقة بوبيه وقدرتها على تدبير الأمور وتحقيق نجاحات تؤثر في الإمبراطورية كلها، فقدم أوغسطين لها المزيد.

وصفت بوبيه بساحرة الجمال، وبأن لجسدها فتنة، وذات عقل تآمري، تمكنت من تملّك قلب نيرون وعقله وجسده. ويقال إنها كانت عاهرة عندما تعرّف إليها الإمبراطور في إحدى حفلات الخلاعة، لكن هذا الاتهام على الأرجح روّجه خصومها، إذ كانت زوجة لأحد رجال الدولة عندما شاهدها نيرون لأول مرة بعد أربع سنوات من توليه الحكم. منذ ذلك الحين بدأت تخطط وتعدّ نفسها للمهمة، واستفادت من أنوثتها الفاتنة وخلاعة الإمبراطور الشاب. خطت أولى الخطوات بطلاق زوجها والتنازل عن ابنها، ثم تزوجت أحد المقربين من نيرون وهو سالفيوس أوتو لتكون قريبة من القصر، وتتجاوب مع رغبات الإمبراطور، وتظهر قدراتها له. استجاب نيرون للخطوة الثالثة من مؤامرة بوبيه حين قام بترقية زوجها وصديقة القائد أوتو، وأرسله إلى إقليم بعيد عن روما. لم تكتف بوبيه بدور الخليلة في القصر، بل نجحت في التخلص من الزوجة أوكتافيا، وأخذت دورها كإمبراطورة. وكانت قبل ذلك بسنتين قد تخلصت من أغريبينا أم نيرون. المهم هنا أن بوبيه كانت مقربة للدين اليهودي كونه مُصرّحاً به في روما، وتوسطت لدى نيرون لإطلاق سراح بعضهم من السجن، حين حضر يوسيفوس الاسكندري اليهودي في سفارة إلى روما بتكليف من السانهدرين في أورشليم، فالتقى بوبيه ولبّت طلبه الظاهري بإطلاق سراح بضعة كهنة كان الوالي في قيصرية قد اعتقلهم وأرسلهم إلى روما للمحاكمة. كان واسطة اللقاء بين يوسيفوس والإمبراطورة بوبيه النديم الخاص لها ألبتيرس، وهو ممثل ومهرّج يهودي

يعمل في القصر الإمبراطوري. لم تكن هذه أول حادثة دعم لليهود، فقد أيدت بوبيه اليهود في نزاع مع صديق نيرون ملك أورشليم أغريباس. أقام هذا الملك مشرباً يطل على الهيكل، فقام الكهنة ببناء سور يحجب الرؤية، ووصل الأمر إلى الوالي فستوس، فأمر بهدم السور، لكنّ اليهود رفضوا وأوصلوا الأمر إلى روما، وهنا تدخلت بوبيه وبقي السور. وقد وصف يوسيفوس بوبيه بأنها مؤمنة بالله العلي، وهذا يعني أنها غير يهودية المولد، ولكنها من المؤمنين المحرومين من شرف الانتماء إلى الدين اليهودي، وكان الكثير من أمثال هؤلاء ينتشرون في مدن الإمبراطورية، وقد تحول الكثير منهم إلى المسيحية لاحقاً كونها ديانة يهودية الأصل وتسمح للجميع باعتناقها، لكن ما لم يذكره الاسكندري اليهودي يوسيفوس في مؤلفه التاريخي أنها كتبت في وصيتها أن تُدفن حسب الطقوس اليهودية، وقد حقق نيرون لها ذلك.

كانت موالية لليهود إذاً، وكان من طبعهم تجنيد أمثالها، ولهذا قال السيد المسيح لهم: «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون البحر لتكسبوا دخيلاً واحداً ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنّم أكثر منكم مضاعفاً».

«لماذا قلت إن زيارة يوسيفوس لروما لها هدف معلن؟ هل كان هناك هدف آخر غير معلن؟»

«الأمور تعرف بالعقل»، أجاب أوغسطين عن سؤال ماري، وأكمل: «عندما وقع حريق روما، كانت النتيجة بداية موجة من تعذيب المسيحيين وقتلهم استمرت سنوات، وكانت ديانتنا قبل الحريق آخذه في الانتشار السريع، وجدّنا بولس في قمة نشاطه حتى نجحت بوبيه في التخلص من سينيك خصم اليهود. الشيء الآخر الذي يجب وضعه في الحسبان أن

يوسيفوس الاسكندري كان في روما قبل الحريق وأثناءه وبعده، وجاء إلى روما بعد اللقاء مع السانهدرين في أورشليم، وهم الذين سعوا للتخلص من بولس، ولكنه نجا منهم واستقر في عقر دار الإمبراطورية ونجح في مهام نشر المسيحية. وبالتأكيد كانت أخبار القصر وما يدور في روما يصل تباعاً إلى السانهدرين». توقف أوغسطين لحظات يتأمل فاه ماري المفتوح فمصّت شفتها السفلى وأغلقت فاها وفتحت عينيها مشيرة إليه بالاستمرار. «اتهام المسيحيين بإحراق روما لا مبرّر له على الإطلاق، لأنهم كانوا مستفيدين من الاستمرار ونشر دينهم بسلام. وحتى لو لم يكن اليهود هم الذين أحرقوا روما، فإنهم من أقنع نيرون عبر بوبيه بتوجيه التهمة إلى المسيحيين. وإذا افترضنا أن نيرون بالفعل هو الذي أحرق عاصمة إمبراطوريته، فلم يكن الأمر ليخفى على بوبيه التي اشتركت مع نيرون في جرائم قتل فظيعة، وبالتالي كانت تعرف ما يخطط له وأبلغت اليهود عنه. أنا لا أصدّق أن نيرون أحرق روما، لأن الأمر كان سيفتضح مثل كل أفعاله الأخرى. أين الذين أشعلوا النار ولماذا يصمتون؟ والمعروف أن نيرون لم يكن في روما آنذاك، ووصلها بعد يومين من اشتعال النار التي دمرت نصفها وقتلت آلافاً من البشر».

«هل من المعقول أن بوبيه شاركت في مخطط إحراق روما؟»

«معقول جداً، ماضيها لا يعصمها. قد يكون نيرون حدّثها عن أشعار هوميروس اليوناني وهو يتفرج على حريق طروادة، وتعرفين أن نيرون كان يسافر إلى اليونان ويشارك في مسرحيات ويعود إلى روما محمّلاً بالجوائز. ربما وضعت في رأسه فكرة إحراق مدينة ليأتيه إلهام الشعر، أو ربما كانت فكرته هو فشجعته عليها، ثم سعت لإحراق روما لتلبي له طلبه، وبالطبع أخبرت اليهود ليستعدوا للاستفادة من الحريق المقبل».

«ألديهم فوائد غير الإضرار بالمسيحيين؟» سألت ماري بقليل من الاستغراب.

«هدم المدن وإحراقها يتطلب إعادة إعمارها، وهذا سيحتاج إلى أموال وقروض وربا، وهذا كله متوافر لديهم وهذه حرفهم أينما ذهبوا».

صمت أوغسطين وكأنه تذكر شيئاً يؤيد كلامه ثم أضاف: «بعد عامين من إحراق روما، اتهم يهودي مرتد اسمه أنطيوخس بعض اليهود الغرباء عن أنطاكية بأنهم يخططون لإحراق المدينة كلها في ليلة واحدة، وكان ذلك في عهد نيرون أيضاً. ثم وبعد أربع سنوات أخرى وعلى أثر تدمير الهيكل ومدينة أورشليم أواخر عام سبعين بإشراف تيتوس ابن الإمبراطور الجديد فسبازيان، تم إحراق أنطاكية بالفعل، ومرة أخرى اتهم اليهودي المرتد اليهود بالقيام بهذا الفعل. لقد مر تيتوس ابن الإمبراطور بأنطاكية في طريق العودة من أورشليم إلى روما، وطلب منه المواطنون أن يطرد اليهود من أنطاكية، فرفض وشرح لهم أنّ بعد تدمير الهيكل وتخريبه أورشليم لم يعد هناك مكان يذهب اليهود إليه، ولن يقبلهم أحد في بلده. هنا طلب منه الأنطاكيون أن يحرم اليهود من الامتيازات الممنوحة لهم، ومرة أخرى رفض تيتوس هذا الطلب، ولكنه وزع بعض غنائمه التي حملها من أورشليم على أهل أنطاكية فسكتوا».

«لماذا رفض إلغاء امتيازاتهم بعد أن دمر الهيكل والمدينة، ونهب يهودا انتقاماً لإحراقهم روما؟»

«لأن والده تسلم الحكم قبل عام فقط، ولأنه سيكون الإمبراطور بعد والده، وبالتالي لم يرغب في إثارة اليهود خارج يهودا والمنتشرين في كل مدن الإمبراطورية، لأن هذا سيؤدي، بالتأكيد، إلى ثورات ومشاكل

للإمبراطورية، بل إن تيتوس أجرى تحقيقاً حول حريق أنطاكية، وأعلن براءة اليهود من التهم الموجهة إليهم».

«لقد ابتعدنا عن حريق روما ولم تذكر لي حتى الآن ماذا حلّ بالفعل بجدّنا بولس؟»

«على الأرجح إن جدّنا تخفى عندما استشعر الخطر، بعد غدر نيرون بصديقيه قائد الجيش والفيلسوف اللذين علماه وأوصلاه إلى الكرسي وكانا يعطفان على بولس ويبغضان اليهود. لقد انقلبت الأمور بنجاح بوبيه في مساعيها، واحتلالها كرسي الإمبراطورة مع تأثير مطلق لها في نيرون الذي قتل والدته بناء على تحريض منها. وكان جدّنا على حق بالتخفي لأن أبواب الجحيم فتحت على المسيحيين في كل أرجاء الإمبراطورية بعد ترويج اتهامهم بالحريق. أينما وجدوا أُحرقوا أو صلبوا أو وضعت جلود الحيوانات على أجسامهم، وزُجّ بهم للحيوانات المفترسة والكلاب المسعورة. كل من أراد الارتقاء في منصبه كان عليه أن يضبط مسيحيين ويتفنن في تعذيبهم، ولم يكن أمام قومنا سوى الاختباء في المجاري والكهوف حتى ينجوا بأنفسهم، ولكنهم لم يرتدّوا عن دينهم أمام أشد أنواع التعذيب، فقد كانوا على اقتناع أنهم سيعودون بعد الشهادة إلى الحياة في ظل مملكه الرب الجديدة».

«عليهم اللعنة أنصار الشيطان». كان التأثر بادياً على ماري وهي تستمع إلى أنواع العذاب الذي قاساه المسيحيون، وكانا قد وصلا إلى ضفة البحيرة على الطرف الشمالي لمدينة طرسوس.

«انتقام الرب لم يغب طويلاً عنهم يا ماري. في العام التالي على الحريق، اختلف نيرون مع بوبيه فضربها بيديه حتى الموت، وأحضر ولدها وأمر بإغراقه، وغادر يوسيفوس روما على وجه السرعة إلى أورشليم ليظهر لاحقاً قائداً حربياً لجيش اليهود في الجليل. لكن عذاب المسيحيين وجنون

نيرون لم يتوقفا إلا بعد مذابح جديدة أدت إلى نهايته. بسبب الفوضى تشجعت الأقاليم على الثورة ضد روما، ففي الشمال تزعمت ملكة الإيكينين ثورة، وفي مملكة أرمينيا ألغيت امتيازات الإمبراطورية، أما في أورشليم فقد ثار اليهود واستعدوا لطرد الرومان، وفي روما وقعت عدة انقلابات فاشلة أشهرها ما تزعمه بيزو وانضم إليه أحد مستشاري نيرون، وشاركت معهم سيدة تدعى أبيكاريس وهي أول من وقعت في الاعتقال، ولكنها لم تعترف عن أحد على الرغم من أنواع التعذيب التي مورست ضدها. بالطبع تخوف بقية المتآمرين أن تفشي سرهم، فقرروا الإسراع في التنفيذ، ووصل خبرهم عبر أحد العبيد إلى نيرون، فباشر الاعتقالات والتعذيب وإكراه كل منهم على الاعتراف عن غيره سواء بالحق أو بالباطل حتى قتل خمسة آلاف مواطن».

تقدّم الاثنان بين الأشجار من الشاطئ حتى لاحظا ابتلال الأرض وصعوبة التقدم إلى الماء، فجلسا على جذع شجرة أوقعها نخر الحشرات. لم يعد بوسع أحد رؤيتهما من الطرق المنتشرة حول البحيرة الممتدة أمامهما بين الجبال. واصل أوغسطين حديثه وارتأى أن يوجز أحاديث السياسة، وينتقل إلى دغدغة حواس محبوبته:

لم يتوقف اضطهاد المسيحيين، لأنه كان ملهاة الإمبراطور للشعب، لكن الفوضى والجريمة عمتا البلاد. أرسلَ نيرون قواد جيوشه إلى الأقاليم الثائرة، واتجه فسبازيان إلى فلسطين، والتقى في عكا ولده تيتوس القادم من الاسكندرية. أما نيرون فترك روما إلى اليونان للمشاركة في مهرجان غنائي. في هذه الأثناء، ثار أحد نبلاء بلاد الغال على روما، وأخذ بالتوسع، مما دفع مجلس الشيوخ إلى إعلان نيرون عدواً للشعب عام ثمانية وستين. هرب الإمبراطور عندما وصله الخبر، واختبأ في كوخ يملكه أحد خدمه، وكثر بكاؤه حتى سمع وقع أقدام الجنود، فانتحر قبل أن يقبضوا عليه. مات

نيرون، ولكن من شدة الويلات التي أنزلها بالمسيحيين الأوائل، قال بعضهم إنه المسيح الدجال وإنه سيعود مجدداً. أما اليهود فقد كتبوا عنه لاحقاً في التلمود أنه اهتدى في أواخر أيامه، وكتبوا أنه زار أورشليم وأسمعه طفل يهودي ترانيم من سفر حزقيال.

«مات الإمبراطور ولم يترك وارثاً، الآن ستبدأ المشاكل». استنتجت ماري وقهقه أوغسطين لفطنتها وشعر أنه لن ينجح في تغيير موضوع النقاش بسرعة.

«خلال أقل من عام تلا، تكالب الجنرالات على الحكم. في كل إقليم بايع الجند جنرالهم إمبراطوراً وتحرّكوا معه إلى روما، وبعد معارك بين الجند اتفق في النهاية أربعة على الحكم، وهم جاليا وأوتو وفيتليوس وفسبازيان، وأوتو هذا هو زوج بوبيه الثاني، ولكن فسبازيان تخلص منهم تدريجاً، واستولى على الحكم بمساعدة ولديه تيتوس ودوميتيان اللذين تسلما الحكم بالتوالي من بعده، وأعادوا إلى الإمبراطورية مجدها هم ومن تبعهم مثل نيرفا وتراجان وهادريان، مروراً بأنطونيوس بيوس وماركوس ثم الإمبراطور الحالي كومودوس الذي شهد إحراق روما مجدداً في أيامنا هذه».

«إن ما يديم بقاء الإمبراطورية مسيطرة على أقاليم الآخرين هو عدم وجود ما هو أفضل منها. كيف لواقع كهذا الاستمرار؟ نواب للشعب في مجلس الشيوخ مرتشون وخاضعون لرغبات من يدفع لهم، أو من يتحكم فيهم عبر الخداع والجنس؟ أباطرة يتناوبون على الحكم داخل العائلة لأبناء بالتبنّي أو أبناء غير شرعيين أو أبناء أخوات وإخوة؟» قالت ماري بجدية واضحة.

«أعتقد، يا ماري، أنها القوة والبطش اللذي يحميان الحكم، وهذا

الأمر لن يتغير في المستقبل، ولكن الإخلال بالتوازن بين البطش والأمن هو الذي يحدّد عمر أي كيان ومصيره. المواطن، في النهاية، يريد الأمن والطعام والتسلية، إذا حُرم مواطن الإمبراطورية منها فهذا حتماً يعني حرمان الآخرين في الأقاليم، وبالتالي ستعم الفوضى والتحلل».

«كيف هذا، ألم تقل لي ذات مرة إنَّ الفقر هو أكثر شيء يكسر روح الإنسان؟ وبالتالي إذا أردت التحكم في قوم فأفقرهم!» انفرجت أساريره كونها حفظت أشياء مما كان يقوله لها، لكنه لم يتذكر أنه أخبرها بشيء كهذا. فسألها إذا كانت تتذكر أقوالاً أخرى له. «الحب مرغوب فيه، ولكن المال ضروري لنجاحه واستمراره». رفع حاجبيه وانطلقت منه ضحكة وغزا قلبه المزيد من الإعجاب، لأنه لم يقل لها هذا الكلام هكذا، وإنما وفق سرد أطول، وها هي تصوغه على شكل حكمة وتخرج عن إطار أحاديث السياسة.

«أتمنّى من أعماق قلبي أن يتوافر لكِ ولميخائيل المال اللازم للحب ودوامه». مد ذراعه إلى كتفها وضمها إليه فمالت تجاهه وهي تنظر إلى الأمام بعينين نصف مغمضتين، ولم تنسحب عندما طبع قبلة على خدها، بل أدارت وجهها إليه فالتقت شفتاهما في قبلة قصيرة أنهاها، وأخذ يتلفت حولهما إذا كان هناك من يتمشى أو يجلس بالقرب منهما. انتظر وهلة بدت طويلة ريثما عاد قلبه إلى النبض شبه الطبيعي. «أحبك فوق كل شيء».. همس بالقرب من أذنها وهو يضغط بيده على كتفها. «وسأكون حريصاً عليك في كل شيء وزمان ومكان».

«أعرف ذلك وأنت الأمين عليّ، وسأعتبرك مرجعي الأول في كل حاجة واستفسار». وضعت رأسها على كتفه ومدّت ذراعها لتطوقه أسفل الظهر. «ليتني سأحُب ميخائيل لاحقاً كما أحبك الآن».

«إنه رجل طيب وستعودينه بسرعة وتحترمينه ثم يتحول الأمر إلى

حب». توقف ليراجع ما سيقوله ثم قرر أن يواصل: «لكن إذا أحببتهِ فهل يفتر حبنا؟ من جهتي سأحبك ما حييت ولن يؤسفني أي قرار تتخذينه». لم تُجب ولكنها شدّت يدها على خاصرته، وحرّكت جسدها ليلتصق جنباهما أكثر. «سأقول لك حكمة أخرى الآن، لا تصدقي أن القلب يحب مرة واحدة وإنساناً واحداً فقط. أيضاً لا أظن أن الحب يتغلب على المصلحة، هما يتعايشان بسلام، ولكن إذا تحتّم الاختيار بينهما فالمصلحة غلابة».

«هذه كتلة حكم». قالت ورفعت رأسها عن كتفه. «أصعب الأشياء أن لا تتمكن من الزواج بحب وتُجبر على الزواج بدونه». شعر بحراجة الموقف وهو يستمع إليها.

«الأتعس أن لا يكون بوسعك الزواج بحب، وأن لا تتزوج أبداً بدونه. الزواج بالاحترام المتبادل قد يتحول إلى حب بسرعة، المهم أن لا يكون في الزواج طرف كراهية مسبق فهذا مصيره الكوارث والفشل». هكذا أعطاها عاملين إيجابيين لزواجها من ميخائيل فهو يحترمها وهي لا تكرهه، وأكمل: «تأكدي دوماً أنني سأحبك، وليس من الضروري لاستمرار حبنا أن يتغذى بالنكاح، يكفي أن كل منا يحب الآخر ومستعد لتقديم أي شيء له، ولكن تبقى هذه القناعة سرّنا ومُنقذنا مجتمعين ومنفردين. من جهتي سأحترم قداسة ارتباطك بآخر لكن حبي لك لن يتوقف». ارتعش صوته ولم يعرف لماذا قال هذا الكلام، فهو يتمناها وبوسعه الآن تطوير القُبَل إلى أي درجة ممتعة من دون النكاح الفعلي، وفي ذلك تحقيق شهوة وأمانٍ كثيراً ما داعبت خياله، فلماذا إذاً وضع هذه القيوذ لنفسه وردع أي قابلية موقته منها؟ لم تتزوج بعد وها هو يتقمص دور النبيل. لقد أخبرته في بداية اللقاء اليوم عن توبيخ والدتها لها وأخذ القسم منها أن لا تلقاه مجدداً، ولكنها حنثت وحضرت وتضمه الآن ولم تمانع في قبلتهما الأولى، فلماذا انتابته هذه

النهفة الأخلاقية؟ انشق ذهنة إلى نقيضين، واحد يحثه على الإقدام لإشباع رغباته وتطبيق أحلام اليقظة التي كثيراً ما تسيطر عليه، والنصف الثاني يقدم له الحلول العاطفية الإنسانية فيذكره بزوجته المخلصة ويؤنبه لما قد يحدث لو شاهدهما أحد في وضع عاطفي، وكيف سيدمر هذا فرص زواج وسعادة حبيبته وما سيجرّه من مشاكل.

«لدي بعض الأفكار أريد أن اشاورك فيها». رفع ذراعه عن كتفها وفتح صندوقاً صغيراً من القش أحضره معه وفيه بعض اللحوم والسمك المجفف إلى جانب قطعتي خبز وحبتي رمان وتين مجفف وقربة نبيذ. «أفكر في السفر إلى أقاليم شرق البحر، فينيقيا وسوريا وفلسطين وأورشليم منتصف العالم. سأحمل خيامي إليهم وأجلب نبيذ غزة وأقمشة صيدا المصبوغة». توقف وهو يمد لها الصندوق لتأخذ ما تريد ورأى علامات دهشة في عينيها. «..صحيح بضاعتي تصلهم مع القوافل ولكني أتشوق للمشاهدة وليس لجني الأرباح فقط. أصبح لدي الكثير جداً من النقود».. تناول حبة الرمان وعمل بيديه على مشقها وواصل حديثه من دون أن ينظر إليها: «..أود أن تشاركي برباره في العثور على مشاركات أخريات ومشاركين عبر الكنيسة لإقامة ملجأ للأيتام وللمعاقين الذين تعج بهم مدينتنا. المهم أن يكونوا من الصغار وأن لا يقتصر الأمر على أبناء طائفتنا، بل ضموا أبناء اليهود وكل الآخرين أيضاً». مد يده إليها ببعض حبات الرمان ورأى أنها ما زالت تمسك بقطعة الخبز. رفع عينيه إلى وجهها فإذا بخليط الكحل والدموع يسيل كخيوط سود على وجنتيها. انتفضت واقفة وكتفت صدرها بذراعيها وأدارت ظهرها إليه. «لن أغيب طويلاً، أقل من نصف عام، سيكون أسهل لك مع غيابي التأقلم في حياتك الجديدة، وسيكون أرحم عليّ أيضاً». لم تغير موقعها ولم تحرك جسدها، ضمها من الخلف ووضع يديه فوق يديها

المشدودتين تحت نهديها وحافظ على عدم تماس وسطه مع مؤخرتها. «ستكونين منشغلة مع زوجك وبيتك والأيتام، إذا أعجبتك الفكرة طبعاً. سأموّل الملجأ بالحد الأدنى المطلوب ومن المؤكد أن آخرين سيتبرعون أيضاً، مدينتنا فيها الخير، وكما تمول مدارس وطلاب العلم فلن يبخل الأغنياء فيها على التعساء». استدارت وواجهته وضمته إلى صدرها بينما حافظ هو على ضمها بذراع وأخذ يمسح السواد عن وجنتيها بيده الأخرى. لم تكن قريبة منه هكذا على الإطلاق، ولكنه عرف في قرارة نفسه أنه خسرها، وانتهت المتع القليلة التي كان ينالها من علاقتهما المتقطعة، الآن ستحل القطيعة بينهما.

٦

«هل أهديك إلى مصدر دخل يريحك من هذا التنقل مع القوافل ومعاناة مماحكة التجار أينما حللت؟»

«لم يهدِني أي إله حتى الآن، إذا كنت ترغب في إرشادي إلى طرق الكسب السهل فاعلم أن لدي الكثير من المال، كما أنني أستمتع بالترحال بين الحين والآخر، ولكنني بالفعل أكره المماحكات». فغر الرجل فاه وهو ينظر إلى أوغسطين يجيب عن سؤال بريء أراد منه حديثاً متبادلاً مفيداً. كان أوغسطين سارحاً حين أسمعه حادي القافلة هذا السؤال وهم على مشارف أنطاكية بعد أسبوع من الترحال. استدرك أوغسطين وقع كلامه على الرجل فتبسّم له وأضاف: «اعذرني فقد أيقظتني من مناقشة صاخبة مع نفسي. دعني أخمّن: تريد إرشادي إلى عمل ما يتعلق بالحيوانات، صحيح؟» وافق الحادي بإيماءة من رأسه وهو يضغط على عمامته. لقد سمع أوغسطين غير مرة هذا الحادي وهو يحث التجار على تربية حيوانات القوافل لبيعها بدل انشغالهم بالسفر المضني الذي أخذ طفولته وشبابه ولم يُغنهِ بعد، كما كان يقول لهم. «ما الأسهل حسب خبرتك، توليد الحمير أو البغال أو الخيول؟»

«الأفضل، وما أنصحك به هو الشيء الجديد في هذا المجال، إنها الجمال». قال الحادي مزهواً، وقد تجاهل موقف أوغسطين السابق، وها هو يرى حاجبيه يرتفعان استغراباً. «نعم، الجمال والنوق، سيدة الصحراء تحمل

أضعاف حمولة البغال وتدر اللبن المُنشط».. تبسَم الحادي وقد ركز على كلمة منشط، ثم أضاف: «..ويؤكل لحمها عند الضرورة. هل تعرف ما هو الجمل؟»

«لقد سمعت عنه ولكني بالفعل لم أشاهده قطّ، وما قصة أن لبنه مُنشط؟»

«نعم منشط، ويعطيك قوة جنسية تؤهلك لعدة جولات كل يوم». ضحك الاثنان وخطر على بال أوغسطين أن يسأل الحادي إذا كان قد نكح حمارة، فالرجل يقضي معظم حياته مع الحمير والخيول وابنهما البغل، ولكنه ردع نفسه وترك الحادي يواصل نصائحه ومعلوماته عن الجمل. «ركوبه صعب».. ضحك أوغسطين، فأضاف الحادي وهو ينفي بحركة من رأسه: «هذا وذاك صعب، ولكني أقصد أنه مرتفع وله هرم منحدر الأطراف على ظهره ويسير بحركة تتطلب من راكبه حركة دائمة معاكسة، ولكنه ممتاز للحمولة ويتحمل الجوع والعطش».

«كيف تعرفت إلى هذا الحيوان العجيب؟»

«رأيته قبل سنوات في غزة، قالوا إنه مستورد من آسيا عبر فارس وبلاد الرافدين وقد انتشر في صحراء أفريقيا ينقل البضائع من الواحات في الصحارى إلى المدن الساحلية. إنه بقوة الفيل ولكنه أكثر رشاقة ومتطلباته أقل». نظر الحادي إلى أوغسطين وسأله إذا كان يعرف الفيل.

«تستعرض عليّ حيواناتك القوية! نعم، أعرف الفيل، أو الأحرى سمعت عنه وشاهدت رسومات له في روما التي غزاها هنيبعل القرطاجي الفينيقي بالفيلة التي سيّرها من أفريقيا عبر إيبيريا وجبال الثلج إلى روما».

«نعم، إنها أفريقيّة المولد ولا تصلح للقوافل، وإنما يستفاد من قوّتها في أعمال البناء وجر الحجارة الضخمة. أما الجمل فهو شيء مختلف، أطوع من الفيل وأشرس من الحمار، وهو قوي الذاكرة، وإذا أهنته يمكن أن يعضك

أو يضربك برأسه القائم على رقبة طويلة». استمر الحادي يتحدث عن سرعة الجمل وغذائه، وتنبه أوغسطين عندما سمع أن وبره يستعمل في غزل الملابس والخيام.

«لماذا لم ينتشر في ربوعنا حتى الآن طالما أنه تمدد من آسيا إلى أفريقيا؟»

«أعتقد أنه لا يحب المناطق الباردة، وأنتم لديكم ثلوج لعدة أشهر في السنة. لكن بوسعك تربيته في سورية أو غزة حيث توجد صحراء وخضرة ومن ثم تستعمله في قوافل صيفية إلى بلادكم»..

«جملك هذا بحاجة إلى من يعيش معه في الصحراء، فيؤجره للقوافل ويستمتع بلبنه، سنرى إذا وجدنا في أنطاكية جمالاً نستأجرها».

أطلت عليهم المدينة ومستنقعات المياه والغابات في شمالها، وأخذتهم الطريق إلى الجهة الشرقية ليدخلوا المدينة من البوابة الموصلة إلى شارعها الرئيس. كانت أبراج السور الكثيرة ظاهرة للقافلة منذ مدة وهم يحاذون نهر العاصي. أحياناً كانوا يشاهدون البحر عبر النهر وغالباً ما كان يختفي عن أبصارهم، إذ تفصل مسيرة نصف يوم بين البحر وأنطاكية. على الجانب الشرقي من الشارع والمدينة يمتد جبل سلبيوس، فتصبح المدينة محصنة بالنهر والجبل ولكنها أيضاً ذات سور يحيط بها، ولا يمكن دخولها إلا من إحدى بواباتها الخمس. شهرة هذه المدينة في التجارة تعود إلى قرون مضت، ذلك أن موقعها المتوسط على طريق الحرير بين الشرق والغرب وكممرّ قوافل لكل ما يحيط بالبحر، بل تمر بها القوافل المحمّلة بالبضائع العربية والهندية في طريقها البري من الجنوب إلى روما. الاسم الأول لميلاد أنطاكية هو اسكندرون، فبعد موت الاسكندر المقدوني اقتسم ضباطه الإمبراطورية الشاسعة التي احتلها، فأخذ بطليموس مصر وفلسطين وفاز أنتيغون بمقدونيا

الأولى، وجارتها آسيا الصغرى، وكان نصيب سلوقس سوريا وبابل وفارس. هكذا أنشأ أنتيغون هذه المدينة ومنحها اسم قائده الاسكندر. عندما تمكّن سلوقس من احتلال المدينة وضمّها إلى نصيبه مع سوريا، وسّع البناء وغير الاسم إلى أنطاكية تباركاً بوالده أنطيوخوس، وأقام مدينة بالقرب منها ولكن على البحر على اسم والدته لاثوديسيا، ومدينة ثالثة باسم زوجته أفاميا قريبة من ميناء لاثوديسيا ولكن في الداخل السوري. أحب سلوقس أنطاكية، ومنح سكانها حقوقاً متساوية مثل اليونانيين، وأصبحت درّة المدن وعاصمة للسلوقيين حتى ورثهم الرومان قبل قرنين ونصف قرن من الزمان، فاحتفظت المدينة بأهميتها. وتعني المدينة الآن الكثير للدين الجديد، فهنا أطلق اسم المسيحية لأول مرة على أتباع الديانة، وهي الآن مقرّ كنسي يفوق أهمية روما.

أنزلت القافلة حمولتها في الساحة المخصصة للمقايضة والمتاجرة خارج البوابة، ونصب أوغسطين الخيمة التي يبيت فيها وسيستقبل أمامها تجار أنطاكية الراغبين في شراء خيامه، ثم أوكل إلى حرّاس القافلة بأملاكه وانطلق إلى المدينة بحثاً عن حمّام ليتخلص مما علق به من غبار وعرق طوال أسبوع من الترحال. شكلت المدينة من الخارج مستطيلاً يبدو أن ضلعه الطويل ضعف الضلع الآخر، أما في الداخل، فإنّ أبنيتها أقيمت على جوانب شوارع تخترقها وتصنع مربّعات مستقيمة تلتقي مع الشارعين الأكبرين اللذين يخترقان المدينة من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال ويلتقيان حول قلعة محصنة تقيم فيها إدارة المدينة. كل الشوارع مرصوفة بالحجارة متساوية الحجوم، ويبدو أنها تنظف يومياً إذ لا وجود لأوساخ أو بقايا روث الحمير والخيول التي تجوب المدينة خدمة لسكانها. استدلّ أوغسطين بسهولة على أقرب حمّام للرجال في شارع خلفي بالقرب من القلعة، فسلم ملابسه وصرة نقوده إلى المشرف، واستلمه العمال واحداً

بعد آخر، تغسيل وتنظيف للجسد ثم تدليك يليه تنظيف جديد، ويتبعه الاسترخاء عارياً في حوض الماء الدافئ الذي تسبح فيه حبات الليمون.

«آمل أن تكون من روما أو مررت بها قبل وصولك إلى أنطاكية». قال جاره في حوض الماء وهو يقترب منه على أمل الاستماع إلى آخر التطورات في العاصمة.

«أنا من طرسوس، وقد غادرتها منذ أسبوع». أجاب أوغسطين وقد عاد لإغماض عينيه. «هل هناك ما يستدعي الاهتمام بأخبار روما؟»

«بالتأكيد سمعتم بالحريق هناك».. سكت الرجل، فأجابه أوغسطين بإيماءة فأكمل: «لقد وعد الإمبراطور كومودوس بإعادة بناء كل ما احترق، ولكن بعظمة وأبهة أكثر لأنه سيطلق على روما اسماً جديداً».. صمت الرجل ففتح أوغسطين عينيه واستدار ليستطلع الأمر. «..نعم، سيصبح الاسم كولونيا كومودیانا».

«ربما الأفضل لو سماها كولونيا كوميديانا». تبسّم الاثنان وهما يتبادلان النظرات، فالإمبراطور يريد تحويل الاسم إلى ما يعني مستعمرة كومودوس، أما ما خطر ببال أوغسطين فهو أنها مستعمرة ساخرة. «لكن هل ما تقوله رسمي أم من الإشاعات اليومية التي تُصدرها روما إلى ربوع الإمبراطورية؟»

«الخبر جاد بالفعل كما أنه يعيد الآن تسمية كبرى مؤسسات الدولة باسمه».

«لقد سمعنا الكثير من الأقاويل عن الإمبراطور، وآخرها أن النيران كانت انتقاماً إلهياً، وأن النجوم تساقطت من السماء، وبالطبع هذه نذر لنهاية الرجل». عاد أوغسطين إلى الاسترخاء بعد أن عرف بيهودية محدّثه من رؤية ختانه. «كلنا سنموت، والإمبراطور يحكم من اثني عشر عاماً، ومعظم من

سبقوه ماتوا بالخنجر أو بالسمّ، وقد مرت ظروف على روما بدّلت فيها أربعة أباطرة في عام واحد كان آخرهم صاحبكم فسبازيان، وأقيمت نُصب لنيرون ثم هدمت، وكان أكبرها في ايليا، فلن يعني شيئاً إذا تغير اسم العاصمة رسمياً الآن ريثما يقضي كومودوس نحبه، المهم أن يبني ما خرّبته النيران ويعيد النشاط الاقتصادي إلى البلد».

«اللعنة على فسبازيان وابنه تيتوس وخلفهما هادريان». قال اليهودي مسترجعاً على الأرجح تدميرهم أورشليم ومعبد اليهود وتغيير اسم المدينة لاحقاً إلى إيليا.

«واللعنة على نيرون الذي أوكل إليهما تلك المهمة في العام الأخير من حكمه. أنت لا يمكنك الوثوق بشخص يأمر بحرق المسيحيين نتيجة للتحريض، ثم تتوقع منه أن يستمر في غفلته ولا يلتفت إليك». قاطعه أوغسطين من دون أن ينظر إليه، ولكنه متأكد أن اليهودي فهم كلامه. تذكر أوغسطين، بينما المياه تغمره حتى ذقنه، أن هناك سبعة أباطرة عظام بين تيتوس ابن فسبازيان وبين الإمبراطور الحالي كومودوس. كانوا أباطرة عظاماً وسّعوا حدود الإمبراطورية، وحققوا الكثير من المساواة، ولكن كومودوس جاء مختلفاً في كل شيء عن والده الحكيم ماركوس. لقد اشتغل في المصارعة وروّجت عنه مثالب تُذكّر الرومان بنيرون. قيل عنه السكر والعربدة وشمول حريمه ثلاثمئة أنثى وكذا من الغلمان الذين يفعلون به ويفعل بهم، وهذه على الأرجح أماني الخصوم الذين يروّجون ذلك في روما لتصل الأقاويل إلى الأقاليم ليصدقها من له مصلحة في ذلك. قالوا عنه أيضاً إنه أمر كاهناً بقطع ذراعه ليثبت للجميع إيمانه، وشرع ضد بعض النساء اللواتي يعبدن إيزيس بالرجم بثمار البلوط، كما أنه، حسب الروايات، قد جمع المعاقين ورماهم شخصياً بالسهام. أما عدم قتله المسيحيين فتعزية الأقاويل لكون إحدى عشيقاته مسيحية، ومن أجل عينيها

عفا عنهم. تبسّم أوغسطين وهو يرى التناقضات، فرجل لديه ستمئة من الإناث والذكور يستجيب لعشيقة مسيحية. أما رجم عبدة إيزيس أو قتل المعوقين فلم يلحظ سكان طرسوس منه شيئاً، ولم يواجه أوغسطين أي معوّقات في إقامة ملجأ للمعاقين وللأيتام الصغار تديره الآن كل من برباره وماري.

«هل قتل كومودوس معاقي أنطاكية على غرار ما نسب إليه في روما؟» سأل أوغسطين رفيقه في الحمّام.

«أنتما تناقشان أفعال الطاغية ضد المعوقين، وتتجاهلان ما فعله هو وأسلافه ضد اليهود». تنبه أوغسطين لاختلاف الصوت، ففتح عينيه ليرى أن مستحماً ثالثاً انضم إليهما، ويبدو أنه كان يستمع إلى حوارهما قبل ولوجه البركة. «فسبازيان وولداه من بعده تيتوس ودوميتيان ثم نيرفا وتراجان وهادريان والثلاثة الذين تبعوهم إلى الآن، يتحملون خطيئة دمار أورشليم والمعبد، وقتل عشرات الألوف من المؤمنين اليهود».

«أنتم بالطبع لا تتحملون أي ذنب عما جرى لكم، الأباطرة الرومان كلهم ظلموكم زوراً وبهتاناً»..

«أيها الطرسوسي»، قاطع الرجل الملتحي أوغسطين، وأكمل: «هل تريدنا أن نعبد دوميتيان حين أعلن نفسه إلهاً؟ بل أعلن أباه وأخاه وزوجته وأخته آلهة مثله وأنشأ طائفة كهنوتية تشرف على عبادتهم. نحن والمسيحيون رفضنا ذلك».

«أنتم اليهود ترفضون بقية الأديان، ولكنكم حرضتم الجميع على الفتنة ضد دوميتيان لأن والده وأخاه أوقعا بكم الخسائر، والحقيقة أن خلافاتكم في أورشليم دفعت السلطات إلى اجتثاثكم، أنتم أخطر عنصر شغب وتحريض وفتنة». صمت الملتحي ليقيّم كلام أوغسطين الذي بدا أنه ملمّ بتفاصيل التاريخ ومجريات الأحداث التي جرت أثناء المئة سنة السابقة.

«لم نُثر أي فتن ولم نحرّض ضدَ دوميتيان، فقد رفض الجميع تأليهه، الكلبيون والرواقيون والفلاسفة رفضوا طلبه، وربما تعرف أنه طرد الفلاسفة من روما».

«نعم، طردهم عام ثلاثة وتسعين ومعهم المنجمون ثم نفاهم خارج البلاد لأنهم تنبأوا بموته، وأحدثوا الاضطراب بين الناس. لو قدّم الجميع القرابين لتماثيله لتقبّل التعايش، ولكنكم عاندتم رجلاً مجنوناً قتل أقرباءه ووضع البلاط العاكس في قصره ليرى من يسير خلفه ليطعنه. رفضتم التعايش معه، فرفض وجودكم وكل الديانات الأخرى». بدأت المناقشة بين الرجلين كمناظرة في المعلومات، واحتار اليهوديان قليلاً في التعرّف إلى ديانة أوغسطين الذي اتهم هكذا كل الديانات بضيق الصدر.

لم يكن الإمبراطور الحالي كومودوس في شبابه جباناً، ولكن كل روما الرسمية غضبت عليه في البداية حين تسلم الحكم في التاسعة عشرة، ولم يستمر في سياسة والده بقتال القبائل الجرمانية المتمردة. لقد عرض على الأعداء الصلح فوراً شرط أن ينسحبوا من الأراضي القريبة من الدانوب، وأن يسلّموا معظم أسلحتهم، وأن يطلقوا سراح الأسرى الرومان، وأن يسلّموا الفارين منهم، وأن يشكلوا قوة ذاتية من ثلاثة عشر ألفاً تتطوع في الجيش الروماني. وهذا ما اتُفق عليه، فهاجت روما الرسمية واحتج قادة الجيش على ترك الأعداء يهربون حينما اقتربت هزيمتهم. عاد الإمبراطور الشاب إليهم من حدود الإمبراطورية على الدانوب وتصدّى لمجلس الشيوخ، وأهدى إلى كل مواطن منحة من سبعمئة دينار، وها هي قبائل الجرمان هادئة ساكنة لم تغدر ولم تخلّ بالاتفاق طوال هذه السنوات. حين انتهت الحرب، عزم الإمبراطور على إظهار قوته وشجاعته أمام شعبه، فترك القصر والتحق بمعسكر المصارعين فترة من الزمن، وشارك في المصارعات العلنية،

وقنص الحيوانات بالقوس، وقاد عربات السباق في المباريات. كل ذلك دفع المترهلين في روما إلى ترويج دعايات وأخبار مبالغ فيها لتعمّ الإمبراطورية وتمهد للتخلص منه، ولم يكنْ ذلك يُخفى عليه، وصار يتصيد خصومه قبل أن يتفقوا ويصطادوه.

لأنّ غالبية الأباطرة ماتوا غدراً فقد مارسوا أساليب وحشية على المتآمرين، وقاموا بضربات متتالية استباقية ضد من يمكنه الانقلاب عليهم. لم يخرج كومودوس عن القاعدة، فقتل عمته لوسلا وعدداً كبيراً ممن تآمروا معها ضده، أو حامت حولهم شبهاتٍ لتأييد الانقلاب، حتى قضى على غالبية الشخصيات التي سادت في عهد والده. أعاد تأسيس جهاز المخبرين، وسلّم فيلق الحراسة لبرنيس الذي أرهب المعارضين وقتلهم حتى ظن الإمبراطور الشاب أن برنيس يسعى للحكم فقتله، وسلّم كليندر وظيفة قائد الحرس بديلاً عنه، فنشر الفساد، ومارس الرشوة، وألغى أي حكم قضائي مقابل المال، وأعدم الشيوخ والفرسان بعد اتهامهم بالخيانة، حتى ثار أهل روما قبل عامين، وحاصروا القصر، وطالبوا الإمبراطور بإعدام كليندر، فاستجاب لهم. أعدم كليندر وعين ليتس مكانه، وما زال هذا يمارس مهامه، وبالطبع يتحسّس رقبته كل يوم.

«اليهود لا يرفضون التعايش مع الإمبراطورية، لكنّ الأباطرة هم الذين يرفضون الكف عنا». قال الرجل بعد فترة صمت تلاها تعارف بين المستحمين الثلاثة. «دمروا أورشليم والمعبد ونهبوا يهودا كلها ويطالبوننا بالضرائب».

«يا كوهن، كن منصفاً وتفهم وجهة النظر الأخرى، أورشليم والمعبد دمّرا قبل قيام الإمبراطورية أيضاً، لأنكم تجرّون نقمة الأمم عليكم. ثم إنك تتحدث عن اليهود وكأنهم شيء معرف ومتحد، والواقع أن اليهود

في مدن الإمبراطورية يختلفون في الرؤى والأفعال والعبادات عن يهود أورشليم من أمثالك. إذا أردتم التعصب والتطرف ضد الآخرين، ستجلبون البؤس على كل اليهود. وها أنتم تروّجون الإشاعات ضد المسيحيين حتى يقتلهم الرومان، وبالطبع تنقلب الأمور ضدكم أحياناً، ولا تنسَ أنكم ختنتم الإمبراطورية، وتعاونتم مع الفرس ضد الإمبراطور تراجان، وأثرتم الثورات في أفريقيا وسوريا وهنا في أنطاكية حتى يسحب جيشنا قواته من فارس ويتجه لقمع ثوراتكم. ماذا تريدون بالضبط؟»

«يتهموننا بالسعي لتقويض الإمبراطورية، هذه اتهامات مسيحية، أما ما تسميه أنت خيانة للإمبراطورية، فلا يتعدى بحثنا عن مصالحنا، الإمبراطورية دمّرت بلادنا وعليها أن تتحملنا في مدنها».

«الدول تقوم وتزول، لقد توسعت الإمبراطورية على حساب ممالك ضعفت، آشور وفينيقيا والغال وبريطانيا وغيرها وكل شعوبها تعيش بسلام الآن. عليكم الانصياع مثل بقية السكان والانخراط والتعايش والاختلاط، وحينها يتركونكم وشأنكم، لا يعقل أن تحطّوا من هيبة الإمبراطور عبر تعاونكم مع خصومه في الداخل وأعدائه في الخارج، ولا تنسَ إطلاقاً المذابح التي قمتم بها ضد السكان، وأن من يحميكم دوماً من الانتقام هم جند الإمبراطور».

«أنتم المسيحيين لا يمكن التفاهم معكم».

«لست متديناً في الواقع وإن كنت ولدت مسيحياً، ولكني أنتقد كل الديانات التي لا تكف عن التصارع الداخلي بين أتباعها وبالطبع مع اتباع الديانات الأخرى. كل شخص وكل فئة تظن أنها مكلفة من الرب عمل أي شيء ثم تفسره من زوايا الدين». قاطع أوغسطين استنتاج شاؤول وإيماءات

كوهين بالموافقة عليه، ثم تصنّع الاستماع إليهما بينما سرح ذهنه في الأحداث غير البعيدة التي تسبب بها اليهود.

توسعت الإمبراطورية من نهر الدانوب إلى بريطانيا، ومن الصحراء الكبرى إلى بلاد الروس والفرس وكل شواطئ البحر الرومي. منحت السكان المتنوعين وحدة ثقافية ولغوية وتشريعية واقتصادية، وفتحت الطرق والأسواق ووفرت الأمن، ولم تمنع الأديان طالما احترم أتباعها دين الإمبراطور، وقدّموا له القرابين. لكن اليهود وعلى مرّ التاريخ تسببوا بالفتن أينما ارتحلوا وحلوا، يقطنون وينتهزون ويستفيدون، ثم في أول فرصة يخونون. هكذا فعلوا في مصر أيام النبي موسى، وفي فلسطين التي استقبلتهم، وفي بابل التي احترمتهم ومكنتهم من تهذيب دينهم. أما في أيام الإمبراطور تراجان فقد جددوا الفتن خدمة للفرس، قاموا بثورة جديدة عام ١١٥ أي قبل سبعه عقود. أشعلوها في برقة بأفريقيا وأوصلوها إلى قبرص والاسكندرية ومصر بينما الإمبراطور يقاتل في الشرق، مما اضطره إلى سحب القوات لوقف هذه الفوضى اليهودية في ربوع الإمبراطورية. في البداية ناوشوا الإغريق في تلك المناطق، ثم أشعلوها ضد الرومان أنفسهم وعينوا لأنفسهم ملكاً يدعى أندرياس، وبشعوا ضد السكان، إذ صاروا يلطخون أنفسهم بدماء الضحايا، وأكلوا لحومهم، وقتلوا ربع مليون في أفريقيا ومثلهم في قبرص، ودمّروا المعابد، وخرّبوا الطرق، وحولوا المدن إلى خرائب وصحارى، ولأنهم خربوا سلاميس بشكل همجي، فقد أصدر تراجان لاحقاً أمراً يمنع اليهود من دخول قبرص كلها.

قبل هذه الثورة تمرّد اليهود في فلسطين مراراً حتى تسببوا بخراب أورشليم. ففي العام السادس للميلاد قرر الرومان إجراء إحصاء في كل الربوع، ولكن فئة القانونيين اليهود بقيادة يهوذا الجليلي، الذي اعتبر نفسه

آنذاك المسيح المنتظر، رفضوا الإحصاء، واعتبروه من أعمال الاستعباد ويتنافى مع الإخلاص في عبادة الرب. باشروا الإزعاج برفض دفع الضرائب، فكسبوا الفقراء المعدمين الكثر آنذاك، والذين كانوا يؤمنون بقدوم المسيح وينتظرونه. هكذا استجاب الرومان لمطالب أن يحكم اليهود أنفسهم ولكنهم اختلفوا فيما بينهم حول الحكم وعلاقته بالرومان وأي عائلة يهودية تمارسه، ولم يتفق القانونيون حملة الخناجر مع الصدوقيين والفرّيسيين، ولكنهم اتفقوا مع الرومان على الإيقاع بالمسيحيين مقابل الهدنة والتأييد. استمرت هذه الممارسات مع خمسة ولاة رومان على اليهودية، حتى طالب السادس بالضرائب، فامتنعوا، فأخذها عنوة من خزينة الهيكل. جاء رد فعل اليهود المتطرفين برفض استقبال قرابين الإمبراطور اليومية في الهيكل، ولم يتمكن مجلس السانهدرين من إقناع المتطرفين بالعدول عن القرار، واشتبك جند ملك اليهود المعزز للسانهدريين مع المتطرفين الذين استولوا على الهيكل وأحرقوا الوثائق المتعلقة بالديون. انتصر المتطرفون واستسلم جند الملك والحامية الرومانية، ولكن الغلاة تركوا جند اليهود ينسحبون وذبحوا جند الرومان. ولما وصل الأمر إلى قيصرية في اليوم نفسه، تم ذبح اليهود فيها وزج بقيتهم في السجون، وامتد الانتقام من خيانة اليهود في الساحل من صور حتى عسقلان والاسكندرية، لكن والي فلسطين فشل في التغلب على يهود أورشليم، ولم ينجح حاكم سورية في الأمر أيضاً، فكان على نيرون أن يظهر صلابة، وأرسل القائد فسبازيان وولده تيتوس إلى فلسطين، وما إن التقت قواتهما في عكا حتى بدأت قوات اليهود تهرب باتجاه أورشليم والرومان من خلفهم يمشطون الأرض حتى حاصرهم فسبازيان وجلس ينتظر أن يقتلوا بعضهم بعضاً بالخلافات والتجويع بالطبع. استمر الحصار وتفجّر الوضع في المدينة، إذ صمم القانونيون على المقاومة، وقتلوا الزعماء

التقليديين بتهمة التعامل مع الرومان، وسيطروا على السلطات، واختاروا كاهنهم الأعظم بالقرعة، ثم دارت الدائرة على القانونيين، فانحشروا في الهيكل بينما الأرستقراطيون اليهود احتلوا الأروقة الخارجية حتى تسلل بعض القانونيين إلى خارج أورشليم واستنجدوا بيهود، وعادوا بهم لذبح خصومهم واستعادة السلطة. كل ذلك يجري بينما القوات الرومانية تحاصر المدينة وتنتظر تعليمات جديدة من روما بعد انتحار نيرون. بدل أن يتوحد اليهود تواصل الانقسام في المدينة، وانتشرت عصابات إجرامية في المناطق التي لم تمشطها القوات الرومانية. أنشط العصابات كانت بقيادة أليعازر بن يائير في المنطقة بين مسادا وعين جدي، وكان هناك شمعون بارجيور الذي احتل حبرون ثم انضم إلى القانونيين في أورشليم. عندما أُعلن فسبازيان إمبراطوراً تحرك إلى روما وسلّم ولده تيتوس زمام الأمر. أرسل تيتوس إلى قادة أورشليم القائد اليهودي المستسلم يوسيفوس يطالبهم بالاستسلام ولكنهم رفضوا. أرسل تيتوس إلى المدينة كتل المنجنيق، وأعاد يوسيفوس ليقنعهم بالاستسلام وخصوصاً أن الطاعون والجوع انتشرا بينهم، فأجابوا أن الله سيحمي الهيكل وسينتصرون، ثم منعوا هروب السكان من المدينة واستولوا على القوت كله ليوزعوه على المقاتلين فقط. تواصل القصف بالمنجنيق لأن تيتوس أراد تجنيب قواته أي خسائر بهجوم أرضي ضد متطرفين انتحاريين، وتلا ذلك سفارة ثالثة من يوسيفوس لإقناع المحاصرين بالاستسلام، فرفضوا. شاءت الفوضى أن تشتعل النيران في بقايا الهيكل بفعل داخلي، ثم تمددت بسرعة إلى الأروقة والبوابات. اشتدت الفوضى والصراخ، وارتفعت دعوات للذهاب إلى الهيكل لرؤية معجزة الخلاص وظهور المسيا، ولكن أشلاء الموتى وصراخ الجرحى كانا المسيطرين على النظر والأذن، بينما أقام جند الرومان مذبحهم على مقربة، واحتفلوا بآلهتهم

وهتفوا لقائدهم ابن إمبراطورهم المنتصر. وبدل أن يستسلم المنهزمون وضعوا شروطاً وطالبوا بضمانات، فأمر تيتوس الجند بالاجتياح والإبادة والتدمير لبقية الهيكل والمدينة حتى لا يسكنهما أحد فيما بعد. كان ذلك في العام سبعين، وتوقفت العبادة في الهيكل بعد ٢٤٠ عاماً من إعادة بنائه على أثر التدمير البابلي الأول له وسبي سادة اليهود إلى بلاد الرافدين.

«نحادثك منذ فترة ولا تجاوب». قال كوهين وهو يلمس كتف أوغسطين «..يبدو أنك لا تريد سماع وجهة نظر اليهود».

«على العكس تماماً ولكن شرط أن يكون الكلام منصفاً، فلا يعقل أن تخرّبوا البلاد أينما ذهبتم وترفضوا انضمام الناس إلى دينكم، ثم تحاربون الأديان الأخرى وتتهمون الآخرين بكل الموبقات. طبعاً أنتما تعرفان أن الإمبراطور تراجان جرد اليهود من كل المزايا والحقوق على أثر الفوضى طوال سنتين وبسبب الخيانة، فإذا بكم تنتمون أفواجاً إلى المسيحية لينالها ما نالكم ويصبح كل مسيحي في نظر الرومان يهودياً متخفياً، لقد غلبتم إبليس». صمت أوغسطين استجابة لإشارات كوهين، وشعر بارتياح بعد هذا الهجوم، وارتكز بكوعيه على حافة البركة وترك بطنه ووسطه ورجليه ترتفع قليلاً إلى أعلى.

«لن أحدثك بنظريات وآيات وإشاعات كما تقول، ولكن سأروي عليك قصة حدثت مع والدي في روما أمام الإمبراطور وأخبرني بها بالتفصيل». شد كوهين بهذه المقدمة انتباه أوغسطين، ويبدو أن شاؤول كان يعرف ما سيرويه اليهودي الآخر. «عام ١١٣ اعتدى الإغريق على اليهود في الاسكندرية، ومات الكثير من الطرفين مما استدعى إرسال وفدين إلى روما للاحتكام أمام الإمبراطور. مر الوفد اليهودي بأنطاكية وذهب والدي معهم فأصبح وفد اليهود سبعة ووفد الإغريق أحد عشر يقودهم الصوري باولوس،

وحمل كل طرف ربّه إلى القصر، الإغريق أحضروا تمثال الإله سيرابس، واليهود حملوا التوراة في تابوت. لم يُعجب الإمبراطور بالتحية التي وجهها الوفد الإغريقي المتعالي، فقال لهم: إنكم تحيوني كما لو كنتم تستحقون مني أن أقدم إليكم تحيتي بعد الذي تجرأتم على فعله مع اليهود». تبسم أوغسطين وهو يستمع إلى ما يرويه كوهين عن والده، فنظر كوهين وشاؤول إليه مستوضحين.

«لا أريد أن أقاطع حديثك، ولكني لا أظن أن والدك قد أخبرك بمحاباة الإمبراطورة أفلوطينا لليهود وأنها سعت لدى أعضاء مجلس الشيوخ ليساندوا اليهود ضد الإغريق، وأنها بالطبع جهزت زوجها للمحاباة، ولكني سأستمع إليك من دون مقاطعة».

«هذا اتهام جاهز دوماً ضد اليهود، وأنا أخبرك بما رواه لي والدي، وسترى في النهاية من هم المراوغون. لقد تحدث هرمايسكوس رداً على الإمبراطور وهو يمسك بالتمثال: إن ما يزعجنا هو امتلاء قاعة مجلسك باليهود الملحدين وأنصارهم. وعندما أعرب الإمبراطور عن الاستياء، قال له الإغريقي: أنصحك أن تناصر بني دينك بدل الدفاع عن الملحدين. فجأة، وبحيلة ما، أخذ تمثال الإله سيرابيس يتصبب عرقاً وعمّ الاستغراب بين الحضور. هكذا هم الإغريق يلجأون إلى السحر لردع من يجافيهم ويعارضهم، وأشاعوا ما حدث داخل البلاط بين أهل روما ليخافوا الآلهة ويضغطوا على الإمبراطور ضد اليهود».

«نعم، اعتبر الرومان أن ما حدث آنذاك كان المقدمة والإنذار للفوضى التي أحدثها اليهود بعد ذلك. الإمبراطور صديقكم والخير يعمّ عليكم ثم ترفضون دفع الضرائب، بل اتفقتم مع الفرس على إشاعة الفوضى وشاركتموهم في الحرب لتنهزم روما ويدخل الفرس أورشليم الخراب

لتعيدوا بناء الهيكل الذي هدمتموه بفعلكم. لقد أبدتم سكان مدينة كاملة في قبرص، ولبستم جلود ضحاياكم في برقة وقطعتم أجسادهم قطعاً وأكلتموها تماشياً مع آيات كتابكم: وأخرج داود الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأحرقهم في أتون الآجر». لم يجب اليهوديان عن تكرار أوغسطين لهجومه على اليهود، ربما ظناً أنه جاسوس للنظام يريد الإيقاع بهما، وشعر هو أنه لم ينصفهما في آداب الحديث، ولكنه دوماً يضيق بأحاديث الأديان وادّعاء كل فئة أنها الأنقى والأفضل. «دعونا من أحاديث السياسة، هل تتذكر شيئاً قاله والدك عن الزلزال الذي ضرب مدينتكم في نهاية العام ١١٣؟»

«نعم، أتذكر أنه قال باستمرار الهزات وتكرارها عدة أيام، ودمار الكثير في أنطاكية. كما أن الإمبراطور تراجان كان هنا حينذاك ومكث طوال الشتاء ثم زحف شرقاً في الربيع». ساد صمت حتى عاد كوهين للحديث بكثير من الهدوء: «وإلى هنا عاد متعباً ومريضاً ومات في مدينتنا عام ١١٧».

أمسك أوغسطين لسانه عمّا جال في خاطره عن إتعاب اليهود للإمبراطور، ودفع البلاد إلى حافة الإفلاس، إذ فقدت الإمبراطورية فلاحيها، ودمّرت مدنها، واضطر الإمبراطور هادريان الذي ورث عرش عمه إلى بيع الأراضي الزراعية المملوكة للدولة، حتى تُجنى الأموال الضرورية للاستمرار، بعد أن ندرت الضرائب لندرة الإنتاج وركدت التجارة ونقصت الأموال لإصلاح المدن المدمرة. لقد تسببوا مباشرة بإضعاف البلاد وموت تراجان، ولم يتوقف نهجهم هذا أيام هادريان الذي ما أن استردت الإمبراطورية عافيتها، وعزم على إعمار أورشليم لتكون مدينة مفتوحة للجميع، حتى احتجوا وثاروا وتسببوا بدمار جديد. خرج أوغسطين من بركة الماء مودّعاً اليهوديين بإشارة من يده، إذ لم يعد لديه أي رغبة في التحدث أو الاستماع.

٧

كان أوغسطين وقافلة التجار على وشك الانطلاق من أنطاكية إلى لاثوديسيا ومدن الساحل جنوباً، حين وصلت قافلة من إمبراطورية هان في أقصى الشرق، مارّة في طريقها إلى هنا بإمبراطوريتي كوشان وفارس. اتفق التجار على الانتظار يوماً آخر لانتهاز فرصة الاطلاع على ما يحمل الآسيويون، وتبادل بعض البضائع معهم، ونقلها إلى بقية الإقليم السوري. طريق الحرير الذي تسلكه القوافل من الصين، أقصر وأسرع من الطريق البحري الذي يدور حول الهند مروراً باتحاد ممالك سبأ وصولاً إلى مدخل البحر الأحمر، حيث مملكة أكسوم التي راكمت الثروات من تجميع العاج وتصديره إلى روما. هذه المملكة أدخلت الأسلحة والمعدّات المعدنية إلى قلب أفريقيا التي ما زالت تستعمل الأدوات الحجرية، ويعيش سكانها على الصيد وجمع البذور والحبوب البرية. بادلت أكسوم مع السكان في أعماق أفريقيا منتجات الصناعات الحديدية مقابل تجميعهم وتوريدهم العاج من الأفيال. من أكسوم تبحر التجارة صعوداً إلى أطراف صحراء سيناء ومنها على الحمير والجمال الآن إلى غزة وبقية سوريا. هكذا فالبضائع التي تصل إلى أنطاكية عبر البر تكون بسعر أفضل، إذا لم تصادف ولم تتعرض للنهب في الطريق. على الرغم من الغزوات المتكررة على مدى العقود بين الإمبراطوريات المتجاورة، فإن حركة التجارة لم تتوقف بينها وخصوصاً إذا

كانت القافلة منطلقة من مصدر بعيد مثل إمبراطورية هان التي لم تشتبك في حروب مع كوشان وفارس والرومان، ولهذا ينظر إليهم كمحايدين، ولا خطر أو خوف من تجسسهم على البلاد المجاورة. حتى التجارة المباشرة بين الرومان والفرس مزدهرة الآن ولا يعترضها سوى بعض عصاباتِ اللصوص، وذلك كون الإمبراطور هادريان تنازل للفرس عن مناطقهم التي احتلها عمه تراجان.

بينما كان الآسيويون يستعدون لعرض بضائعهم، انطلق أوغسطين إلى قبر خارج سور المدينة بعد أن عرف أنه للقديس اغناطيوس، الذي يعرف كل المسيحيين قصة موته في روما. لقد ألح يهود أنطاكية عبر إخوتهم في روما بالشكوى ضد الأسقف اغناطيوس، وروّجوا أنه من أنشط من ينشر المسيحية على حساب دين الدولة، وأن صيته ذائع كونه تعلم من الآباء* الأوائل. طلبته روما وجلبه الجند مكبلاً في أيام تراجان الذي لم يلاحق المسيحيين في بداية عهده، ولكنه لم يصمد أمام تشويش اليهود عليهم، ثم انقلب على اليهود بعد ثورتهم، لكنهم انضموا إلى المسيحية حتى يعم القهر خصومهم أيضاً، وبالتالي تكبر فرصتهم في النجاة. ما زال التمييز غير سهل بين اليهود والمسيحيين وخصوصاً في أنطاكية التي انضم الكثير من يهودها منذ البداية إلى الديانة الجديدة. كنتيجة لهذه العوامل مجتمعة، حرم تراجان المسيحية من دون السعي لملاحقة معتنقيها، ولكن إذا اشتكى عليهم أحد ووجدوا مذنبين، فلا بد من معاقبتهم، فإذا أنكر المتهم أنه مسيحي، وبرهن على ذلك بتقديم الأضاحى والقرابين للآلهة الرومانية يتم الصفح عنه. من هنا انتهز اليهود الفرصة للوشاية والتزييف ضد المسيحيين، حتى انقلبت عليهم الإمبراطورية ونكّلت بهم وبأورشليم. بالنسبة إلى الشهيد اغناطيوس فقد ألقى الجند برفيقيه للحيوانات، ثم أتبعوه بهما بعد يومين، وقام البعض من

مسيحيي روما بجمع عظامه وأحضروها إلى هنا، حيث دفنت خارج السور وأصبحت مزاراً للمؤمنين. قفزت إلى ذهن أوغسطين خاطرة بينما كان يتأمل القبر: القاتل والمقتول غادرا الحياة وانتقلا إلى المجهول، أحدهما من روما ومات هنا مريضاً منهكاً، والآخر من هنا ومات في ملاعب روما منهوشاً من الأسود، وكلاهما نقل إلى بلده ليدفن فيه. تبسم أوغسطين بسخرية وهو ينظر إلى بعض العجزة يصلون قرب القبر وتمتم: على الأرجح ستبنى هنا كنيسة ويخلّد اسم اغناطيوس بينما لن يُعثر على اسم تراجان إلا في الكتب.

كان أوغسطين قد نجح في بيع جزء من حمولته نقداً لتجار صغار في أنطاكية ممن يجولون في الأرياف، ولديهم الفرص لبيع الخيم بسعر أفضل أو مقايضتها بأغنام وأجبان تباع لسكان المدن. عندما عاد إلى محطة استقبال القوافل، أخذ يدور حول الجمال التي يراها اليوم لأول مرة ويتعجب من شكلها وأصواتها، وهل يركب كل شخص على أحد السنامين أم يجلس بينهما. ولا يكاد يصدق أنها بالفعل حيوانات آمنة أمينة. جاء من يخبره أن تاجراً من القافلة الجديدة يتفرّج على خيمته، التي أبقاها منصوبة، وينتظر عودته إليها. ابتسم أحدهما للآخر، ونظرا إلى المترجم الوحيد الذي يرافق القافلة، فإذا الجميع يتجاذبونه. فهم أوغسطين من إشارات الآسيوي أنه معجب بالخيمة، فشرح له أن البغال تحمل غيرها، وأنه يريد مبادلة خيمة بجمل، لكن الرجل ضحك بصوت مرتفع، وتحدث بما لا يُفهم منه سوى الرفض، فعرض عليه خيمتين ولكن من دون جدوى، فأضاف إليهما بغلاً. صمت الرجل وأفهم أوغسطين أنه يرفض العروض لأنه يحتاج إلى الجمل في رحلة العودة، فهو قادر على الحمولة والجلد. انتهت المفاوضات ببيع كل الخيم مقابل تسعِ قطع ذهبية عليها رسم إمبراطور هان، وبحمولة صندوق من القماش الحريري المصبوغ بألوان زاهية. هكذا أصبح بوسع

أوغسطين أن يعود أدراجه إلى طرسوس الآن، ولكن ماري لن تكون قد تزوجت بعد، وهو لم يشتق إلى شيء آخر هناك، ولم يكن الربح المادي هدفه الوحيد، فقرر الاستمرار مع القافلة وباع الدواب التي كانت تحمل خيامه.

لم تكن ماري قد فارقت خياله يوماً منذ الانطلاق من طرسوس، ولكن تذكّرها الآن لم يعد مقتصراً على شهوته إليها كما في السابق، لقد تعمق بسرعة احترامه لها على حساب كمية رغبته الجسدية، وخصوصاً بعدما شاهد من همتها في التأسيس لبناء ملجأ الأيتام والمعاقين ومساعدتها لزوجته برباره في كل كبيرة وصغيرة. لقد أظهرت مسيحيتها بشكل إيجابي، إلى درجة أنه أصبح على أثر ذلك يفرّق بين المسيحيين ولا يصنفهم ككل بأحكامه الشمولية التي كانت تفرق بينهم حسب درجات السوء والنفاق والكذب، وليس حسب الصالح والطالح. لقد حاز اليهود أيضاً جانباً من تفكيره وتأملاته، لم يكن بمقدوره في السابق الحكم عليهم بحسم تبعاً لما طالعه عنهم، ومن معرفته لدينهم عبر قراءة العهد القديم. اختلاطه بهم كان قليلاً، وهو عموماً لا يصدّق بسرعة وبسهولة ما يقال عن الآخرين. لكن رحلته هذه جعلته يختلط معهم بشكل يومي، فهناك تاجر يهودي وولده اليافع يشاركانهم في القافلة، ولا يكف الرجل عن تعليم ولده بما ينزعج أوغسطين من سماعه كونه يلقنه الآيات حرفياً، ويريد له تطبيقها بحذافيرها، سواء أكانت خيراً أم شراً. لم يعجبه أيضاً أنّ يهود أنطاكية الذين اختلط بهم في الأسواق ينظرون بحرقة وغضب إلى الإمبراطورية التي تحميهم وتغنيهم. هكذا أصبحت ماري تغيب عن خواطره أحياناً ويحلّ مكانها استرجاع ما فعلته الإمبراطورية لرعاياها وما يفعلون هم بها.

ورث هادريان عرش عمه تراجان، وكرر أداء القسم بأنه لن يظلم أحداً ولن يتهاون في حماية مصلحة الإمبراطورية. وبالفعل، لم تشنّ الجيوش في

عهده الحروب التوسعية ولكنه اكتفى بحماية ما أنجزه عمه من توسع بعد أن تنازل عن أراضي فارس لكف شرهم. اهتم هادريان ببناء الأسوار الدفاعية والمدن الجديدة وإزالة آثار الفوضى اليهودية، ولم يحقد عليهم، بل عندما استعادت البلاد ثراءها عزم على إعادة بناء أورشليم وتأهيلها للحياة مجدداً، إلا أنهم ضاقوا ذرعاً بهذا القرار، وكان قد سبقه أمر إمبراطوري بمنع الخصاء والختان لكل الرعايا. حملوا السلاح مجدداً في فلسطين وباشروا تكوين عصابات وشن هجمات خاطفة يحتمون بعد تنفيذها في الكهوف والأودية، ونشروا خبر المقاومة ليصل إلى اليهود في ربوع الإمبراطورية. سلّم المقاومون أمرهم لباركوبا، ابن الكوكب، الذي شجعه الحاخام الأكبر على الظن أنه المسيا المنتظر من اليهود، فاستقطب المزيد من المحاربين والدعم من الداخل والخارج، واحتلوا أورشليم الخربة لمنع إعمارها، وضرب باركوبا عملة خاصة به كتب عليها: شمعون أمير إسرائيل، ثم استؤنفت الشعائر اليهودية في خرائب المعبد. بمرور كل يوم كان الدعم اليهودي للمتمردين يتعاظم حجمه وخطره على الإمبراطورية. ذهب هادريان إلى فلسطين في صيف ١٣٤ ليقيم الموقف، واستقدم قائده المحنك سفيروس من بريطانيا وأطلق يده ضد اليهود، وكانت النتيجة قتل أكثر من ٥٨٠ ألف يهودي في عدة معارك، وموت الكثير غيرهم من الجوع والحرائق والطاعون الذي يصاحب الحروب، وتدمير حوالى ألف قرية ومخيم. انتهت الحرب، وباشر الإمبراطور بناء مدينة إيليا كابيتولينا على أنقاض أورشليم التي اكتمل تدميرها تماماً على ثلاث مراحل في الستين عاماً التي سبقت، وأمر هادريان بنقض بقية حجارة أساس المعبد وبنى مكانها الهيكل لتكريم إله الرومان جوبيتير كابيتولينوس. وأمام هذا الهيكل انتصب تمثال لهادريان ممتطياً جواده، وأصبح اسم باركوبا الذي قتل في الحرب، باكوزبا أي ابن

الكذاب. ولأن تأييد اليهود في كل مكان لهذه الفوضى كان عارماً، فقد أصدر الإمبراطور مرسوماً يمنع أي يهودي من دخول إيليا الجديدة، ولكن بعضهم الآن يرشون الجند فيدخلونهم للبكاء على جنبات معبد جوبيتير، بينما الكثير من اليهود في فلسطين انتحلوا الديانة المسيحية حتى يُسمح لهم بدخول إيليا للبكاء قرب المعبد، وادّعى بعضهم التوبة والانتماء إلى الوثنية حتى يدخلوا معبد جوبيتير ويقدموا القرابين ونيتهم أنها لربهم يهوه. لقد ارتحل اليهود عن محيط أورشليم مراراً بسبب الكوارث التي كانوا يجلبونها على أنفسهم وعلى معبدهم، وحافظوا على تماسكهم وتمسكهم بكتبهم، وأينما حلوا خططوا وتآمروا لدعم الثورات وإشاعة الفوضى على أمل الفوز بالحكم الذاتي في أورشليم ويهودا، وكلما نالوا هدفهم تمادوا في مطالبهم حتى تعود عليهم نكالاً. كتبهم تؤكد لهم أنهم سيتجمعون في أورشليم لحضور عودة المسيا، ولهذا كلما ضاقت عليهم بلدان الإمبراطورية عادوا لانتظار المسيا، وكلما عادوا تم طردهم من هناك وتدمير معبدهم، وهم يعانون هذه الجدلية منذ خروجهم من مصر واحتلالهم جزءاً من فلسطين التي تدعي كتبهم المنقحة دوماً أن الرب هو الذي منحهم هذه البلاد وسمح لهم بكل شيء ليتمكنوا فيها.

طوال الأيام الثلاثة بعد الانطلاق من أنطاكية، تقرّب أوغسطين من التاجر الطرسوسي اليهودي يسمع منه ما يقوله لولده ويسأله في شؤون دينه، ويجادله متظاهراً بحب المعرفة، ولكنه بالفعل كان يريد التعمق قدر الإمكان في النفسية ليفهم لماذا يجر هؤلاء على أنفسهم نقمة الآخرين، بينما هم لم ينتهوا بعد من صياغة كتابهم، وبوسعهم إجراء تعديلات تمكنهم من التعايش مع الآخرين. عندما طلب منه أوغسطين أن يعطيه رأيه في سبب تكرار تدمير أورشليم ومعبد اليهود فيها، قال الرجل ما موجزه: إن الوثنيين يهدفون إلى

إذلال المؤمنين، وبالتالي ينتهزون كل فرصة للإيقاع والإضرار بهم، وإن المسيحيين زيفوا الدين اليهودي وحولوه أممياً للجميع، وكان الأفضل لهم لو ألفوا ديناً جديداً بما يرغبون من القواعد والأعراف والشرائع، لأنهم في كل الأحوال يعتبرون المسيح نبياً وابن الله، فلماذا اختطفوا كتابنا وأضافوا إليه فلسفة اتبعها حواريو المسيح وجعلوا إضافاتهم هذه تعارض معتقداتنا.

في عصر اليوم الثالث، اتضح لقائد القافلة أنهم لن يصلوا إلى لاثوديسيا قبل حلول الليل، فقرر الاستراحة والمبيت في بقايا مدينة أوغاريت، ليواصلوا المسير في صباح اليوم التالي، ويحلوا على لاثوديسيا مع الضحى. أقام أوغسطين خيمته بمساعدة اليهودي وولده، وكان في الليالي التي سبقت ينام تحت السماء. «أترى هذه الخرائب يا أبا سليم، هنا وجدت أقدم حضارات الشرق التي منحت للآخرين أساطيرهم وآلهتهم والذين أخذ عنهم اليهود والوثنيون. ها هي الآن أثر بعد عين، ولا يعرف أحد سبب دمارها واندثارها. إذا لم تسايروا مجرى التطورات فسوف تصبح أورشليم هكذا».

«لا تقلق لأجلنا يا صديقي، فربنا يحمينا ويحمي أموالنا وأبناءنا وديننا ومدينتنا». قال الرجل بثقة بعد أن جلس مع أوغسطين ينظران إلى آثار أوغاريت وخلفها البحر يبتلع الشمس رويداً رويداً. «لقد دمر الرومان أورشليم وأكمل هادريان الدمار والقتل، ولكنّ الرب سخره لإعادة بناء المدينة بشكل أوسع وأجمل، وكذلك بنى المعبد من الحجارة الثقيلة بعد أن كان معبدنا بمعظمه مبنياً من الخشب. ربما تعرف أن المعبد الأول الذي بناه سليمان بن داود كان محيطه فقط من الحجارة بينما كل حجراته وغطاء جدرانه الداخلية وسقفة صنعت من الخشب. الأرضية من خشب الزيتون والأبواب من السرو والجدران والسقف من الأرز الذي اشتراه من حيرام ملك صور». كان أوغسطين يؤيد الراوي بإيماءات، ولاحظ أنه لم يذكر

حجم معبد سليمان الذي ورد ذكره في التوراة، أن طوله ستون ذراعاً وعرضه عشرون. «ذلك المعبد دمره البابليون لاحقاً وسلبوا محتوياته وسبوا قومه وساقوهم إلى بابل. عندما احتل الفرس بابل وسوريا ومصر تجدد بناء المعبد على الشكل والأسلوب نفسيهما، وهذا المعبد دمره الرومان قبل مئة واثنين وعشرين عاماً وأعدنا بناءه موقتاً حتى دمّره هادريان ونقض أسسه ودمّر معه المدينة وقتل سكانها ومنع الناجين منهم من العودة إليها، ولكنه أعاد بناء المدينة والمعبد، وسوف تعود لنا ونعود إليها بشكل أو بآخر في القريب إن شاء الرب. ألا ترى حكمة الرب يا أوغسطين؟» هذه هي الأفكار التي أراد أوغسطين الاستماع إليها وتفهم صاحبها، هكذا لم يجب بما لديه من نقد وآراء وقرر الاستماع إلى الرجل. «كل الذين يدمرون المعبد يبحثون أيضاً عن كنوز سليمان، ولكنهم لم يعثروا سوى على زينة المعبد وما كان يوضع من ضرائب وهدايا في خزائنه، فأين كنوز سليمان؟» لم يكن أوغسطين يتوقع سماع هذا السؤال والخوض في هذا الشأن، فكرر السؤال حول مكان الكنوز ومصيرها. «إنها في حماية الرب حتى يستقر شعب النبي إسرائيل في أرض الميعاد. لقد نزع هادريان أسس البناء وأعماقه ولم يعثر على شيء، ولن يوفق غيره من الملحدين والوثنيين».

«قد يكون الكنز مدفوناً في أماكن أخرى، وقد يكون الكهنة تصرفوا فيه قبل وصول البابليين، وربما أعطاه سليمان للفرعون مهراً لابنته، أو أنفقه على السبعمئة أنثى ومثلها من الغلمان الذين ضمهم إلى نسائه كما هو مكتوب في التوراة. ثم من أين جمع ابن داود هذه الكنوز التي تتحدثون عنها؟ حسب الكتاب فقد كانت مملكة والده التي ورثها فقيرة، وتنازعها أبناؤه قبل وفاته، وقتل سليمان أخاه وأنصاره على الرغم من تمسكهم بقرون المذبح». توقف أوغسطين لحظة فلم يكن يريد أن يظهر لرفيقه اليهودي اطلاعه المعمّق

على التوراة ثم أكمل بهدوء مصطنع: «غالبية الكنوز التي يتم الحديث عنها تأتي في سياق التجارة بين الأمم، فسليمان الغني مثلاً لم ينصف حيرام ثمن الخشب، وأجرة العمال الصيداويين الذين أرسلهم لبناء المعبد وبيت لسليمان أيضاً، فمنحه قرى في الجليل، وكان الأجدر لو منحه نقداً. والسفن التي تأتي إلى سليمان كانت محملة بالتجارة للبيع والتبادل».

«..وماذا عن الدروع الذهبية التي ورد ذكرها: مَا عَدَا الَّذِي مِنْ عِنْدِ التُّجَّارِ تِجَارَةِ التُّجَّارِ وَجَمِيعِ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَوُلاَةِ الأَرْضِ. وَعَمِلَ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ مِئَتَيْ تُرْسٍ مِنْ ذَهَبٍ مُطَرَّق، خَصَّ التُّرْسَ الْوَاحِدَ سِتُّ مِئَةِ شَاقِلِ مِنَ الذَّهَبِ. وَثَلاَثَ مِئَةِ مِجَنٍّ مِنْ ذَهَبٍ مُطَرَّق. خَصَّ الْمِجَنَّ ثَلاَثَةُ أَمْنَاءٍ مِنَ الذَّهَبِ. وَجَعَلَهَا سُلَيْمَانُ فِي بَيْتِ وَعْرِ لُبْنَانَ. وَعَمِلَ الْمَلِكُ كُرْسِيّاً عَظِيماً مِنْ عَاجٍ وَغَشَّاهُ بِذَهَبٍ إِبْرِيزٍ».. توقف الشاب سليم بإشارة من والده عن تلاوة ما يحفظه من التوراة، وكان قد عاد من جولة في أوغاريت وتدخّل في الحديث بعد أن انضم إلى والده وأوغسطين.

«الأشياء تذهب، يا بني، بالطرق نفسها التي جاءت بها. كما أننا نتحدث عن حقبة مر عليها ألف عام ونيّف وكل الروايات التي وصلتنا لم تكن مسجلة على لفائف كما نستعمل الآن، أو منقوشة على صخر كما فعل الفراعنة، أو مرسومة على ألواح طينية كما فعل الأسبقون، مثل أهل هذه المدينة التي مر عليها أكثر من خمسة آلاف سنة. قصص التوراة كلها نقلت شفهياً حتى تم تسجيلها بعد السبي البابلي منذ بضعِ مئات من السنين فقط، ولا تزال قيد التنقيح والإضافات، تماماً مثل الديانة المسيحية التي تسجل وتنقح الآن على الرغم من موت المسيح قبل مئة وستين عاماً، وموت كل الذين صاحبوه».

بدت رغبة سليم واضحة في الرد، ولكن نظرات والده ردعته، كما أن النداء لتناول العشاء الجماعي ككل يوم حركهم حيث ترتفع النيران.

شعر الجميع بالارتياح، وأعرب بعضهم لأوغسطين عن الرضا لقبوله بدون مجادلات تولي نوبة حراسة طويلة الليلة، لكنه اشترط عليهم الهدوء بعد تناول الطعام ليغفو بعض الوقت، ثم يتولى الحراسة بعد نومهم. كانوا خمسة عشر من التجار والمرافقين ينتمون إلى معتقدات مختلفة، منهم اليهود والمسيحيون والرواقيون والوثنيون، ولكنهم جميعاً يخشون الشياطين، وتوجّسوا شراً عند مشاهدتهم بقايا أوغاريت. خطر له عندما أفاق من غفوته أن يرعبهم عندما ينتصف الليل، ويغيب القمر، ولكنه تخلص بسرعة من هذه الفكرة خوفاً من مضاعفاتها غير المحسوبة. استعاد حديثه السابق مع أبي سليم، وما يتذكره من مطالعاته للعهد القديم عن داود وابنه سليمان، وكيف يصدّق اليهود هذا اللامعقول ويتبناه المسيحيون مع بقية ما جاء في التوراة. كل ما هو مكتوب يوحي بانعدام المعقولية، فمملكة داود كانت صغيرة جدّاً حين ورّثها لسليمان الذي تظهره التوراة ملكاً يمتد ملكه من الفرات إلى هسبانيا، ومع ذلك لم يجد بالقرب منه عمالاً يقدرون على بناء المعبد وبيته الخاص. مقاييس بيته المذكورة بالتفصيل لا تتسع لنسائه وغلمانه، ومركز القضاء والذين يقطنون كلهم في البيت حسب التوراة، وذلك على الرغم من ذكر أن حجم بيته الخاص ضعف حجم بيت الرب، وكلاهما من الخشب، حتى يبُرر لاحقاً عدم وجود آثار لهما إذا هُدما أو أحرقا من الأغيار الأشرار. صمم أوغسطين في قرارة نفسه إذا نجح في الوصول إلى إيليا أن يبحث عن آثار بيت سليمان، وأن يقيس طول معبد جوبيتير وعرضه ليرى إذا كان يطابق الأطوال المذكورة في التوراة.

كل الروايات والقصص في كتب اليهود تتشبه بالأساطير الأقدم حيث تتصارع الآلهة أو تكافىء ملوك الأرض وتعاقبهم. تذكّر أوغسطين أن الرب غضب في النهاية على سليمان كما سُجّل في التوراة:.. وَكَانَ فِي

زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ داود أَبِيهِ. فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ. وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَاماً كَداود أَبِيهِ. حِينَئِذٍ بَنَى سُلَيْمَانُ مُرْتَفَعَةً لِكَمُوشَ رِجْسِ الْمُوآبِيِّينَ عَلَى الْجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَ أُورُشَلِيمَ، وَلِمُولَكَ رِجْسِ بَنِي عَمُّونَ. وَهكَذَا فَعَلَ لِجَمِيعِ نِسَائِهِ الْغَرِيبَاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يُوقِدْنَ وَيَذْبَحْنَ لآلِهَتِهِنَّ. فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لاَ يَتَّبِعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْزِيقاً وَأُعْطِيهَا لِعَبْدِكَ».

ابتعد أوغسطين قليلاً عن تجمع القافلة، وأراد رؤية بقايا هذه المدينة قبل غياب البدر الساطع المنعكس ضوؤه على سطح البحر ليبدو الوقت وكأنه قبيل غروب الشمس. انتشى لجمال المنظر واستهجن خوف المتدينين من الهدوء. بدت المدينة وكأن أكثر من ثلثيها مدفون تحت الأرض، هناك نصف رأس لتمثال يبدو أنه كان أعلى من البيوت التي يظهر أعالي جدران بعضها. ماذا تخبئ الأرض تحتها؟ سأل أوغسطين نفسه، ولماذا لم تذكر التوارة هذه المدينة الكبيرة ضمن القصص التي ترويها عن بداية خلق الأرض وآدم ونوح، وهي الروايات نفسها التي اقتبسها المسيحيون؟ يبدو أن هذه المدينة أقدم من آدم وحواء أو أن مدوني التوراة البابليين لم يسمعوا بها، أو بالطبع سمعوا وعرفوا وأخذوا عنها بعض أساطيرها، وأدمجوها في أساطير بابل وأنتجوا آلهة وديانة جديدة ما زالوا يحدثونها منذ ستمئةِ عام. لماذا الاستغراب؟ سأل أوغسطين نفسه وهو يستدير عازماً الالتفاف حول تجمع

القافلة ليتفقد الأوضاع. لماذا الاستغراب وها هم المسيحيون يكررون القصة نفسها، أخذوا بروايات اليهود وكتابهم، ثم ها هم يجمعون أقوال صحابة المسيح وكتبهم ورسائلهم التي أرسلوها إلى المدن والجماعات ويصنعون منها سنّتهم للعهد الجديد. كل يوم تظهر مقولات منسوبة إلى الحواريين، وأفعال منسوبة إلى المسيح، ومعجزات لا تنقطع، وتضاف كلها كتراث مسيحي تتم صياغته بعيداً جداً عن كل فلسطين. وإذا كان اليهود لم ينتهوا بعد من صياغة كتبهم، فالرب وحده يعلم متى يتم إنتاج النسخة الموحدة للأناجيل المتداولة الآن، هذا إذا تم الاتفاق على صياغة واحدة. المسيحيون يتجادلون الآن أي الأناجيل هو الأصدق، ولأنهم ما زالوا تحت القهر، ولم تنتشر الديانة بتوسع، فإنهم لم يصلوا إلى المرحلة التي مر بها اليهود مرة بعد أخرى وهي صراعهم الذاتي واقتتالهم بالسلاح وانضمامهم إلى فئات متصارعة. اليهود الآن ينتقلون إلى موجة محاربة المسيحية المنشقة عنهم، وإذا تحارب المسيحيون لاحقاً بعضهم ضد بعض وبالطبع ضد اليهود للانتقام مما فعلوه من وشاية، فهذا سيعني التحول عن العبادة إلى حروب الإبادة، وسيجد كل طرف وكل طائفة تفسيراً وإجازة ربانية للذبح والحرق. تبسم أوغسطين حين مر بخاطره أن المهم هو عدم توحد اليهود والمسيحيين ضد الوثنيين، أو ضد أي دين جديد منشق عن أحدهما أو يجمع بينهما مع ما يناسب من تعديل.

٨

«هل أعطيك النبأ الصافي لمستقبل اليهود والمسيحيين؟»

«حتى لو كان شبه صافٍ فأنا شاكر لك». أجاب أوغسطين قبطان المركب وهو ينظر إلى البحر الواسع أمامه بعد أن أصبح ميناء لاثوديسيا خلفهما.

«أنتم المسيحيين»..

«أنا لست مسيحياً أو يهودياً ولا أنتمي إلى أي دين آخر، وأتعامل مع الآخرين حسب أخلاقهم وأفعالهم». قاطع أوغسطين القبطان ثم صمت مشيراً إلى الرجل بإكمال حديثه.

«لا بأس، سيكون عليك لاحقاً توضيح عقيدتك هذه الرافضة للأديان والأوثان». أظهرت ابتسامته صفّي أسنان صفر مكتملة العدد. «المسيحيون واليهود سيتقاتلون إلى الأبد. كلما تمكنوا، سيحرق اليهود المسيحيين الذين بدورهم سيذبحون اليهود في كل فرصة، وستكون الغلبة سجالاً بين الفئتين. خلال زمن طويل مقبل سيضطر اليهود إلى الخنوع والمسايرة حتى يتواصلوا مع مدينتهم وبقايا معبدهم، ولكنهم غالباً ما ستكون لهم سيطرة بأساليب غير القوة. حين يتمكنون سيقتلون ويحرقون ويسعون في الأرض فساداً». نظر أوغسطين إلى القبطان بانتظار المزيد، ولكن الرجل لم يواصل حديثه.

«لا جديد، يا صديقي، في مقولتك. المسيحيون مظلومون الآن، ولكنهم في أدعيتهم يتمنون إبادة خصومهم، وفي مقدمهم اليهود الذين

حرّضوا ضدهم وتسببوا لهم بكل هذا البلاء. بينما اليهود مُجربون في القتل والترويع والفساد. لقد سلخوا جلود الناس في برقة وأكلوا لحومهم، وأبادوا سكان مدينة كاملة في قبرص بأشنع الأساليب، وعندما فروا من أورشليم أمام القوات الرومانية، قتلوا من مروا بهم من سكان وخصوصاً مدن الفلسطينيين، وعندما حطوا في الاسكندرية قتلوا آلاف الإغريق. هذا بعض ما حدث أثناء أقلّ من مئة سنة فقط، وأغلب الظن أن المسيحيين سينتقمون بشكل أو بآخر عندما يتمكنون». نظر أوغسطين إلى القبطان ليرى ردة فعله على التقليل من أهمية تنبوئه، فشاهد بعض الحيرة على ملامحه، وأضاف: «لو كان بوسعك ذكر الصافي في العلاقة بين الديانتين مثل أيهما ستغلب الأخرى ومتى، فحينها تكون رؤية مستقبلية، أما القول إن ديانتين منبعهما واحد ستتحاربان بالنار والسيف والمال فهذا مفروغ منه، وإذا انبثق من أي منهما ديانة جديدة، فإنها ستكون في خصام وحرب معهما. هذه طبيعة الديانات السماوية، فلا يعقل أن تتفق، وإن اتفقت فقد ألغت بعضها، لا بد أن يكون إلهي أفضل من إلهك، ولو لم يكن كذلك لبقيت على دينك. الحال مختلف مع ديانات الإغريق والرومان ومن سبقهما، إذ تكثر آلهتهم وتتعايش حسب تخصصاتها، هذا للمطر وتلك للخصوبة وثالث للطير، وهم على درجات أيضاً».

«لو أنك كنت معي عندما حدثني العراف برؤيته المستقبلية، لما منحته سيسترن بدل تبصره، ولكني اعتبرت كلامه جديداً مفيداً، وها أنت تقول لا جديد فيه، بل تراه شيئاً حدث في الماضي وبالتالي الاقتتال سيتواصل».

«الرجل صدقك على الأرجح في مقولة: إن القتل والذبح والحرق سوف تكون من سمات المستقبل، كما هو حاصل في الحاضر وكان في الماضي، وبالتالي ليس خسارة أنك منحته السيسترن». ضحك الرجلان ومال كل منهما على الآخر.

لقد باع أوغسطين الخيمة الأخيرة والبغلة في لاثوديسيا وركب مع حصانه وصندوق الحرير في هذه السفينة لاجتياز القسط الأكبر من الرحلة حتى قيصريه بأقلّ عناء، وإن كان ببعض الخوف من غدر البحر. إنها سفينة تجارية مجدافية وشراعية تبحر بين موانئ البحر الرومي، ويبدو قبطانها طيب القلب، وتوقع أوغسطين أن يسمع منه خلال الأيام المقبلة العديد من القصص والأخبار التي يجمعها أثناء تنقلاته.

«طالما أن المسيحية انبثقت من اليهودية، ألا يعقل في يوم ما أن تتفقا وتتحدا ضد الديانات الأخرى؟» هكذا تحول القبطان من موقفه الفاصل بالصراع الدامي بين الديانتين إلى موقف التساؤل، وهذا ما يشير إلى ليونة ووسطية في تفكير الرجل كما ظن أوغسطين.

«لم يمض على انبعاث المسيحية قرن ونصف القرن من الزمان، وطوال تلك السنوات يقتتل اليهود والمسيحيون بعضهم ضد بعض، ولم يتحدوا ضد العدو المشترك الذي يحاربهم، بل إن اليهود يهتمون بتسخير كل قدراتهم لدفع روما إلى التصدي للمسيحية والقضاء عليها». قال أوغسطين وأشار إلى القبطان بعدم الرد لأنه لم ينته من إيصال فكرته بعد. «ربما في ظروف معينة يمكن أن يتعايش اليهود والمسيحيون، وأحد هذه الإمكانات سيولد إذا تضاعف عدد المؤمنين المسيحيين لإضعاف عدد اليهود، وهذا محتمل جداً، لأنه دين يتقبل كل من يؤمن به بغضّ النظر عن الأصل واللون، وهذا على عكس اليهودية التي تقيّد الانتماء، وبالتالي كل مذبحة لليهود ستعيق نموهم الطبيعي، بينما لا حواجز ومعوقات أمام انتشار المسيحية. ظرف ثان لاحتمال التعايش يمكن توافره إذا كان اليهود هم الطرف الأضعف، وإذا فازت المسيحية بانتماء الملوك إليها».

«ألا يمكن اكتفاء كل دين ببلد وبالتالي يقلّ الاحتكاك بين أنصارهما؟» قاطع القبطان استرسال أوغسطين.

«لا، بالطبع، الإمبراطورية الآن تضم بين حدودها كل الديانات، وكل مدينة فيها تضم الديانات المختلفة لأن الانتماء الديني ليس العنصر الأهم لإقامة المدن والدول». توقف أوغسطين وهلة وخطر له معيق آخر بين تعايش متساوٍ للديانتين. «أتدري، يا صديقي، أنه في حالة المسيحية واليهودية يبدو أمر التعايش أصعب، لأن المنبع واحد ولكن كل يفسره بشكل مختلف، ولأن أورشليم أصبحت مدينة مقدسة عند الطرفين وبالتالي يريدها كل طرف لدينه. اليهود الآن ممنوعون من دخول إيليا وبالتالي يدّعون الانتماء إلى المسيحية ليتمكنوا من الوصول إلى بقايا بعض حجارة معبدهم، ولو تمكن المسيحيون ذات يوم من السيطرة على أورشليم فربما يستكين اليهود وينتظرون فعلاً من ربهم لترجيح كفتهم».

«يا رجل، وهل يعقل أن يأتي يوم يسيطر فيه المسيحيون على أورشليم أو أي مدينة غيرها؟» كان القبطان ينظر إلى الخلف وهو يتجاوب في الحديث مع أوغسطين حتى لا يغفل عن مهمته بالإبحار.

«طبعاً هذا يعقل. من كان يظن أن الاسكندر سينطلق من مقدونيا ويسيطر على معظم العالم، وبعد أن استقرت إمبراطورية الإغريق، من كان يتوقع أن الرومان سيرثونها؟ المسيحية تنتشر الآن بسرعة على الرغم من العذاب الذي يلقاه المؤمنون بها، وأورشليم والناصرة وفلسطين والجليل هي مهد المسيح، وبالتالي إذا قويت شوكتهم سيقيمون فيها دولتهم».

«..لكن الدين لا يقيم دولة». قاطع القبطان حديث أوغسطين الذي أصبح يحترم آراء محادثه المنفتح والمطلع أيضاً كما تظهر أفكاره.

«لدى الدول الوثنية لا يقيم الدين دولة، لأن الملك أو الإمبراطور

يصبح جزءاً من فريق الآلهة المكتفية بالاحترام والقرابين. لكن اليهودية تعتبر الملك حاكماً حسب الشرائع المتوارثة أو المنزلة من السماء كما يقولون. وكثيراً ما كان الملك نبياً أيضاً، وفي كل عصر لديهم نبي يحافظ على التواصل مع يهوه. حياتهم وعملهم وزكاة أموالهم كلها تحت تصرف الكاهن الأكبر وإرشاده الذي يساعده مجلس إرشاد وجماعة السانهدرين، وباسم الدين يمكن اليهود تبرير أي شيء حتى الخوض في دماء الأغيار».

«وكأنك تريد أيضاً القول إن المسيحية حين يقوى عصبها وتكثر عصبتها سوف تحكم هي الأخرى باسم الدين، وبالتالي حسب الشرائع اليهودية وما يضيفون إليها من تميز للمسيحية من اليهودية؟» غطت ملامح الرضا وجه أوغسطين وهو يستمع إلى هذا الاستنتاج، فأكمل القبطان: «وهل نظامنا الإمبراطوري أفضل من الحكم الديني؟»

«هناك فروق، ولك أن تقرر إذا كان أفضل أم لا. الإمبراطور يمكن إزاحته بالاغتيال، ويمكن مجلس الأعيان نظرياً اختيار بديل له، وعادة ما يستولي الجيش على السلطة ويتصالح مع المجلس. أما في حالة النظام الديني فهو وراثي، ويبرر كل أفعاله كأوامر ربانية، والتعاليم والشرائع قاسية جداً وثابتة». صمت أوغسطين وهلة ثم حدث القبطان بأن الملك والنبي سليمان حكم طوال حياته على الرغم من غضب الرب عليه، وانتزع الرب معظم السلطان من ولد سليمان وأبقى له القليل إكراماً لجدّه داود، ولكن الرب لم يعاقب سليمان. «هذا ما ورد في النص الصريح في التوراة، أي ممنوع على الرعية تصحيح الملك، بينما الرب لم يتدخل في أي تعديل على الرغم من اعترافه بمخالفة سليمان التعاليم». اتسعت عينا القبطان وسأل إذا كان أوغسطين يتذكر النص التوراتي لهذه القصة. «لقد حذر الرب سليمان أن عليه اتّباع خطى والده، وإذا خالف فإنه سيدمر الهيكل الذي بناه سليمان،

وجاء الغضب لأن سليمان تزوج من غير اليهوديات واحترم دياناتهن. وبالنص: (وَكَانَ لَمَّا أَكْمَلَ سُلَيْمَانُ بِنَاءَ بَيْتِ الرَّبِّ وَبَيْتِ الْمَلِكِ وَكُلَّ مَرْغُوبِ سُلَيْمَانَ الَّذِي سُرَّ أَنْ يَعْمَلَ، إِنَّ الرَّبَّ تَرَاءَى لِسُلَيْمَانَ ثَانِيَةً كَمَا تَرَاءَى لَهُ فِي جِبْعُونَ. وَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: قَدْ سَمِعْتُ صَلاَتَكَ وَتَضَرُّعَكَ الَّذِي تَضَرَّعْتَ بِهِ أَمَامِي. قَدَّسْتُ هذَا الْبَيْتَ الَّذِي بَنَيْتَهُ لأَجْلِ وَضْعِ اسْمِي فِيهِ إِلَى الأَبَدِ، وَتَكُونُ عَيْنَايَ وَقَلْبِي هُنَاكَ كُلَّ الأَيَّامِ. وَأَنْتَ إِنْ سَلَكْتَ أَمَامِي كَمَا سَلَكَ دَاوُدُ أَبُوكَ بِسَلاَمَةِ قَلْبٍ وَاسْتِقَامَةٍ، وَعَمِلْتَ حَسَبَ كُلِّ مَا أَوْصَيْتُكَ وَحَفِظْتَ فَرَائِضِي وَأَحْكَامِي، فَإِنِّي أُقِيمُ كُرْسِيَّ مُلْكِكَ عَلَى إِسْرَائِيلَ إِلَى الأَبَدِ كَمَا كَلَّمْتُ دَاوُدَ أَبَاكَ قَائِلاً: لاَ يُعْدَمُ لَكَ رَجُلٌ عَنْ كُرْسِيِّ إِسْرَائِيلَ. إِنْ كُنْتُمْ تَنْقَلِبُونَ أَنْتُمْ أَوْ أَبْنَاؤُكُمْ مِنْ وَرَائِي، وَلاَ تَحْفَظُونَ وَصَايَايَ، فَرَائِضِيَ الَّتِي جَعَلْتُهَا أَمَامَكُمْ، بَلْ تَذْهَبُونَ وَتَعْبُدُونَ آلِهَةً أُخْرَى وَتَسْجُدُونَ لَهَا، فَإِنِّي أَقْطَعُ إِسْرَائِيلَ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ الَّتِي أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا، وَالْبَيْتُ الَّذِي قَدَّسْتُهُ لاسْمِي أَنْفِيهِ مِنْ أَمَامِي، وَيَكُونُ إِسْرَائِيلُ مَثَلاً وَهُزْأَةً فِي جَمِيعِ الشُّعُوبِ، وَهذَا الْبَيْتُ يَكُونُ عِبْرَةً. كُلُّ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ يَتَعَجَّبُ وَيَصْفُرُ، وَيَقُولُونَ: لِمَاذَا عَمِلَ الرَّبُّ هكَذَا لِهذِهِ الأَرْضِ وَلِهذَا الْبَيْتِ؟ فَيَقُولُونَ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ تَرَكُوا الرَّبَّ إِلهَهُمُ الَّذِي أَخْرَجَ آبَاءَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَتَمَسَّكُوا بِآلِهَةٍ أُخْرَى وَسَجَدُوا لَهَا وَعَبَدُوهَا، لِذلِكَ جَلَبَ الرَّبُّ عَلَيْهِمْ كُلَّ هذَا الشَّرِّ.) وعن السبب للغضب على سليمان جاء في التوراة فقرة تالية تقول:(وَأَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ نِسَاءً غَرِيبَةً كَثِيرَةً مَعَ بِنْتِ فِرْعَوْنَ: مُوآبِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وَأَدُومِيَّاتٍ وَصِيدُونِيَّاتٍ وَحِثِّيَّاتٍ مِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمُ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: لاَ تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ لاَ يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ، لأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ. فَالْتَصَقَ سُلَيْمَانُ بِهؤُلاَءِ بِالْمَحَبَّةِ.

وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ.)

«صدقت يا صديقي». قال القبطان وهو منشرح لما سمع ومما استنتج، إذ أكمل: «النبوءة والملك يجب أن لا يورثا، فأبناء الأنبياء يمكن أن يكونوا فسقة، وأبناء الملوك يمكن أن يكونوا جهلة، كما أن المسيح لم ينجب أولاداً يرثون الحكم الديني المنسوب إليه، فمن الذي سيحكم باسم الدين إذاً وكيف سيتداول الحكم؟»

«لا تنس أن تطبيق أي شريعة دينية لتكون أساساً للحكم، يتوجب أن يسبقه اتفاق واضح حول هذه الشرائع حتى لا يطبقها كل شخص في كل زمان ومكان بشكل مختلف وحسب الحاجة. أضف إلى ذلك أنّ اتّباع أي شريعة دينية ثابتة لا يحل مشاكل المجتمع المتجددة كل يوم».

«هل يمكن أن تذكر لي بعض النصوص والشرائع الدينية اليهودية التي لم تعد صالحة؟» سأل القبطان أوغسطين بنبرة حيادية استكشافية.

«غالبية الأحكام في اليهودية، وبالتالي المسيحية، لم تكن أصلاً صالحة، فكل ما هو غير روحي وغير تعبدي لا يعقل تطبيقه». أجاب أوغسطين وبدأ يتذكر بعض النصوص الملزمة بالطبع لليهود: «جاء في التلمود (اقتلوا من الأجانب أفضلهم وهشموا الرأس بين أحسن الأفاعي)، وسواء كان هذا الأمر لزمن الحرب أو كل الأزمنة، فهو شيء يجب عدم تشريعه، وخصوصاً أن هذا النص كتب عندما لم يكن لليهود كيان يعلن الحرب، وبالتالي هم يطبقون هذا الأمر عندما يمكنهم ذلك كأسلوب للتفوق والاستمرار في السيطرة. وكتب اليهود تحلل قتل الكنعانيين بدون تمييز لإخلاء الأرض من أصحابها، أما القوانين السارية على المدن المجاورة فتخول اليهود قتل كل الذكور بالسيف، وسلب الإناث وتفضيل العذارى

منهن. ويفسرون الوصايا العشر بأنها تطبّق على اليهود فقط، أي إن وصية لا تقتل تعني لهم لا تقتل يهودياً، والشيء نفسُه فيما يتعلق بلا تزن ولا تسرق ولا تشهد بالزور على قريبك ولا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك»...

«..وهل يمكن اليهودي أن يشتهي حمارة قريبه أو أي حمارة أخرى». قاطع القبطان وتعابير وجهه بين الاستغراب والاستهزاء والخجل.

«ربما عليّ أن أوضح لك أن المسيحيين يعتمدون التوراة اليهودية، ولكن لليهود أيضاً كتباً تشريعية أخرى تخصهم مثل التلمود، وهذا يشتمل أحكاماً جمة حول العملية الجنسية بين الذكور والإناث من قريبات وغيرهن، وكذلك الجنس بين الحيوان واليهودي، مثل نكح الإوزة، أو نكح الكلب لمن تنظف الأرض وهي منحنية، وغير ذلك. ومن الأفضل أن تعثر على حاخام ليشرح لك هذه الأحكام، لكن التوراة هي الأخرى فيها ما يكفي من العجب والرؤية السلبية للآخرين، وسبيهم واستعبادهم». كان أوغسطين ينظر إلى الساحل وهو يحادث القبطان، فقد ابتعدوا كثيراً إلى الغرب وهم يبحرون جنوباً، وظن أوغسطين أن من المستحيل أن يسبح إلى الشاطئ في حالة حدوث أي طارئ، لكنه لم يفصح للقبطان عما دار في ذهنه.

«يبدو أنك لا تريد الذم في الديانات فتوجز أحياناً. لكن هل من تفسير لتقليد الديانتين اليهودية والمسيحية لنظام العبيد الروماني؟ أليس العبيد والإماء بشراً يفترض بالديانات أن تحررهم؟»

«الطبيعة البشرية بالفعل تقر ما قلته كونها تنزع إلى أفكار المساواة، لكن النظم والديانات تعتمد أسلوب التراتبية، أي هناك ملك أو نبي أو كاهن أو حاخام، يليهم نواب وإدارة، وهؤلاء بحاجة إلى من يقدسهم ويتبعهم وينتج لهم ويخدمهم. هكذا التسلسل فكل يريد الخدمة من غيره، حتى تصل إلى

طبقة العبيد الذين عليهم الكد وإشباع الكل، والإمات اللواتي عليهن إسعاد المتخمين. لذلك تحلل الديانات الغزو والسلب والأسر لكسب خيرات الآخر واستعباد الرجال وسبي الإناث. حتى في النعيم والجحيم توجد طبقات من أنواع الرخاء والمتعة وما يقابلها من فنون التعذيب. اتدري أن البطل السالب الناهب المستعبد في الحياة هو الذي تحجز له الأديان موقعاً مميزاً في نعيم الآخرة، وبالتالي فالمنهوب المغلوب المسبي سيغرق في الجحيم، لأن كل ديانة تعتبر خصمها كافراً مصيره جهنّم».

«..ولهذا أنت لا تتبع أي دين، كما ذكرت لي في بداية حديثنا !»

«نعم، هذا أحد الأسباب، ويمكن إيجازه بأن الدين لا يتبع الشق الإيجابي للفطرة البشرية. وكل دين متناقض مع نفسه، وبالطبع مع الديانات الأخرى. حتى لو افترضنا صلاح الدين فهذا لا يعني قدرته على إصلاح الحياة وتسيير شؤونها المتغيرة باستمرار. كيف يمكن ديانة عفا عليها الزمن أن تواكب الحياة؟ هذا مستحيل، وسيكون على الحياة أن تراوح مكانها لتناسب الدين. إذا أردت مثلاً تحقيق العدل والمساواة فعليك اتّباع عقلك وليس التقيد بالنص الجامد».

توقف أوغسطين ليراجع هذه الأفكار التي أطلقها من دون تأمل طويل، فقال له القبطان: «لكن الديانات تتغير، ويفترض أنها تتطور. دين اليهود يختلف عن دين الرومان، وهذا عما سبقه من آلهة للإغريق والفرس والمصريين والأشوريين الذين تملأ تماثيل آلهتهم كل الموانئ التي رسوت بها، وأعتقد أن المسيحية نسخة متطورة عن اليهودية. وربما تولد ديانات جديدة تطور اليهودية والمسيحية». انشرحت أسارير أوغسطين لما سمعه، وانفتح قلبه لهذا الرجل وتوقع رحلة شائقة واستكشافاً لآراء هذا الرحالة البحري ورؤاه الذي يجوب موانئ البحر ويختلط مع كل أنواع المسافرين.

«يمكن أن تسمي تتابع الأديان تغييراً، ولكنه ليس تطويراً، أو الأحرى ليس تطوراً للأفضل. كل الديانات للآن تتشابه في الإيمان بالغيب والمجهول والحياة بعد الموت، وتقوم على مبدأ الدرجات، وفي كل الأديان يستفيد القلة فقط من تطبيق الدين. هذا حديث طويل يمكن أن نخوض فيه في الأيام المقبلة، لكن السلبي في تتابع الأديان أن الجديد ينفي القديم وهذا بدوره يقاوم، وهكذا ندخل إلى القتل والتعذيب والتكفير والحروب. آلهة الأساطير القديمة كانت أحياناً تتقاتل بعضها مع بعض، ولكنها في النهاية تتعايش معاً ومع الناس، لكن آلهة اليهود والمسيحيين لا تتحمل شريكاً لها، ولهذا تكفر بعضها وتكفر الآخرين ولن تتعايش أبداً. إحدى الإشكاليات هنا أن اليهودية منغلقة على ذاتها، بينما المسيحية اعتمدت كتاب اليهود، ولكنها فتحت المجال لانضمام كل البشر إليها، يعني اليهود لا يريدون لغيرهم أن يهتدوا بينما المسيحيون يريدون كسر الاحتكار اليهودي، ولهذا لم يتوقف الصراع بينهما منذ ولادة المسيح، وكل من الطرفين يسعى لاستغلال الرومان لإبادة الطرف الآخر».

«لكنك شخصياً لا تؤمن بأي إله أو أي دين، ولهذا أنت مهتم بإظهار سلبية الأديان؟» صمت أوغسطين وهلة يفكر كيف وبماذا يجيب عن هذا السؤال المباشر، ثم أومأ للقبطان بصحة استنتاجه، فأضاف هذا: «هل يعقل أن كل البشر الذين يؤمنون بدين ما مخطئون؟ عليك أن تشرح لي الليلة من أين جئنا وإلى أين نسير ولماذا هذا الطريق؟ سأتركك الآن للاهتمام ببعض شؤون المركب». كانت مثل هذه التساؤلات تجول أحياناً في مخيلة أوغسطين، ولكنه لم يتعمق في البحث عن إجابات حينذاك، أما الليلة فسيكون عليه خوض نقاش مع هذا القبطان اليوناني الذي يبدو أنه يعرف أكثر مما يوحي به حديثه.

كان المركب يسير بقوة دفع أربعين مجدافاً موزعة على جانبي الطابق السفلي، ويدعمها شراع كبير تنفخه الريح الغربية، وتعدل الدفة والمجاديف المسار حتى لا يندفع المركب إلى الساحل. بعض المراكب اليونانية والرومانية تسير بقوة ثمانين أو مئةٍ وستين مجدافاً تتوزع على طابقين، ولكن هذه المراكب تسير طوال ست أو ثماني ساعات في النهار، ثم تجنح إلى الشاطئ لقضاء الليل، وذلك لثقلها وخوفاً من الإبحار ليلاً، أما هذا المركب الصغير، وكما عرف أوغسطين في ميناء لاثوديسيا، فإنه يبحر طوال الوقت، ولكن الطاقم لا يجدف في الليل، بل تشرف قلة منهم على التعامل مع الشراع والدفة للاستفادة من نشاط الريح ليلاً. ولأن الركاب يخافون من الإبحار الليلي، تم تحذيرهم في الميناء بأسلوب هذا القبطان. وبالفعل، حبّذ بعض التجار انتظار مركب آخر أكبر ويبحر بالأسلوب التقليدي، وبالطبع يحتاج أكثر من ضعف الزمن لقطع المسافة من لاثوديسيا إلى ميناء قيصرية.

جلس أوغسطين في منتصف المركب متكئاً على سارية الشراع يراقب ملامسة قرص الشمس لسطح الماء تمهيداً لغرقه التدريجي، حتى يحل الظلام ليبدأ البشر بالاستسلام لمشاعرهم المتناغمة مع ظروف مكانهم وزمانهم. من هم في البر والبحر تتصاعد مخاوفهم ومثلهم المرضى والمحتاجون، كل منهم يتوسل إلى ربه أن يعيد عليه طلوع الشمس. أما سكان المدن والأصحاء والأغنياء فمخاوفهم الليلية أقل. لم يكن أوغسطين ممن يخافون الظلام، وطاف خيال ماري في ذهنه، وتذكر أنه يقوم بهذه الرحلة حتى يمهد لها انتقالاً سلساً إلى بيت الزوجية، وحتى يهون على نفسه أيضاً مضاعفات الحدث ومرور الأمر بسلام. لن يكون عليه الآن طلب اللقاء معها وانتظارها على ضفة السندس، والقلق إذا كانت أمها قد عرفت بالأمر ومنعتها، أم أن سبب تأخرها شيء آخر. الفصل الجغرافي هو السبيل الأوحد

للأمان، وربما يكون الأنجع بالفعل لإشغال ذهن كل منهما عن الآخر. غطست الشمس بسرعة منذ ملامسة طرفها سطح الماء، وخطر لأوغسطين فوراً مبرر الأقدمين باعتبار الشمس إلهاً، فبغيابها يذهب الشعور بالأمان، ويحل البرد بدل الدفء، وتنعدم الرؤية، بل إن مشاعل السفينة لا تكاد تنير سطح البحر حول المركب. ديمومة طلوع الشمس وغيابها يزرعان الثقة في النفس، وبالتالي تصبح هذه القوة الهائلة أول المرشحين للتأليه والاحترام، يليها القمر وقبلهما السماء المنتصبة بدون أعمدة، وفي مواقع لاحقة يأتي المطر والريح، وكل منهما يمكن أن يكون نعمة أو نقمة، وبالتالي يجب احترامها. هذه الأفكار الأولية جاءت لتناسب التساؤلات: من أين وإلى أين ولماذا؟ ولكنها بالتأكيد لا تقدّم أي إجابة، فالشمس والقمر لا علاقة لهما بمصدر البشر أو إلى أين يسيرون ولماذا هذا الطريق، ولكن الإنسان الأولي كان منشغلاً بصيد طعامه وجمعه وحماية نفسه، وبالتالي انشغلت أفكاره واهتدى إلى سطوة مصدر الطاقة وأهميتها فقدسها.

استضاف القبطان ثمانية من الركاب إلى مائدة العشاء، فشغلت المقاعد العشرة حول الطاولة، وتأكد أوغسطين على الفور أن الضيوف تم اختيارهم بعناية. صبّ الطباخ الشوربة في الصحون الخشبية ودعا القبطان ضيوفه، فباشر اثنان منهم تلاوة صلاة الطعام، ومثل المسيحيان فعل ثلاثة من اليهود، بينما شكر سيد روماني جوبيتير، وطلب منه حماية لهذه الليلة من رفقة الكفار، وتمتم القبطان باليونانية، بينما أوغسطين والاثنان المتبقيان باشروا نضح الشوربة بالملاعق.

«صحون وملاعق خشبية، أقله لن تغرق هذه الأشياء إذا غضب جوبيتير الليلة ورمانا بصاعقة». قال الروماني وقد رمق القبطان بنظرة خاطفة وباشر ارتشاف الشوربة.

«لا مبرر لغضب جوبيتير أو نظيره الإغريقي زيوس أو يهوه اليهودي أو شيطان المسيحيين، فإما أنهم متفاهمون كقوى عظمى أو لا وجود لأي منهم».. صمت القبطان وأشار إلى أوغسطين ثم أضاف: «كما يقول هذا الطرسوسي، الذي لا يعترف بأي إله». سكت القبطان وساد الصمت انتظاراً لسماع توضيح ما، وتمتم اليهود والمسيحيان باستغفارات للرب، ولكنهم لم يتوقفوا عن احتساء الشوربة.

«أن لا يعترف برب أو بدين أفضل من الوقوع في شرك دين اليهود أو المسيحيين الذين يتهموننا بالكفر، ولا يقدمون أي دليل على صحة آلهتهم العاجزة أصلاً عن حمايتهم». استبق السيد الروماني أي تعليق من أوغسطين وشرح وهو يقطع بعض الخبز، أن زيوس حمى اليونان ووسع ملكهم، كما أن مثيله جوبيتير يحمي الإمبراطورية ويساعد على هزم الكفار والبرابرة ويتلقى أضاحيهم.

«يبدو أنني لم أشرح موقفي للقبطان».. تدخل أوغسطين «..أنا لا أنكر احتمال وجود إله خالق، ولكني لا أعترف بكل الموجود من أديان غيبية. ظني أن الذي خلق الأشياء الأساسية في الكون لا يريد أن يعلن ذاته. أما الأديان التي تدّعي أنها اكتشفت الإله، فهي متناقضة مع ذاتها، وبالتالي مع غيرها، ولا يعقل أن تكون على صلة مباشرة بالخالق، أو أنه يؤيدها. لو وجد خالق فبوسعه تنظيم الأمور بدون شقاء وعذاب، وقواعد دينية متناحرة ومتناقضة. لا يعقل أن تكون آلهة الإغريق والرومان واليهود والمسيحيين وقبلهم الأشوريون والمصريون، لا يعقل أن تكون كلها على صواب ومع ذلك تكذب بعضها بعضاً وتتقاتل حتى الموت».

«أنت محق».. قال المسيحي الأكبر سناً بعد أن توقف عن تناول الطعام

«..كل الديانات السابقة لم تجمع بأطراف الحقيقة، حتى هبطت روح الرب على ابنه الذي نشر تعاليم الدين الحق»..

«يا رجل، ربك لم ينجح في حماية ابنه من قومه اليهود، وها أنتم وإياهم طعام للحيوانات المفترسة ولا ينجو منكم إلا من قدّس الإمبراطور وقدّم القرابين لجوبيتير». تنكد وجه أوغسطين وهو يستمع إلى هذا الروماني الفج، ولم يكن يتوقع أن الحوار سيتجه إلى هذه الدرجة من السفاهة.

«لا يفترض في الدين أن يكون منبع عنف، وبما سمعته منك تواً، كأنك تقول إذا نجحت المسيحية وأصبحت دين قوة ودولة فهذا سيعني أنها على حق؟ إذا عذبت خصومها وأذلتهم فهي الدين القويم؟» كان الحديث بنبرة عالية ردعت الروماني وظهر بعض الارتياح على وجوه الحاضرين، فاستعاد أوغسطين الهدوء وأكمل: «لا يفترض بنا تفضيل الآلهة.بعضها على بعض، ما يهمني شخصياً هو البحث كيف تولد كل هذه الآلهة، ومن أين تأتي ولماذا نريدها ونتقبلها؟ حتى الآن لم تثبت لنا أي آلهة أنها الخالق، بل نحن البشر الذين خلقنا كل هذه الآلهة».. قاطع اليهودي والمسيحيان كلام أوغسطين بهمهمات وإشارات استنكار «..لا تنزعجوا يا سادة، فكل كتبكم وأساطيركم تؤكد أن آلهتكم وأنبياءكم بشر أرضيون. تقولون إن آياتكم منزلة، ولكنكم ما زلتم إلى هذا اليوم تكتبون وتغيرون محتوى تلك الكتب، لو رأيت شيئاً مكتوباً أو مرسوماً مما تنسبون إلى أبرام وموسى وسليمان وابن مريم لصدقت كتبكم، ولكن لا يوجد أي دليل ملموس، ولو على غرار آثار المصريين والأشوريين والكنعانيين، حتى الأقوام السابقة عليها تركت آثاراً، بينما اليهودية والمسيحية لا تملكان سوى أساطير متوارثة ومحرفة، ومعظمها منقول عن أقوام سابقة عليها».. توقف أوغسطين عن الحديث إذ نهض اليهودي والمسيحيان وغادروا المائدة غاضبين، وأنهى الرجال

الخمسة طعامهم من دون استكمال لهذا الحديث، حتى اعتذر القبطان عما حدث وسأل أوغسطين إذا كان يريد إفادتهم عما قاله حول وجود الأديان والأنبياء.

«التعصب هو السمة الأساس والأولى للمتدينين، لا يريدون الجدال النافي حتى لا يكتشفوا أنهم يعيشون في أكذوبة. عملياً لا يوجد لدى أي منهم أي دليل، ولكنهم يظنون أن الآباء والأجداد وكل هذه الأعداد لا يعقل أن تكون على خطأ كل ذلك الزمن. الأسهل لهم هو الاستمرار في الكذبة وتحليتها بالمزيد من اللامعقول».. بقي الرجال الأربعة منصتين لحديث أوغسطين: «..تاريخ الأديان يوضح لنا أن البشر يبحثون دوماً عن الأمن والحماية لمواجهة الخوف من الأخطار ومن التخيلات. لذلك عبدوا الحيوانات القوية وقدسوا الشمس والقمر، وصنعوا تماثيل تحاكي أبطال الأساطير وآلهتها التي أنتجها الذهن الجماعي التراكمي. يبدأ الأمر إذاً بالبحث في المجهول عن إله، ثم يضاف عنصر التخمين، وبالتالي تتبع أنصاف الحقائق يليها ادّعاءات من بعضهم ونسبهم أقوالاً محددة سواء إلى الرب أو النبي، وهنا يبدأ التزوير العلني من أولئك الذين يستفيدون ويتعيشون مما أصبح ديناً ويريدون أن يحكموا باسمه».

«لكن الحياة انتظمت في ظل الأديان، وكل شيء يسير على ما يرام، وها نحن نبحر ليلاً في حماية زيوس». تدخل القبطان وهو يصب النبيذ للرجال.

«المركب يبحر بفضل الرياح، نعم، ولكنها ليست إلهاً. ولا يمكنك، يا عزيزي القبطان، الادّعاء بأن الحياة تسير بخير وسلام الآن، فالأمراض القاتلة لا تتوقف، والحروب متوالية، والتعذيب والتجويع أصبحا سمات للأديان، وتتطور فنونه على الدوام. لو لم يخترع الإنسان الآلهة لكان الوضع أفضل بالتأكيد، فكّر فقط في كل الحروب الدينية وتخيل أنها لم توجد، وسترى

حينها أن الوضع سيكون أفضل. نحن البشر الذين نقدم القرابين والأضحية للآلهة التي لا تعطينا سوى ما نظنه منحة منها. أنت تمرض فتخاف فتنذر للآلهة إن هي شفتك، ثم تتناول الدواء فتشفى وتظن أن الآلهة هي السبب. ولو تخلفت عن الطاعة وتقديم القرابين ثم كسرت رجلك، فستظن أنه انتقام الآلهة. هكذا نشأت وتعلمت من والديك ومن السابقين، ولو كتب لك تغيير أفكارك فإنها ستكون نحو إله أكبر وأقوى، ولكنه يبقى مجهولاً ولا وجود له إلا في ذهنك. حين ينتصر قوم على غيرهم يظن المنتصرون أن ربهم كافأهم وله كل الفضل، ويظن المنهزمون أن ربهم يعاقبهم ويختبرهم، والمصيبة حين يتحارب قوم ينتمون إلى دين واحد، إذ حينها يُكفر كل منهم الطرف الآخر». توقف أوغسطين عن الحديث إذ أصبح السيد الروماني والقبطان يبتهلان وظهرت الحيرة والخوف على وجهي الآخرين، وشعر أوغسطين ببعض التأرجح للمركب.

٩

«ها قد وصلنا بسلام ولم يغضب علينا أي من الآلهة». كان أوغسطين يمسك برسن حصانه وهو يسير أمامه على الحامل الخشبي الواصل بين حافة المركب وأرضية الرصيف، بعد أن ربط صندوق الحرير وبقية متاعه إلى ظهر الدابة.

«أشكر الآلهة أنها رحمت بك». صرخ به القبطان بصوت مرح. «إذا التقيتني هنا بعد ثلاثة أسابيع سأنقلك معي إلى طرسوس، وسنشرب نبيذاً غزّياً طوال الطريق».

«لو لم نكن معك في المركب لما وصلت بسلام، وقريباً سترى نتيجة هرطقتك». قال له المسيحي الذي يسير خلف الحصان، بينما زميله الأصغر سناً يحمل حاجياتهما. لم يلتفت أوغسطين إليهما أو يُسمعهما أي تعليق، ولكنه رفع إبهامه ليراه القبطان.

«لست بحاجة، يا سيدي، لانتظار ثلاثة أسابيع، إذا أردت نبيذ غزّة فلدي حمولة كاملة منه». نظر أوغسطين إلى مصدر الصوت، فوقعت عيناه على شاب يبدو أنه يشرف على تنزيل جرار فخارية من مركب على الطرف المقابل للرصيف. «هذه أفضل بضاعة يمكن أن تتذوقها طوال عمرك المديد». تبسّم أوغسطين للشاب ذي الحاجبين الأسودين الكثيفين فوق عيينن سوداوين واسعتين، وسأله إذا كان معه عبوات صغيرة. «لو انتظرت

قليلاً سأملأ لك أي عبوة صغيرة أو كبيرة. سأحمل نبيذي إلى شكيم، فأين مقصدك؟»

«أريد إيليا». قال أوغسطين وقد توقف على مسمع من الشاب.

«ومن يقصدها الآن يا سيدي؟ إنها مدينة جنود ومشاكل ويهود تعساء يخيمون في أطرافها. إذا كان معك في الصندوق ما تريد بيعه فرافقني إلى شكيم». توقف الغزّي عن الحديث بينما أوغسطين يعيد التفكير في ما سمع فأكمل الشاب حديثه: «من هنا فشكيم على طريق إيليا في كل الأحوال». ترك الشاب العمال ينقلون بقية الجرار وتقدم من أوغسطين: «إذا كان صديقك القبطان يريد حمولة نبيذ غزّي، يمكنني أن أعطيه عنوان أفضل صانع هناك، وسيراعيه جداً في السعر». تبسم أوغسطين ملء شدقيه وسأل الشاب مازحاً إذا كان يهودياً متنكراً. «نحن أمهر منهم في كل شيء».

«ها هو القبطان أمامك، اذهب إليه واعرض عليه ما تريد، سأشير إليه من هنا ليستمع إليك. أنصحك أن تأخذ معك عيّنة جيدة فالرجل خبير بأنواع النبيذ». أشار أوغسطين بيده للقبطان وانطلق الشاب الغزّي بعد أن طلب من أوغسطين الانتظار إلى جانب جراره المحصنة بحصير من القش. لقد توافق مزاجه فوراً مع هذا الشاب الوسيم القوي الجريء، وظن بحدسه أنه ذكي أيضاً، وجال في ذهنه كم ستكون جميلة أخت هذا الشاب. شكيم وغزّة من كبريات المدن في فلسطين الآن، ولا بأس من زيارتها قبل الوصول إلى إيليا. فكّر أن لا هدف محدداً لديه من زيارة إيليا، كل ما هناك أنه قرر مغادرة طرسوس ريثما تتزوج ماري. لديه الكثير من الأموال بعد أن باع كل خيامه، وكان قد قرر العودة بصندوق القماش الحريري إلى مدينته، وقد خطر له تواً أن يشتري نصف حمولة النبيذ من الغزّي، ويحملها مع صديقه القبطان من هنا إلى طرسوس. أفاق من تأمله على صوت القبطان ويده على كتفه سائلاً

إياه إذا كان يعرف هذا الغزّي منذ زمن. «كلنا أبناء آدم سيقول لك أي يهودي أو مسيحي. أنصحك باختبار نبيذه قبل كل شيء».

«ما حمله لي الآن جيد جداً. وسأختبر ما لديهم ولدى غيرهم في غزة، فإن كانوا الأفضل سعراً ونوعاً سنأخذ حاجتنا منهم».

«أنا شخصياً سأشتري منه هنا، شرط أن يكون السعر ما ستدفعه أنت لمثل هذه البضاعة في غزة». قال أوغسطين للقبطان بينما الشاب يحتج على هذه الصفقة، لأنه لن يربح أي شيء بل سيخسر ثمن الشحن، وطالب بضعف ثمن البضاعة في غزة.

«هذا هو سعري لأفضل أنواع النبيذ المصنوع من أجود أنواع العنب الأسود». أعجب أوغسطين بلكنة الشاب، وسأله إذا كان مواطناً رومانياً، «نعم، غالبيتنا في محيط غزة مواطنون، وندفع الضرائب في الأسواق والموانئ، وأنتم تريدون مني بضاعة هنا بسعرها على الأرض في غزة».

«لا نريد منك أي شيء».. قال القبطان للغزّي ثم وجه حديثه إلى أوغسطين: «أخبرني بالكمية التي تريد وسأجلبها لك، ونتفاهم على سعرها النهائي عندما نصل إلى طرسوس».. شاهد الانزعاج على وجه الغزّي فقال له القبطان: «سنشتري من جماعتك هناك، وأنت هنا لديك زبائن ولا نريد أن نحرمهم من نبيذك، فبعهم ما لديك». تحسّس أوغسطين صرة النقود ليدفع بعضاً من السعر، لكن القبطان أمسك بيده وطلب منه أن يحدّد عدد الجرار المطلوبة: «أما الثمن فستدفعه عند تنزيل البضاعة في طرسوس، لو أخذت منك النقود الآن فربما لا تتمكن من لقائي هنا، وحينها سأبحر مع النبيذ بدونك. نبيذي معي ونقودك معك حتى نلتقي مجدداً». تروى القبطان وسمع من أوغسطين عدد الجرار المطلوبة وقال وهو يودعه: «لو كنت يهودياً أو مسيحياً لما وثقت بك أيها الطرسوسي».

جلس أوغسطين يتناول فطوره في مطعم يعمل لمصلحة الجنود، وكان قد أودع صندوقه ومعظم نقوده لدى خازن الميناء. لو لم يفعل ذلك لكان عليه دفع ضريبة على الحرير، وربما يقع ضحية لقطّاع طرق يسلبونه كل أمواله التي جناها من بيع الخيام. هكذا خفت حمولته وتراجعت همومه ولم يعد عليه سوى انتظار تخليص الغزّي لنبيذه وشراء بعض الطعام ليحمله أثناء الرحلة التي لا يعرف محطاتها. «لو تحركنا الآن فقد نصل إلى شكيم قبل غروب الشمس، هل أنت مستعد للانطلاق؟». لم يعرف أوغسطين كيف تدبر الشاب أمره بهذه السرعة، واستأجر ثمانية بغال كل منها بحمل أربع جرار من النبيذ، وشابين شديدين.

«كنت أريد شراء بعض الطعام للطريق، لماذا أنت مستعجل جداً؟»

«دعنا نتحرك الآن، ولا تهتم بطعام الطريق، فلدي ما يكفي من جبن الماعز الحارّ المحفوظ في زيت الزيتون، وعجوة تمر وكمية من الزبيب، وتدبرت أمر الخبز والماء». طمأن الغزي أوغسطين وأخذ يشرح له بعد أن امتطى كل منهما دابته كيف تدبر تقليل قيمة الضرائب بإهداء جَرّتي نبيذ إلى الجند، وأنهم أخبروه بموعد انطلاق دورية الجند من قيصرية إلى شكيم ظهر اليوم. «عندما يدركوننا سنكون قد اجتزنا نصف المسافة، وإذا سبقونا فإن اللصوص سيهربون، ونكمل الطريق بأمان». لاحظ الشاب علامات الاستغراب على وجه رفيقه فأخبره أن قيصرية محطة رئيسة لتجمّع الجند، وأن الدورية التي ستنطلق اليوم خيالة، وبالتالي هم أسرع من البغال المحملة، وإذا واجهوا أي مصاعب في الطريق فإن الجند لن يكونوا بعيدين خلفهم: «وعموماً أي قطّاع طرق لهم عيون هنا، ويعرفون عن تحركات الجند وبالتالي يبتعدون عن الطرقات».

«وهل واجهت في السابق قطّاع طرق؟»

«نعم، ولهذا نركب البحر ونستأجر الدواب والعمال، ولو اتبعنا الطريق البري من غزة إلى شكيم لما تركنا اليهود بسلام. لم تعد عصاباتهم منتشرة كثيراً، ولكنهم ما زالوا ينهبون ما يمكنهم كانتقام من كل شيء روماني».

«يبدو أن مشاكلكم كثيرة وكبيرة معهم؟»

«ليست كما كانت في الماضي، فالأجداد يروون عن أزمنة أصعب. لم يعد لهم وجود في غزة ومدن الفلسطينيين الأخرى، بل نحن نتبع ولاية سورية وهم من ولاية يهودا، ولكنهم، كما ترى، يحاصروننا في البر ويكلفوننا الكثير، وغالباً ما يعجز الجند عن الإمساك بعصاباتهم، وحين يمسكون بهم ينكرون أي علاقة ويدّعون أن المسروقات المضبوطة معهم تم شراؤها من مجهولين. حتى الشياطين تعجز عن أساليبهم، يعتقدون أنهم أذكياء، ولكن كل أفعالهم تجلب ردود فعل عنيفة عليهم من الإمبراطورية. هكذا كانوا وعلى الأرجح أنهم لن يتغيروا».

«لكنكم أيضاً لا يُستهان بكم وتناطحونهم منذ زمن طويل، ولكم ذكر سيئ في كتبهم، لكن دعنا من اليهود، هل عندكم في غزة مسيحيون؟»

«يزورنا أحياناً مسيحيون يعملون في السفن، ولكني لا أعرف أنّ أياً منهم يقطن في غزة، لدينا الآن بعض العجزة اليهود ينتظرون الرحيل إلى الحياة الآخرة. الكثيرون من سكان المدن يذهبون إلى معابد داجون أو مارناس، أما سكان المناطق الزراعية فيتعبّدون لإله روما كل حسب اختصاصه وحاجتنا إليه. نحن من أجناس مختلفة، لدينا إلى جانب الفلسطينيين فينيقيون وكنعانيون وفرس وفراعنة وبدو وإغريق ورومان، وبالتالي لدينا معابد أيضاً لزيوس وهيليوس وأفروديت وأبولو وأثينا وإيل وتيشي». لاحظ الشاب استغراب أوغسطين من هذا الخليط البشري والإلهي، فتبسم واعتدل على بغلته وأضاف: «تعرضنا قبل خمسمئة عام

للإبادة بفعل جيوش الاسكندر الإغريقي اللعين، حاصرنا خمسة أشهر، وقاومه السكان فانتقم منهم لاحقاً بالقتل والتشريد والسبي، واستقدم إليها إغريقاً من قومه وبدواً محليين. عندما استعادت المدينة شعبها مجدداً أصبحوا خليطاً، وبعد قرنين وثلث القرن على تلك المجزرة هجم على غزة الحشمونيون اليهود، فأعادوا الدمار وقتلوا كل أعضاء مجلس الشيوخ الخمسمئة الذين احتموا بمعبد أبولو، ولم ينجُ من السكان إلا اليهود ومن فر من وجه الغزاة. ومرة أخرى استعادت غزة شعبها، وهي الآن أكبر مما كانت في أي فترة سبقت، وتحديداً بعد زيارة الإمبراطور هادريان وافتتاح المسرح الضخم وبقية مباني المدينة. في الواقع إن مشاكلنا تقلصت جداً منذ بداية الحكم الروماني قبل مئتين وخمسين عاماً، ومنح روما لا تنقطع عنا، فنحن مسالمون، كما أن شيوخنا يحسنون الحديث وكسب العطف والدعم. ما نواجهه من صعاب الآن يعود لمقارعة اليهود روما، وكلما أدّبتهم القوات الإمبراطورية فإنهم يهاجموننا في طريق هروبهم أمام الجند أو أثناء عملياتهم اللصوصية». تفحص الشاب المنطقة من حولهم إذ ابتعدوا كثيراً عن المدينة، ثم أكمل حديثه: «..لقد التقت القوات الإمبراطورية القادمة من روما والتعزيزات القادمة من الاسكندرية هنا في هذا الميناء، ثم انطلقوا في حملة تمشيط الأرض وتنظيفها من اليهود، حتى حشروهم في ما كانت تعرف بأورشليم، ثم تركوهم يقتل بعضهم بعضاً، وأتى الجند على المدينة ودمّروها مع بقايا المعبد. لكن هادريان أعاد بناء مدينة جديدة مكانها يقطنها متقاعدو الفرقة العاشرة، وحين تصلها سترى معبد جوبيتير مكان معبدهم، وتماثيل هادريان وجوبيتير تزين المكان، وهي المدينة الوحيدة الآن في الإمبراطورية، إلى جانب جزيرة قبرص، التي يُحرّم على اليهود دخولها. لقد أمر الإمبراطور تيتوس قبل مئة وعشرين عاماً بهدم شكيم أيضاً، والمدينة التي سننام فيها

الليلة اسمها نيابوليس، لكنّ المتدينين ما زالوا يسمونها شكيم. أنت تعرف بالطبع أن تيتوس هو الذي دمر هيكل اليهود آنذاك، ولكن الإمبراطورية تهاونت معهم وأعيد استعمال بقاياه حتى ثاروا على هادريان وتآمروا مع الفرس فأعطاهم ما يستحقون». كانت علامات الدهشة قد غطت ملامح أوغسطين، فكيف لهذا الفلاح الغزّي الإلمام بكل هذه المعلومات. عرّف أوغسطين عن نفسه ليمهد لتعريف الغزّي، فأخبره أن أجداده يقطنون ريف غزة، وأن قريتهم مشهورة بزراعة العنب وأقيمت بها أبنية فخمة منذ بداية العهد الروماني، وأنه شخصياً تعلم في مدرسة القرية وزار لاحقاً مدرسة غزة للفلسفة طوال خمس سنوات قبل أن يعود إلى الزراعة وإنتاج النبيذ والإشراف على تجارة العائلة، وأخبر أوغسطين أن اسمه ياخوس.

«يعني أنت تجيد اليونانية إلى جانب اللاتينية»..

«..وبعض الآرامية والعبرية ولغتنا النبطية المحلية». بدا ياخوس مزهواً وهو يقاطع ويجيب أوغسطين، وأخرج من حزامه قطعة نقود ناولها لأوغسطين وأخبره أن الصورة تعود إلى بومبي الكبير الذي ضم غزة إلى الإمبراطورية وأعاد إعمارها. «بودّي أن أستمع إلى آرائك حول الأديان، فقد سمعت من القبطان أنك لست مسيحياً ولا يهودياً ولا أظنك من أنصار جوبيتير أيضاً».

«لا يوجد الكثير لأخبرك به، ولكن ماذا تفعلون في مسرحكم الغزّي؟»

لم يمتعض ياخوس من تهرب أوغسطين، ورأى أن يعطيه فسحة حتى يخبرة بالقليل الذي يريده، وأشرق وجهه وهو يتحدث عن المسرح الذي ذاع صيته من الاسكندرية حتى روما، وقال إن المسرح يفتح أبوابه في الليل والنهار طوال الأسبوع وعلى مدى العام. هناك برنامج متكرر من النشاط يشمل

مسابقات الخيل، والمصارعة، والتمثيل، والغناء، واستعراض الحيوانات النادرة المجلوبة من أفريقيا وتُصدّر إلى روما وبقية مدن الإمبراطورية.

«الصحيح، يا صديقي، أن نشاط المسرح يعزز اقتصاد مدينتنا». واصل أوغسطين الإنصات فأكمل ياخوس: «يصلنا زوار كثيرون من كل المناطق، يحملون معهم النقود ليقامروا على الخيل والمصارعين، ولكنهم نادراً ما يغادرون غزة وفي صررهم أي سيسترن. هؤلاء وزوار الثقافة وطلاب العلم يشغلون المنامات والمطاعم، والخزانة هي الرابح الأول»..

«..هل مصارعتكم حتى الموت؟»

«..ليس كلها، ولكن هناك مصارعة حتى الموت، ويكون الرهان عليها أعلى. غالبية المصارعين مغامرون من خارج غزة، أي شخص يمكنه بيع نفسه لإدارة المسرح فترة من الزمن يعمل أثناءها في المصارعة، وإنّ من ينجو من الموت يخرج بعد نهاية الاتفاق بمبلغ محترم. الكثير منهم يهود ويعتبرهم الحاخام في العادة مرتدّين عن الديانة لا تُقبل عودتهم إليها». توقف ياخوس عن الحديث وحدّق إلى الطريق ثم قال: «هناك أناس على المنحنى، هل تراهم؟ إما أنهم بائعون وإنا هنّ عاهرات سيعرضن أنفسهن مقابل سيسترنات». أجاب أوغسطين بحركة من رأسه أنه لا يرى شيئاً عند المنحنى، ولكنه تحسس صرة نقوده داخل حزامه وأخرج سيفه من بين فخذته وسرج الحصان. «لا تقلق، ليسوا لصوصاً، فهؤلاء يهاجمون من الخلف ويأخذونك على حين غرّة». طمأن ياخوس رفيقه وسأله إذا كان سيمتع نفسه لو كنّ بائعات هوى.

«هل جننت لتسألني بهذا الخصوص؟» أجاب أوغسطين بحدّة وأكمل: «وهل يعقل أن أمنح قضيبي لأية عابرة سبيل ومقابل إيجار أيضاً؟» استعاد ياخوس أنفاسه إذ ظن غضب رفيقه لأسباب دينية. «يفترض أنك تعرف عن

الأمراض المنتشرة جراء هذا الفعل، ألم يحدثك والدك عن الطاعون الذي انتشر قبل ربع قرن فقط ولم يتخلص العالم منه نهائياً حتى الآن؟ كيف ستعرف إذا كانت تحمل عدوى الطاعون أم لا، أو تظنهن سيدات روميات يستحممن مرتين كل يوم». كف أوغسطين عن الوعظ وأبصر ما يبدو عجوزاً وأمامها ما هو للبيع، ولم يتحدث ياخوس أو يجيب عن أي من أسئلة رفيق طريقه الاستهجانية. عندما مرا بها أخبرتهما أنها تبيع فاكهة الزيتون المملّح بدون نوى، والتين المجفف. لم يتوقفا أو يهتما بقولها، فسألتهما إذا كانت الدورية في إثرهما، وشكرتهما حين أكدا لها ذلك، وأبلغها ياخوس أنها دورية أكبر من العادية. أراد أن يطمئنها إلى فرصة بيع تالية، ويرهبها إذا كانت تتجسس عن معلومات لمصلحة قطّاع طرق.

«نحن في غزة نأكل الزيتون كطعام مع الخبز، وليس مثل أهل روما الذين يعتبرونه فاكهة». تجاوب أوغسطين مع تغيير الموضوع وأخبر رفيق طريقه أنهم في طرسوس يعاملون الزيتون كفاكهة أيضاً، وسأل ياخوس عن أنواع الطعام الأخرى المنتشرة في مدن الفلسطينيين. «نستفيد من ماء البحر ونبخره لكسب الملح الذي يستفاد منه في تصبير أنواع السمك الكثيرة، كما نجفف السمك الصغير مثل السردين في الشمس». كان ياخوس يفتش في صرة طعامه وهو يتحدث وأخرج منها بعض السمكات المجففة. ناول أوغسطين بعضها ونادى أحد المساعدين في الخلف وأعطاه منها. «إنها نظيفة وتؤكل كلها». قال الغزّي عندما لاحظ أن رفيقه يريد فصل رأس السمكة وعظمها.

«تعيشون على البحر إذاً؟»

«نستفيد من البحر باستخراج شتى أنواع الطعام، ونصطاد عبر البحر ما يصلنا من طيور مهاجرة وخصوصاً السمان. لكننا ننتج من الأرض أنواعاً

من الطعام والفواكه. لدينا الفول الأخضر الذي نقليه ونأكله أو الحِمِّص والعدس الذي نطبخه، وبالطبع أنواع من الكوسا الطويلة والمستديرة الصفراء والخضراء. أما الفواكه فهي أكثر مما تُحصى، وملكها العنب الذي نصنع منه مربيات وزبيباً إلى جانب النبيذ». مجدّداً عزز ياخوس حديثه بتقديم الزبيب لرفيقه وقرن خروب جاف، سائلاً إياه أن يجرب ويخبره أيهما أطيب وأحلى. تنبه أوغسطين لخلو القائمة من اللحوم، فسأل ياخوس الذي شرح له أن الصيف جاف وطويل والمواشي تحتاج إلى الكثير من المراعي، وأن القليل مما يتوافر من الأغنام يستفاد من ألبانها لصنع الأجبان، بينما الأبقار تستعمل في الحراثة والجرّ، وهي أثمن من أن تذبح للطعام. «أعتقد أن بلادكم أغزر أمطاراً وأوفر مياهاً وأكثر اخضراراً». أيّد أوغسطين استنتاج ياخوس وأخذ يحدثه عن المراعي وقطعان الأغنام السود التي يملكها ويستفيد من صوفها لصنع الخيام، وخف تركيز حديثه حتى صمت إذ احتلت ذكريات نهر السندس والتمشي مع ماري كل حواسه.

أفاق أوغسطين على ضجيج حوافر الخيل حين اقتربت خلفهما. «أظن أنك لم تسمع شيئاً مما قلته لك. منذ مدة وأنت لا تجيب عن أي سؤال وتستمع فقط، وربما لم تكن تسمع أيضاً. ها قد لحق بنا الجنود، علينا أن نسرع قليلاً لنواكبهم ثم ننشط في تتبعهم».

«لا بأس يمكن أن نسرع، فأنت تتحمل مسؤولية تكسير الجرار». قال أوغسطين وهو يفسح الطريق المعبّد بالحجارة ليمر الجنود وأخذ يرد عليهم التحية، بينما ياخوس يجيب عن تساؤلاتهم، ويخبرهم ماذا ينقل وإلى أين، ويتمنى عليهم عدم الإسراع. «عمّ كنت تحدثني قبل قليل؟» سأل أوغسطين بعد أن تجاوزهما الجنود.

«أنت غضبت من فكرة نكح عاهرات وظيفتهن بيع الهوى، ومع ذلك

فهمت أنك غير متديّن مع أنك عملياً تطبق إحدى الوصايا الموسوية برفض الزنى، ويمكنني التخمين عبر ما رأيته منك اليوم، أنك لا تقتل ولا تسرق ولا تشهد زوراً ولا تشتهي بيت قريبك وما فيه من نساء وحيوانات، وأنت بالطبع ستكرم أباك وأمك لو كانا على قيد الحياة الآن... ماذا بقي من الوصايا، أن لا تصنع لنفسك تمثالاً تعبده وتسجد له، ولا تحلف كذباً بإلهك، وتذكر يوم السبت لتقدسه»..

«لقد سرحت كثيراً أيها الغزّي، وأراك تميل إلى الوصايا التي أصبحت أساساً لليهودية والمسيحية. هذا طبيعي لأنها من فطرة الإنسان، واعلم أنها وغيرها من الحكم في كتاب اليهود منقولة شبه حرفياً عن عمود حمورابي الذي سبق زمانه زمانهم. العدالة والحرية والمساوة فطرة بشرية، وحين تغيب هذه بفعل الظلم يندفع الناس للبحث عن قوة تؤمن لهم حياتهم وتحميهم من الفساد، وهذه القوة العليا بحاجة إلى ممثلين على الأرض، وهؤلاء الذين يتقمصون هذه المهمة التمثيلية يقعون في الفساد. الخوف من المعلوم والمجهول هو سبب تقبل البشر للآلهة وخلقها لتكون الحامي والمعاقب، وإن لم تكن الحماية في الدنيا، فهناك ثواب ومكافأة في الآخرة، حيث ستعم المساواة وسيعاقب الأشرار. أنت اخترت الوصايا العشر كمثال على وداعة الأديان وعدلها، ولكن النصوص الدينية اليهودية والمسيحية لا تدور فقط حول الحب للجميع، بل هي محشوة بالأنانية الفردية والجماعية والشر والتمييز وتبرير القتل ونسب كل ذلك إلى رغبات الرب. أنظر إلى اليهود، هل جلب لهم دينهم أي نعيم؟ هل دفعهم إلى العيش بسلام؟ الشيء نفسه بالنسبة إلى المسيحيين الذين انشقوا عن اليهودية ليكون الدين شمولياً، فحتى الآن لم يجلب لهم هذا التحديث سوى القتل والتعذيب والصلب».

«ولكنهم يؤمنون بمستقبل أفضل، ومتأكدون من موقع مميز في الحياة الآخرة، ولذلك يبدو أنهم لا يهابون الموت الذي يسمونه شهادة».

«ربما يكونون على صواب أيها الغزّي. كل الأمم منذ فجر التاريخ تؤمن بحياة بعد الموت، هذا لا يعني أنهم محقون، فلم يعد أي واحد من هناك ليخبرنا بذلك. أعتقد أن غرور الإنسان يدفعه إلى الاعتقاد أنه ليس بتلك التفاهة في المقدار وأن موته هو نهايته، لذلك يسهل عليه تصديق أساطير الحياة بعد الموت، ونهاية الإنسان تخيفه وخصوصاً أنها حتمية. فكرة الآلهة ومبرّرها لم يختلفا منذ عاش الإنسان في الكهف حتى يومنا الحاضر، تأمل فيها وستجد أن الأساس موحد، والتغيير هو تفاصيل صغيرة وطقوس تتكون حين ينقل الجديد عن الذي سبقه. إنه الطريق الطويل للابتعاد عن الظلام والاقتراب من حافة النور».

«أنت تقرأ كثيراً وتحلل ما تطالع!»

«الذي يعرف القراءة ولا يمارسها لا يختلف أبداً عن الأمي، لا تجعل زراعة وصناعة النبيذ تلهيك عن متعة الاطلاع والتحليل».

١٠

«بوسعي أن أؤكد أنهم كانوا على متن المركب الذي نقلنا من لاثوديسيا إلى قيصرية، ولا أظن أنهم يهود أو مسيحيون، لأني لم أشاهدهم يصلون طوال الرحلة». كان أوغسطين يكذب بجدارة بأنه لا يعرف أنهم يهود، ولكنّه كان صادقاً بأنه لم يشاهدهم يقيمون صلاة كاملة في المركب. لم تطاوعه نفسه على ترك اليهود الثلاثة تحت رحمة أول حاجز جند روماني على بوابة إيليا. كان الثلاثة قد قصوا شعورهم وهذبوا ذقونهم وتنكروا بملابس رومانية، وادّعوا أنهم من الفلسطينيين أتباع الإله داجون، لكن الحاجز شك في هويتهم حتى صودف وصول أوغسطين وتعرفه إليهم ثم تقديم شهادة الزور لمصلحتهم.

«هل تشهد أنهم مواطنون رومان من سكان بيت جبرين بولاية سوريا، كما يقولون؟» سأل السنتوريون أوغسطين بشكل مباشر وهو ينظر إلى عينيه.

«أخي المواطن السنتوريون، كيف لي أن أشهد بذلك وأنا لم أشاهدهم إلا في المركب ولم أسألهم آنذاك عن بلادهم؟» تمهل أوغسطين فهو لا يريد تحمل مسؤولية شهادة زور لمصلحة ثلاثة يهود متنكرين يريدون دخول مدينة محرمة عليهم، ولكنه لم يظن باحتمال أي خطر منهم وغير مقتنع أن من حق أي سلطة منعهم من دخول إيليا، ولهذا تعرف إليهم، وكان بوسعه تجاهلهم طالما أنهم تنكروا أصلاً. «ما المشكلة بالضبط؟»

«أنت مواطن روماني تملك حصانك ومررت بنقاط مراقبة عدة حتى وصلت إلى هنا، وقد أخرجت لنا حلقة البرونز لإثبات المواطنة في طرسوس. أما هؤلاء الثلاثة فلا يملكون أي حلقة من بيت جبرين، ولا يحملون أي ختم خشبي يثبت تسجيل ميلادهم، ولا يملكون أي تصريح من مكتب تسجيل ولايتهم يثبت هويتهم، وهذا ما يفعله كل مسافر كما تعرف».. تمهل السنتوريون وهو ينظر إلى اليهود الثلاثة وأضاف: «..كل شيء في قصتهم وشكلهم يوحي بأنهم يهود يريدون الدخول إلى المدينة. ربما هم مواطنون ولكنهم يهود، ولذلك يكذبون في التعريف، ثم إن بيت جبرين في الجنوب من هنا، وأنت تقول إنهم حضروا في المركب من الشمال، ولم يواصلوا رحلتهم إلى بلدهم على الطريق الساحلي السريع أو مع أي مركب متجه إلى غزة». شعر أوغسطين أن الأمور تعقدت، وتقدم أكبر اليهود سناً وشرح أنهم كانوا في زيارة إلى أنسبائهم في أنطاكية، وقرروا إكمال نصف طريق العودة براً وأنهم أرادوا زيارة إيليا ويعزمون على زيارة حبرون بعد ذلك ثم يهبطون إلى بيت جبرين القريبة. لم يقدّم الرجل أي تفسير لعدم حملهم أي هوية أو تصريح سفر أو شهادة ميلاد أو حلقة خدمة مدنية، ولم يمنحهم مسؤول الميناء أي خيل كما هي العادة لمن خدموا في الجيش. «الطريقة الوحيدة للتعرف إليهم هي فحص سجلّ إحصاء المواطنة في مدينتهم، أو إحضار سبعة مواطنين ليشهدوا أن الثلاثة مواطنون». كان السنتوريون يحادث أوغسطين بالدرجة الأولى: «هل تشهد أنت أنهم مواطنون وأنهم على الرغم من ذلك ليسوا يهوداً؟»

«حتى لو شهدت بذلك، فهذا مخالف للقانون، وأنا لا أعرفهم إلى درجة تقديم مثل هذه الشهادة». قفز ذهن أوغسطين إلى ما سيكون عليه الحال عند الانتهاء من هذا النقاش، فالسنتوريون لن يتركهم يدخلون إيليا،

ولكنه أيضاً لن يسمح لهم بالانصراف لأنهم منتحلون شخصيات أخرى، وهذا بالنسبة إليه يعني إمكانية أن يقوموا بأعمال تخريبية، أو يحرضوا على العنف والعصيان. «ما رأيك لو ارتهنت أحدهم عندك بينما يقضي الآخران الزيارة ثم ينصرف ثلاثتهم اليوم إلى بيت جبرين؟»

«أيها المواطن، انطلق الآن إلى إيليا، وإذا احتجنا إليك سنجدك، أما هؤلاء الثلاثة فعليهم البقاء هنا والتفاهم مع التريبيون». لم يجادل أوغسطين في ما سمع، إذ لم يعد بوسعه مساعدة الثلاثة، وسحب حصانه خلفه لوهلة قبل أن يمتطيه، وقفز بمخيلته وذهنه لمراجعة الرحلة مع ياخوس حتى شكيم. لقد تعمقت العلاقة بينهما بسرعة إلى درجة تقديم ياخوس اقتراحاً بتزويج أوغسطين أخته التي ترملت وهي شابة، وطبعت في ذهنه مقولة ياخوس: «سوف تستقبلك بعد الزواج بالقول: يا هلا بالغالي، يا هلا بالسند والرفيق. هكذا تنظر إناثنا إلى ذكورهن». تحادثا أيضاً عن حقيقة أن شكيم ويبوس أيضاً مدينتان كنعانيتان مثل غالبية مدن فلسطين وفينيقيا الممتدة من أوغاريت حتى غزة، لكن يبوس هوجمت من قبائل الخابيرو، وسجّل اليهود ذلك فيما بعد كاحتلال يهودي بقيادة شاؤول، ثم خلفه داود وابنه سليمان الذين كتبوا عنه أنه بنى الهيكل وصوروا مملكته ومدنها كأضخم من أي مملكة سبقت أو لحقت، ومع ذلك فلا يوجد أي أثر ملموس لهذه المملكة. غيرّ كتبة التوراة الاسم من يبوس إلى أورشليم، وذلك بعد خمسمئة عام عما يدعون أنه زمن سليمان. أما شكيم، التي يعني اسمها بالكنعانية، المكان المرتفع، فقد هاجمها من خلفوا سليمان في الحكم، وذلك حسب مدوني التوراة، وكانت شكيم منذ قديم الزمن مقراً للآلهة الكنعانية. طوى الزمن تلك الأساطير واستقر الحال الآن للرومان الذين دمروا المدينتين وأعادوا البناء على طراز المدن الرومانية، حيث يخترق شارع عريض وسطها ويقطعه

من المنتصف شارع آخر مماثل فتصبح المدينة من أربعة أحياء مربعة يحيطها سور للحماية والرقابة، وتنصب المعابد لآلهة الرومان في موقع معابد الديانات الكنعانية أو المحلية، وهذا ما فعلوه في كل المناطق التي ضمّوها إلى امبراطوريتهم. تنبّه أوغسطين لحقيقة أنه عندما اقترب من شكيم وجد أنها أقيمت على تلة بين جبلي جرزيم وعيبال، بينما يرى الآن أمامه أن يبوس أقيمت فوق جبل، وأن موقعها لم يتغير بعد أن دمرها الرومان وأعادوا البناء. تذكر مطالعته في أحد الكتب الإغريقية أن طول يبوس كان ثلاثمئة ذراع وعرضها كان مئتين وخمسين، وهي مِساحة صغيرة جداً والكثير من القرى تكبرها، ولا يعقل أن تكون عاصمة لأي مملكة.

دخل المدينة القديمة الجديدة من بابها الشمالي، باب شكيم في السابق الذي يعتبره الرومان الآن باب العمود نسبة إلى العمود الذي نصبوه في وسط الساحة المعبدة بعد الباب. ترجل عن حصانه وجره خلفه وسط الرومان كاردو، حيث المحال المتنوعة متراصة بعضها إلى جانب بعض خلف صف طويل من الأعمدة المنحوته التي تحمل سقفاً من القرميد الأحمر على الناحية اليمنى من الشارع. عند تقاطع الطريق شاهد ما بدا له كمطعم ومشرب. سأل عن مكان المعبد فقيل له إن طريق التقاطع إلى اليمين يقوده إلى معبد أفروديت، ولو أراد معبد جوبيتير فعليه مواصله الطريق الرئيس حتى التقاطع التالي ثم الاتجاه يساراً، وسيرى المعبد على طرف المدينة داخل السور. كان أوغسطين يشاهد التقاطعات التي وصفت له قريبة جداً، وأصبح متأكداً من صغر حجم المدينة الآن بعد أكثر من ألف عام، عما يقولون إنها كانت مقراً لحكم مملكة داود وابنه سليمان. لم يتصور أنها قد كانت أكبر لأن محيطها نظيف من أي آثار للبناء الأقدم أو الردم، كما أن هذا الجبل الذي أقيمت المدينة فوقه لا يزال يتسع للكثير من الأبنية.

من باب العمود حتى التقاطع الأول امتلأ المكان بالأبنية على الجانبين، وعندما واصل المسير لاحظ أن المربع الأيمن مكتمل البناء، بينما الأيسر يمكن التوسع العمراني به. انعطف يساراً فإذا به أمام حديقة واسعة أمام معبد جوبيتير الذي يتصدره تمثالان ضخمان، أحدهما لجوبيتير والآخر للإمبراطور هادريان الذي بنى هذا المعبد وهذه المدينة كلها. جنوباً شاهد أوغسطين أبنية قليلة تتوسط حدائق وعرف لاحقاً أنها حمّامات، وخلفها أقيمت خيم الفرقة العاشرة، وامتدت مِساحة أخرى فارغة على سطح الجبل محمية بالسور لمسافة تفوق حجم المدينة.

ترك أوغسطين حصانه لدى سائس المعبد، وتمشى ببطء حول البناء من الخارج وهو يعد خطواته. تأكد بسرعة أن مِساحة هيكل سليمان كما وردت في التوراة أقل بكثير جداً من هذا البناء، إذ حُدِّدت بتسعين قدماً طولاً وثلاثين عرضاً، وهذا المعبد أكبر أقله بخمس مرات. ما ذاك الهيكل الذي للرب يبنيه ملك خضعت له دول الأرض وتسير السفن بذهبه وكنوزه، ولا تتجاوز مِساحته الثلاثين ذراعاً طولاً وعشر أذرع عرضاً؟ سأل أوغسطين نفسه ومر بخاطره أن هذه المِساحة لا يمكن أن تتسع إلى ألف رجل يقفون متراصين ملتصقين بعضهم ببعض. يبدو أن الذي اخترع قصة سليمان وهيكله كان شخصاً متقشفاً يقطن خيمة ومعدوم الخيال العمراني، ولكنه صاحب خيال اقتصادي وتجاري أسطوري. لم يعثر أي أحد في مكان ما على قطعة من العملة تشير إلى أن صاحبها هو سليمان أو أبوه. لو كانت لديه كنوز لظهر بعضها هنا أو في إحدى الدول التي يفترض أن سفن سليمان كانت تغدو وتجيء إليها محمّلة بالذهب والبضائع! بل إن اسم أو رسم أو أي ذكر لداود وولده لم تظهر في أي مكان طوال الألف ومائتي سنة الماضية. لو وجد يهود بابل الذين صاغوا التوراة أي دليل لغوي في مكتبات نينوى

وبابل أو الاسكندرية على وجود أشخاص الأسطورة لما تردّدوا في ذكرها، وخصوصاً أنّ غيرهم قد وجدوا مراسلات بين فرعون مصر وأمير شكيم الكنعاني تعود إلى الحقبة نفسها التي تحددها التوراة لوجود سليمان. أكمل أوغسطين دورته حول المعبد من الخارج، والتقاه الراهب قبل أن يغادر المكان سائلاً إياه إذا كان سيقدّم أي قربان. اعتذر إلى الراهب وشرح له أنه وصل تواً إلى إيليا ولم يستعد بعد لتقديم القربان، ولكنه سيعود في الغد، وسأله أين بوسعه المبيت الليله، فأرشده الراهب إلى أحد الحمّامات القريبة جداً التي توفر أماكن مبيت للحجاج والزوار، وتواعدا للغد.

هذه المدينة لا أثر فيها لليهود أو المسيحيين، لا معبد ولا أناس ولا أزياء تشير إليهم، ربما كان الوضع غير ذلك قبل ستين عاماً حين حرثت وبنيت مجدداً. لكن كيف يمكن إزالة كل الأثر العمراني لو كان هناك عمران ذو شأن؟ كان أوغسطين في طريقه إلى الحمام القريب من معبد جوبيتير وهو يجادل نفسه. تذكر أن روايات التوراة تقول بهدم نبوخذ نصر البابلي المدينة وسبي يهودها قبل سبعة قرون من الآن، وأن اليهود اختلفوا كثيراً فيما بعد حول بناء هيكل لهم وأين، ولم يرد في التوراة أثر ذلك أنهم أنجزوا المهمة، والمقاييس المذكورة في التوراة وما أصبح العهد القديم بالنسبة إلى المسيحيين، هي مقاييس هيكل سليمان الذي يُفترض أنه أُقيم قبل الهدم البابلي للمدينة بخمسمئة عام، وأنه صمد أمام الزمن والكوارث الطبيعية والزلازل حتى هُدم من الرومان مرتين، الأولى قبل مئة وثلاثة وعشرين عاماً، والثانية التي شملت هدم كل المدينة وحرقها قبل ستين عاماً. هذا اللامعقول يعني إما أن داوود وابنه سليمان أسطورة مخترعة من المدونين وإما أن عاصمتهم وهيكلهم وجدا في مكان آخر أكبر ولم يعد له أثر.

رحبت السيدة بضيفها على باب الحمّام، وقبل أن تتنحى جانباً عن

الباب شاهد أوغسطين تغير ملامح وجهها فجأة. استدار على الفور فإذا بالشهب تتساقط خارج السور، ترك حصانه عند الحمّام من دون ربطه وهرول حيث تساقطت الشهب. تسلق السور، وكان بعض جند الفرقة العاشرة قد سبقوه إلى هناك. شاهد كتلاً حجرية سوداً ضخمة قد حفرت الأرض بعمق والدخان يتصاعد منها. عاد إلى الحمّام مع اختفاء آخر أشعة للشمس، وشاهد معبد جوبيتير بوضوح، إذا اشتعلت مصابيح الزيت الخارجية والداخلية، وكثر الناس المتوجهون إلى المعبد، وعندما اقترب من باب الحمّام كانت السيدة قد خرجت مع آخرين وسألته إذا كان يرغب في مشاركتهم في التودد إلى جوبيتير. سار معهم إلى المعبد فلم يعد في الحمّام من يرشده إلى مكان نومه، كما أن رهبة دخلت قلبه، وتشكر في سرّه المسيح أن أحد هذه الحجارة لم يسقط على رأسه.

لم تكن صلوات الرومان غريبة عن أوغسطين، إذ كثيراً ما دخل معابدهم وهو صغير في طرسوس. تحلقوا جلوساً حول المذبح في ساحة المعبد يتمتمون بالشكر ويدعون أبا الآلهة، جوبيتير، لاستمرار حمايتهم مما ترسله السماء من رعد وعواصف وبرق وحجارة. جاء تجمعهم للحماية من سخط السماء عفوياً، بعضهم حمل معه تضحية بسيطة مما يوجد في البيت مثل الحليب أو السمن أو فواكه، أي شيء له علاقة بالحياة الحيوانية أو النباتية يقبل كتضحية، لكن للتعبّد الرسمي لا بد من ذبح بقرة صغيرة السن لم تلد إلا مرة واحدة، وهذا ما سيحدث بالتأكيد في صباح اليوم التالي إذا استمرت حماية جوبيتير للمدينة هذه الليلة ولم يسقط عليها الكثير من الشهب. كل بيت روماني يحتوي على مذبح صغير خاص تقدّم له الأضحية حسب الحاجة كل يوم. يضحّون ويدعون بالخير لصديق أو بالنقمة على خصم أو بالشكر على نعمة، ولكل بيت إله خاص محبب يوضع تمثاله

الصغير قرب المذبح، لكن كل أسبوع يجتمعون في المعبد، أو حين تدعو الضرورة كما هي الحال اليوم.

لم يشعر أوغسطين بما جرى لاحقاً، إذ عاد من المعبد مع جماعة الحمام سارح الذهن، يفكر في شأن الإنسان والدين والآلهة. لقد انجرّ مع القوم وذهب إلى المعبد إذ أصابه قلق حين شاهد تساقط الشهب، وفرح في قرارة نفسه أن الأذى لم يلحق به. صلّى معهم حضوراً وهو يعرف أن الصلاة هي التي تخلق الآلهة، وحين لا يصلي لها أحد فإنها تفقد قوتها وحضورها ثم ذاتها، فهذه الآلهة تكونت تدريجاً في رأس الإنسان عبر تناقل الأساطير عن أنصاف الآلهة وآباء وأمهات الآلهة التي تتقاتل وتتصالح وتتخطف وتقتل وتنعم وتنقم منذ أزمان بعيدة، نقلها الإغريق وحوّروها عمن سبقهم وها هم الرومان يفعلون الشيء نفسه. أما اليهود فحالهم لا يختلف كثيراً إذ نقلوا الأساطير ونسبوها إلى شخصيات بطولية يهودية، وها هي المسيحية تنشق وتعتمد كتاب اليهود الذين لم يتوقفوا عن الإضافة إليه وتطويره حتى الآن، بينما يكتب المسيحيون الآن كتباً تخصّهم معتمدين على نصائح تلاميذ المسيح وقصصهم.

مهما يكن فالجميع يخافون المجهول ويطلبون الحماية من آلهتهم المستنسخة بعضها عن بعض. الاختلاف يتألق بين الرعية، فكل يمجد ربه ويعتبره الأفضل والأصح ويناضل من أجل رفعته. الرومان هم الأكثر تسامحاً، فإذا قدمت العطاء لإلههم يمكنك أن تعبد إلهك الخاص سواء أكان رب اليهود أم مسيح النصارى. لكن اليهود يسعون لإبادة المسيحيين حتى لا يتغير الدين اليهودي، بينما المسيحيون يعتبرون أنفسهم الأحدث والأصح ويتهمون اليهود بالتزييف في كتبهم. والحقيقة أن اقتناع المسيحيين بقيام المسيح بعد صلبه وموته أعطاهم قوة هائلة لتحمل الشدائد والتعذيب

الذي لم يسكن عنهم قليلاً، إلا حين انشغل الرومان بثورات اليهود وتمردهم فوجدوا الفرصة للتنفس والشروع في كتابة كتابهم وجمع رسائل الآباء الأوائل ورواياتهم عن حقبة سيدهم المسيح، لقد تحولوا من الخوف والهروب إلى حب الشهادة ثم دينامية التطوير والتسجيل. جاء المسيح في البداية تلبية لما في التوراة من نبوءة، ونسبوه إلى داود مباشرة، ثم اعتبروه ابن الرب ليصبح مع أبيه والروح القدس ثالث ثلاثة، وفكرة التثليث هذه متوافرة في عدة أساطير فرعونية مثل إيزيس، وأخرى بابلية وإغريقية، تماماً كانتشار أسطورة حمل عذراء لابن الإله، مثل إله الفرس ميثرا الذي كان الرعاة هم أول من آمنوا به، علماً أن إيزيس وميثرا تعبدان في روما قبل انبثاق المسيحية من اليهودية بعدة قرون.

أرشدته فتاة جميلة إلى حيث سينام الليلة، كان مرهقاً ولم يسألها عن وضعها في الحمّام إذا كانت عاملة هنا أو ابنة للسيدة، شكرها وقرّر أن يستحمّ في الصباح. قبل أن يغمض عينيه تذكر زوجته الهادئة برباره وحبيبة قلبه ماري، ومرت أمامه صور وذكريات لمعارفه المسيحيات، لإخلاص بعضهن وحبّهن وتفانيهن في الأمومة وكيف أنهن يُشعرن الرجال دوماً بأنهم أطفال، وهن دوماً على حق، وعليك احترام القواعد البيتية الكثيرة والتزامها وخصوصاً ما يتعلق بالنظافة والنظام. تبسّم وهو يغفو، إذ ظن أن المسيحيات اكتسبن هذه الصفات كون رجالهن ممنوعين من الطلاق ومحرومين من تعدد الزوجات على عكس رجال اليهود المُحلل لهم أربع نساء، ورجال الرومان الذين لا قيود عليهم في ما تملك أيمانهم من الجواري والعشيقات.

أفاق باكراً بعد نوم طوال الليل، توجه إلى موقع الاستحمام، ولم يصادف أياً من العمال أو الزوار، باشر التمارين الرياضية حتى يعرق جسمه كخطوة أولى في متطلبات الحمّام، وقبل أن يجهد نفسه شاهد فتاة الأمس

وأخبرته أن بركة الحمّام الساخن ستبلغ درجة الحرارة المطلوبة مع انتهائه من التمارين، وأرشدته إلى موقع البركة. فكّر ماذا سيفعل إذا كانت هذه الفتاة الشابة هي التي ستدلك جسمه بزيت الزيتون المعطّر بعد خروجه عارياً تماماً من الحمّام الساخن. صعد من حدّة التمارين ليشغل ذهنه عن هذه الأفكار، ثم انطلق إلى بركة المياه الساخنة بعد إزالة بقية ملابسه. كان وحيداً في البركة ولم يسمع أي أصوات في الجوار، وهذا ما أشعره ببعض الغرابة كون الحمّامات تعج دوماً بالضجيج، أناس يتبادلون الحديث وأصوات ضرب على اللحم العاري أثناء التدليك، وتنبه دائم إلى الحاجيات خوفاً من أصحاب الأيدي الطويلة، فالحمّامات مفتوحة للجميع وفي الكثير من الأحيان يمكن استعمالها مجاناً. لكن هنا الاجواء مختلفة تماماً عما يعرفه أوغسطين عن حمّامات المدن الكبيرة. تنبه إلى تلويح الفتاة بيدها، وأخبرته أن الوقت مبكر على دوام بقية العمال، وأن بوسعها أن تنظفه وتنهي معه مرحلة التدليك. وافقها وتحرك في الماء حتى صعد على الدرجات، مغطياً ما بين رجليه بيده اليسرى وتناول منها فوطة، وأخذ ينشف جسده وقد أدار لها ظهره. انبطح على بطنه فوق دائرة مرتفعة من البلاط، يمكن أن تتسع لعشرين جسداً، وباشرت الفتاة تنظيف ظهره بخشبة مغطاة بقماشة تستبدل في العادة لكل زائر. تجاذبت الفتاة معه أطراف الحديث عن شهب الأمس، وعرف منها أن الصلاة هذا الصباح ستكون شاملة، وأن عذارى المعبد قد خبزن في الليل وسيغمس خبزهن في دم العجل بعد قطع رأسه. طلبت منه الاستدارة على ظهره لاستكمال عملها، فوضع المنشفة بين ساقيه وأيدها برأسه حين سألته إذا كان منذ زمن على سفر. أكملت الفتاة عملها وصبّت عليه الماء ثم دلكت كل جسده بزيت الزيتون المعطّر، ولم يعترض على عملها حتى نهايته، فذهب مسترخياً إلى بركة الماء الفاتر، وانتقل بعد وهلة

قصيرة إلى البركة الباردة كآخر وأقصر إجراء. كان بوسعه بعد ذلك الانتقال إلى مسبح كبير، أو الاستلقاء وتناول المشروبات، ولكنه قرر ارتداء ملابسه والخروج للتجوال في المدينة ثم العودة إلى المعبد قبل أن يمتلئ بالمصلين.

قصد حانة الجند التي لاحظها بالأمس على تقاطع الطريق، كانت معظم المحال لا تزال مغلقة وحركة الناس قليلة، فاختار أن يتناول إحدى وجبتي اليوم باكراً في الحانة، إذ شعر بذلك النهم للطعام الذي يغالبه كلما جامع زوجته. شاهد جندياً منكفئاً على طاولة وآخر يتمدد على الأرض، فجلس بعيداً عنهما ونادى بصوت مرتفع حتى يسمعه النادل. سمع صرير الباب يفتح ويغلق، وقبل أن يستدير جاءه صوت تذكّره من الأمس: «صباح الخير أيها المواطن». وقبل أن يرد أوغسطين التحية، أكمل السنتوريون: «..أنت محظوظ أنك لم تؤكد شهادتك لمصلحة اليهود بالأمس». استدار أوغسطين إلى الرجل مشيراً بالتحية. «لقد قرر التريبيون انتزاع الحقيقة منهم، فثبت أنهم مواطنون بالفعل ولكنهم من يهود أنطاكية، وليسوا من بيت جبرين». لم يسأل أوغسطين عما جرى لهم وكيف اتضحت الحقيقة وما سيؤول إليه مصيرهم.

«إنني محظوظ بالفعل أن الشهب لم تسقط على رأسي بالأمس، وسأرى بعد قليل ما يمكنني شراؤه لتقديم قربان إلى جوبيتير». أراد أوغسطين تحويل النقاش عن قضية اليهود حتى لا ينتقل محادثه إلى السؤال عن أحواله، وقد أنقذه حضور النادل فطلب جبناً ولبناً وزيتاً مع الخبز، وطلب من النادل إحضار الطعام للسنتوريون، ولكن هذا شكره ورفض كون الوقت لا يزال مبكراً على الوجبة الأولى، وأيقظ الجنديين بركل من قدمه ليفيقا وغادر ثلاثتهم الحانة.

لم يكن أوغسطين أول الواصلين إلى المعبد، فقد سبقه عائلات جند متقاعدين وغيرهم ممن يبدو عليهم ضيق الحال. توجه إلى الراهب مباشرة

سائلاً إياه إذا أراد أي مساعدة، لكن هذا أخبره أن كل شيء جاهز وأن لكل مهمة رجالها، «حتى العرّاف، الأوغر، حضر باكراً ليدرس أمعاء العجل».

«هل خبرت من تجربتك أن رؤية الأوغر صادقة بنسبة عالية؟»

«هو يصدق كثيراً، ولكنه أحياناً يهرب إلى رؤية مستقبلية بعيدة الأجل، ولن نعيش لنرى النتيجة». أجاب الراهب بصراحة لم يتوقع أوغسطين سماعها من رجل دين.

«هل يمكن أن نطلب منه اليوم رؤية قصيرة الأجل وأخرى بعيدة؟»

«إذا أردت رؤية خاصة بك يستخلصها من بطن هذا العجل، فعليك أن تدفع جزءاً كبيراً من ثمنه، وبالطبع سيطلب الأوغر منك بديلاً هو الآخر».. صمت الراهب ولم يستنكر أوغسطين الأمر، فأشار الراهب إليه أين يجد الأوغر ليذهب ويتفق معه على البديل.

«رؤية الأوغر العامة والمستقبلية تخص الجميع، أما أنا فسأدفع لك وله ثمن الجزء الخاص بي، إذا رأى ما ينطبق على وضعي، وعليك التفاوض معه ولكني لن أدفع لكما أكثر من ديناريوس واحد».

«بل اجعلها أوريوس واحداً، أي ديناريوس من ثمن العجل وديناريوس للأوغر بدل تخصيصه جزءاً من الرؤية لك شخصياً». وافق أوغسطين على نتيجة التفاوض وصافح الراهب وذهبا معاً وأخبرا الأوغر بالاتفاق وبالطلب.

وصل العجل إلى المذبح وكان قادة المدينة وعائلاتهم قد احتلوا الصف الأول، ووقف ثلاثة رجال يحملون السكاكين قرب العجل، بينما اعتلى الراهب منصة بين المذبح والمحرقة ورفع يديه في إشارة لإسكات الحضور، ثم حجب رؤية عينيه بربطة قماش خاصة حتى لا يرى أي سوء أثناء القداس، وعزفت العذارى على القيثار حتى لا يسمع الراهب أي شيء قبيح أثناء تمتماته التي لم يفهم منها أوغسطين أي شيء، فهي أقرب إلى النغم

المنخفض منها إلى كلام يراد له الفهم. قبل أن ينتهي الراهب من طقوسه انقض الرجال على العجل فذبحوه حتى قطعوا رأسه وجمعوا كل دمائه في وعاء حجري، ثم صبوا في الوعاء نبيذاً وقطعوا خبزاً من صنع العذارى ورموه على الخليط، وحينها كف الراهب عن تراتيله وأزال العصبة عن عينيه بينما استمر العزف الموسيقي.

فُتح بطن العجل وأخرج الأوغر قلبه وكبده وناولهما إلى الراهب الذي وضعهما بدوره على المحرقة وأشعل الحطب المُعد سلفاً لهذه الغاية. طلب الأوغر من الرجال الثلاثة الحفاظ على العجل مُسجّى على ظهره وقوائمه في الهواء، وأخذ ينظر إلى ما في داخل بطنه، ثم طلب منهم إمالته إلى أحد الجانبين وواصل التأمل، ثم أداروه إلى الجانب الآخر قبل أن يعيدوه إلى الوضع الأول على ظهره، فأخذ الأوغر يدخل يديه إلى بطن العجل ويتلو توقعاته وسط إنصات تام من الحضور.

«قريباً سيعمّ الحزن الإمبراطورية».. توقف الأوغر وحرك يديه في بطن العجل ولم يرفع عينيه عما تفعل يداه. «سيكون يوم الحزن آخر هذا الشهر».. الذي يطابق آخر العام أيضاً. توشوش بعض الحضور أن الإمبراطور الشاب سيموت في ذلك اليوم، وعلى الأرجح سيموت مسموماً أو مطعوناً من أحد المقربين إليه. «الحزن لن ينتهي ذلك اليوم، أرى فوضى تدوم بعض الوقت». واصل الأوغر تحريك الأمعاء في بطن العجل بحثاً عن المزيد. تأكد أوغسطين أن الرجل بالفعل يقصد موت الإمبراطور قتلاً، وأن الفوضى كالعادة ستعم وربما تتطور الأمور إلى حرب أهلية كما حدث في الماضي، كلما قُتل إمبراطور مكروه من الشعب، وكمودس هذا أكثر من الشكوك فيمن حوله وقتلهم تباعاً ولا يستبعد أن يتغذى بعضهم به الآن قبل أن يتعشى بهم، والشعب عموماً يُحمّله مسؤولية إحراق روما ومعابدها لأنه أغضب الآلهة.

لكن قتل أمبراطور شاب معناه دوماً صراع على السلطة بين القتلة وبين الطامعين من الحاشية أو الجيش.

«ماذا ترى عن اليهود، هل سينقرضون؟» جاء السؤال من متصرّف المدينة الذي يجلس في الصف الأول بين مسؤولي الفرقة العاشرة وبعض أعيان المدينة، ثم أضاف: «إنهم سبب البلاء ولا يكفّون عن الطلب من آلهتهم إلحاق الأذى بروما». لم يكن من الطبيعي أن تطرح أسئلة وتعليقات أثناء تبصر الأوغر، لكن هذا السائل أراد تحويل التوقعات عن الاحتمالات السياسية حفاظاً على الأمن وتجنباً للنقد إذا انتشرت الإشاعات في مدينته وخرج منها توقعات لموت قريب للإمبراطور، ولم يكن الأوغر غبياً إذ تجاوب فوراً مع السؤال.

«اليهود لا ينقرضون. طبيعة دينهم تؤهلهم للاستمرار في أسوأ الظروف ولأطول الفترات، كما أنهم مؤهلون للتمرد والتسلط حين تتاح لهم الفرص. لا يوجد لديهم تقبل لفكرة الاستشهاد مثل المسيحيين».. تريث الأوغر في التحليل السياسي وحرّك يديه مجدداً في بطن العجل. «من الآن وعبر قرون زمنية طويلة قادمة لن تقوم لليهود قائمة. سوف يعيشون في ذلّ متفرقين في البلاد كما هم الآن، وسوف يقوى عليهم المسيحيون وديانات أخرى جديدة قادمة، وستسوء سمعتهم وسيحاول إمبراطور مسيحي إبادتهم، ولكنه يفشل ويتسبب شروعه بالإبادة في إحياء اليهودية بدل هزمها». لم يظهر أي تأثر على الحضور من توقع استمرار الذل على اليهود كما الوضع الآن، فهم متفرقون في مدن الإمبراطورية ومحرومون من دخول بعضها، لكن مقولة الأوغر عن صعود إمبراطور مسيحي أثارت بعض علامات الاستغراب على وجوه الحضور. عبقت الأجواء برائحة المشويات المحروقة، وتدخل الراهب الذي كان يطرد الدخان عن عينيه وأبلغ الجميع أن لحم العجل

سيوزَّع بعد تقطيعه، وأن من يرغب في بعضه سيجده جاهزاً بعد قليل. بطح الرجال الثلاثة العجل على جنبه وواصل الأوغر عمله في الأمعاء ونظر إلى أوغسطين الذي اقترب منه حتى واجهه على الطرف الآخر من العجل.

«متى سيأتي هذا الإمبراطور المسيحي الذي يريد التخلص من اليهود؟»

«هل يهمك معرفة متى سيحكم المسيحيون أو متى تنتهي اللعنة عن اليهود؟» أشار أوغسطين إلى الأوغر بإصبعين، فأكمل مبتسماً وبصوت خافت: «أباطرة المسيحية سيراهم أحفادك، أما المسيحي الذي سيُحيي اليهود بمحاولته إبادتهم، فعهده لا يزال بعيداً جداً».

«هل أنت متيقن أنه سيكون لي أحفاد؟» سأل أوغسطين الرجل وهو ينظر إلى عينيه، فأكد له الأوغر ذلك بإيماءة من رأسه ثم عاد ينظر إلى أحشاء العجل. «ولكني لم أرزق أطفالاً حتى الآن».

«أعرف ذلك، ولكن مستقبلك سيكون في بلد آخر غير الذي تقيم فيه زوجتك، وسوف تتزوج امرأة غير عذراء وسترزق منها أبناء وبنات وسترى أبناءهم الذين سيرون ما أخبرتك به». لم يكرر الأوغر أنهم سيرون أباطرة مسيحيين حتى لا يسمعه بعض الزوار الذين اقتربوا منهم. نشطت الحركة وارتفعت أصوات الناس، بعضهم يغادر المعبد وآخرون يقدمون قرابين جلبوها معهم، وغيرهم يتجمهر لرؤية سلخ العجل وتقطيعه والفوز ببعض اللحم المقدس.

لم يعد أوغسطين يشعر بما يدور من حوله، تضاربت الصور في رأسه، وشعر بجسمه خفيفاً وظن أنه مخمور مُغيب. صافح الاوغر بعد أن وضع في يده قطعة النقود المتفق عليها. ماري لم تعد تزوره في الحلم منذ مدة، وندر أن يفكر فيها منذ نزوله في الميناء وصحبته للغزّي، لكن ماذا عن برباره؟ سأل نفسه، ولم يعثر على جواب إذا كانت قد رحلت عن الدنيا أو أنه سيرحل

عنها، ومتى وكيف؟ حاول أن يتذكر إذا كان ياخوس قد ذكر له اسم أخته، وتمنى لو كانت جميلة الملامح مثل أخيها. أغمض عينيه وبدأ يؤنب نفسه كيف استسلم بسرعة لأمانيه الخفية يتلوها عليه متنبئ وثني، وهو المسيحي التربية الذي لا يُقر بأي من الآلهة والأديان. نفض رأسه في محاولة لترتيب أولوياته: سأعود عبر شكيم لأودع ياخوس ثم أتوجه إلى قيصرية لاستعادة الصندوق والنقود، وانتظار حمولة النبيذ الغزّي. تعثّر الترتيب فلم يستطع الحسم إذا كان سيسافر إلى طرسوس مع بضاعته ويتفقد أحباءه هناك قبل الانطلاق مجدداً، أو أنه سيتجه فوراً من قيصرية إلى حيث سيكون أحفاده ويجدد أعماله في تصنيع الخيام، ولكن من شعر الجمال هذه المرة؟

«حافة النور» رواية ثلاثية متباعدة في الزمان متقاربة في المكان ومشتركة في الأصول والمراجع. قوامها الحب والحرب، معتمدة على أحدث ما توصل إليه علم الآثار من حقائق وعلى زخم ترجمة الألواح القديمة أخيراً، مما أصبح يؤكد تناقل الأساطير مع بعض التنقيح عبر آلاف السنين، والتي ما زالت ملاحقها الاجتماعية تتوغل في مجريات حياتنا. الرواية الأولى «صناعة الالهة» تدور أحداثها عام ٥٠٠٠ ق. م. حين أسس الذين خرجوا من الكهف مدينة وحضارة أوغاريت وباشروا الكتابة والتدوين. أما الرواية الثانية "قصص وأساطير" فتنتهي أحداثها عام ٥٢٥ ق. م. حين كان اليهود في بابل قد نشطوا يؤلفون التوراة نقلاً عن أساطير الأولين ويختلقون أسطورة الوعد الإلهي وبناء المعبد الذي فشل المنقبون اليهود حتى الآن في العثور على أي أثر ملموس له. كان الجيش الفارسي آنذاك يغزو مصر عبر غزة وسيناء. أما «أحفاد بولس» فهي الرواية الثالثة وتنتهي أحداثها عام ١٩٢ ميلادي، أي مع بداية انشقاق المسيحية عن اليهودية وقبل الاتفاق على محتوى الإنجيل بقرن ونصف قرن.

إنه الشرق، مهد الحضارات والأساطير والديانات والحروب، والذي كلما زحف سكانه إلى النور عادوا وانزلقوا إلى حافة الظلام. في هذه الثلاثية نعايش مشاعر البشر من حب وحقد وتطلع إلى الحماية الإلهية، ونطالع خفايا التاريخ واستمرار التزييف وتقبله آنذاك كما الآن، ونرى اللعبة السياسية مستنسخة عبر العصور.. فإذا كان الامبراطور كاليغولا قد عيّن حصانه تانتوس عضواً في مجلس الشيوخ، فإن تانتوس يبدو اليوم وكأنه هو الذي يعين الشيوخ.

عبدالجبار عدوان

- خريج دراسات عليا في العلوم السياسية والاجتماعية والاسلامية من جامعة هايدلبرج في المانيا.
- عمل طوال ربع قرن في مجالات إعلامية عدة اثناء إقامته في لندن، ونُشرت له ثلاثة كتب عن الانتفاضة الفلسطينية الاولى.
- صدر له أربع روايات عن دار الفارابي: «*راوي قرطبة* ٢٠٠٦» «*سياسة في الجنة* ٢٠٠٨» «*بومة بربرة* ٢٠١٠» و«*فتنة الكرسي* ٢٠١٣».





